الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الإسكندر
Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثاني

رمال آمون
Le Sabbie di Amon



فاليريو ماسيمو مانفريدي
VALERIO MASSIMO MANFREDI

الإسكندر
Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثاني

رمال آمون
Le Sabbie di Amon

الإسكندر

Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثاني

رمال آمون

Le Sabbie di Amon

تأليف

فاليريو ماسيمو مانفريدي

Valerio Massimo Manfredi

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة كتاب
Alexandros, Vol 2: Le Sabbie di Amon
by Valerio Massimo Manfredi
Alexander: The Sands of Ammon
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0126-5

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

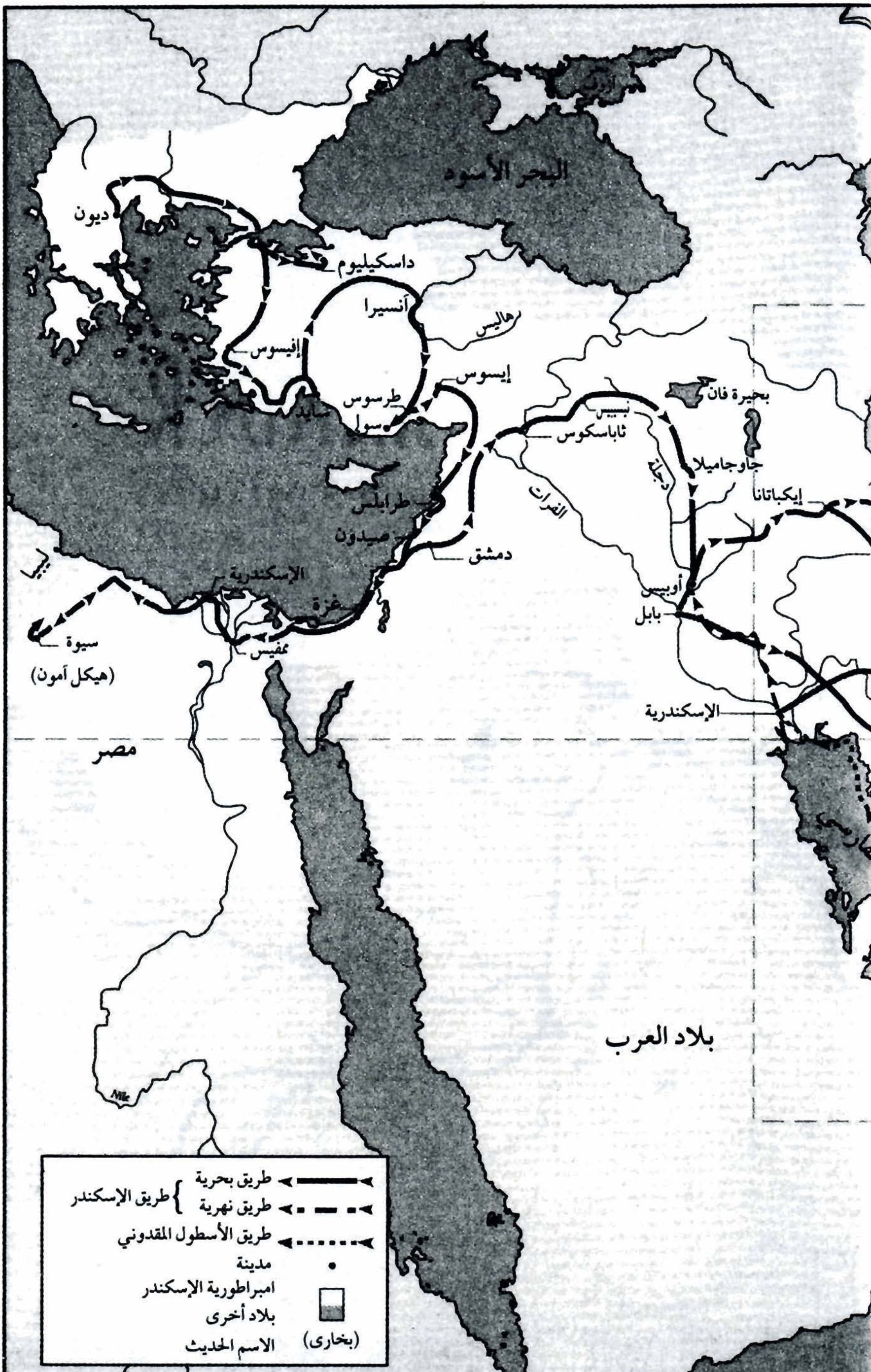
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

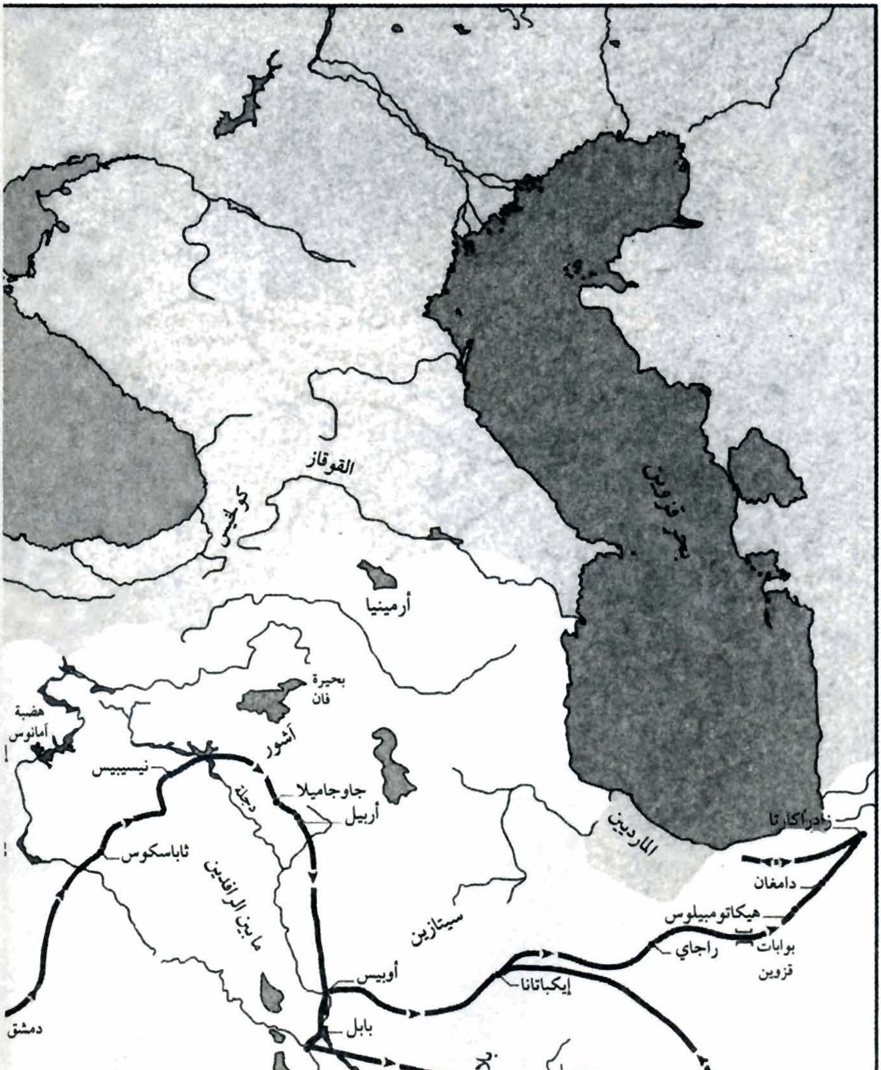
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى كريستين


بحيرة بلكاش
بحيرة اسيكول
الإسكندرية البعيدة
بخارى
صخرة كوريان
صخرة سوجديا
دراباسكا
باكترا زارياسبا
زادراكارتا
أورتوسبانا
إسكندرية آريا
تاكسيلا
سانجالا
برسوبوليس
الإسكندرية
كوكالا
باسني
جوادار
باتالا
الهند
بحر العرب
0 100 200 300 400 500 600
0 100 200 300 400 500 600
فتوحات الإسكندر



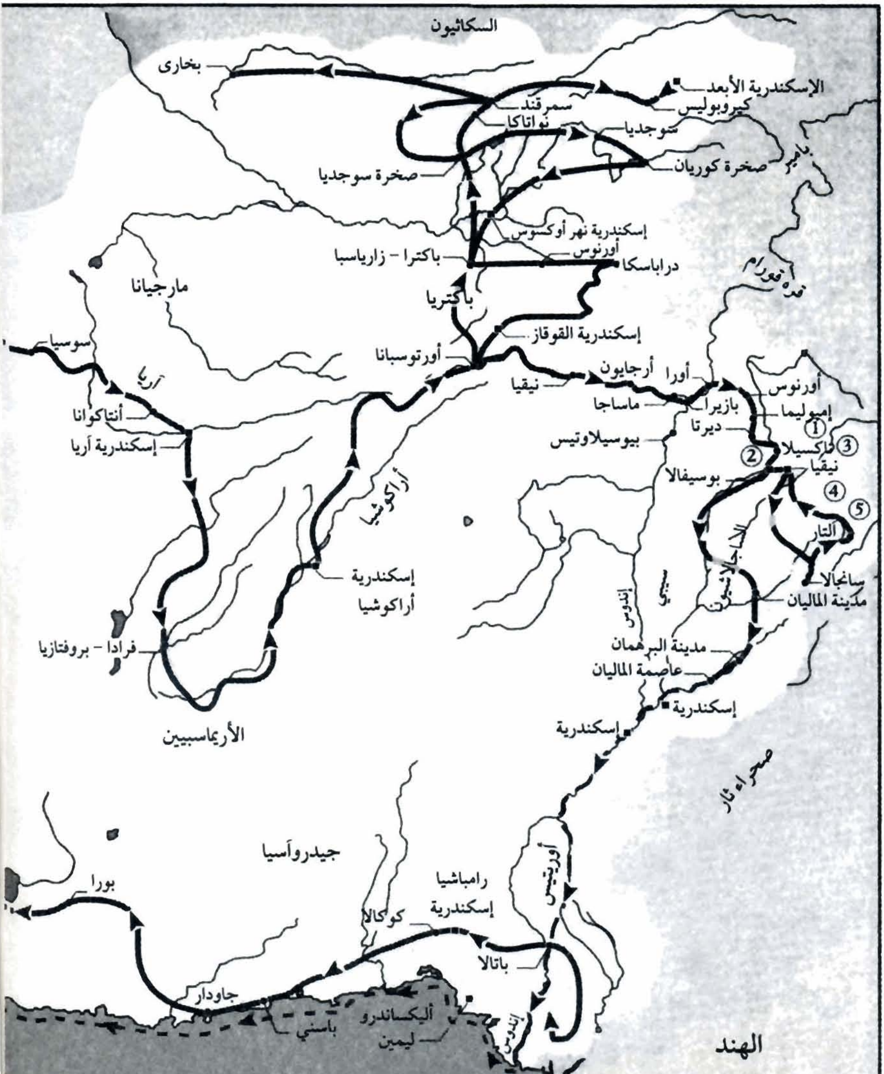
البحر الأسود
ديون
داسكيليوم
أنسيرا
هاليس
إفيسوس
إيسوس
طرسوس
سول
ثاباسكوس
بحيرة فان
جاوجاميلا
دجلة
الفرات
طرابلس
صيدون
دمشق
إيكباتانا
الإسكندرية
غزة
أوبيس
بابل
ممفيس
سيوة
(هيكل آمون)
الإسكندرية
مصر
بلاد العرب
طريق بحرية
طريق نهرية
طريق الإسكندر
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
الاسم الحديث
(بخارى)



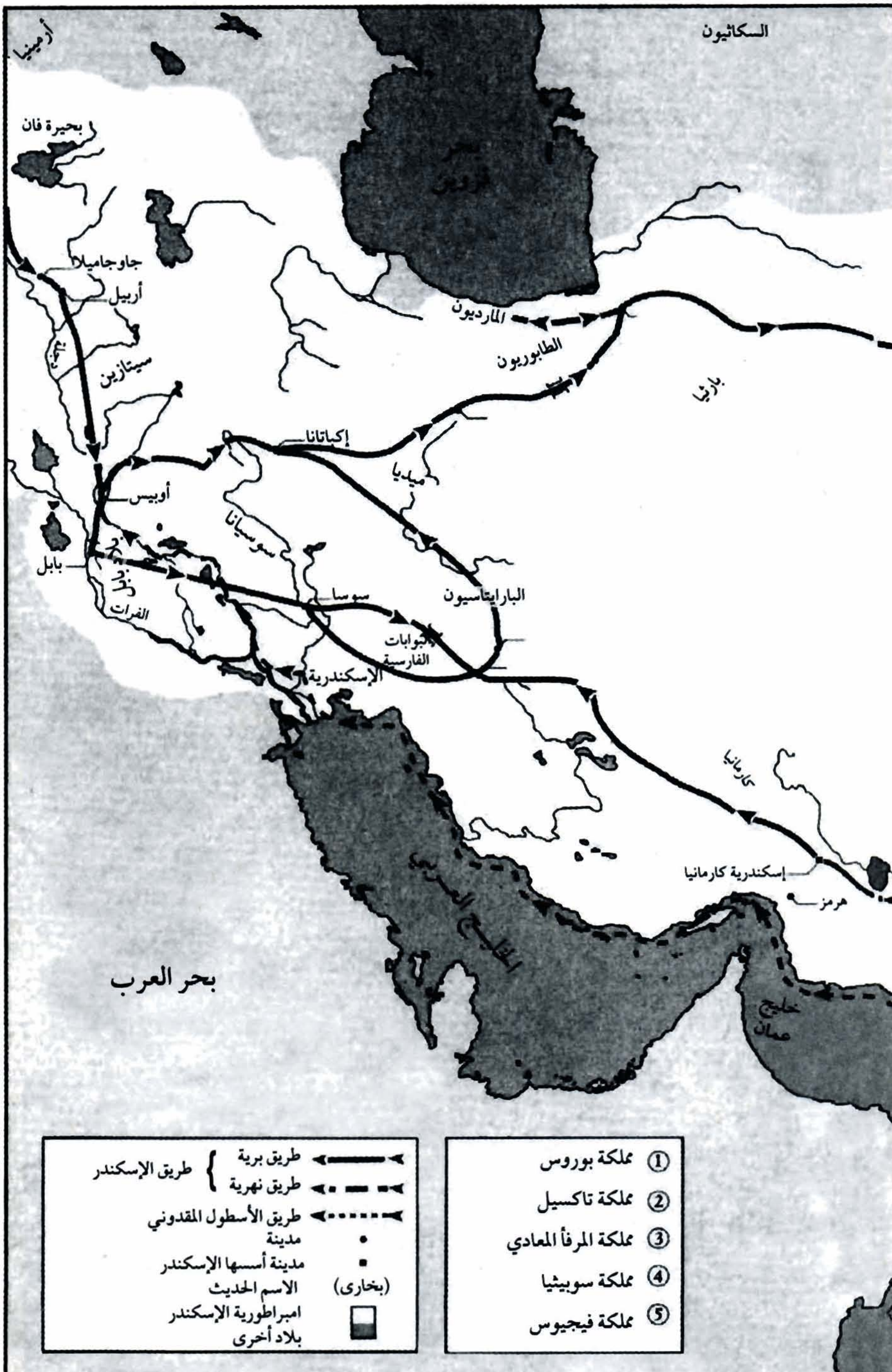
فتوحات الإسكندر (2)



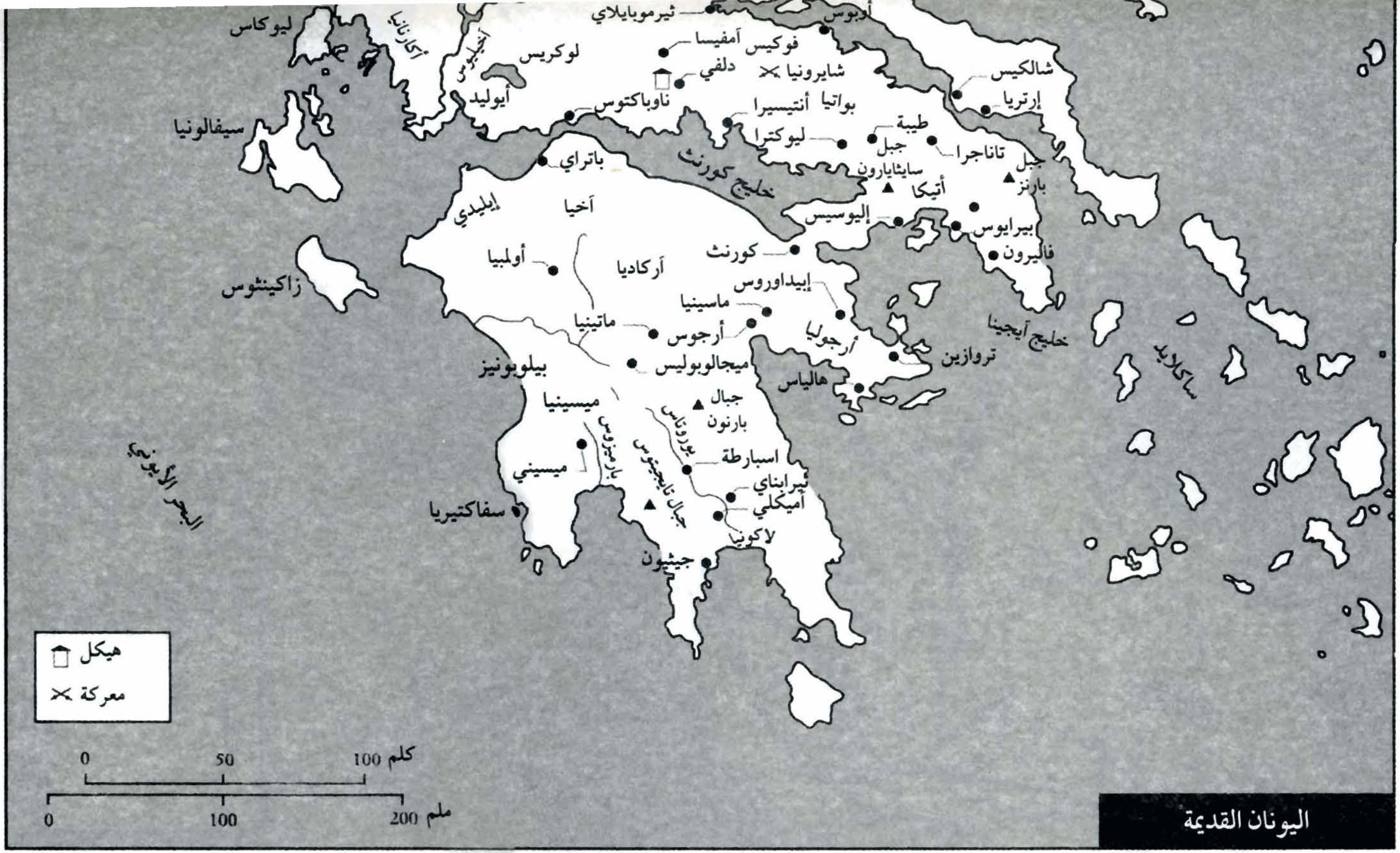
طريق الإسكندر
طريق برية
طريق نهرية
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
مدينة أسسها الإسكندر
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
بحر أزوف
جيتيا
التريباليون
الأودريون
البحر الأسود
مقدونيا
فيليبي
أمفيبوليس
بيلا
أبديرا
مارونيا
سيستوس
بيدنا
ديون
تيساليا
أيتوليا
هيليسبونت
أبيدوس
لامبساكوس
داسكيليوم
بافلاجونيا
أنسيرا
بونطوس
غورديوم
جالاتيا
ميسيا
ساردیس
فريجيا
أيونيا
ليديا
إفيسوس
هاليس
كبادوكيا
ميليتوس
كاريا
هاليكارناسوس
ساجالاسوس
أسبيندوس
ليشيا
بوابات قيليقيا
زانثوس
طرسوس
سولي
فاسيليس
سايد
رودس
كريت
البوابات السورية
قبرص
أرواد
طرابلس
جبيل
صيدون
صور
فينيقيا
البحر المتوسط
ليبيا
فلسطين
غزة
بارايتونيوم
الإسكندرية
ناوقراطيس
بيلوسيوم
ممفيس
سيوة
(هيكل أمون)
مصر



فتوحات الإسكندر (3)



أرمينيا
السكائيون
بحيرة فان
جاوجاميلا
أربيل
ميتازين
الماردیون
الطابوريون
بارثيا
إكباتانا
ميديا
أوبيس
سوسيانا
بابل
الفرات
البارايتاسيون
سوسا
البوابات الفارسية
الإسكندرية
كارمانيا
إسكندرية كارمانيا
هرمز
بحر العرب
خليج عمان
طريق برية
طريق نهرية
طريق الإسكندر
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
مدينة أسسها الإسكندر
(بخارى) الاسم الحديث
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
① مملكة بوروس
② مملكة تاكسيل
③ مملكة المرفأ المعادي
④ مملكة سوبيثيا
⑤ مملكة فيجيوس


اليونان القديمة
هيكل
معركة
0
50
100 كلم
0
100
200 ملم
ليوكاس
أكارنانيا
لوكريس
ثيرموبايلاي
أوبوس
فوكيس
آمفيسا
دلفي
شايرونيا
ناوباكتوس
أيوليد
بوانيا
أنتيسيرا
ليوكترا
طيبة
جبل
سايثايارون
تاناجرا
شالكيس
إرتريا
جبل
بارنز
أتيكا
سيفالونيا
باتراي
خليج كورنث
إليوسيس
بيرايوس
فاليرون
آخيا
إيليدي
أولمبيا
أركاديا
كورنث
إبيداوروس
زاكينثوس
ماسينيا
ماتينيا
أرجوس
أرجوليا
خليج أيجينا
ساكلايد
تروازين
بيلوبونيز
ميجالوبوليس
هالياس
ميسينيا
جبال
بارنون
بارميزوس
يوروتاس
جبال تايجيتوس
اسبارطة
ميسيني
ثيرابناي
أميكلي
البحر الأيوني
سفاكتيريا
لاكونيا
جيثيون



تراقيا
دردانيا
مقدونيا
إيليريا
دريلون
أكزيوس
ستريمون
سيريس
ليكيندوس
بحيرة ليكنيتيس
بحيرة بريسبا
يورويوس
بواتيا
بيلا
جيفيرا
أيجيا
ميزا
بحيرة بوربورروس
جبل بانجايوس
أمفيبوليس
ثيرماي
شالسيديس
جبل كالاوروس
أولينثوس
شالسيديس
جبل آثوس
أورديا
إبيروس
بيرويا
جبل بيرميون
هالياكمون
إيليميا
ميثون
بيبريا
ديوم
جبل أولمب
وادي تيمبي
بينيوس
جبل أوسا
لاريسا
جبل بيليون
بوثروتوم
جبل إيماروس
آتامانيا
أمفيلوشيا
تيساليا
أيتوليا
كورسيرا
خليج أرتا
بحر إيجة

1

التفت الإسكندر نحو الشاطئ من أعلى قمة في التلة، وراح يتأمل منظـــراً يماثل تقريباً ذاك الذي ظهر قبل نحو ألفٍ سنة. في ذلك الوقت اصـــطفّت مـــئات السفن على طول الشاطئ حاملة على متنها الآلاف والآلاف مـــن الجـــنود. لم تتحضر المدينة التي ظهرت من ورائه؛ إليوم وريـــثة طروادة القديمة، لسنواتٍ طويلة من الحصار والمقاومة، ولكنها كانت تستعد لفتح أبوابها والترحيب بسليل آخيل وبريام.

رأى الإســـكندر رفاقـــه مـــتجهين نحوه على صهوات جيادهم، فـــنخس بوســـيفالاس في طريقه نحو قمة التلة. أراد أن يكون أول من يـــدخل ذلـــك الضريح القديم الذي أقيم تخليداً لذكرى أثينا طروادة، وأراد أن يكون وحيداً عند دخوله. ترجّل وسلّم زمام جواده إلى أحد الخدم، ثم عبر إلى داخل الهيكل.

ومـــضت أشياءٌ كثيرة داخل الظلمة السائدة في الهيكل، وهي التي كانت شبه محجوبة بتأثير الظلال المتساقطة عليها. لم تكن أشكال هذه الأشـــياء محددة بدقة، كما أن عينيه استغرقتا بعض الوقت لتعتادا على العـــتمة بعـــد أن تحملـــتا السماء المبهرة لمنطقة طروادة، والتي كانت تتوسطها شمس الظهيرة.

امـــتلأ ذلـــك البـــناء القديم بالآثار، وبالأسلحة المعروضة تخليداً لذكرى الحرب التي وصفها هوميروس في ملحمته التي كتبها عن حصار المدينة التي بَنَتها الأسياد ذاتها، والذي دام عشر سنوات. رأى على كل مـــن هـــذه التذكارات القديمة نقشاً يمجده. رأى كتاباتٍ مثل: *قيثارة*

بـــاريس كانت هنا، وكذلك أسلحة آخيل ودرعه العظيم ذو الطبقات العديدة.

تطلـــع حوله، واستقر بصره على تلك التذكارات التي أبقتها أيدٍ غير مرئية لامعةً وجديرةً بتقدير الوافدين ونظراتهم الفضولية على مدى القـــرون المتعاقـــبة. تـــدلت هذه التذكارات من الأعمدة، ومن ألواح الـــسقف الخشبية. لكن، كم من هذه التذكارات كان حقيقياً؟ وكم كان سهلاً على رجال الدين استغلال هذه المصنوعات في سبيل تحقيق غاياتهم الخاصة؟

شعر في تلك اللحظة أن الشيء الأصلي الوحيد وسط هذا الخليط غـــير المرتّب، والذي يشبه السلع المعروضة في الأسواق أكثر مما يشبه زيـــنة هـــيكل، هـــو حنينه الذي يشعر به تجاه ذلك الشاعر الأعمى، وإعجابـــه الذي لا حدّ له بالأبطال الذين تحولوا إلى رماد بفعل الزمن، وبفعل الأحداث التي لا حصر لها والتي حدثت بين شواطئ المضائق.

وصـــل على نحوٍ مفاجئ، أي مثلما فعل والده فيليب ذات يوم عـــندما ظهر فجأة في معبد أبولو في دلفي، ومن دون أن يكون أحد في انـــتظاره. سمـــع وَقـــعَ بعض الخطوات الخفيفة، فاختبأ وراء أحد الأعمدة قرب تمثال أثينا، وهو تمثالٌ رائع منحوت من الصخر ومطلي بألـــوانٍ متعددة، ويحمل أسلحة معدنية حقيقية. نُحتت هذه المنحوتة البدائـــية من صخرة واحدة داكنة اللون. أما عينا المنحوتة اللؤلؤيتان فتبرزان بوضوح في ذلك الوجه الداكن بفعل السنين، ونتيجة لدخان مصابيح النذور.

تقـــدمت فـــتاة ترتدي رداءً فضفاضاً عند الخصر، وتجمع شعرها تحـــت غطاء رأسٍ باللون ذاته، نحو التمثال. حملت الفتاة دلواً بإحدى يديها وإسفنجة باليد الأخرى.

صعدت الفتاة إلى ركيزة التمثال، وبدأت بتنظيفه. وهكذا، انتشرت في أرجاء الهيكل رائحة عطر الصبّار والعنبر النفّاذة خلال أدائها عملها هذا. وتحرك الإسكندر نحوها بصمت.

سألها: "من أنتِ؟".

قفزت الفتاة من مكانها، فسقط الدلو من يدها، وراح يتدحرج على الأرض قبل أن يستقر قرب أحد الأعمدة.

طمأنها الملك بالقول: "لا تخافي، ما أنا إلا وافد يسعى إلى تبجيلها. من أنتِ؟ ما اسمكِ؟".

أجابت الفتاة الصغيرة التي أخافها ظهور الإسكندر الذي لا يتوقع المرء رؤيته بصفته وافداً عادياً: "اسمي دوانيا، وأنا إحدى العبدات المبجلات". التمع الدرع على صدر الإسكندر، والدروع الواقية للساقين من تحت عباءته. وعندما تحرّك، صدرت أصوات من سلسلة حزامه المدرع لدى اصطدامه بدروعه الأخرى.

"عبدة مبجلة؟ لم أكن لأتخيّل ذلك أبداً. ملامحك أرستقراطية رائعة، كما أن الفخر موجود في عينيك".

"أظن أنك تعودت أكثر على رؤية عبدات أفروديت المبجلات، فلقد كنّ عبدات بالفعل لشهوات الرجال قبل أن يصبحن مبجلات".

رفع الإسكندر الدلو عن الأرض وسألها: "وأنتِ، ألستِ كذلك؟".

"إنني عذراء مثل أثينا. ألم تسمع بمدينة النساء؟ لقد أتيتُ منها".

تكلمت الفتاة بلهجة غير معتادة لم يسمعها الملك من قبل.

"لم أسمع بمكانٍ يُقال له مدينة النساء. أين تقع هذه المدينة؟".

"إنها في إيطاليا. وهي تحمل اسم لوكري. أسّستها مئة عائلة تتحدّر من لوكريس في اليونان. كان معظم أفراد هذه العائلات من الأرامل، وقد ذُكِر في الأسطورة أن النساء أقمن علاقات مع عبيدهن".

"ولماذا أنتِ هنا بعيدة جداً عند مدينتك؟".

"أنا هنا كي أكفّر عن خطيئة".

"خطيــئة؟ لكن ما هي الخطيئة التي يُمكن لفتاةٍ في مثل سنّك أن ترتكبها؟".

"لم تكــن خطيئتي. أقدم آجاكس أوليوس، وهو بطلنا القومي، ومــنذ ألــف سنة مضت، على اغتصاب الأميرة كاساندرا ابنة بريام هــنا فــوق هــذه الركيــزة التي تحمل البالاديوم المبجل، والتي تمثّل صــورة عجائبية عن أثينا التي سقطت من العلى، وذلك ليلة سقوط طــروادة. ومنذ ذلك الحين، اعتاد سكان لوكريس على التكفير عن خطيئة آجاكس لتدنيسه المبجلات عن طريق تقديم صبيتين من أرقى عائلاتهم الأرستقراطية. وتقوم الصبيتان بخدمة ضريح الأسياد لمدة سنةٍ كاملة".

هــزّ الإسكندر رأسه وكأنه عاجز عن تصديق ما يسمعه، وتطلع حــوله بينما كانت حجارة الباحة في الخارج تهتز بفعل حوافر الجياد، فعرف أن رفاقه قد وصلوا.

في تلــك اللحظة بالذات، دخل رجل دين الهيكل، وعرف على الفور هوية الرجل الذي يقف أمامه، فانحنى بكل احترام.

"أهــلاً بــك أيهــا الــسيّد المبجّل. إنني آسف لأنك لم تعلمنا بوصــولك، وإلا كنا حضّرنا لك استقبالاً مختلفاً". وأومأ إلى الفتاة كي تنصرف، لكن الإسكندر أشار إليها أن تبقى.

قــال الإســكندر: "فضّلت الوصول بهذه الطريقة. أخبرتني هذه الفــتاة قــصة غريبة، وشيئاً لم يكن بمقدوري أن أتخيّله على الإطلاق. سمعت أنه في هذا المعبد بالذات توجد بقايا من زمن حرب طروادة. هل هذا صحيح؟".

"إنــه صـــحيح بكل تأكيد، فهذا التمثال الذي تراه أمامك هو البالاديوم، وهو صورة طبق الأصل عن تمثال أثينا القديم الذي سقط من العلى، ووهب المدائن التي تجعله من ضمن ممتلكاتها نعمة المنعة".

في تلــك اللحظــة بالذات، دخل كلٌ من بطليموس وبيرديكاس وسلوقس إلى الهيكل.

ســأل هيفاســتيون مــا إن اقتــرب أكثر: "وأين هو التمثال الأصلي؟".

"يقــول بعــضهم إن البطل ديوميديس نقله إلى آرغوس، ويقول آخــرون إن يوليسيس توجّه إلى إيطاليا وأعطى ملكها إيّاه، لاتينوس. فــيما يصرّ آخرون على أن آينياس وضعه في هيكلٍ لا يبعد كثيراً عن روما، حيث لا يزال موجوداً هناك. ومع ذلك، توجد مدن عدة تدعي أنها تمتلك التمثال الأصلي".

قال سلوقس: "أصدّق هذا، لأن هذا الاعتقاد لا بد من أن يكون مصدراً كبيراً للشجاعة".

أومــأ بطلــيموس: "هذا صحيح، لأن أرسطو كان سيقول إن الاعتقاد والتوقع يولّدان الحدث بالفعل".

سأل الإسكندر: "لكن، كيف نتمكن من تمييز البالاديوم الحقيقي عن التماثيل الأخرى؟".

قال الكاهن بكل ثقة: "إن التمثال الحقيقي يستطيع إغلاق عينيه، وتحريك رمحه".

قال بطليموس: "ليس ذلك بأمرٍ يقتصر على تمثالٍ واحد. إن أي مهندسٍ من مهندسينا العسكريين يستطيع بناء دمية من ذلك النوع".

حدجه رجل الدين بنظرة استنكارٍ، حتى إن الملك هزّ رأسه: "هل هذا ما تعتقده يا بطليموس؟".

وضع بطليموس يده فوق مقبض سيفه وقال: "أجل، بالطبع. أثق بهـذا". ووضـع يـده الأخـرى فوق كتف الإسكندر وقال متابعاً: "بالإضافة إلى الصداقة".

قـال رجل الدين: "حصلت هذه التذكارات التي ترونها هنا كلّها علـى التبجيل داخل هذه الجدران منذ وقتٍ طويل، كما أن تلك التلة الواقعة إلى جانب النهر تحتفظ بعظام آخيل، وباتروكلوس، وآجاكس".

تـناهت إلى أسمـاع الحاضرين وقع خطوات. وسرعان ما انضمّ إليهم كاليستين في زيارة ذلك المعبد الشهير.

مـشى بطليموس نحوه وطوّقه بذراعه: "وماذا تفهم من ذلك كله يـا كاليستين؟ أتعتقد فعلاً أن هذه هي دروع آخيل بالفعل؟ وأن هذه القيـثارة المعلقـة على ذلك العمود هي قيثارة باريس بالفعل؟". ولمس الأوتار فأصدرت الآلة صوتاً غير متناغم.

بـدا أن الإسكندر قد كفّ عن سماع ما يدور حوله من حديث، لأنه كان يحدّق إلى تلك الفتاة الآتية من لوكريس، والتي كانت منشغلة بتعبـئة المصابيح بالزيوت المعطرة. راح يتأمل تناسق جسمها المثالي من خـلال قمـاش ردائها الشفاف حين مرّ شعاعٌ من الضوء من خلاله. وشـعر أنـه أسير تلك النظرة الغامضة التي تشعّ من عينيها الخجولتين والوديعتين.

أجـاب كاليـستين: "أنـت تعرف جيداً أنه لا أهمية لكل هذه الأشـياء. يحتوي الهيكل الديوسكوري على بيضة معروضة يُفترض أن كاسـتور وبولـوكس – وهما شقيقا هيلين – قد وُلدا منها. أظن أنها بيـضة نعامـة، ذلك الطائر الذي يتواجد في صحراء ليبيا والذي يماثل الحصان في الطول. تمتلئ معابدنا بآثارٍ كهذه. أما الأمر المهم هنا، فهو أن الـناس يرغبون في التفكير بهذه الأمور بشدة، كما أنّهم بحاجةٍ إلى

ذلك بشدة، وبحاجةٍ إلى أن يحلموا". والتفت إلى الإسكندر بينما كان يتكلم هكذا.

اقتـــرب الملك من الدرع البرونـــزي العظيم، والمزيّن بالقصدير والفـــضة، وراح يمسّد بلطف ذلك الدرع ذا النقوش البارزة التي تمثّل المـــشاهد التي وصفها هوميروس، وكذلك فعل بالخوذة ذات الرؤوس الثلاثة.

طـــرح الإسكندر السؤال على رجل الدين: "وكيف وصل هذا الدرع إلى هنا؟".

"أحـــضره يوليسيس إلى هنا، وذلك بعد أن شعر بتأنيب الضمير لأنه أنكر حق آجاكس به، ثم وضعه على الضريح كهدية ونذر، وناشد آجـــاكس كي يساعده على العودة إلى إيتاكا. جُمع الدرع بعد ذلك ووُضع في هذا الهيكل".

اقترب الإسكندر من رجل الدين خطواتٍ أخرى قائلاً: "أتعرف من أنا؟".

"أجل. أنت الإسكندر، ملك مقدونيا".

"هـــذا صحيح، وأنا أتحدّر من جهة أمي من بايروس، ابن آخيل الذي أسّس مملكة إيبيروس، وهكذا أكون أنا وريث آخيل. وهذا يعني أن هذا الدرع ملكي، وأنا أريده".

هرب اللون من وجه رجل الدين وقال: "لكن، يا مولاي...".

فـــصاح بطلـــيموس، وقال بعد أن رسم ابتسامة عريضة على وجهـــه: "ما هذا؟ أتريدنا أن نصدّق أن هذه هي قيثارة باريس، وأن هذه هي أسلحة آخيل التي صنعها السيّد هيفايستوس بيديه، لكنك لا تـــريد أن تـــصدّق أن ملكـــنا يتحدر مباشرة من سلالة آخيل، ابن بيليوس؟".

راح رجل الدين يتمتم: "آه، كلا... إن الأمر ببساطة هو أن كل هذه الأشياء هي تذكارات مبجلة، ولا يمكن أن...".

قـــال بيرديكـــاس: "ما هذا الهراء. يمكنك أن تأمر بصنع أسلحة مماثلـــة، ولن يتمكن أحد من ملاحظة الفرق. إن ملكنا يحتاج إليها. ألا تعـــرف أنه بما أن الأسلحة تعود إلى أجداده..."، وفتح ذراعيه، وكأنه يريد أن يقول: "إن الإرث هو الإرث".

عندها، أصدر الإسكندر أوامره: "أريد أن تُنقل هذه الأسلحة إلى معسكرنا، وستُعرض أمام جيشنا قبل بداية كل معركة. انتهت الزيارة، وعلينا العودة".

غـــادر الحاضـــرون بتردد وهم ينظرون حولهم إلى تلك المجموعة الهائلة من الأشياء المتدلية من الأعمدة والجدران.

ولاحـــظ رجـــل الدين أن الإسكندر يلاحق بنظراته الفتاة عندما غادرت الهيكل من باب جانبـــي.

فهمـــس رجـــل الدين في أذنه: "إنها تذهب إلى البحر كي تسبح قرب مصب نهر سكامندر".

لم يقـــل الملـــك شيئاً عندما غادر المكان. و لم يطل الأمر قبل أن يشاهده رجل الدين وهو يمتطي صهوة جواده، ويتوجه به نحو المعسكر الـــذي أقيم قرب الشاطئ، والذي كان يعج بحركة تشبه تحرّكات نملٍ فوق تلة كبيرة.

رآهـــا الإســـكندر عـــند وصولها. كانت تمشي على ضفة النهر اليسرى بسرعة، وبرشاقة، وبثقة وسط الظلمة السائدة. توقفت الصبيّة عـــند نقطة امتزاج مياه نهرٍ سكامندر بأمواج البحر. كانت ليلة هادئة، تهـــيّأ القمر فيها للبزوغ من وراء البحر مرسلاً شعاعاً فضياً طويلاً امتد

من الأفق وحتى الشاطئ. خلعت الفتاة ثيابها، وحلّت شعرها تحت ضوء القمــر، ثم غطست في المياه. التمع جسمها الذي مسدته أمواج البحر، وكأنه رخامٌ مصقول.

قــال الإسكندر بهدوء بعد أن خرج من منطقة الظلال التي كان مختبئاً فيها: "أنتِ جميلة، وتبدين مثل سيدة مبجلة يا دوانيا".

نـــزلت الفتاة إلى عمقٍ أكبر بحيث وصلت المياه إلى ذقنها، وما لبثت أن ابتعدت وهي تقول: "لا تؤذِني، لأنني منذورة".

"للتكفير عن حادث اغتصاب وقع في قديم الزمان؟".

"بـــل للتكفير عن كل حوادث الاغتصاب. يتعيّن على النساء أن يتحملن الكثير".

خلع الملك ثيابه ونـــزل إلى المياه، بينما أسرعت الفتاة إلى تغطية صدرها بيديها.

"يقولـــون إن أفـــروديت كنيدوس التي نحت تمثالها الفنان الكبير براكزيليس، كانت تغطي صدرها بالطريقة التي تغطين بها صدرك الآن. لا تخافي شيئاً... حتى أفروديت تبدو خجولة. تعالي".

اقتـــربت مـــنه الفـــتاة ببطء، ومشت فوق طبقة الرمال، وكان جـــسدها المـــبجل الذي يقطر ماءً يظهر شيئاً فشيئاً عند اقترابها منه، وانخفض مستوى المياه حولها بحيث غطى ردفيها وبطنها فقط.

"خذيني إلى الربوة التي تحتضن رفاة آخيل. لا أريد أن يرانا أحد".

"إذاً، اتـــبعني. أتمنى أن تكون سبّاحاً ماهراً". ثم انقلبت على جانبها، وانـــزلقت عبر الأمواج وكأنها نيريد؛ حورية هاوية البحار المالحة.

شـــكّل الشاطئ خليجاً عريضاً عند تلك النقطة، وكانت المنطقة الـــتي تلتقـــي فيها المياه برمال الشاطئ مضاءةً بنيران المعسكر، ومنتهية بربوةٍ ترابية عند طرفها.

أجاب الإسكندر وهو يسبح إلى جانبها: "لا تقلقي بشأني".

سبحت الفتاة بعيداً عن الشاطئ عبر الخليج، وتوجهت مباشرةً نحو الربوة. سبحت بشكلٍ رائعٍ وبرشاقة، وبدت وكأنها تطوف بفعل حركاتها التي كانت شبه صامته، وانسابت من خلال المياه وكأنها كائنٌ بحري.

قال الإسكندر وهو يلهث نتيجة السباحة: "أنتِ ماهرةٌ جداً".

"وُلدت على شاطئ البحر. أما زلت ترغب في الوصول إلى رأس سيجيوس؟".

لم يجب الإسكندر، بل تابع السباحة إلى أن رأى زبد المياه المتكسرة على الشاطئ تحت ضوء القمر، بينما كانت الأمواج تتابع طريقها بإيقاعٍ منتظمٍ نحو قاعدة الربوة العظيمة.

خرجا من المياه، وقد أمسك كلّ منهما يد الآخر. اقترب الملك من الربوة التي تحتوي على قبر آخيل المظلم. وشعر الإسكندر - أو ظنّ أنه شعر - أن روح البطل تخترقه، كما ظنّ أنه رأى بريسيبه بخدّيها المتوردين عندما التفت نحو رفيقته التي كانت تقف أمامه تحت ضوء القمر الفضي، وهي التي كانت تبحث عن عينَي الإسكندر وسط الظلمة التي أحاطت به.

همس الإسكندر في أذنها قبل أن يلتفت نحو النسيم الدافئ الذي كان يهب من جهة البحر: "لا يُسمح إلا *للأسياد* بلحظاتٍ كهذه. هنا جلس آخيل وبكى عند وفاة باتروكلوس، وهنا دفنت والدته - حورية المحيط - أسلحته التي صنعتها يد سّيد".

سألته الفتاة: "إذاً، أنت تصدّق هذه الأسطورة؟".

"أجل".

"إذاً، ما الذي دفعك عندما كنا في المعبد...".

"الأمر مختلفٌ هنا حيث يخيم الليل، وحيث لا تزال تلك الأصوات البعيدة التي أُسكتت منذ زمن تُسمع. ها أنت هنا أمامي، على ما أنت عليه".

"هل أنت ملكٌ حقاً؟".

"انظري إليّ، من ترَين أمامك؟".

"أنت الشاب الذي يظهر لي أحياناً في أحلامي عندما أكون نائمة مع صديقاتي في المعبد. أنت الشاب الذي أتمنى أن أحبه".

اقترب خطوة منها، ثم قرّب رأسها من صدره.

"سأغادر في الغد، كما أنني سأخوض غمار معركة صعبة في غضون أيامٍ قليلة. يُحتمل أن أخرج منها منتصراً، ويُحتمل أن أموت".

"في هذه الحال، إذا أردتَ القيام بعلاقة حميمية معي فافعل ذلك هنا، فوق هذه الرمال الدافئة، ودعني أطوّقك بذراعيّ، حتى لو ندمنا على ذلك في الغد". ثم قبّلته طويلاً وبحرارة، وراحت تمسّد شعره.

"تخصّص لحظات كهذه *للأسياد* فقط، لكننا من *الأسياد* طوال هذا الليل".

2

خلــع الإســكندر ثيابه أمام جنوده المحتشدين، وركض ثلاث مرات حول قبر آخيل، وذلك حسب ما تمليه الطقوس القديمة. وفعل هيفاستيون الأمر ذاته حول قبر باتروكلوس. ودوّت مع إنهائهما كل دورة أصــوات أكثــر مــن أربعــين ألف صرخة في وقتٍ واحد: "*ألالاي*!".

صــاح كاليستين من زاوية المعسكر: "إنه يعرف بالتأكيد كيف يمثّل دوره!".

أجاب بطليموس: "أتعتقد هذا؟".

"ما من شكٍ في ذلك. إنه لا يصدّق الأساطير أكثر منّا أنا وأنت، لكــنه يتصرّف وكأن هذه الأساطير حقيقية أكثر من الحقيقة ذاتها. إنها طريقته كي يُثبت لرجاله أن الأحلام ممكنة التحقق".

قال بطليموس بصوتٍ مفعم بالسخرية: "تتكلم وكأنك تعرفه مثل ظاهر يدك".

"تعلّمت أن أتأمل في الرجال، وليس في الطبيعة فقط".

"يجــدر بك أن تعلم في هذه الحالة أنّه ما من أحدٍ يمكنه أن يدّعي أنه يعرف الإسكندر. إن أفعاله ماثلة أمام الجميع، لكن يصعب توقعها، كما يصعب علينا أن نفهم المغزى الأعمق لهذه الأفعال. إنه يصدّق ولا يصدّق في الوقت ذاته، وهو قادر على التعبير عن الحب، وعن الغضب بشكلٍ عظيم... إنه...".

"إنه ماذا؟".

"إنه مختلف. التقيته أوّل مرة عندما كنت في السادسة من عمري، لكنني لا أستطيع الزعم أنني أعرفه حقيقة".

"يُحتمل أنك على حق. لكنّ كل رجاله يعتقدون أنه آخيل وقد تجسّد مجدداً، وأن هيفاستيون هو باتروكلوس".

"يـــصدّق الاثنان، في هذا الوقت، هذه الأسطورة. لكن، ألم تكن أنـــت الـــذي أكّدت بناء على حساباتك الفلكية أن زحفنا يتزامن مع الشهر ذاته الذي بدأت فيه حرب طروادة قبل ألف سنة بالضبط؟".

في هـــذا الـــوقت، ارتدى الإسكندر ثيابه مجدداً، ووضع دروعه. واستعد هيفاستيون بدوره، ثم امتطى الرجلان صهوتَي جواديهما. وأمر القائد بارمينيون بنفخ الأبواق، فما كان من بطليموس إلا أن قفز بدوره إلى صـــهوة جواده: "يتعيّن عليّ أن ألتحق بفرقتي لأن الإسكندر على وشك استعراض الجيش".

صـــدح صوت الأبواق مجدداً ومراراً، فاصطفّ الجنود على طول الشاطئ، بينما حملت كل فرقة أعلامها والشارات الخاصة بها.

تـــواجد اثنان وثلاثون ألف جندي من المشاة. واجتمع في الجهة اليـــسرى ثلاثـــة آلاف من حاملي الدروع، وسبعة آلاف من الحلفاء اليونانـــيين، وهو العدد الذي يمثّل عُشر الجنود الذين سبق لهم أن تغلبوا على الفرس في بلاتايا. ارتدى هؤلاء الدروع اليونانية الثقيلة والتقليدية الخاصة بالصفوف الأمامية من الجنود، كما اعتمروا الخوذات الكورينثية التي تحمي وجوههم بالكامل وحتى أسفل أعناقهم، وهي الخوذات التي لا تكشف سوى عن عيونهم وأفواههم.

وقفـــتْ في الوسط ست كتائب من قوات الفالانج، والتي تدعى *بيـــزيتاروي*، والتي تتألّف بمجملها من نحو عشرة آلاف رجل. أما في الجهة اليمنى، فقد اصطف عشرة آلاف رجل احتياطي من البرابرة الذين

استقدموا من الشمال، وخمسة آلاف من التراقيين والتريباليين الذين قبلوا عرض الإسكندر وجذبتهم الأموال وإمكانيات النهب بعد انتهاء المعارك. كانوا رجالاً على قدرٍ كبيرٍ من الشجاعة، وقادرين على خوض أصعب المعارك من دون أن يهزمهم الإجهاد. كما كانوا قادرين على تحمّل البرد والجوع، ومِحن المعارك. وتميّز هؤلاء بمناظرهم المرعبة. إذ كان شعرهم ذا لون أحمر، وكانت لحاهم طويلة، فيما كانت وجوههم كبيرة ومنمشة، وأجسادهم مغطاة بالوشوم.

وكانت جموع البرابرة تتضمّن رجالاً أشرس منهم وأكثر بدائية، وهم الأغريانيين الذين أتوا من جبال إيليريا. وكانوا لا يحسنون التكلم بلغة الإغريق، لذلك كان من الضروري استدعاء مترجم للتواصل معهم، لكنهم امتلكوا موهبة فريدة في تسلق أي سطحٍ صخري مستخدمين الحبال المصنوعة من ألياف النباتات، والخطافات، والكلاّبات الحديدية. كما تجهّز جميع التراقيين وجنود الاحتياط الآخرين الذين قدموا من الشمال بخوذاتٍ ومخصرات جلدية، وبدروعٍ صغيرة على شكل هلال، وبسيوف طويلة تُستخدم مع رؤوس الرماح والنصال. يُظهر هؤلاء شراسةً شديدة في المعارك ويهجمون مثل الوحوش البرية، كما عُرف عنهم في المعارك التي يخوضونها وجهاً لوجه أنهم ينهشون لحوم أجساد خصومهم. ووقف خلف الجنود سبعة آلاف جندي من المرتزقة اليونانيين، وكانوا من المشاة الذين يحملون أسلحة خفيفة، بينما حمل آخرون أسلحةً ثقيلة.

وقف عند جهتَي هذا الجيش - عدا عن المشاة - ألفان وثمانمئة فارس يحملون أسلحة ثقيلة، ويُطلق عليهم اسم *هيتايروي*. يُضاف إلى هؤلاء العدد ذاته من جنود الخيّالة التيساليين، ونحو أربعة آلاف من الجنود المساعدين، وكذلك خمسمئة فارس خاص من رجال *الطليعة*، وهي السرية الخاصة بالإسكندر.

استعرض الملك جيشه من فوق صهوة جواده فرقة إثر فرقة بصحبة مرافقيه. كان إيومينيس موجوداً بدوره ومسلحاً تسليحاً ثقيلاً ومستعرضاً بكل فخرٍ دروع صدره المصنوعة من الكتّان المضغوط، والمزينة، والمقواة بصفائح مصقولة من البرونز والتي التمعت كالمرايا. ومع ذلك، لم تكن أفكار إيومينيس بالعظمة ذاتها، لأنه كان يحسب ذهنياً كم بقي من الحنطة، وكم بقي من الفواكه، والأسماك المملحة، والشراب، وإن كانت هذه الكميات كافية لهؤلاء الرجال، وكم من المال يتعيّن عليه أن يُنفق كل يوم من أجل شراء كل هذه السلع. وانشغل الرجل كذلك خلال الاستعراض بحساب المدة الزمنية التي يكون الجيش فيها مكتفياً بالمؤن.

بقي لديه، بالرغم من قلقه هذا، بعض الأمل في أن يتمكن من تقديم بعض الاقتراحات إلى الملك والتي من شأنها إنجاح الحملة.

عندما وصل الإسكندر إلى نهاية صف الجنود أومأ لبرامينيون. وما لبث القائد أن أعطى الأوامر بالانطلاق. فبدأ صف الجنود الطويل بالتحرك. فتحرّكت صفوف المشاة المتواجدين على الجانبين بصفوف يتألف الواحد منها من جنديين. كان اتجاه التحرك شمالاً بمحاذاة الشاطئ.

انسابت صفوف الجنود إلى الأمام مثل أفعى طويلة، وكانت خوذة الإسكندر، التي تنتهي في أعلاها بريشتين طويلتين بيضاوين، مرئية من البعيد.

في تلك اللحظة بالذات، وقفت دوانيا فوق أعلى درجات مدخل الهيكل، ونظرت إلى الجيش فرأت ذلك الشاب الذي أحبها فوق رمال الشاطئ في تلك الليلة العطرة من ليالي الربيع، وهو يبدو مثل طفلٍ صغير. وكانت دروعه المتألقة بشدة تلمع بفعل أشعة الشمس. لم يعد

بالنـــسبة إليها ذلك العاشق الشاب، لأن العاشق الشاب قد اختفى من مخيلتها.

شعرت بفراغٍ كبير يجتاح أعماقها وهي تشاهد الإسكندر يختفي في الأفق من أمام ناظريها. فكفكفت دموعها بحركة سريعة من يدها ما إن اختفـــى تماماً عن عينيها، وما لبثت أن دخلت إلى الهيكل وأقفلت الباب وراءها.

أرســـل إيومينـــيس مبعوثين مع مرافقين، أحدهما إلى لامبساكوس والآخر إلى سيزيكوس، المدينتين القويتين الواقعتين على المضائق، تقع المدينة الأولى على الشاطئ، بينما تقع الثانية في جزيرة. كانت البعثتان قد أرسلتا لتجديد عرض الإسكندر لهاتين المدينتين بالحرية، وبعقد حلف.

كان الملك مفتوناً بالمنظر الخلاب الذي يظهر أمامه، وكان يلتفت عـــند وصوله إلى كل منعطف على الشاطئ إلى هيفاستيون ليقول له: "انظـــر إلى تلـــك القـــرية... أترى تلك الشجرة؟... انظر إلى ذلك التمـــثال..."، كان كل شيء جديداً بالنسبة إليه، ومصدراً من مصادر الدهـــشة: مـــنازل القرى البيضاء المنتشرة على التلال، وهياكل أسياد الإغـــريق والبرابرة المنتشرة وسط المناطق الريفية، وعطر أزهار أشجار التفاح، وأوراق أشجار الرمان اللماعة.

كانـــت هذه هي رحلته الأولى إلى خارج اليونان إذا استثنينا فترة نفيه إلى جبال إيليريا المكسوة بالثلوج.

ســـار بطليموس وبيرديكاس خلفه، بينما ظلّ رفاقه الآخرون مع جنودهم. وكان لايسيماخوس وليوناتوس في آخر صف الجنود الطويل، واقتصر دورهما على قيادة وحدتي الجزء الخلفي من الجيش، وهكذا كانا منفصلين نوعاً ما عن باقي الجيش.

سأل ليوناتوس: "لماذا نتجه شمالاً؟".

"يـــريد الإســـكندر السيطرة على الساحل الآسيوي، وهكذا لن يقـــدر أحـــد على دخول بونطس أو مغادرتها من دون إذننا. وهكذا، ستـــضطر أثيـــنا التي تعتمد على واردات الحنطة التي تمر من هنا إلى أن تبقى حليفتنا. وسنتمكّن بهذه الطريقة من عزل الولايات الفارسية المطلة على البحر الأسود كلّها. إنها خطوة ذكية".

"هذا صحيح".

تابـــع القائـــدان السير بينما كانت الشمس ترسل أشعتها خلال تسلقها قبة السماء. تابع ليوناتوس الحديث: "لكن، هناك أمرٌ أعجز عن فهمه".

ردّ لايـــسيماخوس ممازحاً: "إننا لا نتمكن من فهم كل شيء في هذه الحياة".

"يمكـــنك أن تكـــرر قولك هذا. لكن، أيمكنك أن تفسّر لي هذا الهدوء الذي يسيطر على كل شيء؟ رسونا هنا مع أربعين ألف رجل، كمـــا أن الإســـكندر زار هيكل إليوم، وأتم الطقوس حول قبر آخيل. حدث كل ذلك من دون أن نجد أحداً بانتظارنا. أعني لم نجد أحداً من الفرس. ألا تظن أن الأمر يحمل شيئاً من الغرابة؟".

"ليس في الأمر أي غرابة".

"ولِمَ لا؟".

التفت لايسيماخوس، ونظر خلفه، ثم سأل وهو يشير إلى شكلَي فارســين يـــتقدمان عبر سلسلة جبال طروادة: "أترى هذين الرجلين هـــناك؟ هذان الرجلان يلاحقاننا منذ الفجر، وهما يراقباننا منذ صباح يوم أمس. يُحتمل أن الريفيين يزحفون معهما".

"يُستحسن في هذه الحالة أن نُبلغ الإسكندر...".

"لا تقلــق. إن الإسكندر على علمٍ تامٍّ بما يجري. وهو يعرف منذ انطلاقنا بأن الفرس يحضّرون حفل استقبالٍ لنا".

تابــع الجيش زحفه من دون مشاكلَ تُذكر طيلة الصباح إلى أن حانت فترة الظهيرة. كان الفلاحون الذين يعملون بجدٍّ الوحيدين الذين شــوهدوا في الحقــول، كمـــا شوهدت مجموعات من الأولاد الذين ركضوا وصاحوا على الطرقات في محاولة منهم للفت الانتباه إليهم.

وعـــند حلـــول المساء، خيّم الجيش في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن أبايـــدوس. كمـــا أن بارمينـــيون أمر بنشر حراسٍ حول المخيّم وعلى مـــسافات محددة. وأرسل القائد كذلك دوريات من الخيالة إلى المناطق الريفية كيٍ يتجنّب أيّ هجماتٍ مفاجئة.

ومـــا إن نُـــصبت خيمةُ الإسكندر حتى صدحت الأبواق داعية لاجـــتماع مجلـــس الحرب. وهكذا، اجتمع القادة كلهم حول الطاولة خلال تقديم طعام العشاء. كان كاليستين هناك بدوره، لكن إيومينيس كان غائباً بعد أن ترك توصيات للمجتمعين كي يبدأوا من دونه.

صـــاح هيفاســـتيون: "حسناً أيها الرجال، أعتقد أن هذا الوضع أفـــضل بكـــثير مما كان عليه في تراقيا! فالطقس جيد، ويبدو أن الناس ودودون معـــنا. كمـــا أنـــني رأيت عدداً كبيراً من الفتيات الجميلات والفتـــيان الـــوسماء، كما أن الفرس لم يتحرشوا بنا. وتذكرت أرسطو عندما كان يأخذنا إلى الغابات كي نجمع الحشرات".

ردّ ليوناتوس: "لا تخدع نفسك. رأيت ولايسيماخوس، فارسَين لحقـــا بـــنا طـــيلة الـــنهار، وهما بالتأكيد ليسا بعيدين عنا في هذا الوقت".

طلب بارمينيون الإذن بالكلام بالطريقة المؤدبة المعهودة من ذلك القائد المخضرم.

ردّ الإســكندر بالقــول: "ليست هناك حاجة كي تطلب الإذن بالكلام يا بارمينيون. إنك الرجل الأكثر خبرةً بيننا، لذلك يمكن لنا أن نتعلم منك أموراً كثيرة".

قــال القائــد المسنّ: "شكراً لك. أردت فقط أن أعرف نواياك بالنسبة إلى يوم غد، وكذلك بالنسبة إلى المستقبل القريب".

"أريد الزحف إلى المناطق الداخلية التي يحكمها الفرس. وفي تلك الحالة، لن يجدوا أمامهم أيّ خيار. وسيتعيّن عليهم مواجهتنا في ميدانٍ مفتوح، وهكذا سنتمكّن من إلحاق الهزيمة بهم".

فلم يعلّق بارمينيون بشيء.

"ألا توافقني الرأي؟".

"أوافقــك إلى حــدٍّ ما. حاربت الفرس في الحملة الأولى، لذلك أؤكــد لك أنهم خصومٌ مرعبون. يُضاف إلى ذلك أنهم يعتمدون على قائدٍ ممتاز، أي ممنون الذي قدِم من رودس".

صاح هيفاستيون: "يا لذلك الخائن اليوناني!".

"كلا. إنه جندي محترف، أي أنه من المرتزقة".

"أليس الأمر نفسه في الحالتين؟".

"الأمــر لــيس نفسه يا هيفاستيون. يخوض بعض الرجال حروباً كــثيرة، ويجــدون أنفسهم أخيراً من دون معتقدٍ أو مثال يحتذون به، لكــنهم يكتسبون مع ذلك القوة والخبرة. إنهم يقدمون في تلك اللحظة مــن حــياتهم على بيع سيوفهم لقاء أفضل عرض يقدّم إليهم، لكنهم يبقون رجالاً شرفاء. إن ممنون واحدٌ من هؤلاء. إنه يحترم كلمته مهما كــان الثمن. إنه من الرجال الذين يعتبرون أن الكلمة التي يقولونها هي موطــنهم، وهــم يحافظون عليها ويحترمونها بكل تصميم. يمثّل ممنون خطراً علينا، كما أن خطره يصبح مضاعفاً عندما يستعين بجنوده الذين

يأتمـــرون بأمـــره، والذين تتراوح أعدادهم ما بين عشرة آلاف وخمسة عـــشر ألفاً من المرتزقة، وكلهم من اليونانيين المسلحين تسليحاً حسناً، وهم يشكلون بذلك خصوماً مرعبين في ميادين المعركة المفتوحة".

قال سلوقس: "لكن، سبق لنا أن هزمنا فرقة طيبة المبجلة".

ردّ بارمينـــيون: "لـــيس ذلـــك بالأمر المهم، لأن هؤلاء - أي الفـــرس - هم من الجنود المحترفين، وهم لا يقومون بشيء غير القتال، أما عندما لا يحاربون فهم ينشغلون بالتدرب على القتال".

قـــال الإســـكندر: "الحقّ مع بارمينيون. إن ممنون رجل خطير، وكـــذلك رجاله من الفالانج المرتزقة، وخصوصاً إذا حاربوا بمساعدة خيّالة الفرس".

في تلك اللحظة بالذات دخل إيومينيس.

ضحك كراتيروس وقال: "يناسبك هذا الدرع. إنك تبدو كقائد حقـــاً. يؤســـفني أن أرى ساقيك على هذه الحالة من الانحناء والهزال و...".

انفجر جميع الحاضرين بالضحك في ذلك الوقت، لكن إيومينيس راح يُنشد:

"لا أحب قائد الجيش الطويل، أو إذا مضى بالهرولة

أو ذلك الذي يمتلك شعراً متموجاً جذاباً، أو ذلك الذي يشذّب لحيته كثيراً.

أما الشاب الذي يميل إلى القِصَر، أو ذو الساقين المقوّستين

فهو المثاليّ عندي بخطواته الواثقة"(*).

(*) آركيلوخوس - 114 ترجمة أم. أل. وست.

صــــاح كاليستين: "أحسنت! إن آركيلوخوس هو أحد الشعراء المفضلين بالنسبة إليّ".

أســـكت الإســـكندر الجميع قائلاً: "دعوه يتكلم لأنه يجلب لنا أخباراً، وأتمنى أن تكون أخباراً حسنة".

"إنها أخبارٌ حسنة وسيئة يا صديقي. قرِّر أنت بأيٍّ منها أبدأ".

لم يستطع الإسكندر إخفاء خيبة أمله: "دعنا نبدأ بالأخبار السيئة لأن الأخبار الحسنة يسهل علينا استيعابها. قدّموا إليه كرسياً".

جلس إيومينيس بصعوبة بسبب دروع صدره التي منعته من إحناء النـــصف الأعلى من جسمه. "أجاب سكان لامبساكوس أنهم يمتلكون ما يكفي من الحرية، لذلك فهم لا يرغبون في التورط معنا بأي طريقة من الطرائق، وبعبارة أخرى إنهم لا يريدوننا أن نتعاطى بشؤونهم".

تلـــبد وجـــه الإسكندر غضباً، وكان من الواضح أن موجة من الغـــضب علـــى وشك أن تنفجر. بدأ إيومينيس بالكلام مجدداً وعلى الفـــور. "مع ذلك، لديّ أخبار مفرحة من كيزيكوس. وافقت المدينة علـــى الانضمام إلينا. إنها أخبار مفرحة بالفعل، لأن أجور المرتزقة من الفـــرس تدفعها كيزيكوس نقداً، وتحديداً بواسطة قطعة النقود الفضية هذه..."، ورمى القطعة الفضيّة الرائعة على الطاولة، وما لبثت القطعة أن راحـــت تـــدور علـــى نفسها مثل اللعبة التي تدور حول محورها، واستمرت في الدوران حتى أوقفتها يد كلايتوس الأسود المغطاة بالشعر، وذلك بحركة سريعة وحادة.

قال القائد الذي راح يقلّب القطعة النقدية بين أصابعه: "إذاً؟".

مـــضى إيومينيس في تفسير كلامه: "إذا تمكنت مدينة كيزيكوس من إيقاف مسألة دفع نقودها إلى الولايات الفارسية فستقع حكومات تلك البلاد في ورطة، لأنها ستضطر إلى جمع الضرائب من مواطنيها، أو

ستضطر إلى البحث عن طرائق أخرى للدفع، وهي الطرائق التي لن يقبلها المرتزقة. ويسري الأمر ذاته على تموينهم، وعلى أجور البحارة والجنود الآخرين".

سأل كراتيروس: "لكن، كيف تمكّنت من إقناعهم؟".

أجاب الأمين العام: "لم أنتظر حتى وصولنا إلى هنا في آسيا لأحرّك الأمور. فاوضت المدينة منذ بعض الوقت، أي منذ..."، وأحنى رأسه لدى تلفظه بهذه الكلمات، "... موت الملك فيليب".

خيّم الصمت في أنحاء الخيمة لدى سماع هذه الكلمات، وكأن روح الملك العظيم الذي سقط في ذروة مجده قد هبطت عليهم على نحوٍ مفاجئ.

قال الإسكندر: "حسناً، إن ذلك لا يغيّر خططنا. على كل حال، سنتوجه غداً إلى المناطق الداخلية. إن مهمتنا هي إخراج الأسد من عرينه".

لا يمتلك أي رجلٍ في العالم المعروف خرائط متقنة مثل تلك التي يمتلكها ممنون الذي أتى من رودس. قيل إن هذه الخرائط هي حصيلة آلاف السنوات من الخبرة التي اكتسبها بحارة تلك الجزيرة، ونتيجة مهارات رسام الخرائط الذي أُبقيت هويته قيد الكتمان الشديد.

نشر ذلك المرتزق اليوناني الخريطة على الطاولة، وثبّتها بقواعد المصابيح، وأخذ بيدقاً من مجموعة بيادق، ووضعه فوق نقطة تقع ما بين داردانيا وفريجيا، وقال: "يتواجد الإسكندر في اللحظة التي أتكلم فيها في نقطة ما هنا".

تحلّق حول الطاولة أفراد القيادة الفارسية العليا الذين كانوا جميعاً يرتدون ثياب القتال، ويضعون حول أرجلهم دروعاً لحمايتها، وينتعلون

الأحذيـــة الثقيلة: آرساميتيس حاكم ولاية بامفيليا، وآرستيس حاكم فريجيا، ثم ريوميثريس قائد فرسان باكتريا، ثم سبيثريدات؛ مرزبان ليديا وأيونيا، ذلك العملاق الإيراني ذو البشرة التي تشبه لون الزيتون والعينين الداكنتين، وهو القائد الذي كان يترأس الاجتماع.

سأل القائد باليونانية: "ماذا تقترح؟".

رفـــع ممـــنون بـــصره عن الخريطة. كان يبلغ الأربعين من عمره تقـــريباً، وكان الشعر الذي يعلو جبهته قد بدأ يشيب قليلاً، لكنّ لحيته كانـــت مشذبة، ومرسومة بدقة بواسطة شفرة، وهو الأمر الذي جعله يبدو مثل إحدى الشخصيات التي كان الفنانون اليونانيون ينقشونها، أو يرسمونها على أوانيهم.

سأل ممنون: "ما الأخبار التي لدينا من سوسا؟".

"لا نعـــرف شيئاً حتى هذه اللحظة. لكن، لا يمكننا أن نتوقع وصول أي تعزيـــزات مـــنذ الآن وحتى الأشهر القليلة القادمة، وذلك بسبب بُعد المسافات، وطول الوقت الذي يستغرقه وصول هذه التعزيزات".

"إذاً، لا يمكننا أن نعتمد إلا على القوات التي نمتلكها الآن".

قال سبيثريدات مؤكداً: "أجل، وذلك من حيث المبدأ".

"لكن، هل نمتلك قوّات أخرى؟".

"لا نمتلك قوة إضافية كبيرة".

"تعـــني هذه الحقيقة الكثير في وضعنا هذا، لأن المقدونيين نظّموا أنفـــسهم للقتال بشكلٍ مخيف. إنهم يمتلكون أفضل القوات التي يُمكن جمعها. وسبق لهم أن هزموا جيوشاً من الأنواع والجنسيات كلّها".

"وماذا يعني ذلك؟".

"يحـــاول الإسكندر استفزازنا، لكنني أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نتجنّب المواجهة المباشرة معه. تتلخص خطتي على الشكل التالي: يتعيّن

علينا أن ننشر عدداً كبيراً من فرسان الاستطلاع، وهم الذين سيطلعوننا بشكل مستمر على تحركات الإسكندر، وسنستعين كذلك بالجواسيس الذين قد يكشفون نواياه بطريقة ما. وسنقوم بعدها بالانسحاب من أمامه، وسندمر كل شيء نخلفه وراءنا، ولن نترك حتى حبة قمحٍ واحدة، أو نقطة مياه صالحة للشرب.

ستنفذ مجموعاتٌ من الفرسان المسلّحين تسليحاً خفيفاً غارات ضد مجموعات العدو التي سيرسلها لا محالة من أجل البحث عن طعامٍ لرجاله وحيواناته. وعندما يصل عدونا إلى آخر رمقٍ له بفعل الإنهاك والجوع سنضربه بكل قوتنا، بينما يُنهزل أسطولنا البحري الجيش في مواقع المقدونيين".

تفحّص سبيثريدات خريطة ممنون بصمت لفترة طويلة، وما لبث أن راح يمسّد بيده لحيته السميكة والمجعدة، ثم استدار بعد ذلك وسار حتى وصل إلى شرفة تطل على المناطق الريفية المجاورة.

يُعتبر وادي زيليا آيةً من آيات الطبيعة بالفعل. وقد فاحت من الحديقة المحيطة بالقصر رائحة أزهار الزعرور الحادة بعض الشيء، وامتزجت معها الرائحة الأحلى والأطيب المنبعثة من زهور الياسمين والزنبق. والتمعت تحت أشعة شمس الربيع الساطعة في الأفق أزهار أشجار الكرز والدراق، وهي الأشجار التي تليق فقط بفراديس *الأسياد*.

تطلع سبيثريدات نحو الغابات التي غطّت الجبال، ونحو القصور والحدائق الغنّاء التي يمتلكها نبلاء الفرس المتواجدون في هذا الاجتماع، وتخيّل أن كل هذه المباهج التي يحتويها هذا البحر المترامي من الزمرد قد تتعرض للحريق على يد ممنون، وأن كل شيء قد تحوّل إلى مساحة واسعة متفحمة يتصاعد منها دخان الحرائق. ثم التفت فجأة قائلاً:

"كلا!".

قال ممنون معترضاً وهو يقترب منه: "لكن، يا مولاي... هل فكرت بعمق في خطّتي بتفاصيلها كلّها؟ أشعر بأن...".

قاطعه المرزبان: "لا يمكننا أن نفعل ذلك أبداً أيها القائد. لا يمكننا أن ندمر حدائقنا وحقولنا، وأن نترك قصورنا ثم نولي الأدبار. إن ذلك ليس من خصالنا بالدرجة الأولى، ثم إن التسبّب بأضرارٍ أكبر من تلك التي يُمكن لعدونا أن يُنزلها بنا يُعتبر جريمة بالفعل. كلا، سنواجه العدو ثم نطارده إلى أن يرجع إلى حيث أتى. فهذا الإسكندر ليس سوى ولد مغرور ينبغي أن يتعلّم درساً".

حافظ ممنون على إصراره: "تذكّر، من فضلك، أن بيتي وكل ممتلكاتي تقع في هذه المنطقة، وأنني مستعد للتضحية بكل شيء في سبيل النصر".

أجاب سبيثريدات: "أنا لا أشك في إخلاصك. إنني أقول - وببساطة - إن خطتك غير قابلة للتحقق. أكرر لك أننا سنحارب، وسنجبر المقدونيين على التراجع". ثم تحوّل بكلامه إلى القادة الآخرين فقال لهم: "ستكون جميع قواتنا، ومنذ هذه اللحظة، في حالة تأهبٍ دائم. أريدكم أن تستدعوا كل رجلٍ قادرٍ على القتال كي يحارب تحت لوائنا. لم يتبقَّ أمامنا وقت كثير".

هزّ ممنون رأسه: "هذه غلطة. وسيأتي الوقت الذي تدرك فيه أنّها غلطة، لكنني أخشى أن يكون الوقت قد فات حينها".

قال الفارسي: "لا تكن متشائماً هكذا. سنواجههم من موقع القوة".

"وماذا يعني ذلك؟".

انحنى سبيثريدات على الطاولة، وألقى بكامل ثقله على ذراعه اليسرى، ثم بدأ بتفحص الخريطة مستعيناً بطرف سبابته اليمنى. وتوقف

عـــند معلـــم يمثّل نهراً يتجه شمالاً نحو بحر بروبونتيس الذي يقع داخل البلاد.

"دعنا نفترض أن الموقع هنا".

"أتعني فوق غرانيكوس؟".

فأومأ سبيثريدات: "أتعرف تضاريس الأرض هناك أيها القائد؟".

"أعرفها جيداً".

"إنـــني أعـــرفها لأنـــني توجهت إلى تلك المنطقة منذ عدة سنين للـــصيد. يتميـــز النهر في هذا المكان بالذات بضفتين طينيتين شديدتي الانحدار. إنها منطقة يصعب اجتيازها - إن لم نقل يستحيل اجتيازها - بالنسبة إلى الفرسان. كما أن المشاة المسلحين تسليحاً خفيفاً سيجدون الـــسير فـــيها صعباً جداً. سنسحقهم عند غرانيكوس، وفي تلك الليلة بالذات سأدعوك إلى حضور حفلةٍ هنا في قصري في زيليا، وذلك كي نحتفل بالنصر".

3

كان الظلام مخيّماً عندما عاد ممنون إلى قصره الرائع المشيّد على الطراز الشرقي فوق قمة تلة. أما الأراضي التي كانت تحيط به فكانت تحتوي على كل ما يُمكن للمرء أن يتخيله من الحياة البرية بمختلف أشكالها، بالإضافة إلى المنازل، والماشية، وحقول القمح، وكروم العنب، والزيتون، وأشجار الفاكهة.

عاش ممنون سنوات عديدة بين الفُرس بصفته فارسياً، كما تزوج امرأةً فارسية تُدعى بارسين وتنتمي إلى طبقة النبلاء، وهي ابنة المرزبان آرتابازوس. كانت امرأة ذات جمال أخّاذ، وسمراء ذات شعرٍ أسود وجسمٍ رشيق ومتناسق، وكان جسدها ليّناً كغزال الجبال وكانت بمثل جماله.

أنجب ممنون ولدين، أحدهما في الخامسة عشرة من عمره، والآخر في الحادية عشرة. وكلاهما يتكلمان لغتَي والديهما بطلاقة، ومطّلعان على تقاليد كلا البلدين. تعلّم الولدان ألاّ يكذبا أبداً لأي سبب من الأسباب؛ وهو الأمر الذي يتعلمه أولاد الفُرس، كما تدربا على الرماية، وركوب الخيل. وكانا يحترمان من يتمتع بالشّرف والشجاعة في المعارك، وتعلما قصائد هوميروس، ومسرحيات التراجيديا التي كتبها سوفوكل ويوريبيديس، ونظريات فلاسفة الأيونيين. امتلك الشابان بشرة داكنة مثل والدهما. أما شعرهما فكان أسود اللون، فيما كان جسداهما مفتولي العضلات، وعيونهما خضراء ورثاها عن والدهما. حمل الولد الأكبر – أي إيتيوكل – اسماً يونانياً، بينما حمل الثاني – أي فرآت – اسماً فارسياً.

يقع ذلك القصر الفخم وسط حديقة فارسية. وهي الحديقة التي زرعها خبراء من الفُرس وأشرفوا عليها. وتحتوي الحديقة على نباتات وحيوانات نادرة بما في ذلك الطاووس الهندي الرائع التي استُقدمَ من باليمبوثرا، وهي مدينة تقع على نهر الغانج وتكاد تكون أسطورية. تشتمل الحديقة في وسطها على تماثيل فارسية وبابلية، وعلى نقوشٍ حثّية، وهي التماثيل التي جمعها ممنون من مدينة مهجورة تقع وسط الجبال، بالإضافة إلى المجموعات الفخارية الرائعة العائدة لبلاد أتيكي، وكذلك التماثيل البرونزية التي أحضرت من كورينث ومن إتروريا البعيدة، وتماثيل منحوتة من رخام باروس، ومطلية بألوان زاهية.

وعلّقت على جدران القصر لوحات رسمها أعظم الرسّامين في ذلك الوقت: آبيل، زيوكسيس، وباراسيوس. وهي اللوحات التي لا تمثّل فقط مشاهد الصيد والمعارك، بل تشتمل أيضاً على رسوماتٍ أسطورية تمثّل مغامرات الأبطال الأسطورية.

كان كل شيء في ذلك المنزل المهيب مزيجاً من حضاراتٍ مختلفة. ومع ذلك، فإن الانطباع الذي كان يتركه عند الزائرين لم يكن سوى أنه فن متناسق يكاد يستعصي على الفهم.

قدم خادمان للترحيب بسيدهما، وساعداه على نزع دروعه، وقاداه إلى الحمام ليتمكن من الاغتسال قبل أن يتناول عشاءه. وتقدمت بارسين منه حاملةً كوباً من الشراب البارد، وجلست كي تكون برفقته.

سألته: "هل من أخبارٍ عن الغزو؟".

"يزحف الإسكندر نحو داخل البلاد، ولعله يريد استفزازنا إلى مواجهةٍ مباشرة".

"فضّلوا أن لا يصغوا إليك، والآن أطبق العدو علينا".

"لا يريد أحد أن يصدّق أن ذلك الفتى سيتجرأ على التقدم كثيراً. ظنوا أن حروبه في اليونان ستشغله عنا لسنواتٍ عديدة، وأنها ستستنزف موارده. إنه رأي غير صحيح تماماً".

سألت بارسين: "أي نوعٍ من الرجال هو؟".

"يبدو أنه يصعب علينا أن نحدد شخصيته. إنه شاب فتيّ، ووسيمٌ جداً، ومندفع ومتحمس. لكنه يصبح بارداً كالثلج عندما تطل الأخطار برأسها، ويبدو أنه قادر على مواجهة أدق الظروف وأخطرها، وكل ذلك بتجرد قلّ نظيره".

"ألا يمتلك نقاط ضعف؟".

"إنه يحب الشراب. لكن، يبدو أنه يكنّ لصديقه هيفاستيون حبًّا خاصًّا ومميّزاً. فهو يحبه بصفته أكثر من صديق".

"وهل هو متزوج؟".

"كلا. شرع في هذا الغزو من دون أن يترك وريثاً لعرش مقدونيا. ويبدو كذلك أنه وزّع كل ممتلكاته على أصدقائه المقربين".

أشارت بارسين إلى وصيفاتها بالمغادرة، واهتمت بزوجها بنفسها عندما غادر الحمام. تناولت منشفةً كتانية ناعمة من صنع أيونيا، ولفّتها حول كتفيه كي تجفّف له ظهره. في تلك الأثناء، تابع ممنون حديثه وهو يخبرها بما يعرفه عن عدوّه.

"يُقال إن أحد أصدقائه المقربين سأله ذات مرة: *وماذا أبقيتَ لنفسك؟*. فأجابه: *أبقيتُ الأمل*. يبدو الأمر غير قابلٍ للتصديق، لكن من الواضح أن هذا الملك الشاب قد أصبح أسطورياً. هذه هي المشكلة، لا يمكن للمرء أن يحارب أسطورة".

سألته بارسين: "أصبح ما قيل عنه بأنّه لا يمتلك امرأة؟".

أحضرت إحدى الوصيفات قطعة قماشٍ رطبة، وساعدته وصيفة أخرى على ارتداء ثيابه لتناول طعام العشاء، والتي كانت عبارة عن سترة ذات لون أبيض ومطرزة بخيوطٍ فضية عند حواشيها، وطويلة بحيث تصل إلى قدميه.

"ولماذا أنتِ مهتمة به هكذا؟".

"لأن النساء يشكلن نقطة ضعفٍ عند الرجل".

أمسك ممنون بذراع زوجته، وقادها إلى غرفة الطعام حيث صفّت طاولات منخفضة الارتفاع أمام الأسرّة المخصصة لتناول الطعام على الطريقة اليونانية.

جلس ممنون على الأرض، وما لبثت إحدى الخادمات أن صبّت له المزيد من الشراب البارد من وعاءٍ كورينثي لا يقل عمره عن مئتي عام، والذي تناولته من فوق طاولة في وسط الغرفة.

أشار ممنون إلى اللوحة التي رسمتها يد آبيل، والمعلقة على الجدار المقابل لهما. "أتتذكرين يوم أتى آبيل إلى هنا كي يرسم هذه اللوحة؟".

أجابت بارسين التي كانت تدير ظهرها إلى الجدار وهي ممددة لتناول الطعام، لأنها لم تعتد على صراحة اليونانيين: "أجل أتذكر ذلك اليوم جيداً".

"وهل تتذكرين الفتاة التي جلست معه لتكون بديلة عن أفروديت؟".

"بالطبع. كانت رائعة جداً، وإحدى أجمل النساء اللواتي شاهدتهن، وموديلاً قيّماً لسيدة الحب والجمال".

"كانت تلك هي حبيبة الإسكندر اليونانية".

"حقاً؟".

"هذا صحيح، واسمها بانكاسب، وعندما شاهدها أمامه للمرة الأولى كان مأخوذاً جداً بفتنتها إلى حدّ أنه استدعى آبيل كي يرسمها

له. وعلم بعد ذلك أن الرسام قد وقع بغرامها. تحدث أشياء كهذه بين الفنانين والفتيات اللواتي يجلسن أمامهم لرسمهنّ. أتعرفين ماذا فعل؟ قدّم الإسكندرُ بانكاسب إلى آبيل مقابل الحصول على اللوحة. وأخشى ألاّ يسمح الإسكندر لأي شيء بأن يقيّده، حتى الحبّ. أقول لكِ إنه رجل خطرٌ جداً".

نظـــرت بارسين إلى عينيه: "وأنتَ؟ هل سمحت للحب أن يتغلب عليك؟".

تطلع ممنون إليها بدوره: "إنني لا أقبل الهزيمة من أي خصمٍ، عدا الحب".

دخل ولداهما كي يتمنيا لهما ليلةً سعيدة، وذلك قبل أن يخلدا إلى النوم، ثمّ قبّلا والدتهما ووالدهما.

سأل الولد الأكبر: "متى سنتمكن من مرافقتك إلى ميدان المعركة يا والدي؟".

أجاب ممنون: "سيحين ذلك اليوم. لكن، عليكما أن تكبرا أولاً". وأكمل كلامه بعد أن ابتعدا عنه قليلاً، وبعد أن أحنى رأسه نحو صدره: "يتعيّن عليكما أن تقرّرا مع أي جهةٍ ستحاربان".

بقيت بارسين صامتة بعض الوقت.

فسألها زوجها: "فيمَ تفكرين؟".

"أفكّـــر في المعركة التالية، وفي الأخطار التي تنتظرك، وفي مرارة انتظار رؤية علامة من مبعوث في أثناء مكوثي في البرج، وهو المبعوث الذي سينقل إليّ نبأ موتك أو سيخبرني إن كنت على قيد الحياة".

"هذه هي حياتي يا بارسين. إنني جندي محترف".

"أعلـــم ذلك. لكن معرفة هذا الأمر لا تفيدني بشيء. متى ستقع المعركة؟".

"أتعـــنين الصدام مع الإسكندر؟ ستقع قريباً مع أنني ضد خوضها من حيث المبدأ. ستقع قريباً جداً".

أنهـــيا معاً تناول طعام العشاء، واحتسيا الشراب القبرصي الحلو. تطلـــع ممـــنون بعد ذلك إلى لوحة آبيل المعلقة على الجدار المقابل له. وظهـــر فـــيها آريـــس من دون أسلحته التي بقيت على العشب، فيما ظهرت أفروديت جالسةً بمحاذاته، وقد وضعت رأسه في حضنها بينما وضع يديه على فخذيها.

ثمّ التفت إلى بارسين وأمسك بيدها، وقال لها: "دعينا نتوجه إلى السرير".

4

عـــاد بطليموس من جولته الاستطلاعية حول محيط المعسكر، ثم توجه على الفور إلى مركز الحرس الرئيس كي يتأكد من تنظيم الحراسة الليلية بشكلٍ جيد.

لاحـــظ أن ضوءاً ينبعث من خيمة الإسكندر فسار نحوها. كان بيريـــتاس شبه نائم في المكان المخصص له، ولذلك لم يكترث بالتطلع نحـــوه. مشى بطليموس أمام الحرّاس، ثم أدخل رأسه في الخيمة قبل أن يـــسأل: "هـــل يستطيع الجندي المخضرم العطشان احتساء كوبٍ من الشراب؟".

ردّ علـــيه الإســـكندر ممازحاً: "عرفتك ما إن ظهر أنفك. تعالَ، واشرب ما تريده، لأن ليبتين قد خلدت إلى النوم".

ســـكب بطليموس كوباً من الشراب من وعاء، ثم ارتشف بضع جرعات. وسأل وهو ينظر من فوق كتف الملك: "ماذا تقرأ؟".

"أقرأ كتاب زينوفون **مسيرة الآلاف العشرة**".

"آه، زينوفون. إنه رجلٌ خبير يتمكن من تحويل التراجع إلى شيء أكثر مجداً من حرب طروادة".

كتب الإسكندر ملاحظةً على الورقة، ووضع خنجره على اللفافة كـــي لا يضيع المكان الذي وصل إليه، ثم رفع رأسه وقال: "إنه كتاب شيّق إلى حدٍّ استثنائي. اسمع هذا المقطع:

ما إن حلّ المساء حتى حان وقت التراجع بالنسبة إلى العدوّ. ولم يحـــدث أبـــداً أن أقام البرابرة مخيّمهم على بعدٍ يقل عن ستين ستاديا

(وحدة قياس قديمة) عن معسكر اليونانيين، وذلك نتيجة خوفهم من أن يقـوم اليونانـيون بمهاجمتهم خلال الليل. لا يحب جنود الفرس الليل، ولـذلك يربطون أحصنتهم ويقيدونها كي يمنعوها من الفرار إذا أفلتت مـن قيودها. ويقوم الفارسي في حالة التأهب بتحضير لجام حصانه، ثم يقـوم بارتداء دروع صدره وامتطاء حصانه. يصعب القيام بكل هذه الأمور في الليل وسط الهرج والمرج"(*).

أومأ بطليموس وقال: "وهل تعتقد أن جيشهم على هذه الشاكلة حقًّا؟".

"ولِـمَ لا؟ إنّ لدى كل جيش عاداته الخاصة به التي يتعود على الالتزام بها".

"إذاً، فيمَ كنتَ تفكّر؟".

"أبلغني كشافتنا الذين أرسلناهم للاستطلاع أن الفرس قد تركوا زيليا، وأنهم يتقدمون غرباً. ويعني ذلك أنهم يتجهون نحونا كي يقطعوا الطريق علينا".

"يبدو أن كل شيء يوحي بذلك".

"هـذا صـحيح. أصغِ إليّ الآن... لو كنتَ قائدهم، فأين كنتَ ستختار النقطة التي ستوقفنا عندها؟".

تقـدم بطليموس إلى الطاولة التي نُشرت فوقها خريطة الأناضول، وتـناول مصباحاً، ومرّره إلى الأمام حيناً وإلى الوراء حيناً آخر، وذلك بدءاً من الساحل وحتى المناطق الداخلية. وتوقف قليلاً بعد ذلك. "هذا النهر... ماذا يُدعى؟".

(*) النص مأخوذ من كتاب زينوفون *آنابيس*، ترجمة كارلتون أل. براونسون.

أجاب الإسكندر: "إنه نهر غرانيكوس. يُحتمل أنهم يقبعون هناك في انتظارنا".

"وأنــــت تخطط لعبور النهر ليلاً كي تهاجمهم فوق الضفة المقابلة قبل الفجر. هل أنا مُحقّ؟".

تابــع الإسكندر تأمله في كتاب زينوفون: "قلت لك إنه كتاب رائع. يتعيّن عليك أن تحصل على نسخةٍ منه".

هزّ بطليموس رأسه.

"هل من خطبٍ ما؟".

"آه، كلا. الخطة ممتازة. لكن...".

"ماذا؟".

"حــــسناً... لا أعرف. ظننت بعد أن شاهدتك ترقص حول قبر آخــــيل، وبعد أن أخذتَ أسلحته من هيكل أثينا طروادة، أنك تفضل خــــوض معــــركة في مــــيدانٍ مفتوح ووسط ضوء النهار حيث تواجه جموعنا جموعهم، أي ما يُمكن أن نُطلق عليه اسم معركة هوميروسية".

أجاب الإسكندر: "آه، ستكون المعركة هوميروسية. ولماذا برأيك أمرت كاليستين أن يرافقنا؟ لكنني لا أريد في هذه اللحظة أن أجازف بحــــياة أيّ رجلٍ من رجالنا إلا إذا اضطررت إلى ذلك. أريدك أن تلتزم بالاتجاه ذاته".

"لا تقلق".

جلــــس بطليموس، وراقب ملكه وهو يتابع تسطير ملاحظاته من اللفافة أمامه.

قال بعد لحظات: "يصعب علينا أن نسحق ممنون".

"أعرف ذلك. أخبرني بارمينيون كل شيء عنه".

"وماذا بشأن فرسان الفُرس؟".

"إن رماحنا أطول من رماحهم، كما أن مقابضها أقوى".

"دعنا نأمل أن يكون ذلك كافياً".

"إن عامل المفاجأة وإرادتنا في الفوز كفيلان بالباقي. إننا لا نملك خياراً في هذه المرحلة إلا أن نهزمهم. أريدك الآن، وإذا أردتَ نصيحتي، أن تذهب وتنال قسطاً من الراحة. ستسمع أصوات الأبواق قبل الفجر، كما أننا سنـــزحف طيلة النهار".

"تريد أن تصل إلى مواقع العدو مع حلول مساء غد. صحيح؟".

"بالضبط. سنعقد مجلسنا الحربـــي على ضفاف نهر غرانيكوس".

"وماذا بشأنك أنت؟ ألا تريد أن تنام؟".

"ســـيكون أمامـــي مـــا يكفي من الوقت كي أنام... فلتمنحك *الأسياد* ليلة هانئة يا بطليموس".

"وأنت أيضاً أيها الإسكندر".

عـــاد بطليموس إلى خيمته التي نصبت فوق تلة صغيرة تقع على أرضٍ قليلة الارتفاع قرب السياج الشرقي للحقل. اغتسل، وغيّر ثيابه، ثم حـــضّر نفـــسه للنوم. ألقى نظرة أخيرة إلى الخارج قبل أن يستلقي، فلفـــت انتباهه الضوء الذي ينبعث من خيمتين فقط، خيمة الإسكندر، وخيمة بارمينيون التي تقع بعيداً، في نهاية الميدان.

دوّت أصـــوات الأبواق قبل طلوع الفجر، وذلك حسب أوامر الإســـكندر، لكن الطهاة تجهزوا للعمل قبل بعض الوقت كي يحضّروا طعـــام الفطور، والذي كان عبارةً عن أوعية من المقبلات يتصاعد منها الـــبخار، وهـــو عبارة عن طبق شبه سائل من الشوفان المجروش وقطع الجـــبن. أمـــا طعام الضباط، فكان عبارة عن نوعٍ من الخبز المسطّح، وجبن الماعز، وحليب البقر.

امتطى الملك صهوة جواده لدى سماعه النفير الثاني، وسرعان ما اتّخذ مكانه في مقدمة الجيش عند المدخل الشرقي للمعسكر. وكان برفقته حرّاسه الشخصيون وبيرديكاس، وكراتيروس، ولايسيماخوس. سارت خلفه كتائب *البيزيتاروي*، وتبعتها وحدتان من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً، ثم المشاة من اليونانيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً، بالإضافة إلى التراقيين، والتريباليين، وفرقة من الأغريانيين الاحتياطيين، وقد أحاط بكل هؤلاء صفّان من الخيالة المسلحين تسليحاً ثقيلاً.

بدأت السماء تتلون باللون الأحمر من جهة الشرق، بينما امتلأ الجو بأصوات العصافير المغردة، وأصوات الشحارير. وشوهدت كذلك أسرابٌ من الحمام البري وهي تطير قرب الغابات المجاورة، بينما تزايد الضجيج الناتج عن تقدم الجيش وأصوات الأسلحة، وهو الضجيج الذي أيقظ هذه الأسراب من نومها.

ظهرت فريجيا بمنحدراتها المغطاة بأشجار التنوب أمام أنظار الإسكندر، وظهرت معها الأودية الصغيرة التي كانت تقطعها جداول تفيض بالمياه العذبة، والتي نبتت على ضفافها صفوف من أشجار الحور فضية اللون، بالإضافة إلى أشجار الصفصاف المتموجة. تحركت قطعان المواشي ومجموعات الحيوانات الأخرى إلى المراعي، وسارت وراء رعاتها، وتحت حراسة الكلاب. بدا أن الحياة تمضي في طريقها بسلام وبوتيرتها اليومية، وكأن تلك الأصوات المخيفة الصادرة عن جيش الإسكندر المتقدم قد تناغمت كلياً مع ثغاء الخرفان وخوار الأبقار.

تحركت إلى يمين الجيش ويساره مجموعات مموهة من رجال الكشافة بشكلٍ يوازي مسيرة الجيش المتقدم، لكنها لم تحمل راياتٍ ولا شاراتٍ خاصة بها. كانت وظيفة هؤلاء إبعاد جواسيس الفرس عن

الجيش إلى أبعد مسافة ممكنة. كان ذلك، في واقع الأمر، إجراءً احتياطياً لا مـــبرر له، لأن أي شخصٍ من الرعاة أو الفلاحين يُمكن أن يكون جاسوساً للعدو.

سارت في آخر صفّ الجيش نصف دزينة من الخيول التيسالية مع كاليـــستين الذي كان برفقة فيلوتاس، وبغل يحمل على ظهره صندوقَي حمـــولة مليئين بلفافات أوراق البردى. كان المؤرخ يخرج من الموكب عـــندما يتوقف ويتناول لفافة من أحد الصندوقين، ثم يجلس كي يكتب تحت أعين الجنود الفضولية.

شاعت الأنباء أن المؤرخ الرسمي للحملة لا بد من أن يكون ذلك الشاب النحيف الذي يعطي الانطباع بأنه يعرف كل شيء. وكان كل شـــخص يأمل أن تخلّد كلمات هذا المؤرخ اسمه في مرحلة من المراحل. ولم يكتـــرث أحـــد بالأخـــبار العادية جداً للحياة اليومية، والتي كان يـــسجلها إيومينـــيس وبعـــض الضباط الآخرين المكلفين بمهمة كتابة يوميات الزحف، وهم الذين كانوا يسجلون مراحل الحملة كافة.

توقـــف الجنود كي يتناولوا طعام الغداء المعتاد، كما توقفوا مرّة أخـــرى لـــدى اقتـــرابهم كثيراً من غرانيكوس تحت سلسلة من التلال بانتظار حلول الظلام، وذلك بناءً على أوامر صريحة من الإسكندر.

دعـــا الملـــك مجلس الحرب للانعقاد في خيمته، وذلك قبل وقتٍ قصير من مغيب الشمس. وقدّم الملك خطة المعركة في هذا الاجتماع. حـــضر كـــراتيروس بصفته رئيس فرقة من الفرسان المسلحين تسليحاً ثقـــيلاً، كمـــا حـــضر بارمينيون بصفته قائد كتائب *البيزيتاروي*. أما كلايـــتوس الأســـود فقد كان حاضراً هو الآخر، بالإضافة إلى رفاق الإســـكندر كلهم الذين كانوا حرّاسه الشخصيين، وكانوا كلهم من الفرســـان: بطليموس، لايسيماخوس، سلوقس، هيفاستيون، ليوناتوس،

بيرديكـــاس، وحـــتى إيومينـــيس الذي حضر الاجتماع مرتدياً الزي العسكري الكامل، أي دروع الصدر، ودروع وقاية الساقين، بالإضافة إلى حزامٍ عريض. وبدا للجميع أنه يستمتع بالقيام بدوره.

بـــدأ الملـــك كلامه بالقول: "ما إن يحل الظلام حتى تبدأ مجموعة الهجوم المؤلفة من المشاة المسلحين تسليحاً خفيفاً بعبور النهر مع جنود الاحتياط. ستقترب هذه المجموعة من معسكر الفرس قدر المستطاع من أجل إبقاء هذا المعسكر تحت المراقبة. وسيعود أحد الكشافة كي نعرف المسافة التي لا تزال تفصلنا عن النهر. أما إذا غيّر البرابرة مواقعهم خلال اللـــيل، لأي سبب من الأسباب، فإن آخرين سيعودون كي ينقلوا إلينا أخبارهم.

سنمتنع عن إيقاد النيران منذ الآن، وسيقوم قادة الكتائب بإطلاق نـــداء الاستيقاظ من دون نفخ الأبواق، وذلك قبل نهاية فترة الحراسة الـــرابعة مباشـــرة. وسيقوم الفرسان بعبور النهر أولاً إذا كان الشاطئ آمناً، وسيصطفون على الضفة الأخرى، وسينطلق الجميع عندما ينتهي المشاة من العبور.

قـــال الإســـكندر وهو يتطلع يميناً ويساراً: "ستكون هذه لحظة حاسمـــة في يومنا هذا. أعتقد أن الفرس لا يزالون في خيَمهم، هذا إذا كـــنت مـــصيباً، أو سيتجمعون في صفوف. سنقوم بقياس المسافة التي تفـــصلنا عن العدو في تلك المرحلة، أي قبل أن نشنّ هجومنا. وسيبدأ الفرســـان بالهجوم حيث سيدمرون خطوط البرابرة. وسيقوم الفالانج بعـــد ذلك مباشرة بإنـــزال ضربة المطرقة النهائية، أما جنود الاحتياط والوحدات الهجومية فسيتكفلون بما تبقّى".

سأل بارمينيون الذي ظل ملتزماً الصمت حتى تلك اللحظة: "من سيقود المشاة؟".

ردّ الإسكندر: "أنا".

"أنــصحك ألاّ تفعــل هــذا يا مولاي. إن هذا خطر جداً. دع كــراتيروس يقود المشاة. أعرف أنه ماهر جداً في القيادة لأنه كان معي في حملتنا الأولى على آسيا".

تــدخل ســلوقس في الحديث: "القائد بارمينيون على حق. إنه صدامنا الأول مع الفرس، ولا أرى سبباً لتعريض سلامة الملك للخطر".

رفع الإسكندر يده في إشارة إلى أن النقاش قد انتهى: "رأيتموني أقاتــل في شــايرونايا ضد الفرقة المبجلة، وعند نهر إستر ضد التراقيين والتريباليين. كيف تتمكنون من التفكير في أنني سأتصرف على غير هذا الــنحو في هذه المعركة؟ أعتزم أن أقود فرقة الطليعة بنفسي، وسأكون أول مقــدوني يحتك بالعدو. يتعيّن على رجالي أن يدركوا أنني سأواجه المخاطــر ذاتهــا التي يواجهونها، وأن كل شيء معلّقٌ على نتيجة هذه المعركة، بما في ذلك أرواحنا. لم يعد لدي ما أقوله الآن. سأراكم جميعاً عند العشاء".

لم يمــتلك أي شــخص مــا يكفي من الجرأة للاعتراض، لكنّ إيومينــيس الذي كان جالساً قرب بارمينيون همس في أذن ذلك القائد المخضرم: "سأخصّص رجلاً ذا خبرة خاصة كي يبقى إلى جواره، أعني شخصاً سبق له أن حارب ضد الفرس ويعرف تقنياتهم".

قال القائد مؤكداً: "فكّرت في الأمر مسبقاً. سيكون الأسود إلى جانب الملك، وسيكون كل شيء على ما يرام، سترى".

انتهى اجتماع المجلس، فغادر الجميع، وتوجه كل واحد إلى فرقته مــن أجــل توجيه التعليمات النهائية. وتخلّف إيومينيس عن الآخرين واقترب من الإسكندر قائلاً: "أردت أن أقول إن خطتك ممتازة. ولكن، بقي هناك عنصر مجهول، وهو عنصر مهم".

"مرتزقة ممنون".

"بالضبط، لأنهم إذا اتخذوا تشكيلة المربع فسيشكلون صعوبة حتى بالنسبة إلى الخيالة".

"أعـــرف ذلـــك. يُحتمل أن يلاقي مشاتنا صعوبة، ويُحتمل أن يخوضـــوا معركةً وجهاً لوجه بالسيوف والفؤوس. لكن يبقى هناك أمر آخر...".

جلـــس إيومينيس، وبسط عباءته فوق ركبتيه، وهي الحركة التي ذكّرت الإسكندر بوالده فيليب، وذلك عندما كان يفقد أعصابه. لكنّ إيومينـــيس امتلك أسباباً أخرى كي يقوم بهذه الحركة التي نتجت فقط عـــن إحساسه بالبرد في تلك الليلة الباردة. ويعود سبب ذلك إلى عدم اعتـــياده على ارتداء الثياب العسكرية القصيرة، وبسبب القشعريرة التي اجتاحت ساقيه.

تـــناول الملـــك لفافة من ورق البردى من صندوقه الشهير، وهو الـــصندوق الـــذي يحتوي على نسخة من أعمال هوميروس التي أعطاه أرســـطو إياها، ونشر اللفافة فوق الطاولة. "أعتقد أنك سمعت بكتاب **مسيرة الآلاف العشرة**، أليس كذلك؟".

"بالطـــبع، وذلك لأنه يُدرّسُ في جميع المدارس في هذا الوقت. إن الـــنصّ ســـهل القـــراءة، وحتى الصغار يتمكنون من قراءته من دون صعوبة".

"حـــسناً. إذاً، أصـــغِ إلى هـــذا المقطع. إننا في ميدان المعركة في كوناكـــزا، وكان ذلك قبل سبعين سنة تقريباً. أصدر سايروس الأصغر أمره إلى القائد كليرخوس:

> ... ليقود جيشه إلى مركز العدو بسبب تواجد الملك هناك، وقال:
> "إذا قتلناه هناك، فإن مهمتنا تكون قد انتهت".

قال إيومينيس بلهجة رافضة تماماً: "إذاً، ترغب في قتل قائد جيش العدو بيديك".

"وهذا هو سبب إصراري على قيادة قوات الطليعة. وسنهتم بعد ذلك بمرتزقة ممنون".

"فهمت، والآن أريد أن أغادر لأنك لن تصغي إلى نصيحتي مهما كانت".

قال الإسكندر ضاحكاً: "بالضبط، أيها القائد العام. لكنّ ذلك لا يعني أنني لست معجباً بك".

"إنني أحبك بدوري يا صديقي العنيد، فلتحرسك الأسياد".

"ولتحرسك أنت أيضاً يا صديقي".

غادر إيومينيس متوجهاً إلى خيمته حيث نـــزع دروعه، وارتدى ثياباً أكثر دفئاً، ثم شرع بقراءة دليل التكتيكات العسكرية إلى أن حان وقت العشاء.

5

كـــان تيار المياه في النهر سريعاً، كما أن غزارة مياهه قد ازدادت نتيجة ذوبان ثلوج جبال بونطس، وكذلك نتيجة الرياح الغربية الخفيفة التي هزت أوراق أشجار الحور النابتة على ضفاف النهر. أما ضفّتا النهر ذاتــه فكانـــتا شديدتي الانحدار، وموحلتين، ورطبتين جداً بعد هطول المطر.

تمركـــز الإسكندر، وهيفاستيون، وسلوقس، وبيرديكاس على تلة تمكّنهم من رؤية مجرى نهر غرانيكوس، وقسمٍ محدد من الأراضي الواقعة وراء الضفة الشرقية.

سأل الملك: "ما رأيكم؟".

قـــال سلوقس: "إن الطين الموجود على ضفتي النهر رطبٌ وزلقٌ جـــداً. وإذا اتّخـــذ البرابـــرة مركزهم بمحاذاة النهر، فسيتمكنون من إمطارنـــا بوابلٍ من سهامهم ورماحهم، وسيقتلون عدداً كبيراً منا قبل وصولنا إلى الضفة الأخرى. أما بالنسبة إلى رجالنا الذين سيتمكنون من عبور النهر، فإن جيادهم ستغرق في الوحل حتى ركبها، وسيصاب عدد كبير منها بالعرج، أي أننا سنكون تحت رحمة أعدائنا مرة أخرى".

علّق بيرديكاس قائلاً: "ليس ذلك بالوضع السهل".

"لا يزال من المبكر القلق بشأن هذا الأمر. دعونا الآن ننتظر عودة الكشافة".

انتظر الجميع بصمت، ولم يقطع صوت خرير المياه المتدفقة سوى النقيق الرتيب للضفادع الرابضة في الحفر المجاورة، وأصوات الصراصير

التي بدأت بالصياح في هذه الليلة الهادئة. وسُمع في هذا الوقت صوت يشبه صوت بومة.

قال هيفاستيون: "عاد الكشافة".

سمع الجميع الضجيج الصادر عن الرّجلين اللذين كانا يعبران النهر، ويشقّان طريقهما عبر الوحل الرطب، ووسط مياه النهر التي أحاطت بجسميهما الداكنين. كانا رجلي الكشافة من كتيبة حاملي الدروع.

قال الإسكندر وقد نفد صبره: "ما وراءكما؟". بدا الرجلان في حالة مريعة بعد أن غطاهما الوحل الأحمر من رأسيهما وحتى أخمص أقدامهما.

قال أولهما: "مولاي. يتواجد البرابرة على بعد ثلاثة أو أربعة ستاديا من غرانيكوس، وهم يتمركزون على تلة صغيرة تتحكم بالسهل وبضفيّ النهر. نظّم الفرس صفّين من الحرّاس، وأربع مجموعات من رماة السهام الذين يجوبون المنطقة ما بين المعسكر وضفتي النهر. يصعب علينا كثيراً عبور النهر من دون أن يشاهدونا. يضاف إلى ذلك وجود مشاعل في أماكن تمركز وحدات الحرّاس كلّها، كما أن الحرّاس يستخدمون الجوانب المحدبة من دروعهم من أجل تسليط أضواء المشاعل إلى الخارج".

قال الإسكندر: "حسناً. عودا وانتظرا على الضفة الأخرى، وعندما تشاهدان أيّ حركة في معسكر العدو أسرعا إلى جهتنا هذه، وأطلقا الإنذار بين حراس الفرسان الرابضين بين أشجار الحور هذه. وسيصلني الخبر على الفور تقريباً، وسأقرّر عندها التحرك المناسب لنا. اذهبا الآن، لكن تأكدا من أن أحداً لا يراكما".

عاد الرجلان إلى النهر، وعبرا مجدداً مياهه التي غمرتهما حتى خصريهما. وسار الإسكندر ورفاقه إلى حيث وقفت جيادهم كي يعودوا إلى المعسكر.

سأل بيرديكاس عندما أمسك بلجام جواده الأسود: "ماذا يحدث إذا اكتشفنا في الغد أهم ينتظروننا على ضفتي غرانيكوس؟".

مرّر الإسكندر يده في شعره بسرعة، أي كما اعتاد أن يفعل عندما يُشغل تفكيره في أمورٍ كثيرة. "سيضطرون في هذه الحالة إلى وضع صفٍّ من مشاهم على طول النهر. ما المنطق من وراء وضع المشاة في مركزٍ ثابت؟".

قال بيرديكاس موافقاً بإيجاز: "هذا صحيح".

"إذاً، سيعمدون إلى وضع صفٍّ من مشاهم على طول النهر. أما نحن فسنرسل فرق الهجوم التراقية، والتريبالية، والأغريانية، بالإضافة إلى حاملي الدروع، وسنرشقهم بوابلٍ كثيف من السهام والرماح التي يُطلقها المشاة المسلّحون تسليحاً خفيفاً. أما إذا تمكّنا من إزاحة البرابرة عن ضفة النهر، فسنتمكن من دفع مشاة اليونانيين المسلّحين تسليحاً ثقيلاً والفالانج إلى الأمام. وسيقوم الفرسان عند ذلك بحماية جانبَي هذه القوات. أعتقد أنه من المبكر جداً في هذا الوقت اتخاذ قرارات في هذه الأمور كلّها. دعونا نعود الآن لأن العشاء سيكون جاهزاً بعد وقتٍ قصير.

عاد الجميع إلى المعسكر، فأسرع الإسكندر إلى دعوة قادة الفرق كلّهم إلى خيمته، بمن فيهم قادة جنود الاحتياط الأجانب الذين شعروا أهم قد كُرِّموا بهذه الدعوة.

أبقى جميع الجنود أسلحتهم معهم خلال تناول طعام العشاء بسبب الوضع المتوتر. وشرب الجميع الشراب على الطريقة اليونانية، أي أن ثلاثة أرباع الشراب كانت من الماء، وهو الأمر الذي كان يضمن سير النقاش بأذهانٍ صافية، وكذلك لأن الأغريانيين والتريباليين السكارى كانوا يشكّلون خطراً كبيراً.

قـدم الملـك إلى الحاضـرين ملخصاً عن آخر الأخبار المتعلقة بالوضـع، فتـنفس الجميع الصعداء عندما علموا أن عدوهم لا يمتلك سيطرةً مباشرة على النهر حتى الآن.

قـال بارمينيون: "مولاي، يطلب الأسود شرف تغطية ميمنتك يـوم غـد، وهو الذي سبق له أن حارب خلال آخر حملةٍ لنا ضد الفرس".

أضاف كلايتوس: "حاربت إلى جانب والدك، الملك فيليب أكثر من مرة".

قال الإسكندر: "إذاً، ستكون إلى جانبـي".

سأل بارمينيون: "ألديك أوامر أخرى يا مولاي؟".

"أجـل. لاحظـت أنه تجمّع لدينا عدد كبير من النساء والتجار. أرغـب في أن يكونوا خارج المعسكر، وأن يكونوا تحت رقابة شديدة حتى ينتهي الهجوم. وأريد كذلك أن تتمركز فصيلة من المشاة المسلحين تـسليحاً خفـيفاً والمستعدّين للقتال، على ضفّتي نهر غرانيكوس طوال اللـيل، وبالطـبع، لن يقاتل هؤلاء الرجال يوم غد، لأنهم سيكونون منهكين جداً إذا فعلوا".

أنهى الجميع تناول طعام العشاء في الوقت المحدد، وتوجه القادة إلى الـنوم، وكـذلك فعـل الإسكندر. ساعدته ليبتين على نـزع درعه وملابـسه، ثم سـاعدته على الاغتسال، وكانت قد جهزت حمّامه في ناحية منفصلة من الخيمة الملكية.

سألته في أثناء انهماكها بفرك كتفيه بإسفنجة: "أصحيحٌ يا مولاي أنك ستقاتل شخصياً؟".

"إن هذه الأمور لا تخصّك يا ليبتين. أما إذا قمتِ بالتنصّت مجدداً من وراء الستارة، فسأصدر أمراً بإبعادك".

نظرت الفتاة نحو قدميها، ووقفت صامتة لفترة من الوقت. وحين أدركت أن الإسكندر ليس غاضباً منها عادت إلى الحديث مجدداً: "لماذا لا تخصّني هذه الأمور؟".

"لأنه لن يحدث لك شيء إذا سقطتُ في ميدان المعركة. فستحصلين على حريتك، وعلى مدخول كاف كي تعيشي حياتك".

حدّقت إليه ليبتين بحزن، وبدأ ذقنها بالارتجاف، بينما اغرورقت عيناها بالدموع. فأشاحت بوجهها كي لا يرى دموعها.

لاحظ الإسكندر الدموع التي سالت على خديها: "لماذا تبكين؟ ظننت أنك ستكونين سعيدة".

هدّأت الفتاة من روعها، ثم قالت عندما استعادت رباطة جأشها: "أنا سعيدة طالما أنني قربك يا مولاي. أما إذا لم أتمكن من التواجد معك، فلن تكون لديّ رغبة في الحياة".

تلاشت الأصوات المتصاعدة من المخيّم، ولم يكن بالإمكان سماع أيّ صوت باستثناء أصوات الحرّاس الذين ينادون بعضهم بعضاً وسط الظلام، بالإضافة إلى نباح الكلاب البرية الباحثة عن طعامها. وحين وقف الإسكندر، اقتربت منه ليبتين وتحضرّت لتجفيفه.

فقال الملك: "سأنام بكامل ثيابي هذه الليلة". وارتدى ثياباً نظيفة، واختار الدرع الذي سيضعه في اليوم التالي، وخوذةً من البرونز مصفحةً بالفضة، وبشكل رأس أسد بفكّيه المفتوحتين، مزيّنةً بريشتين طويلتين تعودان لمالك الحزين. وضع الملك كذلك درعاً أثينياً للصدر مصنوعاً من الكتان المضغوط بالإضافة إلى حماية لمنطقة القلب على شكل الوحش الذي يمتلك شعراً من الأفاعي (في الأساطير اليونانية القديمة)، كما وضع درعي الساقين البرونزيين اللامعين جدًّا واللذين بدوَا كالذهب، بالإضافة إلى حزام سيفٍ مصنوعٍ من الجلد الأحمر الذي يتوسطه وجه أثينا.

قالـــت ليبتين بصوتٍ مرتعش: "ستكشفك هذه الملابس من على مسافة بعيدة".

"أريـــد أن يـــراني رجالي، ويتعيّن عليهم أن يعرفوا أنني أجازف بحياتي قبل أن أجازف بحياة الآخرين. أريدك أن تخلدي إلى النوم الآن يا ليبتين، لا أحتاج إليك في شيء في هذا الوقت".

غادرت الفتاة بخطواتٍ سريعة ورشيقة. فرتّـب الإسكندر أسلحته علـــى رفوف خزانة الأسلحةً الموجودة قرب سريره، وما لبث أن أطفأ مـــصباحه. بقيت دروعه ملحوظة بالرغم من الظلمة الحالكة، فبدا مثل شبح محارب ينتظر بسكون أشعة الفجر الأولى كي يعود إلى الحياة.

6

استيقظ الإسكندر بينما كان بيريتاس يلعق وجهه. هبّ واقفاً، فرأى مساعدين واقفين أمامه وقد تجهّزا كي يساعداه على وضع درعه. وأحضرت ليبتين طعام فطوره على صينيةٍ فضية، وكان عبارة عن بيضة نيئة مخفوقة مع الجبن، وبعض الطحين والعسل والشراب.

تناول الملك طعامه واقفاً بينما انشغل المساعدان بتثبيت درع صدره ودرعَي ساقيه، وثبّتا له حزام سيفه من فوق كتفه، وكذلك فعلا مع السيف وغمده.

قال وهو يغادر: "لا أريد بوسيفالاس، لأن ضفتي النهر زلقتان جداً، وهو الأمر الذي يشكل مخاطرة بالنسبة إلى ساقيه. جهّزا لي الجواد سارماشي (جواد بنيّ اللون)".

توجّه مساعداه كي يجهّزا له الجواد الذي اختاره، وما لبث الإسكندر أن تبعهما حتى وسط المعسكر حاملاً خوذته تحت ذراعه اليسرى. اصطفّ معظم الرجال تقريباً، فيما ركض بعض الرجال ليتّخذوا مراكزهم إلى جانب رفاقهم. امتطى الإسكندر سارماشي، وسار به كي يتفحص سريتي خيّالة التيساليين والمقدونيين، وتفقّد بعد ذلك مشاة اليونانيين والفالانج.

انتظره فرسان فرقة الطليعة في آخر المعسكر، أي قرب مدخله الشرقي. انتظم الفرسان في خمسة صفوف، ورفعوا رماحهم بصمت عند مرور الإسكندر أمامهم.

اتخـــذ الأسود مكانه إلى جانب الإسكندر، وبعد ذلك رفع الملك ذراعـــه في إشــــارة إلى إعطائه الأمر بالتحرك. وتصاعدت في الأجواء أصـــوات آلاف الأحصنة لدى انطلاقها، وترافقت هذه الأصوات مع القـــرقعة شبه الصامتة لأسلحة جنود المشاة عندما بدأوا تحرّكهم وسط الظلمة المخيّمة.

سمـــع الإسكندر ورفاقه ضجيج الأحصنة التي كانت تقفز على بعـــد بضعة ستاديات من غرانيكوس، وسرعان ما ظهرت من وسط الظلمـــة دوريـــة مؤلفة من أربعة رجالٍ من الكشافة، وتوقفت أمام الإسكندر.

قال قائدهم: "أيها الملك، لم يتحرك البرابرة بعد، وهم لا يزالون متمركزين على أرضٍ قليلة الارتفاع على بعد ثلاثة ستاديات من النهر. وتجـــوب دوريات من الكشافة الميديين والسكاثيين ضفّتي النهر، وهي الدوريات التي تراقب جهتنا، لذلك لا نستطيع أن نفاجئهم".

أجاب الإسكندر: "بالطبع لا. لكن، قبل أن يقطع جيشهم مسافة الـــستاديات الثلاثة التي تفصلهم عن الضفة الشرقية سنكون قد اجتزنا المعبر ووصلنا إلى الضفة الأخرى، وسنكون قد أنهينا معظم مهمتنا عند تلك النقطة". أشار إلى حارسه كي يقترب منه قبل أن يتابع: "أبلِغ قادةَ الفـــرَق كلهم كي يتجهزوا للعبور إلى الضفة الأخرى ما إن نجد موقعاً مناسباً لنـــزولنا. سنهرع جميعاً إلى النهر ونعبره بأسرع ما يمكننا. أريد أن يتحرك الفرسان أولاً".

بدأ الحرّاس بالتحرك أولاً، وما لبث المشاة أن توقفوا كي يسمحوا لـــصفّين من الفرسان الذين يسيرون إلى جانبيهم بالتقدم والاصطفاف بمحـــاذاة نهـــر غرانيكوس. في تلك الأثناء، بدأت خيوط الفجر الأولى بالظهور من جهة الشرق.

قال الإسكندر وهو يشير إلى الهلال الساطع الذي كان يستعد للاختفاء من جهة الجنوب وراء تلال فريجيا: "ظنوا أن الشمس ستُبهر عيوننا، لكنهم لم يعلموا أنّه ما من شيء سيزعجنا حتى القمر".

رفع الإسكندر يده، وقاد جواده حتى النهر، وتبعه الأسود وسرية فرسان الطليعة بأكملها. سمع الجميع في الوقت ذاته صرخة آتية من الضفة الأخرى، ثم تبعتها نداءات أعلى بلغت ذروتها في صوت بوق استمرّ لوقت طويل، ومترافقٍ مع إشارات أخرى. كانت تلك الأصوات والنداءات صادرة عن رجال الكشافة الميديين والسكاثيين الذين كانوا ينذرون من هجوم وشيك.

كان الإسكندر في منتصف المعبر، وما لبث أن صاح: "الأبواق!"، وسرعان ما تصاعدت أصوات الأبواق بنغمة واحدة قوية وحادّة. وسرعان ما انتقلت إلى الجهة الأخرى بعد أن تناغمت مع أصوات الأبواق الأعمق منها. بدأت الجبال بترديد أصداء هذه الأصوات تكراراً بكل ما فيها من إشارات متنوعة.

بدا أن نهر غرانيكوس يغلي ويزبد عندما عبره الملك وحراسه بأسرع ما يمكنهم. وسُمعت صرخة أحد الفرسان المقدونيين الذي جُرح، وما لبث أن سقط في مياه النهر. تجمع الكشافة الميديون والسكاثيون معاً على ضفتي النهر، وراحوا يطلقون سهامهم بغزارة ومن دون التصويب بدقة على المجموعة المهاجمة. وجُرح آخرون في أعناقهم، وبطونهم، وصدورهم. فكّ الإسكندر درعه ونخس جواده البنيّ كي يمضي قُدُماً، وسرعان ما وصل إلى الجهة الأخرى من النهر!

صاح الإسكندر: "إلى الأمام! إلى الأمام! الأبواق!".

تصاعدت أصوات الأبواق، وأصبحت أكثر حدةً وقوة. أما الجياد فتزايد صهيلها بعد أن أثارها الفوضى وصرخات الفرسان الذين يركلونها، وحتى إنهم استخدموا السياط من أجل حثّها على التقدم في مواجهة تيار المياه الذي يعاكسها.

وسرعان ما انتهى الصفّان الثاني والثالث من عبور وسط المعبر، فيما كان الصّف الرابع والخامس والسادس على وشك دخول المياه. بدأ الإسكندر وسريته من الفرسان بتسلق الضفة الزلقة، وسار وراءهم الفالانج بإيقاعاهم المدوية، وتقدموا بصفوفٍ منتظمة وقد ارتدوا ملابسهم القتالية كاملة.

هرب كشافة العدو من وجه السهام، واستداروا بجيادهم بأقصى سرعة نحو الميدان الذي تصاعدت منه قرقعة مخيفة صادرة عن الأسلحة، بينما تحركت خيالاتٌ غير واضحة للجنود الذين كانوا يتحركون في الاتجاهات كلّها وسط الظلمة، حاملين معهم مصابيحهم بأيديهم، وقد ملأوا الجو بالنداءات والصرخات بمئة لغةٍ مختلفة.

أمر الإسكندر سرية الطليعة باتخاذ تشكيل، كما اتخذ مركزه على رأسها، بينما نظمت سريتان من الهيتايروي وسريتان من الفرسان التيساليين جنودها على جهتَي سرية الطليعة في أربعة صفوف، وكانت هذه السرايا تتلقى أوامرها من قادتها. أما المقدونيون فكانوا بقيادة كراتيروس وبيرديكاس، بينما كان التيساليون تحت قيادة الأمير إمينتاس وضباط من أوينوماوس واخكراتيديا. انتظر نافخو الأبواق إشارة من الملك كي يبدأوا بإطلاق إشارة الهجوم بأبواقهم.

نادى الإسكندر: "يا أسود، أين هم مشاتنا؟".

ركض كلايتوس حتى نهاية الصف وتطلع نحو النهر، وأجاب: "إنهم يتسلقون الضفاف الآن يا مولاي!".

"إذاً، انفخوا الأبواق! وإلى الأمام!".

ترددت أصوات الأبواق من جديد، وما لبث أن بدأ نحو اثني عشر ألف جواد بالوثوب في وقتٍ واحد، وجنباً إلى جنب. كانت الجياد تلهث وتصهل، أما خطواتها فقد كانت حسب إيقاع سرماشي، جواد الإسكندر المهيب.

في هذا الوقت، بدأ فرسان الفُرس في الجهة الأخرى بالتجمع معاً. فعلوا ذلك بسرعة كبيرة، ووسط فوضى عارمة من قِبَل الجنود الذين اصطفوا منتظرين إشارة من قائدهم الأعلى المرزبان سبيثريدات.

وصل رجلان من الكشافة بأقصى سرعة، وهما يصيحان: "بدأ المقدونيون هجومهم يا مولاي!".

لم يتأخر سبيثريدات عن إصدار أوامره: "إذاً، اتبعوني. دعونا نُرجع اليونانيين إلى المكان الذي أتوا منه، أو نرميهم في المياه طعاماً للأسماك. تقدموا! تقدموا!".

ترددت أصوات الأبواق (القرون التي تُستخدم كالأبواق)، وما لبثت الأرض أن اهتزت تحت وقع قوائم جياد نايسيا. برز في بداية صف الجنود الميديون والخراسانيون الذين حملوا أقواسهم المزدوجة الكبيرة، بينما وقف الأوكسيانيون وجنود قادش (قادشيون) الذين تسلحوا بسيوفهم الطويلة والمنخفضة، ووقف الساكا والدرانجيون وهم يلوحون بسيوفهم الكبيرة.

ما إن تحرّك الفرسان حتى تقدم المرتزقة من المشاة اليونانيين المزودين بأسلحةٍ ثقيلة، والذين كانوا في حالة تأهبٍ تام للقتال ويتحرّكون بتشكيلاتٍ متقاربة.

صـــاح بهـــم ممنون رافعاً رمحه: "يا مرتزقة الأناضول، لقد بيعت سيوفكم! إنكم لا تمتلكون بيوتاً ولا أوطاناً ترجعون إليها! إنه الموت أو المجـــد بالنـــسبة إليكم. تذكّروا أننا لن نجد رحمةً لأننا نحارب مع ملك فـــارس العظيم، وذلك بالرغم من كوننا يونانيين. إن وطننا هو شرفنا أيهـــا الرجال، ورماحنا هي خبزنا اليومي. حاربوا من أجل أرواحنا، وأرواحنا هي الشيء الوحيد الذي بقي لنا"*آلالالاي!*".

تحـــرك ممنون ببطء أولاً، وبوتيرة أسرع بعد ذلك، أما رجاله فقد رددوا وراءه: "*آلالالاي!*".

ركـــض المرتزقة وراءه، وحافظوا على تشكيلات متراصّة في خط المـــواجهة، كمـــا تصاعدت في الأجواء أصوات قرقعةٍ رهيبة ناتجة عن الأســـلحة الحديديـــة والبرونـــــزية، والتي تزامنت مع التقاء كل قدم بالأرض.

شـــاهد الإســـكندر سحابةً من الغبار الأبيض على بعد أقل من ســـتاديا، ومـــا لبث أن صاح بأحد حاملي الأبواق: "أطلِق إشارة بدء الهجـــوم!"، تـــردّد صوت البوق في الأجواء، وما لبثت سرية فرسان الطليعة أن انطلقت بهجومها وبدأت المعركة.

أخفـــض الفرســـان رماحهم وانطلقوا إلى الأمام، بينما كانت أيـــديهم تمسك بشدة أعنّة الجياد وأعرافها، واستمر ذلك حتى بداية الصدام وبداية الالتحام الرهيب والعنيف للرجال والحيوانات، ووسط صيحات المحاربين وصهيل الجياد، وهي الصيحات التي تلت الالتحام الأول بـــين الرماح الخشبية الطويلة، والتي تبعت الوابل المميت لرماح الفُرس.

حدّد الإسكندر موقع سبيثريدات إلى يمينه، ولاحظ أنه كان يقاتل بشراسة، وقد تحوّل سيفه إلى اللون الأحمر بفعل الدماء، ورأى العملاق

ريوميثريس يقوم بتغطية تحركاته، فنخس جواده في ذلك الاتجاه وصاح به: "قاتِل أيها البربري! قاتِل ضد ملك مقدونيا إذا كنت تمتلك العزيمة!".

نخس سبيثريدات جواده بدوره ورمى رمحه. أصاب رأس ذلك الرمح درع كتف الإسكندر فجرح المنطقة ما بين عنقه وعظمة ترقوته، لكن الملك استلّ سيفه، واستدار بجواده بأقصى سرعة نحو سبيثريدات واصطدم به مباشرة. فَقَدَ المرزبان توازنه نتيجة قوة الاصطدام فاضطر إلى التمسّك بجواده بكل قوته كي يتجنب السقوط، وهكذا انكشفت خاصرته. ولم يُضِع الإسكندر وقتاً، فغرز سيفه في جسد خصمه، لكنّ الفُرسَ توجهوا نحوه بالعشرات. تسبّب أحد السهام الذي أصاب جواد الإسكندر بتعثره، فجثا على ركبتيه، لكن الإسكندر فشل في المراوغة في الوقت المناسب، فلم يتمكن من تجنّب فأس ريوميثريس.

أفاد درعه جزئياً في تفادي الضربة، وهكذا أصيبت خوذته، وانشطرت بحيث بدت بطانة الخيش وكذلك فروة رأسه. سقط الإسكندر على الأرض مع جواده، وما لبث الدم أن انهمر بغزارة وغطّى وجهه بالكامل.

رفع ريوميثريس الفأس مجدداً، لكن الأسود تدخّل في تلك اللحظة بالذات، وراح يصرخ بشراسة ملوّحاً بسيف إيليري ثقيل، ونجح في قطع ذراع البربري بضربة واحدة.

قفز الملك إلى جوادٍ كان يجري بحريةٍ في ميدان المعركة، وما لبث أن أقحم نفسه مجدداً في خضمّ المعركة.

صُدم الفرس كلياً بموت قائديهما فبدأوا بالتراجع، في حين استفادت فرقة الطليعة من الزخم الهائل الذي أضافه دخول أربع سرايا

مـــن فرســـان *الهيتايـــروي* وفرسان التيساليين الذين كانوا تحت قيادة إمينتاس.

قاتل فرسان الفرس بكل جرأة، لكن الفوضى أصابت صفوفهم، ليس بسبب فرقة الطليعة التي شقت طريقها إلى مسافاتٍ أعمق في هذا الـــوقت فقط، ولكن بسبب التأثير الفعلي للفرسان المسلّحين تسليحاً خفـــيفاً والـــذين اخترقوا صفوف الجنود الفرس على شكل موجات. اشتملت صفوف هؤلاء على المحاربين التراقيين والتريباليين، وهم الذين أظهـــروا شراســـةً تماثل شراسة الوحوش البرية، فانقضوا على الجنود الفـــرس، وأطلقـــوا وابلاً من السهام، ثم انتظروا اللحظة المناسبة للبدء بالقتال وجهاً لوجه فور أن تبيّن لهم أن عدوّهم كان متعباً، وعلى آخر رمقٍ له.

أما رفاق الإسكندر - أي كراتيروس، وفيلوتاس، وهيفاستيون، وليوناتوس، وبيرديكاس، وبطليموس، وسلوقس، ولايسيماخوس - فقـــد حذوا جميعاً حذو ملكهم، وقاتلوا في الصفوف الأمامية، كما ســـعوا إلى الـــتلاحم مباشـــرةً مع قادة أعدائهم الذين سقط منهم عـــدد كـــبير ما بين قتيل وجريح، وكان من بينهم أقارب للملك العظيم.

بـــدأ فرسان الفرس بالتراجع. ولكن، لحقت بهم فرقة *الهيتايروي*، بالإضـــافة إلى التيـــساليين والفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً والذين يتميزون بسرعة تحركهم، وخاضوا جميعاً معركة شرسة وجهاً لوجه مع أعدائهم.

في هـــذا الـــوقت، بدأ الصدام بين كتائب *البيزيتاروي*، والمشاة المرتـــزقة الـــتابعين للقائـــد ممنون، وهم الذين تابعوا تقدمهم بصفوفٍ متراصة، مستفيدين من الحماية التي توفرها لهم دروعهم المحدبة الكبيرة،

وخـــوذات الوجه الكورينثية الخفيفة. أطلق الجيشان صرخة *آلالاي!* واندفعا إلى الأمام شاهرين الأسلحة المتوفرة لديهما.

أعطى ممنون الإشارة، فأطلق المرتزقة اليونانيون رماحهم في وقتٍ واحـــد. انطلقـــت الرماح موجةً واحدة برؤوسها الحديديّة المسننة، ثم شهر المرتزقة سيوفهم، وأقحموا أنفسهم في خضم المعركة. حدث ذلك قـــبل أن تتسنى للفالانج فرصة إعادة تنظيم أنفسهم. وهم الذين كانوا يحاولـــون التقدم عبر الرماح المتساقطة، وذلك بهدف إحداث ثغرةٍ في خطوط العدو الأمامية.

أدرك بارمينيون الخطر المحدق بجنوده، لذلك استدعى الأغريانيين المتوحـــشين وأمرهم بالتوجه نحو جهتَي قوات ممنون، فاضطر المرتزقة اليونانيون إلى التراجع كي يدافعوا عن أنفسهم.

أعـــاد الفـــالانج تنظيم أنفسهم، وسرعان ما بدأ صفّهم الأمامي برمـــي الـــرماح مجدداً، وهكذا، حوصرت قوات ممنون بالكامل، ومن الخلـــف كذلك، لأن الفرسان المقدونيين كانوا قد عادوا من مطاردتهم للفُرس الذين قاتلوا بجرأة حتى النهاية المرة.

غمـــرت الـــشمس الـــسهل بنورها، فأضاءت الجثث المتكدسة الواحدة فوق الأخرى. أمر الإسكندر بإحضار بوسيفالاس، وبينما اهتم الأطـــباء البيطـــريون بجـــواده البني الجريح، استعرض الإسكندر قواته المنتصرة. كان وجهه مغطى بلون الدم الأحمر نتيجة الجرح الذي تعرّض له في رأسه، كما أن درع صدره تعرّض للتمزق برمح سبيثريدات، فيما كـــان جـــسمه مغطى بطبقةٍ من الغبار والعرق. لكن رجاله نظروا إليه كـــسيد مبجل. راح الجنود يدقون رماحهم على دروعهم، أي مثلما فعلوا في ذلك اليوم الذي أعلن فيه فيليب ولادة الإسكندر أمام جنوده الذين راحوا يصرخون: *"إسكندر، إسكندر، إسكندر!"* .

نظر الملك إلى آخر ميمنة صف جنود *البيزيتاروي* فرأى بارمينيون هناك. قارب ذلك القائد السبعين من عمره، لكنه وقف حاملاً أسلحته كلّها، كما ظهرت على جسمه بوضوح علامات المعركة التي خاضها للتو. حمل سيفه بيده، ووقف بمثل صلابة الجنود الذين يبلغون العشرين من أعمارهم.

قاد الإسكندر بوسيفالاس نحوه، وعندما وصل ترجّل عنه، وعانق ذلك القائد المخضرم وسط صرخات جنوده المتصاعدة.

7

انحنى جنديان من الأغريانيين على كومةٍ من الجثث، وبدأا بتجريدها من أفضل أسلحتها: الخوذات البرونزية، والسيوف الحديدية، ودروع السيقان، ثم وضعا كل هذه الأسلحة داخل عربة كانت قريبة منهما.

فجأة، لاحظ أحدهما وسط أنوار المساء المتلاشية، سواراً ذهبياً على شكل أفعى حول معصم إحدى الجثث. اقترب الجندي أكثر، بينما كان رفيقه ينظر إلى الجهة المعاكسة، وقصد أن يُبقي ذلك الكنز الصغير لنفسه. لكن ما إن انحنى كي يمسك بالسوار حتى برز خنجر لامع من بين كومة الجثث، وقطع رقبته من الأذن حتى الأذن، وبحركةٍ واحدة.

سقط الرجل بصمت فيما كان رفيقه يركّز على وضع الأسلحة في صندوق العربة، لذلك لم يتمكّن من سماع صوت جثة رفيقه وهي تسقط على الأرض بسبب الضجيج الناتج عن تحميل هذه الأسلحة. وعندما استدار مجدداً، اكتشف أنه يقف وحده وسط أضواء الغسق، فبدأ بمناداة صديقه، وظنّ أنه ربما قد خبأ نفسه على سبيل المزاح.

"تعال... تعال. توقّف عن حماقتك هذه، وساعدني على التحميل..."، ولكنّه لم يتمكّن حتى من إكمال جملته هذه، لأن الخنجر ذاته الذي شقّ رقبة صديقه اتخذ طريقه إلى المنطقة ما بين عظمة ترقوته وبين عنقه، وانغرز حتى مقبضه.

جـــثا الأغرياني على ركبتيه، وأمسك بخنجره، لكنه لم يمتلك ما يكفـــي من القوة ليتمكن من سحبه، فسقط على الأرض بعد أن سبقه إليها رأسه.

بعد ذلك، نهض ممنون، وحرّر نفسه من كومة الجثث التي اختبأ بينها حتى تلك اللحظة، وما لبث أن انطلق مترنحاً، وساقاه غير ثابتتين. كان في حالـــة سيئة بعد أن سيطرت عليه الحمى، وبعد أن خسر مقداراً كبيراً من الدماء التي نـــزفت من الجرح الذي أصيب به في فخذه اليسرى.

تـــناول حـــزاماً من أحد الأغريانيِّين وربطه بإحكام حول أعلى ســـاقه، ثم نـــزع قطعة من عباءته كي يستخدمها كضمادة من أجل وقـــف النـــزيف. وبعد أن انتهى من صنع هذه الضمادة البديلة، جرّ نفـــسه وبذل مجهوداً كبيراً للوصول إلى ظلال شجرة حيث انتظر هناك هبوط الليل.

تمكّن من سماع صيحات الابتهاج التي كانت تتصاعد من معسكر المقدونـــيين، وهي الصيحات التي وصلت إليه شبه مكتومة نتيجة بُعد المـــسافة. أما إلى يساره، وعلى بُعد ستاديايين من مكانه فقد تمكن من رؤية وهج نيران المعسكر الفارسي الذي نهبه العدو بالكامل.

قطع بسيفه فرعاً من شجرة، وانطلق في طريقه وهو يعرج، بينما اجتمعت الكلاب البرية في مجموعات راحت تلتهم أطراف جنود الملك العظيم، الذين تصلبت أجسادهم بعد موتهم. جرّ نفسه، وراح يضغط أسنانه على بعضها كي يكتم ألمه، وكي يتغلب على الإجهاد الذي هدد بطـــرحه أرضاً. شعر خلال سيره أن ساقه المجروحة تتثاقل أكثر فأكثر، وأحسّ بأنها مجرد كتلة جامدة من اللحم.

فجـــأة، رأى أمامه ظلاً داكناً. كان جواداً تائهاً في طريق عودته إلى المعسكر كي يفتّش عن صاحبه، لكنه تاه بفعل الظلمة المخيّمة على

المكـــان. سار ممنون نحوه ببطءٍ وحذر، وراح يناديه بلطفٍ ويطمئنه، ثم مدّ يده بحذر كي يمسك باللجام الذي تدلى من عنقه.

اقترب من الجواد أكثر، وبذل جهداً كبيراً عندما جرّ نفسه وقفز فوق صهوته، ثم حثّه على التقدم ببطء. انطلق الجواد يسير ببطء، بينما تمـــسّك ممنون بعرفه وقاده نحو زيليا؛ أي نحو قصره. تابع المسير، وكاد يـــسقط أكثر من مرة عن صهوة الجواد خلال الليل. إذ كان متعباً بعد أن فقـــدَ كمية كبيرة من الدم. راح يفكّر في بارسين وفي ولديه، وهو الأمر الذي أعطاه عزيمة من أجل متابعة المسير حتى كاد يستهلك آخر شعلةً من طاقته.

وحـــين بـــزغت خيوط الفجر الأولى، كان على وشك أن ينهار كلـــياً. وفجأة، رأى وسط ضوء الصباح جماعةً من الرجال المسلحين وهم يطوفون في الغابة بحذر. عند ذاك، سمع صوتاً يناديه: "أيها القائد، نحـــن هـــنا". كانـــوا أربعـــةً من المرتزقة الذين يشكّلون فرقة حراسه الشخـــصيين والـــذين انطلقوا للبحث عن قائدهم. اقتربوا منه، لكنه بالكاد تمكّن من تمييزهم، وما لبث أن فقدَ وعيه.

وعـــندما فتح عينيه مجدداً وجد نفسه محاطاً بمجموعة من الفرسان الفُرس الذين كانوا يراقبون لمعرفة المدى الذي وصل إليه العدو.

تكلّـــم بلغـــتهم فقال: "أنا القائد ممنون، وتمكّنت من النجاة من معركة غرانيكوس مع هؤلاء الأصدقاء الشجعان. خذونا إلى مدينتنا".

قفـــز قائد المجموعة إلى الأرض، وأشار إلى رجاله كي يساعدوه. وضع الرجال ممنون في ظل شجرة، وأعطوه قربة ليشرب منها. كانت شفتاه متشققتين من أثر الحمى، وكان جسمه ووجهه متسخين بسبب الدم المتجمد والغبار والعرق، أما شعره فكان ملتصقاً بجبهته.

قال أكبر الرجال سناً: "لقد فقدَ كميةً كبيرةً من الدم".

أمـــر الـــضابط الفارسي جنوده: "أحضِروا عربةً إلى هذا المكان بأسرع ما يمكنكم، واجلبوا الطبيب المصري إن كان لا يزال ضيفاً عند النبـــيل آرسيتس، وأخبروا عائلة القائد ممنون أننا عثرنا عليه، وأنه على قيد الحياة".

قفز الرجل على صهوة جواده، وسرعان ما اختفى بأقصى سرعة.

سأل الضابط المرتزقة الذين يعملون تحت إمرته: "ماذا حدث؟ لقد تلقينا تقارير متناقضة".

طلـــب الرجال الحصول على الماء، وشربوا، ثم راحوا يروون ما حـــدث معهم: "كان الظلام قد حلّ عندما عبروا النهر باتجاهنا. اضطر ســـبيثريدات إلى شنّ هجومٍ مضاد بالرغم من أن عدداً كبيراً من رجاله لم يكونـــوا على أهبة الاستعداد. قاتلنا حتى النهاية المرة، لكنهم تغلبوا عليـــنا. في إحـــدى المراحل، وجدنا أمامنا الفالانج المقدونيين، وكان الفرسان وراءنا".

قال ممنون معترفاً، بعد أن نظر إلى الأسفل: "خسرت عدداً كبيراً مـــن رجـــالي. كانوا مقاتلين مخضرمين زادهم المعارك عزيمة، وجنوداً شـــجعاناً أحببـــتهم. أما هؤلاء الموجودون هنا معي فقد كانوا من بين القلـــيلين الذين بقوا لي. لم يُعطنا الإسكندر حتى فرصة التفاوض على الاستـــسلام، وكـــان واضحاً لي أن أوامره الموجّهة إلى مقاتليه كانت تقضي بعدم إظهار أيّ رحمة. كانت المجزرة التي حدثت معنا مثالاً على المصير الذي يلقاه اليونانيون الذين يجرؤون على معارضته".

سأل الضابط الفارسي: "وما هي مخططاته بالضبط برأيك؟".

"إذا كـــان في وســـعنا أن نصدّق ما يقوله، فهو يريد تحرير المدن اليونانـــية في آسيا، لكنني لا أعتقد فعلاً أن هذا هو كل ما يريده. إن جيشه عبارة عن آلة رهيبة مستعدة للقيام بمهمة أكبر بكثير".

"وما هي تلك المهمة الأكبر؟".

هزّ ممنون رأسه: "لا أعرف".

كـــان الإرهـــاق يبدو واضحاً عليه، كما سيطر شحوب رمادي على وجهه بالرغم من الحمى، وارتعش واصطكّت أسنانه.

وضـــع الـــضابط عباءة عليه وقال له: "استرِح الآن. سرعان ما سيصل الطبيب، وعندها سنأخذك إلى منـــزلك". أغمض ممنون عينيه مـــن شدة الإرهاق واستسلم للنوم. لكنّ نومه كان مضطرباً ويسيطر عليه الألم والكوابيس. كان ممنون يهذي عندما وصل المصري في آخر الأمر، وراح يصرخ بكلماتٍ غير مفهومة، وكان واضحاً أنه واقع تحت رحمة الكوابيس المرعبة.

وضعه الطبيب فوق عربة، وغسل جرحه بالخل والشراب الصافي، ثم قطّـــب لـــه فخذه وضمدها بقطعة قماشٍ نظيفة، وسقاه كذلك شراباً مراً ســـاعده على تخفيف ألمه وجعله يستغرق في نومٍ أعمق، ولكن أكثر هناءة. في هـــذا الوقت، أعطى الضابط الفارسي الأمر بالانطلاق فتحركت العربة التي يجرّها بغلان، وراحت عجلاتها تصدر صريراً وتتمايل.

وصل الموكب إلى زيليا عند منتصف الليل. وما إن رأت بارسين الموكب عند وصوله إلى أول الطريق حتى ركضت كي تستقبله وسط الدمـــوع، لكنّ ولديه تذكّرا ما أوصاهما به والدهما فوقفا بصمت عند الباب، بينما حمل الجنود ممنون إلى سريره.

كان المنـــزل مضاءً بأكمله، بينما جلس أطباء يونانيون في غرفة الانتظار كي يفحصوا القائد. كان أكبر الرجال سناً هو أكثرهم خبرة. قال الرجل إنه يُدعى أريسطون وإنه جاء من أدرامايتيون.

تحـــدث الطبيب المصري بالفارسية فقط، لذلك اضطرت بارسين إلى ترجمة ما يقوله في أثناء عملية الفحص التي تمت في سرير ممنون.

"كان قد فقد كمية كبيرة من الدم عند وصولي، كما أنه أمضى الليل بطوله فوق صهوة جواد. لا توجد عظام مكسورة، كما أن بوله طبيعـــي، ونبضات قلبه ضعيفة وإن كانت غير منتظمة، وهذا ما يعطينا بصيصاً من الأمل. كيف تنوي المضي في العلاج؟".

أجاب أريسطون: "أريد وضع ضمادات من الخبازى على الجرح، وإجراء بعض التصريف إذا التهب الجرح".

أومـــأ زميله المصري: "وأنا أوافقك الرأي. لكن، أعطه ما يقدر على شربه من الماء. اسقوه بعض المرق كذلك... إنه نافع للدم".

عندما انتهت بارسين من ترجمة كلماته قادته إلى الباب، ووضعت كيـــساً مـــن المال في يده، وقالت له: "إنني ممتنة لك كثيراً على كل ما فعلته لزوجي، فلولاك لكان من المحتمل ألاّ ينجو".

قبِل المصري المال بانحناءة: "لم أقم بالكثير يا سيدتي. إنه قوي مثل ثـــور، صـــدقيني. أمضى يوماً كاملاً وهو مختبئ بين الجثث، وفقدَ دماً كثيراً بسبب ذلك الجرح، ثم تمكن من الصمود خلال الليل وسط آلام شـــديدة، إن رجـــالاً من هذا النوع قليلون، وهم يظهرون في فتراتٍ متباعدة".

ســـألت بارسين بجزع: "هل سيعيش؟"، وكان السؤال ذاته يبدو واضحاً في عيون الجنود الذين كانوا يتطلعون بصمت.

"لا أعرف. عندما يُصاب جسم الإنسان بجرحٍ خطيرٍ كهذا، فإن الـــسوائل الحـــيوية تخرج منه وتأخذ معها روح الإنسان، ولهذا السبب أقـــول لـــك إن حياته في خطر. لا أحد يعرف بالضبط كم من الدماء خسر ممنون، وكم تبقى في قلبه، لكن أريدك أن تتأكدي من شربه أكبر قـــدرٍ ممكن من الماء لأن وجود الدم الذي يحتوي على ماءٍ كثير أفضل من عدم وجود دمٍ على الإطلاق".

غـــادر الطبيب، وعادت بارسين إلى الغرفة حيث انشغل الأطباء بمريـــضهم، وحضّروا له الأعشاب والنقيع، ثم رتّبوا أدواتهم الجراحية، وذلك في حال اضطرّوا إلى تصريف الجرح. نـــزعت الخادمات ثيابه، ونظفـــن جـــسمه ووجهه بقطع قماشٍ مبللة بماء ساخن ومعطر بروح النعناع.

اقترب الولدان اللذان ظلا صامتين حتى هذه اللحظة، وسألا عن آخر أخبار والدهما.

قال أحد الأطباء: "يمكنكما أن تأتيا لرؤيته، لكن لا تزعجاه لأنه يجب عليه أن يرتاح".

كـــان إيتـــيوكل - وهو الأكبر سناً - أول من تقدّم، ونظر نحو والده وهو يأمل أن يفتح عينيه. ولكن، عندما لم يلحظ أي حركة من جانبه التفتَ إلى أخيه، وهزّ رأسه.

قالـــت لهمـــا بارسين في محاولةٍ منها لطمأنتهما: "اخلدا إلى النوم الآن، وغداً سيكون والدكما في حالٍ أفضل، وستتمكنان من التحدث إليه".

قـــبّل الولدان اليد التي تدلت من السرير من دون حراك، وغادرا الغرفة مع أستاذهما.

الـــتفت إيتيوكل إلى فرآت قبل أن يصلا إلى غرفتيهما، وقال له: "إذا مـــات والدي، فسألاحقُ الإسكندر أينما كان وسأقتله. أقسم أنني سأفعل هذا".

ردّد الأخ الأصغر: "وأنا أقسم أيضاً بحياة أبـــي على هذا".

لازمت بارسين سرير زوجها طوال الليل، بالرغم من أن الأطباء الثلاثة تناوبوا على مراقبته كما يفعل الحرّاس. داوم الأطباء كذلك على تغيير ضمادات الماء البارد ووضعها على جبهته. وفحص أريسطون مع

بـــزوغ الفجـــر ساق المريض ولاحظ أنها متورمة ومحمرة، فأسرع إلى إيقاظ أحد مساعديه.

"يتعـــيّن علينـــا وضع العلقات الماصة للدماء من أجل تخفيف ضغط السوائل في الداخل. اذهب إلى غرفتي وأحضِر معك كل الأدوات اللازمة".

تـــدخلت بارســـين بالقـــول: "اعذرني، لكن خلال حديثك إلى الطبـــيب الآخر لم يذكر أحد منكما وضع العلقات. سمعتكما تتحدثان فقط عن تصريف الجرح إذا التهب".

"لكن، ثقي بـــي يا سيدتي. إنني طبيب".

"كان المصري طبيب سبيثريدات الخاص، كما عالج الملك العظيم ذاتـــه. إنني أثق به بدوري، لذلك أرجو ألاّ تضع تلك العلقات قبل أن أرسِل في طلبه".

زلِق أريسطون بالقول: "لكن عليكِ ألاّ تصغي إلى ذلك البربري".

قالت بارسين: "تذكّر أنني بربرية بدوري، وأنا أقول لك لا تضع تلـــك الحـــيوانات المقرفة على جلد زوجي إذا لم يوافق ذلك الطبيب المصري".

قال أريسطون بامتعاض: "إذا نظرتِ إلى الأمر على هذا الشكل، فسأضطر إلى نقل خدمتي إلى مكانٍ آخر".

جاء الرد بصوتٍ بدا وكأنّه آتٍ من مكانٍ ما يتجاوز الحياة: "إذاً، اذهب... اذهب إلى الجحيم".

التفـــتت بارسين نحو السرير، وصاحت: "ممنون!"، ثمّ التفتت بعد ذلـــك نحـــو أريسطون قائلة: "زوجي في حالةٍ أفضل الآن، يمكنك أن تغادرنا الآن. سأرسل إليك أجرك في الغد".

لم يُجبر أريسطون بارسين على تكرار أوامرها هذه، وما لبث أن نـــادى مـــساعديه، ثم خاطـــب بارسين في طريقه إلى الخارج: "لقد

حذرتك، سيزداد الضغط، وسيصبح غير قابل للاحتمال من دون هذه العلقات و...".

"سأتحمل هذه المسؤولية، لا تقلق".

وبعد مغادرة اليونانيين، أرسلت بارسين أحد الخدم كي يُحضر الطبيب المصري. وما لبث الطبيب أن وصل بسرعة من قصر المرزبان سبيثريدات.

وما إن ترجّل من العربة حتى بادر بالسؤال: "ماذا حدث يا سيدتي؟".

"أراد الأطباء اليونانيون استخدام العلقات، لكنني اعترضت. أردت أن أسمع رأيك أولاً. اعتبروا موقفي إهانةً لهم وغادروا المكان".

"قمتِ بالأمر الصائب يا سيدتي. كانت العلقات ستزيد الوضع سوءاً. كيف هو الآن؟".

"لا تزال حرارته مرتفعة، لكنه مستيقظٌ الآن، كما أنه يتكلم معنا".

"خذيني إليه".

دخلا غرفة ممنون فوجداه مستيقظاً، وكان يحاول الخروج من السرير بالرغم من توسلات الخادمات، وتحذيرات رجاله الذين حرسوه طيلة الليل من خارج الغرفة.

قال الطبيب: "إذا وضعتَ ضغطاً مهما كان ضئيلاً على هذه الساق، فإنني سأضطر إلى بترها". تردّد ممنون للحظة ثم استلقى مجدداً، لكنه فعل ذلك متذمّراً. وكشفت بارسين عن فخذه كي يتمكن الطبيب من فحصها. كانت متورمة، ومحمرة، ومؤلمة بشكلٍ مؤكد، لكن لم تظهر عليها أي علاماتٍ واضحة تشير إلى وجود التهاب. فتح الطبيب حقيبته، وأفرغ محتوياتها على طاولة صغيرة قرب السرير.

سألت بارسين: "ما هذه؟".

"إنها نوع من الأشنة. رأيت الجنود الأكسيانيين يعالجون جروحهم بها، وكانت تؤدي إلى شفاء سريعٍ في معظم الأحيان. لا أعرف كيف تعمل، لكن الأمر المهم بالنسبة إلى الطبيب هو الشفاء، وليس معتقداته. أخشى أن لا تكون ضمادات الخبازى كافية بحدّ ذاتها".

اقترب من ممنون ووضع الأشنة على صدره، ثم ما لبث أن ثبّتها في مكانها بضمادة. "إذا شعر في صباح الغد بحكة شديدة إلى درجة لا يُمكن احتمالها تقريباً، فإن ذلك يعني أنه يتماثل للشفاء. لكن لا تدعيه يحكّها، حتى ولو اضطررت إلى ربط يديه. أما إذا ازداد الألم، ولاحظتِ أن الورم يزداد، فسيتعيّن عليك أن ترسلي في طلبي، لأنه إذا حدث ذلك، فهذا يعني أننا مضطرون إلى بترها. أنا مضطر إلى الذهاب الآن لأنه يتعيّن عليّ معالجة عددٍ كبيرٍ من الجرحى في زيليا".

تحركت عربة الطبيب التي يجرها بغلان. وسمحت بارسين للجنود التابعين لزوجها برؤيته لوقتٍ قصير، وذلك قبل صعودها إلى أعلى برجٍ في القصر، أي إلى حيث أُمرت ببناء هيكلٍ صغير. انتظرها رجل دين هناك، وكان يتضرع بخشوع بينما تركزت نظرته على لهبٍ مبجل.

ركعت بارسين على الأرض بصمت، وراحت تراقب ألسنة اللهب تتراقص مع النسائم اللطيفة القادمة من الجبال، ثم راحت تنتظر رداً. تفوّه رجل الدين أخيراً بهذه الكلمات: "ليس هذا بالجرح الذي سيقتله".

سألت المرأة بقلق: "ألا تستطيع أن تخبرني المزيد؟".

حدّق رجل الدين مجدداً إلى ألسنة اللهب التي تزايدت قوة في تلك اللحظـــة مع تزايد قوة الريح. "أرى مجداً عظيماً ينتظر ممنون، لكن هذا المجد يترافق مع خطرٍ شديد. قفي إلى جانبه يا سيدتي، وتأكدي من أن ولديه يقفان إلى جانبه كذلك، لأنّه بإمكانهما أن يتعلما منه الكثير".

8

جُمعت الغنائم والأسلحة التي أخِذت من المعسكر الفارسي كلّها، وكذلك الدروع التي نُزعت من أجساد القتلى في كومة واحدة وسط المعسكر المقدوني. وانشغل رجال إيومينيس بتحضير جردةٍ لها.

وصل الإسكندر برفقة هيفاستيون وسلوقس، وجلسوا على مقعد قريب من الأمين العام.

أشار إيومينيس إلى الضمادة الكبيرة التي صنعها الطبيب فيليب للإسكندر بنفسه، وسأل: "كيف حال رأسك؟".

أجاب الإسكندر: "إنه في حالة مقبولة، لكنني كنت محظوظاً، لأنه لولا الأسود ما كنتَ لتراني هنا اليوم". ثم أشار إلى كومة الأسلحة الكبيرة وأضاف: "وكما ترى يا إيومينيس، لم يعد لديك سبب يدفعك إلى القلق بشأن المال، لأننا نمتلك ما يكفي جنودنا لمدة شهرٍ على الأقل، وهناك ما يكفي لدفع أجور مرتزقتنا".

سأل إيومينيس: "ألا تريد أن تحتفظ بشيء لنفسك؟".

"كلا. لكنني أريد أخذ القماش الأرجواني، والسجّادات، وكذلك الستائر التي أريد أن يُرسَل بعضها إلى والدتي وبعضها الآخر إلى شقيقتي... تحب كليوباترا الأشياء الفخمة".

أعطى إيومينيس أوامره إلى الخدم كي يحضّروا الأشياء المطلوبة، وقال: "سأهتم بكل ذلك. هل هناك شيء آخر؟".

"أجـــل. أريدك أن تنتقي ثلاثمئة مجموعة من الدروع، من أفضل الـــدروع الموجودة، وأن ترسلها إلى أثينا كتقدمةٍ إلى البارثينون. وأريد أن ترفق هذه المجموعة بإهداء".

"أتعني إهداءً خاصاً؟".

"بالطـــبع. اكـــتب من فضلك: *من الإسكندر والإغريق، لكن مع استثناء الإسبارطيين فقط، كذكرى لانتزاعنا هذه الدروع من برابرة آسيا*".

قال سلوقس: "إنها إهانة كبيرة للإسبارطيين".

أجاب الملك: "إنها ليست أكبر من الإهانة التي وجهوها إليّ عندما رفـــضوا المـــشاركة في حملتي هذه. لكن، لن يطول بهم الأمر قبل أن يدركوا أنهم ليسوا أكثر من قرية صغيرة وتافهة. إن العالم بأسره يتحرك مع الإسكندر".

قـــال إيومينيس: "رتبت أمر حضور آبيل وليسيبوس إلى هنا كي يـــرسماك وأنـــت على صهوة جوادك. يتعيّن أن يصلا بحراً إلى هنا في غـــضون الأيـــام القليلة القادمة، إما عن طريق آسوس، أو عن طريق أبايدوس. على كل حال، سنعرف ذلك في وقتٍ قريب، وستتمكن من الجلوس لتحضير التمثال ورسم اللوحة على حدٍّ سواء".

قال الإسكندر: "لا أهتم فعلياً بهذه الأمور. إن ما أريده هو تمثال لـــرجالنا الذين سقطوا في المعركة. أريد تمثالاً لم يشاهد أحد مثله من قبل، وهو أمر لا يستطيع أحد القيام به غير ليسيبوس".

قـــال ســـلوقس: "سنعرف عما قريب نتائج نصرك بالنسبة إلى الأصدقاء والأعداء. أنا مهتم لمعرفة رأي سكان لامبساكوس الذين قالوا إنهم لا يريدون أن يتحرروا".

قـــال هيفاســـتيون ضاحكاً: "سيقولون إنهم ممتنون لك كثيراً لأنك حرّرتهم. إن الرابح على حقٍّ على الدوام، أما الخاسر فهو على خطأ دائماً".

سأل الإسكندر إيومينيس: "هل بعثتَ بالرسالة التي كتبتها إلى والدتي؟".

"بعثتها ما إن أعطيتني إيّاها. يجب أن تكون قد وصلت إلى الشاطئ في هذه اللحظة. وستصل إلى مقدونيا في غضون ثلاثة أيامٍ على الأكثر".

"هل قمت بأي اتصالٍ مع الفُرس؟".

"لا، البتة".

"هذا مستغرب... أرسلت جرّاحين كي يهتموا بالجرحى، كما أمرت أن يُدفن قتلاهم بكل تكريم".

رفع إيومينيس حاجبه.

"أتحاول أن تقول لي شيئاً؟ لأنك إذا كنتَ تحاول قول شيء ما... تكلم بحق زيوس!".

"هذه هي المشكلة بالضبط".

"لا أفهمك".

"لا يدفن الفُرس موتاهم".

"ماذا؟".

"لم أكن أعرف ذلك أنا أيضاً إلى أن شرح لي أحد الأسرى يوم أمس هذا الأمر. يعتبر الفُرس التراب مبجلاً، كما يعتبرون النار مبجلة أيضاً، بينما الجثث نفايات بالنسبة إليهم، وهذا يعني أن دفن الجثة يلوّث التراب. أما إذا حرقوها، أي كما نفعل نحن، فإنها ستلوّث النار".

"إذاً... ماذا يفعلون؟".

"إنهم يضعون الجثث فوق تلة ذات سطحٍ مستوٍ، أو على أحد الأبراج الموجودة في الجبال العالية لتأكلها الطيور، وتلتهمها عناصر الطبيعة. إنهم يطلقون على هذه المباني اسم **أبراج الصمت**".

لم يقل الإسكندر شيئاً، لكنه نهض، وبدأ بالسير نحو خيمته.

أدرك إيومينيس الحالة التي يمرّ بها الإسكندر فأشار إلى المرافقين ألاّ يؤخروه. "إنه يشعر بالإهانة لعدم معرفته عادات الشعب الذي يحترمه، ولأنه أهانهم، وإن كان ذلك قد حصل بغير قصد منه".

لم يتوجه إيومينيس لرؤية الملك إلا بعد أن طلب رؤيته في وقتٍ ما بعد غروب الشمس وسمح له الإسكندر بدخول الخيمة.

"دعاك القائد بارمينيون إلى العشاء، ودعانا جميعاً كذلك، هذا إذا أردت المجيء".

"أجل. قل له إنني سأكون معكم بعد قليل".

لاحـــظ إيومينيس مدى الإحباط الذي يشعر به الإسكندر، فقال له: "لا تفكّر في الأمر كثيراً، فهو ليس بهذا السوء".

"ليس ذلك هو السبب في ما أشعر به. كنت أفكّر...".

"فيمَ تفكّر؟".

"فكرت في عادة الفُرس هذه".

"يبدو لي أنها أحد الطقوس التي حافظوا عليها منذ أن كانوا بدواً رحلاً".

"هـــذه هـــي عظمة هذا التقليد. فهذا التقليد عادةٌ اكتسبوها من أجـــدادهم و لم ينسوها قطّ. يا صديقي، إذا قدّر لي أن أسقط في ميدان القتال، فأنا أحب أن أنام إلى الأبد في أحد **أبراج الصمت**".

9

في اليوم التالي، أرسل الإسكندر بارمينيون كي يحتل داسكيليوم، عاصمة بونتيك فريجيا، وهي مدينة رائعة تقع على شاطئ البحر، وتحتوي على قصرٍ منيع. وكان الملك قد وجّه إلى بارمينيون الأوامر باحتلال زيليا.

هرب نبلاء الفرس من المدينة، وحملوا معهم الأشياء الثمينة فقط. استجوب بارمينيون الخدم في زيليا كي يعرف منهم الوجهة التي قصدها أسيادهم، وكي يعرف أخبار ممنون الذي لم يُعثر على جثته في ميدان المعركة.

فقال أحد المشرفين على القصر: "لم نره منذ ذلك الحين يا سيدي. يُحتمل أنه جُرح وتمكّن من جرّ نفسه بعيداً عن موقع المعركة كي يموت بعد ذلك وهو مختبئ في مكانٍ ما. ويُحتمل كذلك أن يكون خدمه وجنوده قد وجدوه ودفنوه، كي يضمنوا ألاّ تصل الكلاب والعقبان إليه، لكننا لم نره قطّ".

بعث بارمينيون وراء ابنه فيلوتاس.

"إنني لا أصدّق كلمة من الكلمات التي أخبرني إياها البرابرة. ولكن، يبدو لي أن ممنون جريح على الأغلب. وتفيد معلوماتنا أنه يمتلك منزلاً فخماً هنا حيث يعيش مثل مرزبان فارسي. أريدك أن تحضّر سرايا من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً لتفتيش المنطقة. إن هذا اليوناني هو الأخطر من بين كل أعدائنا، وسيتسبّب لنا بمشاكل كثيرة إذا كان على قيد الحياة. رأيت ليلة البارحة إشارات ضوئية

ملتمعة فوق الجبال، ولا بد من أن أنباء نصرنا ستصل إلى أماكن بعيدة، وبسرعة كبيرة. أعتقد أن ردّ الفعل لن يتأخر بالظهور، وأنا متأكد من أنه لن يكون ترحيبياً على الإطلاق".

"سأفعل ما في وسعي يا والدي. وسأسلّمه إليك كي يركع أمام قدميك".

هزّ بارمينيون رأسه: "لن تفعل شيئاً من هذا القبيل. أريدك أن تعامله باحترامٍ كبيرٍ إذا عثرتَ عليه. إن ممنون هو أشجع محارب إلى الشرق من المضائق".

"لكنه من المرتزقة".

"وماذا يعني ذلك؟ إنه رجلٌ جرّدته الحياة من الأوهام كلّها، وهو الآن لا يثق إلا بسيفه فقط. إن هذا بالنسبة إليّ هو سببٌ كافٍ لاحترامه".

فتّش فيلوتاس المنطقة بأكملها حجراً حجراً، وفتّش المنازل الفخمة والقصور، واستجوب العبيد، وحتى إنه لجأ إلى التعذيب في بعض الأحيان، لكنه لم يعثر على شيء.

فقال لوالده بعد مرور أيامٍ قليلة: "لم أعثر على شيء أبداً. بدا الأمر وكأنه لم يعِش قطّ على هذه الأرض".

"أعتقد أنه توجد طريقة للعثور عليه. راقب الأطباء جميعاً، وعلى الأخص الماهرين منهم، وحدّد أمكنة عملهم. يُحتمل أن تصل في النهاية إلى سرير مريض معروف".

"إنها فكرة جيدة يا والدي. أستغرب أنني فكرت فيك على الدوام كجندي، وكرجلٍ لا يجيد إلا التفكير في الخطط الحربية المبدعة".

"إن الفوز في ميدان المعركة لا يكفي أبداً، لأن الجزء الصعب يأتي في ما بعد".

"سأتصرّف كما نصحتني".

ومنذ ذلك اليوم، بدأ فيلوتاس بتوزيع الأموال وإنشاء الصداقات، وعلـــى الأخص مع الأشخاص الفقراء. ولذلك، لم يتأخر به الأمر حتى عرف اسم أمهر الأطباء، وهو مصري يحمل اسم سنفرو انكبتاح. اعتنى ذلـــك الطبـــيب بالملك داريوس في سوسا، وكان الطبيب الشخصي لسبيثريدات مرزبان فريجيا.

وضـــع فيلوتاس العديد من الرجال في مواقع عدّة بهدف المراقبة. وفي أحـــد الأيـــام، شوهد المصري وهو يغادر منـــزله من بابٍ خلفي صغير، ثم صعد بعد ذلك إلى عربةٍ يجرها بغلٌ، وتوجّه نحو الريف. تبعه فـــيلوتاس ومعه مجموعة من فرسان الدورية المسلحين تسليحاً خفيفاً، لكـــنهم بقـــوا بعيدين عنه مسافة كبيرة. لاحظ أفراد الموكب، بعد أن ساروا وقتاً طويلاً وسط الظلام، أضواءً صادرة عن منـــزلٍ فخم، وهو عبارة عن قصر يشتمل على شرفاتٍ وأروقةٍ معمدة.

فأعلن فيلوتاس لرجاله: "وصلنا. انتظروا قليلاً".

تـــرجّل الجمـــيع، وما لبثوا أن تحركوا نحو المدخل وهم يمسكون بلجامات جيادهم. لكن، بينما كانوا يقتربون من القصر استقبلهم نباح كـــلاب مـــن جهتَـــي المدخل. وشرعت مجموعة من كلاب كبادونيا الشرسة بمهاجمتهم.

لجـــأ الـــرجال إلى استخدام رماحهم لإبعاد الكلاب، ولكنهم لم يتمكـــنوا من التصويب بدقّة بسبب الظلام، كما أن استخدام السهام والأقـــواس كـــان صـــعباً، لذلك اضطروا إلى خوض معركة مباشرة مـــستخدمين خناجـــرهم. ارتعبت بعض الجياد كثيراً وراحت تصهل وتـــرفس وســـط الظلمة وفرّ بعضها. ونجح الفرسان في آخر الأمر في الـــسيطرة على مجموعة الكلاب التي هاجمتهم، ولكنهم اكتشفوا أنه لم يتبقَ لديهم إلا نصف عدد الجياد فقط.

فأمر فيلوتاس رجاله بغضب: "يتعيّن علينا أن نتابع مهمتنا!".

قفـــز الـــرجال إلى صهوات الجياد المتبقية لديهم، وتابعوا المسير حتى وصـــلوا إلى باحـــة القصر المضاء بمصابيح وزّعت على محيط القصر. رأوا أمامهم امرأة رائعة الجمال ترتدي عباءة فارسية طويلة ذات حوافٍ مذهّبة.

سألت المرأة باللغة الإغريقية: "من أنتم؟ وماذا تريدون؟".

"أنا آسف يا سيدتي، لكننا نبحث عن رجلٍ باع سيفه - ولاءه - للبرابرة، ولدينا أسباب تجعلنا نعتقد أنه موجود في هذا المنـــزل، ولعله جريح لأننا تبعنا طبيبه".

صُدمت المرأة لدى سماعها هذه الكلمات، وبان الشحوب الممتزج بالغضب على وجهها، ولكنها تنحّت جانباً كي يمرّوا. "تعالوا وفتشوا حيـــثما تـــريدون، لكنني أرجوكم أن تتصرفوا بشكلٍ لائق في جناح النـــساء. وإذا خالفتم إرادتي، فإنني سأُعلم ملككم. سمعت أنه رجل لا يسمح بإساءة استخدام السلطة".

قـــال فـــيلوتاس عندما استدار كي يواجه رجاله الذين أثخنتهم الجـــروح بسبب الكلاب التي هاجمتهم وتسببت بنشر التراب عليهم: "أسمعتم ذلك؟".

لاحظـــت بارسين حالة الرجال فأضافت: "أنا آسفة لما أصابكم. لو أعلنتم عن وصولكم لكنتم تجنبتم مواجهة الكلاب. فللأسف، تمتلئ المـــنطقة بقطّاع الطرقات، ولذلك اتخذنا بعض الإجراءات كي نحمي أنفسنا. أما بالنسبة إلى الطبيب، فإنني سآخذكم إليه على الفور".

فدخلت المرأة مع فيلوتاس إلى قاعة الاستقبال، فيما مشى الجميع عبر ممر طويل وراء خادمةٍ حملت مصباحاً مشتعلاً.

دخـــلا غرفة كان فيها شاب يستلقي على السرير، وكان سنفرو انكبتاح يقوم بفحصه.

سألت بارسين: "كيف حاله؟".

"إنها حالة عسر هضمٍ فقط. دعيه يشرب هذا النقيع ثلاث مرات في اليوم، ولا تطعميه شيئاً طوال يوم غد. سيتعافى بسرعة".

قال فيلوتاس: "أريد أن أتحدث إلى الطبيب على انفراد. ولا أريد وجود أحد معنا إلاّ المترجم".

رافقت بارسين الرجلين إلى غرفة قريبة، وقالت: "كما تشاء".

مـــا إن أُغلق الباب حتى بدأ فيلوتاس حديثه: "نعرف أن هذا هو منـــزل ممنون".

قال المصري مؤكداً: "إنه منـــزله بالفعل".

"إننا نبحث عنه".

"سيتعيّن عليكم في هذه الحالة أن تبحثوا في مكانٍ آخر، لأنه ليس هنا".

"وأين هو؟".

"لا أعرف".

"هل عالجتَه؟".

"أجل. إنني أعالج جميع الأشخاص الذين يحتاجون إلى خدماتي".

"أنت تعرف، بالطبع، أنني أستطيع أن... أجبرك على الكلام إذا أردتُ ذلك".

"أعـــرف بالطـــبع. ولكن، ليس في وسعي أن أخبرك أي شيء إضافةً إلى الذي قلته. أتعتقد أن رجلاً مثل ممنون يُمكن أن يقوم بإبلاغ طبيبه عن المكان الذي ينوي أن يقصده".

"هل هو جريح؟".

"أجل".

"وهل جروحه خطيرة؟".

"يُمكـــن لأي جـــرح أن يكون جرحاً خطيراً. يعتمد ذلك على كيفية تطور حالة الجرح".

"لـــست بحاجة إلى درسٍ في الطب. أريد أن أعرف كيف كانت حالة ممنون المرة الأخيرة التي رأيتَه فيها".

"كان يتماثل للشفاء".

"أكان ذلك بفضل علاجك له؟".

"وبفضل بعض الأطباء اليونانيين بمن فيهم طبيب يدعى أريسطون من أدراماتيون. أرجو أن أكون قد ذكرت الاسم بشكل صحيح".

"هل كان في حالة تسمح له بركوب جواده؟".

"ليست لديّ أي فكرة. لا أعرف شيئاً عن الجياد. أما الآن فإنني أريد الانصراف، لأن مرضى آخرين ينتظرونني".

لم يـــتمكن فـــيلوتاس من التفكير في أي سؤالٍ آخر يطرحه على الطبـــيب فـــسمح لـــه بالانصراف. والتقى رجاله في قاعة الاستقبال، وكانوا قد فرغوا لتوهم من تفتيش المنـــزل.

"إذاً؟".

"لا شيء. لم نجد أثراً يدل عليه. إما أنه كان هنا وغادر المنـــزل منذ بعض الوقت، وإما أنه مختبئ في مكان لا يخطر على بالنا أبداً، إلا إذا...".

"ماذا تعني بقولك إلا إذا؟".

"إلا إذا أحرقنا هذا المكان، وعندها ستظهر كل الفئران المختبئة، وتخرج من مكامنها. ألا تعتقد ذلك؟".

عـــضّت بارسين على شفتها، ولكنها لم تقل شيئاً. واكتفت بأن نظرت إلى الأسفل كيلا تلتقي عيناها بعيون أعدائها.

هـــزّ فـــيلوتاس رأسه تعبيراً عن خيبة أمله، وقال لرجاله: "دعونا نرحل من هنا على الفور. لم يبقَ لدينا شيء نفعله هنا". غادر الجميع،

وما لبثت أصوات حوافر جيادهم أن تلاشت، وسُمِعت أصوات الكلاب التي ظلّت تنبح وراءها. شدّ فيلوتاس عنان جواده بعد أن أصبح الرجال على بُعد ثلاثة ستاديات.

"أيها الرجال! أراهنكم، وأنا أكلمكم، بأن الرجل يزحف خارجاً من حفرة ما، وأنه يتكلم بهدوء مع زوجته. إنها امرأة جميلة... جميلة، بحق زيوس!".

قال أحد رجاله، وهو تراقيٌّ من سالميديسيوس: "لا أفهم لماذا لا نختطفها و...".

"لأنها أعلى من مستواك بكثير، وإذا علم الإسكندر بذلك فسيقطعك إرباً إرباً، ويقدمك إلى كلبه كي يأكلك. يمكنك أن تستمتع بوقتك مع ساقطة المعسكر إذا لم يكن عندك مكانٌ آخر. دعونا ننصرف الآن لأننا انطلقنا منذ وقت طويل".

في تلك اللحظة بالذات، كان ممنون يُنقل إلى ملاذٍ آخر، وكان ممدداً على حمالة يحملها بغلان، واحدٌ من الأمام والآخرُ من الخلف، وذلك في الجهة الأخرى من الوادي.

طلب ممنون من الرجل الذي كان يقود البغل في المقدمة أن يتوقف، وذلك قبل عبوره المعبر الذي يؤدي إلى وادي إفيسوس ومدينة آزيرا. جلس ممنون والتفتَ برأسه كي ينظر خلفه إلى أنوار منزله. كان عطر بارسين لا يزال عالقاً في أنفه بعد آخر عناقٍ معها.

10

تحــــرك الجيش مع عربات البغال جنوباً، وبالتحديد نحو جبل آدا وخلــيج أدرامايتيون. لم يعد هناك أي سبب يدعو للبقاء في الشمال، وذلــك لأن عاصمة ولاية مرزبانة فريجيا قد احتُلت وبقيت فيها حامية مقدونية.

عاد بارمينيون إلى تحمّل مسؤولياته بصفته نائب قائد الجيش، بينما احتفظ الإسكندر لنفسه بمسؤولية اتخاذ القرارات الاستراتيجية.

ذات مــساء، أعلن الإسكندر في أثناء مجلسٍ حربــي: "سنتحرك جــنوباً بمحــاذاة الــساحل. فلقد انتهينا من احتلال عاصمة فريجيا، وسنحتل الآن عاصمة ليديا".

قـــال كاليــستين: "ســـارديس، العاصـــمة الأسطورية لميداس وكروسوس".

قـــال ليوناتوس: "يصعب عليّ تصديق هذا. أتتذكرون الحكايات الـــتي اعتاد ليونيداس العجوز على إخبارنا إياها؟ وها نحن الآن ذاهبون لرؤية هذه الأماكن بالذات".

قـــال كاليــستين مؤكداً: "بالفعل، سنرى هيرموس حيث هُزم كروسوس على يد الفرس قبل نحو مئتي عام مضت. وسنرى باكتولوس بـــرمالها الذهبـــية، وهي التي تمخضت عنها أسطورة ميداس، وكذلك سنرى القبور التي يرقد فيها ملوك ليديا".

ســـأل إيومينيس: "أتعتقد أننا سنعثر على أموالٍ حقيقية في هاتين المدينتين؟".

صـــاح سلوقس: "إن كل ما تفكّر فيه هو المال! وعلى أي حال أعتقد أنك محق".

"بالطـــبع أنا محق. أتمتلكون فكرة عمّا يكلّفنا إياه أسطول حلفائنا اليونانيين؟ ألديكم أدنى فكرة عن ذلك؟".

أجـــاب لايـــسيماخوس: "كلا. ليست لدينا أي فكرة يا حضرة الأمين العام. إنك هنا كي تعرف هذه الأمور كلّها".

"إنـــه يكلفنا مئة وستين تالنتاً كل يوم، وأكرر مئة وستين تالنتاً. ويعـــني ذلـــك أن مدخولنا من غرانيكوس وداسكيليوم سيكفينا بضعة أسابيع فقط، هذا إذا سارت الأمور على ما يرام".

قـــال الإسكندر: "اسمعوني جيداً. إننا نتوجه الآن إلى ساردیس، لكنني لا أعتقد أننا سنواجه مقاومة كبيرةً هناك. سنتوجه بعد ذلك كي نحـــتل ما تبقى من الشاطئ، وسنمضي حتى الحدود مع ليشيا، ووصولاً إلى زانـــتوس. وسنكون قد حرّرنا المدن اليونانية الواقعة في آسيا كلّها عند إنهاء المهمة، وسنُنهي ذلك كلّه قبل نهاية فصل الصيف".

قال بطليموس: "عظيم! وماذا بعد ذلك؟".

صـــاح هيفاستيون: "من المؤكد أننا لن نستدير على أعقابنا كي نعود إلى الوطن! بدأت أستمتع بهذا كله".

أجاب الإسكندر: "لا أضمن لكم أنها ستكون مهمةً سهلة جداً. إن كـــل ما فعلناه حتى الآن هو صدم الدفاعات الفارسية قليلاً، كما أنه من المـــؤكد في هذا الوقت أن ممنون لا يزال على قيد الحياة. يُضاف إلى ذلك أننا لسنا متأكدين من أن جميع المدن اليونانية ستفتح أبوابها أمامنا".

ســـار الجـــيش عدة أيام بمحاذاة رؤوس صخرية وخلجان تتمتع بجمـــالٍ أخـّـــاذ. كانـــت الشواطئ مظلّلة بأشجار الصنوبر العملاقة،

وبمحـــاذاة سلسلة من الجزر من كل الأحجام والتي تكونت على طول الـــشاطئ، وكأنهـــا مـــشاركة في استعراض. أخيراً، وصلوا إلى ضفتي هيرمـــوس، وهـــو نهر كبير ذو مياهٍ عذبة تجري فوق طبقةٍ من الحصى النظيفة.

كان مرزبان ليديا رجلاً منطقياً يُدعى ميتريتس. أدرك الرجل أن لا خـــيار له غير إرسال مبعوثين إلى الإسكندر، وما لبث أن اصطحبه شخصياً لزيارة القلعة بجدرانها ثلاثيّة الطبقات، ودفاعاتها وخنادقها.

تطلّـــع الإســـكندر من فوق السهل، بينما عبثت الريح بشعره، وأحـــنت أشجار الصفصاف وأشجاراً نفضية أخرى، وقال: "من هنا انطلقت **مسيرة العشرة آلاف**".

رافقه كاليستين، وسار خلفه بينما انشغل بكتابة ملاحظات على لوحٍ خاص، ثم قال: "هذا صحيح، وهنا عاش الأمير سايروس الأصغر، والذي كان مرزبان ليديا في ذلك الحين".

"وســـتبدأ من هنا، بمعنى ما، حملتنا هذه. ولكنّها لن تتّخذ المسار ذاته. سنذهب غداً إلى إفيسوس".

استـــسلمت إفيـــسوس من دون استخدام القوة، وكانت الحامية اليونانـــية قـــد غـــادرت. فثبّت الإسكندر سلطته في المدينة، وما لبث الديمقـــراطيون الذين كانوا مُبعدين عنها أن عادوا إليها، وأطلقوا حملة مطـــاردة حقيقـــية. قـــاد هؤلاء هجمات الغوغاء على منازل الأثرياء والنبلاء الذين كانوا حتى ذلك الحين حلفاء الحاكم الفارسي.

ولجـــأ بعض النبلاء إلى المعابد، لكنهم أُخرجوا منها، ورُجموا حتى الموت. كانت إفيسوس كلها في حالة صدمة وغليان. فكلّف الإسكندر المـــشاة حاملي الدروع بالخروج إلى الشوارع من أجل استعادة النظام، كما أكد على إعادة الديمقراطية، وفرض ضريبةً خاصة على الأغنياء من

أجل إعادة بناء هيكل آرتميس العظيم، وهو الهيكل الذي دمرته النيران قبل أعوامٍ قليلة.

سأله كاليستين عندما كانوا يتفحصون خرائب ذلك الهيكل الكبير: "أتعرف ماذا يقولون هنا عن النيران؟ يقولون إن الأسياد عجزت عن إطفاء ألسنة النار لأنها كانت منشغلة بمولدك. وبالفعل، شبّ الحريق منذ واحد وعشرين عاماً مضت، وفي اليوم ذاته الذي وُلدتَ فيه".

قال الإسكندر: "أريده أن يرتفع مجدداً. أريد تشييد صفوف من الأعمدة الضخمة تكون بضخامة غابة لتتمكن من حمل السقف، وأريد أن يقوم أفضل النحاتين بزخرفة الهيكل، كما أرغب في أن يقوم أمهر الرسامين بتجميل الأجزاء الداخلية منه".

"إنها خطة رائعة. يجب أن تبدأ بالاتفاق مع ليسيبوس على كل هذه الأمور".

أشرق وجه الملك وسأل: "هل وصل؟".

"أجل وصل في الليلة الفائتة، وهو يتحرق شوقاً لرؤيتك".

"ليسيبوس... لم يسبق لي أن شاهدت قوةً مبدعة كهذه تلتمع في عيني أي رجل آخر. وتشعر عندما ينظر إليك بأنه على اتصالٍ مع روحك، وبأنه على وشك تكوين رجلٍ آخر... من الطين، أو من البرونز، أو من الشمع لا فرق. إنه رجلٌ مبدع وكأنه سيد مبجل".

"سيد مبجل؟".

"أجل".

"أي سيد مبجل منهم؟".

"السيد المبجل الذي يتواجد في الأسياد كلّها وفي البشر كلّهم، لكنّ القليلين يتمكنون من رؤيته أو سماعه".

تلهّف المسؤولون في المدينة، أي القادة الديمقراطيون الذين كانوا يمسكون قبل سنوات بمقاليد السلطة خلال حكم فيليب وطردهم الفرس في وقتٍ لاحق، لكنهم عادوا مع وصول الإسكندر كي يستعرضوا أمامه عجائب إفيسوس.

كانت المدينة تمتد فوق منحدر معتدل يتجه إلى البحر، ونحو خليجٍ كبير يصبّ فيه نهر كايستر. كان الميناء يعجّ بالمراكب التي تُفرغ كل أنواع السلع، كما تحمّل الأقمشة والتوابل، والعطور التي جُلبت من المناطق الآسيوية الداخلية، والتي ستباع في أماكن بعيدة جداً، أي في الخليج الأدرياتيكي، وفي جزر بحر تيرانة، وفي بلاد الأتروسكيين والآيبيريين. تصاعدت الأصوات الناتجة عن كل هذه الحركة المحمومة في كل أنحاء المدينة، واختلطت مع صيحات تجار العبيد الذين يبيعون بالمزاد الرجال الأقوياء - والفتيات الجميلات - الذين قادتهم أقدارهم إلى هذا المصير المحزن.

أحاطت الأروقة المعمّدة بطرقات تلك المدينة على الجانبين، وهي الأروقة التي كانت تواجه منازل الأغنياء والمنازل الفخمة. بينما كانت هياكل الأسياد المبجّلة محاطة بأكشاك التجار الذين كانوا يقدمون إلى المارة التّمائم التي تجلب الحظ الحسن وتحميهم من اللعنات، ويعطوهم كذلك التذكارات القديمة وصور أبولو وشقيقته العذراء آرتميس بملامحها العاجية.

غُسلت آثار الدماء التي تركتها المواجهات على الطرقات، والتزم الذين يشعرون بالحزن على أقاربهم البيوت. وشهدت المدينة مظاهر الابتهاج والاحتفالات، واصطفّ الناس على جوانب الطرقات كي يروا الإسكندر وهم يلوّحون له بأغصان الزيتون. كما نثرت عليه الخادمات تويجات الأزهار لدى مروره، أو رمينها عليه من شرفات المنازل، وهكذا امتلأ الجو بعرضٍ مهيب من الألوان والعطور.

بعد ذلك، وصل الجميع إلى قصرٍ مهيب، حيث قاعة الاستقبال فيه رخامية الأعمدة ومتوجة بالنقوش الأيونية، ومزيّنة بخطوط الذهب، ومطليّة باللون الأزرق. كان هذا القصر في ما مضى منزلاً لأحد النبلاء الذين دفعوا بدمائهم ثمن صداقاتهم مع الفرس. وتحول القصر الآن إلى مقامٍ لسيد شاب مبجل نزل حديثاً من منحدرات أوليمبوس نحو طرف آسيا العظيمة.

جلس ليسيبوس في القاعة وهو ينتظر مجيء الإسكندر. وما إن رأى النحات الإسكندر حتى تقدم منه وعانقه، كما أطال فترة مصافحته إيّاه بيديه القويتين.

صاح الإسكندر ما إن تخلص من عناق ليسيبوس: "يا صديقي العزيز!".

فاغرورقت عينا ليسيبوس بالدموع، وأجاب: "يا ملكي!".

"هل اغتسلتَ؟ وهل تناولت شيئاً من الطعام؟ هل أعطوك ثياباً جديدة؟".

"أنا على ما يرام. أرجوك لا تقلق. إن رغبتي الوحيدة هي أن أنظر إليك مجدداً، لأن النظر إلى رسوماتك ليس مثل النظر إليك شخصياً. هل صحيح أنك ستجلس أمامي كي أرسمك؟".

"أجل، لكن لديّ مشروعات أخرى. أريد أن أصنع تمثالاً لم يرَ أحدٌ مثله من قبل. اجلس".

بدأ الخدم بتحضير مقاعد إضافية للوجهاء وأصدقاء الإسكندر في حين قال ليسيبوس: "قل لي".

"هل أنت جائع؟ أترغب في أن تأكل معنا؟".

أجاب النحات العظيم: "بكل سرور".

أحضر الخدم الطاولات ورتّبوها أمام الضيوف كلّهم، ثم قدّموا الطبق الذي تشتهر به المدينة، أي السمك المشوي والمطيّب بإكليل

الجـــبل، بالإضافة إلى الزيتون المملح، وبعض البذور، وبعض الخضار، والخبز الطازج الذي خرج لتوّه من الفرن.

بـــدأ الضيوف بسكب الطعام، أما الملك فقد بدأ بقوله: "حسناً. أريـــد أن تـــنحت تمـــثالاً تخلـــيداً لذكرى خمسة وعشرين جندياً من *الهيتايـــروي* الـــذين كانوا يقاتلون في فرقة الطليعة التي أقودها، والذين سقطوا خلال الهجوم الأول على الفرسان الفرس. إنني أمتلك رسومات لهـــم رُسمت قبل وضعهم في المحرقة، وذلك كي تتمكن من رسم صورٍ تـــشبههم إلى أقصى حدّ. أريدك أن ترسمهم وهم في ساحة الوغى، أي وكأننا نستطيع أن نسمع أصوات وقع أقدامهم عند ركضهم، وصهيل جـــيادهم. أريـــد ألاّ ينقص تماثيلهم أي شيء غير الروح التي فارقت أجسادهم، وهو الأمر الذي لم تمنحك الأسياد بعد القدرة على القيام به ولن تمنحك إياه".

ثم أخفـــض رأسه بينما عبرت وجهه مسحة من الحزن وسط كل صـــيحات الاحتفال، ووسط الأصوات الصادرة عن أكواب الشراب والأطباق المليئة بكل أصناف الطعام الرائعة.

"ليـــسيبوس، يـــا صديقي... تحوّل هؤلاء الشبان إلى رمادٍ الآن. لكن، أريد منك أن ترسمهم ثم خلّد ذكراهم في البرونـــز المسكوبِ!".

وقـــف الإسكندر، وسار نحو نافذة تطل على الخليج الذي يسطع بالأنـــوار تحـــت شمـــس الظهيرة. كان الجميع منشغلين بتناول الطعام والشراب، وبالمزاح، وكانوا يشعرون بالحيوية بسبب الطقس والشراب. وبعد قليل، تبعه ليسيبوس.

"تماثيل لستة وعشرين فارساً... جنود الإسكندر في غرانيكوس. أريـــد أن تجمع هذه التماثيل بين حوافر الجياد، وظهور الرجال المفتولة بالعـــضلات، والأفـــواه المفتوحة التي تُطلق صرخات القتال، والأذرع

الملوّحة بالسيوف والرماح بغضب. هل فهمتَ يا ليسيبوس؟ هل فهمتَ ما أحاول أن أشرحه لك؟

سيرتفع هذا النُصُب في مقدونيا، وسيبقى إلى الأبد من أجل تخليد ذكرى أولئك الشبان الذين أعطوا حياهم من أجل بلادنا، ورفضوا أن يعيشوا حياة مملة وعادية تخلو من المجد.

أريدك أن تضخّ في البرونـــز المصهور طاقتك الحيوية الخاصة بك، وأريـــد أن يكون فنّك وسيلةً لتحقيق أكبر إنجاز فني شهده العالم. أريد أن يـــشعر الأشخاص الذين يمرون أمام النُصُب بالقشعريرة والإعجاب والرهبة، وكأن الخيّالة على وشك الهجوم".

تطلـــع ليسيبوس نحو الإسكندر بدهشةٍ صامتة، بينما امتدت يداه الضخمتان إلى جانبه من دون حراك.

أمـــسك الإسكندر باليدين بشدة، وقال: "أعرف تماماً أن هاتين الـــيدين يمكنهما أن تصنعا العجائب، وليس هناك من تحدٍّ تعجزان عن مواجهـــته طالما أنّك مصمّم على ذلك. إنك مثلي يا ليسيبوس، ولهذا الـــسبب لن يتمكن أي نحاتٍ آخر من صنع نموذجٍ لتمثالي. هل توافق على صنع تماثيل برونـــزية لرفاقي الذين سقطوا؟ هل ستفعل ذلك؟".

"سأصنع هذا التمثال يا إسكندر. إنني أعدك".

أومأ الإسكندر، وحدّق إليه بعينين مليئتين بالإعجاب والإكبار، ثم أمـــسك الـــنحات ليسيبوس من ذراعه، وقال له: "تعال معي الآن، وتناول بعض الطعام".

11

وصل آبيل مساء اليوم التالي برفقة مجموعة كبيرة من العبيد والنساء والشبان الوسماء. كان أنيقاً جداً بالرغم من بعض الغرابة التي أوحت بها عقود الكهرمان والحجارة شبه الثمينة التي وضعها حول عنقه، بالإضافة إلى ثيابه زاهية الألوان. سبق أن سرت شائعات مفادها أن ثيوفراستوس قد ألف كتاباً ساخراً صغيراً بعنوان *شخصيات*، وأن آبيل كان مصدر إلهامٍ له في قسم من الكتاب يتحدث عن المتباهين بأنفسهم.

استقبله الإسكندر في جناحه الخاص، وكان آبيل برفقة بانكاسب التي دأبت على ارتدائها الأزياء التي ترتديها الفتيات الصغيرات، وهي طريقتها الوحيدة في إظهار كتفيها الرّائعتين والقسم الأعلى من صدرها.

"تبدو بحالةٍ حسنة يا آبيل، وأنا مسرور لأن بانكاسب لا تزال بعظمتها مصدرَ إلهامك. أعرف أن قلة من الفنانين ينعمون بامتلاك مصدر إلهام كهذا".

تورد خدّا بانكاسب بشدّة، وتقدمت قليلاً كي تتمكن من تقبيل يد الإسكندر، لكنه فتح ذراعيه وعانقها.

فهمست في أذنه بلهجةٍ كادت توقظ رغبة حسبها ماتت عنده قبل ثلاثة أيام: "ذراعاك قويتان مثل حالهما في الماضي، يا مولاي".

فردّ متمتماً: "إنني أمتلك أشياء أخرى لا تقل قوةً عنهما، هذا في حالة نسيتِ ذلك".

سعل آبيل قليلاً تعبيراً عن شيء من الحرج، وقال: "مولاي، ستكون هذه اللوحة عملاً فنياً عظيماً باقياً خلال القرون، أو دعني أقول هاتين اللوحتين، لأنني أنوي أن أرسم لوحتين".

سأل الإسكندر: "أتتحدث عن لوحتين؟".

"هذا إذا وافقتَ، بالطبع".

"اشرح الأمر لي".

"ستمثّلك اللوحة الأولى وأنت واقفٌ على أهبة الاستعداد لإطلاق عاصفة رعدية، أي مثل ما فعل زيوس. وسيظهر نسرٌ بالقرب منك، والنسر هو أحد رموز سلالة الأرجاديين".

بدا الملك متشككاً، وهزّ رأسه.

"مولاي، أشدّد هنا على أن يوافق بارمينيون وإيومينيس على أن تظهر بهذا الشكل، نظراً إلى تأثيرات اللوحة المحتملة في الرعايا الآسيويين".

"هذا إذا وافقا. لكن، ماذا بشأن اللوحة الأخرى؟".

"ستُظهرك اللوحة الأخرى على صهوة بوسيفالاس، وأنت ممسك برمحك، وعلى أهبة الاستعداد للهجوم. أؤكد لك أن اللوحة ستكون عملاً بارزاً".

راحت بانكاسب تقهقه.

فغضب منها آبيل وسألها: "ما خطبك؟".

أجابت: "أمتلك فكرة عن لوحة ثالثة".

سأل الإسكندر: "وماذا عساها تكون؟ ألا تكفي لوحتان؟ لا أستطيع أن أمضي بقية حياتي واقفاً أمام آبيل كي يرسمني".

ازدادت قهقهة بانكاسب وأوضحت فكرتها: "لكنك لن تكون وحدك في هذه اللوحة. فكّرتُ في لوحة تُظهر شخصين: الملك

الإسكندر مرسوم مثل آريس، أي أنّه يرتاح بعد خوضه معركة، وتظهر أسلحته منتشرة من حوله فوق مرجٍ أخضر، ويمكنني أن أكون أنا أفروديت التي تهتم بكل ما يسرّه. أقصد أن تكون هذه اللوحة مثل تلك التي رسمتَها في منزل ذلك القائد الإغريقي... ماذا كان اسمه؟".

شحب وجه آبيل فجأة، ونخس بانكاسب خلسةً، ثم قال: "يتعيّن علينا أن نذهب الآن، لأن الملك ليس لديه وقت لكل هذه اللوحات. أعتقد أن لوحتين أكثر من كافيتين، أليس ذلك صحيحاً يا مولاي؟".

"بالضبط يا صديقي، إن هذا صحيح جداً. أريد أن أنصرف الآن، لأن إيومينيس قد نظّم مواعيدي لهذا اليوم، وهي كثيرة. سأجلس أمامك قبل العشاء، ويمكنك أن تختار الموضوع الذي ستبدأ به. وإذا أردت أن تبدأ بلوحة الفارس يمكنك أن تحضّر ذلك الجواد الخشبي، لأنني أشكّ في أن بوسيفالاس يتمتع بالصبر الكافي للوقوف ساكناً كي يُرسم، ولو كان وقوفه أمام آبيل العظيم".

غادر الرسام بعد انحناءة، واصطحب رفيقته المترددة وراءه، ثم وبّخها في أثناء نزولهما في الممر.

ولم يتأخر إيومينيس بعد ذلك عن تقديم بعض الزوار الجدد. كانوا نحو عشرة من زعماء القبائل التي تسكن في المناطق الداخلية من البلاد، والذين سمعوا بوصول ملكهم الجديد، ولذلك أرادوا تقديم ولائهم إليه.

وقف الإسكندر ومشى نحوهم، ثم صافحهم جميعاً بحرارة بالغة.

سأل الإسكندر المترجم: "ما هي طلباتهم؟".

"إنهم يريدون أن يعرفوا ما يتوجب عليهم فعله".

"لا شيء".

ردد المترجم بدهشة: "لا شيء؟".

"يمكنهم أن يعودوا إلى منازلهم، ويعيشوا بسلامٍ كما كانوا يفعلون قبل وصولي".

همس الشخص الذي يفترض أن يكون زعيم الوفد شيئاً في أذن المترجم.

"ماذا قال لك؟".

"إنه يسأل عن الضرائب".

صاح إيومينيس: "آه، الضرائب... حسناً، ستبقى كما هي بالضبط، لأننا نمتلك نفقاتنا و...".

قاطعه الإسكندر: "إيومينيس، أرجوك. لا حاجة إلى الدخول في التفاصيل".

تشاور زعماء القبائل، وأعلنوا رضاهم عن الوضع، وتمنوا الخير للملك القوي الجديد، وشكروه على معروفه.

قال الإسكندر: "اسألهم إن كانوا يريدون البقاء لتناول طعام العشاء".

قام المترجم بمهمته، فعاد الزعماء للتشاور مجدداً.

"حسناً، ماذا قالوا؟".

"قالوا إنهم تشرفوا بهذه الدعوة يا مولاي، لكنهم أضافوا أن الطريق طويلة، وأن أعمالاً كثيرة تنتظرهم في قراهم مثل حَلبِ الماشية، ومساعدة الأفراس على الولادة و...".

قال إيومينيس مقاطعاً المترجم: "فهمت... إنها أعمال مهمة للدولة".

ثم قال الإسكندر: "اشكُرهم على زيارتهم، وتذكّر أن تعطيهم تذكاراتٍ عن استضافتنا لهم".

"أيَّ نوعٍ من التذكارات؟".

"لا أعرف... أسلحة، ثياب... أي شيء تريده، لكن لا تدعهم يذهبون صفر اليدين. إنهم أناسٌ على الطراز القديم ويحبون حسن التصرف. إنهم أصحاب سطوة وعز في قراهم... لا تنسَ هذه الحقيقة".

قُدّم العشاء بعد غروب الشمس، أي بعد أن انتهى الإسكندر من أولى جلساته أمام آبيل. بدا واضحاً أن الفنان العظيم قرّر أن يبدأ بالموضوع الأصعب؛ أي رسم الإسكندر وهو ممتطٍ صهوة الجواد الخشبيّ.

قال الرسام وهو يلقي نظرة استياء على المجسم الخشبي الذي تمكّن إيومينيس بمساعدة أحد الحرفيين الذين يعملون في المسرح من تجهيزه على عجل: "سأذهب غداً إلى الإسطبل وأُخرج بوسيفالاس. يتعيّن عليه أن يقف أمامي بدوره".

قال الإسكندر: "أنصحك في تلك الحالة أن تزور طباخي كي يعطيك بعض الحلوى المطعّمة بالعسل، لأن بوسيفالاس يحب هذا النوع، وستساعدك الحلوى على أن تكون على وئامٍ معه".

أتى أحد المساعدين ليعلن أن العشاء أصبح جاهزاً. وكان آبيل قد أكمل لتوه التخطيط الأولي للرسم. فترجّل الإسكندر عن صهوة الجواد الخشبيّ، واقترب من الرسّام قائلاً: "أيمكنني إلقاء نظرة؟".

"لا يسعني الرفض يا مولاي. لكن كل الرسّامين يمتنعون عن عرض أي عملٍ غير مكتمل".

ألقى الملك نظرة على اللوحة الكبيرة، لكن مزاجه تغيّر فجأة. استخدم ذلك الفنان الكبير الفحم لرسم الخطوط الأساسية للصورة، وكانت ضرباته سريعة أحياناً ومتباطئة أحياناً أخرى من أجل تحسين بعض التفاصيل، مثل العينين، وبعض خصلات الشعر، واليدين، ومنخري بوسيفالاس المفلطحين، وحوافره التي تضرب الأرض...

تفحّص آبيل رد فعل الملك خلسةً.

"تذكّــر يا مولاي أنها غير منتهية بعد، إنها مجرد تخطيط. ستمتلئ اللوحة بالحياة عندما أضيف إليها الألوان و...".

رفع الإسكندر يده مقاطعاً: "إنها لوحة عظيمة بالفعل يا آبيل. إنها نموذج ممتاز عن أفضل أعمالك، وأي شخصٍ يمكن أن يتخيّل الباقي".

تــوجّها معـــاً إلى قاعة الطعام حيث كان الوجهاء في انتظارهما، بالإضافة إلى رؤساء المدارس الكهنوتية، ورفاق الملك. أعطى الإسكندر الأوامــر في عـــدم المبالغة في تقديم الطعام لأنه لا يريد أن يحصل أهل إفــسيس على فكرةٍ غير صحيحة عنه وعن أصدقائه. واقتصرت أنشطة الرفقة الذين جلبهم المقدونيون على العزف على آلاتهم الموسيقية، كما قُدّم الشراب على الطريقة اليونانية، أي أنهم وضعوا مقداراً من الشراب مقابل ثلاثة مقادير من الماء.

وكان آبيل وليسيبوس اللذان ذاعت شهرتهما محور الأحاديث كلّها.

قــال كاليــستين وهو يلتفت إلى آبيل: "سمعت حديثاً عن لوحةٍ رائعة جداً. سمعت قصةً عن اللوحة التي رسمتَها للملك فيليب".

أجاب آبيل: "هل سمعتَ ذلك حقاً؟ أرجوك أخبرني عنها لأنني لا أستطيع تذكّر كل تفاصيلها".

ضحك الجميع.

قــال كاليستين: "حسناً، سأخبرك بما قيل لي عنها. أرسل الملك فيلــيب وراءك في ذلك الوقت لأنه أرادك أن ترسم له لوحة يعلّقها في معــبد دلفي، لكنه قال لك *اجعلني أبدو أكثر وسامة... أعني أن ترسم الجانب الحسن مني، أي من دون أن تُظهر عيني المفقودة، واجعلني أكثر طــولاً بقليل، واجعل شعري يبدو أكثر سواداً بقليل، لكن من دون أن تبالغ في الأمر. أرجو أن تكون فهمت*".

قال إيومينيس ضاحكاً: "يبدو الأمر وكأنه عاد ليعيش بيننا". تابع مقلـــداً صوت فيليب العميق: *لا أعرف ماذا جرى، لقد استدعيتُ هذا الرســـام العظـــيم، وها أنا الآن مضطر إلى تعريفه إلى كيفية قيامه بكل شيء.*

قال آبيل ضاحكاً من أعماق قلبه: "آه تذكرت الآن. هذا ما قاله لي بالضبط".

قال كاليستين: "إذاً، لماذا لا تخبرنا ما تبقّى من القصة!".

ردّ الرسام: "كلا، كلا. إنني أستمتع أكثر بالاستماع إليك".

"لـــك مـــا تـــريده. حسناً، أنهى الرسام الشهير لوحته، ثم أمر بإحضارها إلى الباحة في ضوء النهار، وذلك كي يتمكّن زبونه الشهير من تفحّصها. إن كل من حضر إلى دلفي، ورأى تلك اللوحة قال عنها إنهـــا جمـــيلة ورائعـــة! رُسم الملك واضعاً تاجه الذهبـــي على رأسه، ومـــرتدياً عـــباءته الحمراء، وحاملاً صولجانه. بدا وكأنه هو نفسه في اللـــوحة. فسأله آبيل: *هل أعجبتك يا مولاي؟* عندها، تطلع فيليب إلى اللوحة من إحدى الجهات أولاً، ثم نظر إليها من جهة أخرى، وبدا غير متأكد من انطباعه عنها. وسأل آبيل: *أتريد أن تعرف في ما أفكر؟* ردّ آبـــيل: *بالطـــبع يـــا سيدي*. فقال الملك: *حسناً... إنها – ومن وجهة نظري – لا تشبهني*".

قـــال آبيل ضاحكاً من أعماق قلبه: "هذا صحيح، هذا صحيح! لأنـــني عندما جعلت شعره أكثر سواداً، ولحيته أكثر تشذيباً، وملامحه أكثر توردا، جاءت اللوحة مغايرةً له تماماً".

سأل إيومينيس: "وماذا بعد؟".

عاود كاليستين الكلام: "هذا هو الجانب المشرق من القصة، هذا إذا كانـــت قـــصةً حقيقية، وعلى كل حال. كانت اللوحة معلقة في

الساحة الخارجية في وضح النهار. مرّ أحد صبية الإسطبل في تلك اللحظة، وكان يقود جواد الملك وهو ممسك بلجامه. بدأ الجواد بالتلويح بذيله عندما مرّ أمام اللوحة، كما هزّ رأسه، وراح يصهل بشدة. حدث كل ذلك بحضور الجميع. نظر آبيل إلى الملك أولاً، ثم إلى الجواد، ثم إلى اللوحة، وقال أخيراً: *مولاي، أيمكنني أن أخبرك ما أفكر فيه؟* أجاب الملك: *بالطبع، افعل ذلك بحق زيوس*. فقال: *آسف لإبلاغك أن جوادك يعرف عن اللوحة أكثر منك بكثير*".

ضحك آبيل، وقال: "هذا ما قلتُه له بالضبط. هذا ما حدث بالتحديد".

سأل هيفاستيون: "وماذا فعل الملك؟".

"الملك؟ هزّ الملك كتفيه وقال: *آه! أنتَ دائماً على حق. سندفع لك على كل حال. سأحتفظ باللوحة بعد أن أهنيتها*".

صفّق جميع الحاضرين بينما أكّد إيومينيس أن آبيل قد قبض ثمن لوحته التي أثنى عليها الجميع، حتى أولئك الذين لم يروها.

شعر آبيل أنه محطّ اهتمام الجميع بالفعل، واستمر في استغلال الوضع وكأنه أحد مشاهير ممثلي المسرح.

اعتذر الإسكندر من الحاضرين، وقال إنه مضطر إلى الاستيقاظ باكراً في صباح اليوم التالي، وبالتالي، فهو مضطر إلى الانسحاب. كان المفترض به أن يتفحص التحصينات البحرية، لذلك ترك الآخرين كي يتابعوا السهرة ويحتسوا المزيد من الشراب، لكن مع إضافة كمية مياهٍ أقل إليها، ومع رفقة جدد، وهو الأمر الذي ضمن لهم الحصول على مرحٍ أكبر من المرات السابقة.

وعندما دخل الإسكندر إلى جناحه رأى ليبتين قابعة في انتظاره، وكانت تمسك بمصباحٍ ينبعث منه ضوء يشعر بالدّفء، لكن الفتاة ذاتها

كانت منـــزعجة من أمرٍ ما. نظر الإسكندر نحوها فأدارت ظهرها كي تقـــوده وهـــي تحمل المصباح نحو غرفة النوم. لم يعرف سبب تجهمها، لكنه لم يطرح أيّ أسئلة.

فهـــمَ كـــل شيء عندما فُتح باب غرفة نومه. إذ رأى بانكاسب ممـــدّدة على سريره، وفي وضعٍ ذكّره ببطلةٍ أسطورية، ربما داناي التي تنتظـــر المطر الذهبـــي، أو ليدا التي تنتظر البجعة، لكنه لم يكن متأكداً أيهما.

وقفـــت بانكاسب، واقتربت من الإسكندر لتساعده على نـــز ع ثيابه، ثم ركعت أمامه على السجادة، وبدأت بتقبيل فخذيه ثم انتقلت إلى بطنه.

همست وهي ترفع عينيها نحوه بشكلٍ جذاب: "كانت كعب قدم ســـلفك آخيل هي نقطة ضعفه. أما بالنسبة إلى نقطة ضعفك أنت... حسناً، دعني أعرف إذا كنت أتذكر".

راح الإسكندر يداعب شعرها، وابتسم لأنها أمضت أوقاتاً طويلة مع آبيل بحيث استحال عليها التحدث عن أي شيء من دون أن تذكّره بأسطورة ما.

12

غـــادر الإسكندر إفيسوس في وقتٍ ما من منتصف فصل الربيع، وكانـــت خطته تقضي بالتحرك نحو ميليتوس. أمّا ليسيبوس فغادر نحو مقدونـــيا، بينما كان مشروع الملك لا يزال حياً في ذهنه وتزوّد بأوامر مكـــتوبة إلى الوصـــي على العرش. إذ طلب الإسكندر من أنتيباتر أن يـــتأكد مـــن أن الـــنحات يمتلك كل ما يحتاج إليه لصنع ذلك العمل العظيم.

كانـــت محطة ليسيبوس الأولى في أثينا حيث التقى أرسطو، وهو الذي داومَ على إعطاء دروسٍ منتظمةٍ في أكاديميته. استقبل الفيلسوف ليسيبوس في غرفته الخاصة، وأمر بتقديم الشراب المثلج إليه.

"طلـــب مني ملكنا أن أوصل إليك تحياته وولاءه، وطلب مني أن أعلمك أنه سيرسل إليك رسالة مطولة ما إن يتمكن من ذلك".

"أشـــكرك. لم تتأخر أصداء مآثر الملك عن الوصول إلينا هنا في أثيـــنا. ولقـــد جـــذبت مجمـــوعة الـــدروع الثلاثمئة التي أرسلها إلى الأكروبوليس أنظار آلاف الزوار، كما أن كلمة الإهداء التي تضمنت توبيخ سكّان إسبارطة، وصلت بأقصى سرعة إلى أعمدة هرقل. يعرف الإسكندر، بالتأكيد، كيف يجعل من نفسه موضوع حديث الناس".

"كيف تجري الأحوال هنا في أثينا؟".

"يتمتع ديموستين بنفوذ مهم، لكنّ إنجازات الملك تمكّنت من إلهام مخـــيلة الناس. إنّ عدداً كبيراً من الناس الموجودين هنا لديهم أقارب في الجيش يقاتلون في آسيا؛ في القوات البرية والقوات العسكرية على حدٍّ

سواء. وهذا ما يدفعهم لتأييد ذلك القائد السياسي الحكيم. لكن، علينا ألاّ نخدع أنفسنا، لأنه إذا سقط الملك في المعركة، فإن تمرداً سيحدث على الفور، كما أنه ستتم ملاحقة أصدقاء الإسكندر كلّهم من منزلٍ إلى منزلٍ بهدف اعتقالهم. ولا أشك في أنني سأكون أول المعتقلين. لكن أخبرني، كيف كان سلوكه حتى الآن؟".

"كان متزناً كثيراً، حسب معرفتي، كما أظهر تسامحاً كبيراً مع أعدائه المهزومين، أما في المدن التي احتلها، فلم يفعل أكثر من إعادة فرض الديمقراطية، ومن دون أن يطلب إحداث أي تغييرٍ في نظام الحكم".

أومأ أرسطو وهو يفكر بعمق، وراح يمسّد لحيته دلالةً على استحسانه. كان من الواضح أن التلميذ يطبّق تعاليم معلّمه. وبعد ذلك، وقف الفيلسوف وقال: "أترغب في أن ترى الأكاديمية؟".

أجاب ليسيبوس وهو يسير خلفه: "بكل سرور".

خرجا إلى رواقٍ معمّد، وسارا حول الباحة المركزية في ظلال صفٌ من الأعمدة الرخامية البينتلية الرائعة ذات الرؤوس المزخرفة. وفي وسط الباحة، كانت هناك بئر مسيّجة بجدارٍ حجري قليل الارتفاع، وقناة صغيرة حملت آثار أعوام عديدة من استخدام الحبال. وفي تلك اللحظة، كان أحد الخدم منهمكاً في رفع كمية من المياه.

"لدينا هنا أربعة من الخدم. اثنان للتنظيف، واثنان آخران لتحضير الموائد. كما أننا نستضيف في بعض الأحيان ضيوفاً من مدارس أخرى، بالإضافة إلى أن بعض تلامذتنا يمكثون معنا لبعض الوقت".

مرّا بعد ذلك من خلال مدخلٍ مقبّب: "هذا هو قسم العلوم السياسية عندنا، حيث تدارسنا دساتير ما يزيد عن مئة وستين مدينة في اليونان، وآسيا، وأفريقيا، وإيطاليا". ثم سارا من خلال ممرٌ يحتوي على

أبـــواب عديـــدة. "وهنا قسم الطبيعة الذي يحتوي على مجموعاتٍ من المعادن، والنباتات، والحشرات". وأضاف الفيلسوف بعد أن اصطحب ضـــيفه إلى قاعةٍ كبيرة: "أخيراً، لدينا في هذه المنطقة مجموعة الحيوانات الـــنادرة. كما استقدمنا أحد خبراء التحنيط من مصر، وهو خبيرٌ على الأخص بالقطط المبجلة والتماسيح، ويعمل بسرعة كبيرة".

نظر ليسيبوس حوله فازدادت دهشته. وليست الحيوانات المحنطة هـــي السّبب فقط، مثل الأفاعي، والتماسيح، والعقبان، بل إن السّبب هو الرسومات التشريحية التي أدرك أنّ فناناً ماهراً قد رسمها.

تابـــع أرسطو كلامه: "يتعيّن علينا بالطبع أن نكون حذرين من كـــل أنـــواع الأشياء المزيفة والمغشوشة. وصلت شهرة مجموعتنا إلى مختلف أصقاع الأرض، ولهذا تلقينا عروضاً غريبة. إذ رغب بعضهم في بيعـــنا فئران الفراعنة، والأفعوانات الخرافية، وحتى القنطور، وجنيات البحر".

كرّر ليسيبوس بدهشة: "القنطور وجنيات البحر؟".

"بالـــضبط، حتى إنهم دعونا كي نتفحص هذه العجائب قبل أن نشتريها".

"وكيف ذلك؟".

"إنها عمليات تحنيط بدائية، وليس الأمر صدفةً أبداً أن تأتي معظم هـــذه العـــروض مـــن مصر، حيث يمتلك خبراء التحنيط خبرة آلاف الأعوام. يعرف هؤلاء الحرفيون كيف يخيطون جذع إنسان على جسم مهـــرة، ثم يقومون بإخفاء الدرزات بالجلد وعرف الأسد، وهنا يصبح تحنـــيط كـــل هذه الأشياء عملاً يسيراً. أما نتيجة هذا العمل اليدوي البارع، فهي مدهشة جداً. أؤكد لك ذلك".

"وأنا أصدّقك".

تقــدم أرســطو نحو نافذة تطل على منظر لايكابيتوس المكسوة بأشــجار الصنوبر، وبدا الأكروبوليس في خلفية هذا المشهد مع مُجمّع البارثينون العظيمة. "ماذا سيفعل برأيك الآن؟".

أدرك ليــسيبوس على الفور أن أرسطو لم يتوقف عن التفكير في الإسكندر لحظة واحدة.

"إن كـــل ما أعرفه هو أنه سيتوجه جنوباً الآن. ولكن، لا أحد يعرف نواياه الحقيقية".

التفت الفيلسوف نحو الفنان وقال: "سيمضي في طريقه، ويستمر حتى يشعر أنه يتنفس بحرية، وأن أحداً لا يستطيع إيقافه".

بقـــي آبيل وحيداً في إفيسوس، لكنه انشغل باللوحة الكبيرة للملك مقدونـــيا الـــتي تُظهـــره على صهوة جواده. أما الملك فقد بدأ في هذا الوقت مسيرته نحو ميليتوس.

خـــصّص الرســـام معظم تركيزه على رأس بوسيفالاس فرسمه بواقعية كبيرة إلى درجة بدا معها أن ذلك الحيوان على وشك القفز خـــارج اللـــوحة. أراد آبيل أن يفاجئ زبونه، لذلك رتّب مسألة ســـفره إلى المعـــسكر التالي الذي أقامه الإسكندر حاملاً معه كل لـــوحاته، وذلك كي يتمكن الملك من التمتع بالأجزاء المكتملة من اللوحة.

خـــصّص الفنان جزءاً كبيراً من وقته وعمل بدقّة على رسم تلك الـــدماء التي انتشرت حول لجام فم الجواد، لكنه لم يتمكن من التوصل إلى اللـــون المطلوب. أما بانكاسب التي لم تستطع التوقف عن الكلام أبـــداً، فقـــد أوصـــلت غضبه إلى حدّه الأقصى، لا سيما وأن جذوة غرامهما قد انطفأت منذ وقتٍ طويل.

صاح الرسّام الساخط: "لن أتمكن من إنهاء هذه اللوحة أبداً إذا لم تصمتي!".

عادت بانكاسب للكلام مجدداً: "لكن، يا عزيزي...".

خـــرج آبـــيل عن اتزانه تماماً فرمى إسفنجة مشبعة بالطلاء على اللـــوحة، وصاح: "هذا يكفي!". وشاءت الصدف الغريبة أن تصطدم الإسفنجة باللوحة عند زاوية فم بوسيفالاس تماماً، وذلك قبل أن تسقط على الأرض.

فقالت بانكاسب متذمرة: "ما هذا؟ هل سُررتَ الآن؟ لقد خرّبت اللوحة! إنني أفترض أنك ستضع اللوم عليّ، أليس كذلك؟".

لكـــنّ الرسام لم يكن يصغي إليها، بل سار بتشكك نحو لوحته، ورفع ذراعيه في حركةٍ تدلّ على استغرابه وتعجّبه، وراح يتمتم: "أمرٌ لا يصدّق. إن ذلك مستحيل بحق الأسياد".

جعـــل الأثـــر الذي تركته الإسفنجة لعاب بوسيفالاس المختلط بالدماء يبدو واقعياً بشكلٍ تعجز عن مجاراته القدرات الإنسانية.

لاحظت بانكاسب الأمر بدورها فراحت تقول: "آه، الآن...".

الـــتفت آبيل نحوها، ورفع سبابته حتى كادت أن تلامس أنفها: "إيـــاكِ أن تخبري أحداً عن كيفية إنجاز هذا التفصيل بالذات". تحركت إصـــبعه ببطء نحو تلك البقعة اللونية التي تُعتبر من الأعاجيب وأضاف: "سأقطع أنا شخصياً هذا الأنف الصغير والجميل عن وجهك إذا فعلتِ ذلك. هل فهمتِ؟".

فأومـــأت بانكاســـب، بينما كانت نظرته التوبيخية نحوها تختفي شيئاً فشيئاً: "فهمت تماماً يا حبيبـــي".

كانـــت تقصد ما قالته بالفعل في تلك اللحظة بالتحديد. ولكنّ الكتمان لم يكن من أبرز فضائلها، وهكذا، عرف كل سكان إفسيس

كـــيف تمكن آبيل العظيم من رسم هذا التفصيل المدهش لتلك الدماء التي تحيط بفم بوسيفالاس، وذلك في غضون يومٍ أو يومين.

13

أرسل قائد الحامية المرابطة في ميليتوس، وهو يوناني يدعى إغيسيكراط، رسالةً إلى الإسكندر قال له فيها إنه مستعدٌ لتسليم المدينة إليه. وكان قد سبق للملك أن أرسل الجيش الذي بدأ بالتقدم بنية احتلال المدينة، لكنه أرسل بعد ذلك سريةً من الفرسان تحت قيادة كراتيروس وبيرديكاس لتسبق الجيش. وكانت هذه السرية مؤلفةً من الفرسان الكشافة الذين عبروا نهر ميندر كتدبيرٍ احتياطي.

عبرت السرية النهر، وتسلقت منحدرات جبل لاتموس، لكنها توقفت ما إن وصلت إلى قمة الجبل. دُهش الفرسان من المنظر الرهيب الذي كان أمامهم. رأوا أسطولاً من السفن الحربية يحيط برأس ميليتوس، ولاحظوا أن كل سفينة قد اتخذت لها موقعاً كي تسدّ الخليج.

وقفت وراء المجموعة الأولى من السفن مجموعات أخرى كثيرة، حتى امتلأ الخليج بأكمله بمئات السفن، وبدا البحر وكأنه يغلي بسبب الزبد الناتج عن آلاف المجاذيف التي كانت تضرب مياه البحر. لم تصل إلى مسامعهم أصوات المجاذيف بسبب بعد المسافة، ولكن وصل منها القدر القليل، وتمازجت مع أصوات قرع الطبول التي تناغمت مع إيقاع المجذّفين.

راح بيرديكاس يتمتم: "إنه الأسطول الفارسي!".

سأل كراتيروس: "برأيك، ما عدد السفن التي تتواجد هنا؟".

"هناك المئات منها... توجد مئتان على الأقل، وربما ثلاثمئة. يتقدم أسطولنا في طريقه إلى هنا، ولكنه حين يتفاجأ بالسفن المتواجدة في هذا الخليج فسيُقضى عليه. يتعيّن علينا أن نعود بأقصى ما يمكننا ونعطي

نيرخـــوس إشارة التوقف. إن سفنهم تفوق سفننا عدداً بنسبة اثنين إلى واحد على الأقل!".

وسرعان ما استدارا بجواديهما اللذين أسرعا فوق المنحدر، وراح الفارسان ينخساهما كي يسرعا نحو الجيش الذي يتقدم جنوباً.

وصـــلا إلى رفاقهمـــا الذين يتواجدون على الضفة اليسرى لنهر ميـــندر، وتوجها على الفور إلى الملك الذي كان يشرف مع بطليموس وهيفاســـتيون علـــى عـــبور الفرسان من فوق جسر من القوارب التي صمّمها مهندسوه خصيصاً لهذه الغاية، ووضعوها قرب مصب النهر.

صاح كراتيروس: "أيها الإسكندر! توجد ثلاثمئة سفينة حربية في خلـــيج ميليـــتوس. يتعيّن علينا أن نوقف نيرخوس قبل أن يقوم الفرس بإغراق أسطولنا بأكمله!".

سأل الملك وهو متجهم الوجه: "متى رأيتما السفن".

"رأيـــناها قبل فترةٍ وجيزة... كنا قد وصلنا إلى قمة جبل لاتموس عـــندما ظهرت أمامنا السفن الأولى، ثم وصلت سفن أخرى، قبل أن يلحـــق بها المزيد... بدا لنا أنه لا توجد نهاية لتلك السفن الضخمة التي تمتلك أربعة أو خمسة صفوفٍ من المجاذيف".

أضـــاف بيرديكاس: "حتى إنني رأيت بعض هذه السفن المتطورة ذات ثمانية صفوف من المجاذيف".

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"بالطـــبع أنا متأكد! كما أن السفن مجهزة بمنجنيقات برونـــزية يبلغ وزن الواحدة منها ألف باوند على الأقل".

"يتعيّن عليك أن توقف أسطولنا أيها الملك! لا يعرف نيرخوس شيئاً عـــن هـــذه السفن لأنه لا يزال عند الجهة الأخرى من رأس مايكال... وسينتهي به الأمر إلى الإبحار مباشرة نحو الفرس إن لم ننذره".

قــال الملك: "اهدأ قليلاً، فلا يزال لدينا بعض الوقت". ثم التفت إلى كاليــستين الــذي كان جالساً على مقعدٍ بالقرب منه، وقال له: "أعطني لوحاً وقلماً".

أحــضر كاليــستين أدوات الكــتابة، فكتب الإسكندر بسرعة كلمــاتٍ قليلة على اللوح، وأشار إلى أحد الفرسان من حراسه قائلاً: "خــذ هذه على الفور إلى رجل الإشارة في رأس مايكال، واطلب إليه أن يرســل هذه الرسالة إلى أسطولنا على الفور. دعونا نأمل أن تصل إليهم الرسالة في الوقت المناسب".

قــال هيفاســتيون: "أعتقد أنها ستصل في الوقت المناسب، لأن الــرياح الجنوبــية التي تهب الآن تساعد الفرس القادمين من الجنوب، لكنها تعاكس سفننا الآتية من جهة الشمال".

انطلق الفارس بجواده على وجه السرعة فوق جسر القوارب، وفي الاتجاه المعاكس لسير الجنود المتدفقين، وراح يصرخ ويطلب إلى الجمــيع التنحي عن طريقه، ثم دفع جواده كي ينطلق بأقصى سرعة ليتــسلّق مــنحدرات رأس مايكــال. كانت مجموعة من المراقبين متمركــزةً هناك من أجل مراقبة تحرك أسطول نيرخوس شمالاً. وكانت المجمــوعة مجهــزة بدروع مصقولة تشبه المرايا، ومخصصة لإرسال الإشارات.

قال الفارس وهو يسلّم اللوح إلى أحد الرجال: "بعث الملك بأمرٍ يقضي بإرسال هذه الرسالة من دون تأخير: *يتواجد الأسطول الفارسي في خليج ميليتوس، وهناك ثلاثمئة سفينة حربية*".

نظــر رجــل الإشارة إلى السماء فرأى سحابة تدفعها الرياح من الجنوب فقال: "لا أستطيع إرسالها الآن. يجب علينا أن ننتظر مرور تلك السحابة. انظر إنها تحجب ضوء الشمس في أثناء حديثنا".

قال الفارس شاتماً: "اللعنة! لماذا لا تحاول إرسالها بواسطة الأعلام؟".

شـــرح رجـــل الإشارة الوضع بالقول: "إنهم بعيدون جداً، ولن يتمكـــنوا من رؤيتنا. يتعيّن علينا أن نكون صبورين، كما أن الأمر لن يـــستغرق فترةً طويلة". في هذا الوقت، خيّم ظلّ السحابة على الرأس بكاملـــه، بيـــنما تقدّم الأسطول وسط ضوء الشمس، واصطفت جميع السفن بانتظام وراء سفينة قيادة نيرخوس.

بـــدا أن الـــسحابة قد توقفت في مكانها تماماً، كما أن الأسطول اقتـــرب من الطرف الغربـــي للرأس، وبدأ يتحرك نحو الميمنة، وبدا أنه جاهز للدوران حولها.

أخـــيراً، عادت الشمس للظهور عند طرف السحابة، لذلك بدأ المـــراقبون علـــى الفور إرسال الإشارات. أرسلت الإشارة على الفور تقريباً، لكن الأسطول تابع سيره نحو الرأس.

سأل الفارس: "لكن، ألم يرونا؟".

أجاب رجل الإشارة: "آمل أن يكونوا قد رأونا".

"إذاً، لماذا لم يتوقفوا؟".

"أسرِع بإرسال الإشارة مجدداً!".

حاول رجل الإشارة والمراقبون مرةً أخرى.

"لماذا لا يستجيبون بحق زيوس؟".

"لأنهم لا يستطيعون ذلك. إنهم متواجدون في منطقة ظل السحابة".

عـــضّ الفارس شفته وهو يذرع المكان جيئةً وذهاباً، وينظر إلى الجيش من وقتٍ إلى آخر، ويتصور مزاج الملك في تلك اللحظة.

صـــاح رجـــل الإشارة: "وصلتِ الرسالة! بدأت سفينة القيادة بإنـــــزال أشـــرعتها، كما بدأ البحارة بتوجيهها باستخدام المجاذيف. سيردّون علينا في وقتٍ قريب".

تابعـــت ســـفينة القيادة إبحارها بسرعة أقل، وتمكّن الرجال من مـــشاهدة الـــزبد الـــناتج عن حركة المجاذيف بوضوح، في حين وجّه المجذفون مراكبهم إلى منطقة آمنة تقع تحت الرأس.

سطع ضوء من تحت مقدمة السفينة، وهو الضوء الذي قرأه رجل الإشارة على الشكل التالي:

"*نحـــن... نـــتجه نحـــو اليابسة... نحو اليابسة*. ممتاز! لقد فهموا الرســـالة. اذهـــب بـــسرعة وأخبِـــر الملك. فنحن لا نستطيع إرسال الإشارات من هنا لأن الشمس تعاكسنا".

نـــزل الفارس بسرعة عن التلة، ووصل بعد قليل إلى الملك الذي كـــان يعقد اجتماعاً مع قيادته العليا على الشاطئ. أعلن الفارس وهو يتـــرجل عن جواده: "مولاي! تلقى نيرخوس الرسالة، وهو يناور الآن بـــسفينة القـــيادة بيـــنما أتحدث إليك. ستراه في أي لحظة يدور حول الرأس".

أجـــاب الإسكندر: "حسناً. إننا نتمكن من هذا الموقع من مراقبة حركة الأسطول الفارسي".

في هـــذا الوقت، تمكّن أسطول الملك العظيم الفارسي الضخم من الـــتواجد في كامل المساحة الواقعة ما بين شبه جزيرة ميليتوس وتلال جبل لاتموس، بينما تمكّنت سفينة قيادة نيرخوس في الجهة الأخرى من الاستدارة حول رأس مايكال، وتقدمت نحو مصب ميندر، وسرعان ما تبعتها سفن الأسطول المتحالف.

قال الملك: "لعلنا نجونا هذه المرة. في الوقت الحاضر على الأقل".

قـــال كـــراتيروس: "بالفعل، لأننا لو لم نرسل إشارة الخطر إلى نيرخـــوس لكـــنا دخلنا في مواجهةٍ مباشرة مع الفرس، واضطررنا إلى الاشتباك معهم بالرغم من وضعنا الضعيف واليائس".

سأل بارمينيون: "وما هي خطتك الآن؟".

ولم يكن قد أنهى طرح سؤاله حتى وصل أحد حاملي الدروع التابعين له حاملاً رسالة بيده، فقال: "وصلتنا أخبار من ميليتوس يا مولاي".

فتح الإسكندر الرسالة وقرأها.

من فيلوتاس، ابن بارمينيون إلى الإسكندر، تحياتي!

تغيّر موقف إغيسيكراط، قائد حامية ميليتوس، ولم يعد على استعداد لفتح أبواب المدينة أمامك.

ولقد وضع الرجل نفسه تحت حماية أسطول الملك العظيم.

حافظ على معنوياتك واحترِس.

قال الإسكندر: "كان يُفترض بنا أن نتوقع هذا، لأن إغيسيكراط سيشعر بأنه لا يُقهر بعد أن رست السفن الفارسية في الخليج".

قال أحد حاملي الدروع: "مولاي، إن زورقاً من سفينة القيادة يقترب من الساحل".

"جيد، سينضم قادة بحارتنا إلى اجتماع مجلس الحرب".

بعد وقت قصير، نزل نيرخوس إلى الشاطئ، وكان وراءه كاريلاوس، القائد الأثيني للأسطول المتحالف.

رحّب الملك بهما بحرارة، وأوجز لهما الوضع، ثم طلب آراء كل الموجودين بحسب أعمارهم، وبدأ مع بارمينيون.

بدأ القائد المخضرم حديثه بالقول: "لست خبيراً في الشؤون المتعلقة بالبحر، لكنني أعتقد أنه لو كان الملك فيليب هنا، لكان فاجأ أسطول العدو اعتماداً على السرعة الكبيرة، والقدرة على المناورة اللتين تتمتع بهما سفننا".

تغيّر مزاج الإسكندر بسرعة، وهو الأمر الذي يحدث في كل مرة يقارنه فيها أحدهم بوالده الملك علناً. وأجاب بحدة: "اعتاد والدي على القتال عندما تكون فرص إحراز النصر كبيرة، وإلا كان يلجأ إلى الخداع".

قال نيرخوس: "أرى أنه سيكون من الخطأ أن ندخل في معركة. إنهم يفوقوننا عدداً بنسبة ثلاثة إلى واحد. كما أننا محاطون باليابسة، لذلك لدينا مجال محدود للمناورة".

عبّر الآخرون عن وجهات نظرهم، لكن الحاضرين جميعاً أدركوا أن الإسكندر لا يركّز على الاجتماع، إذ إنه كان يراقب نسراً يبحث عن السمك، وكان يحوم بشكل دوائر واسعة فوق الشاطئ. وفجأة، هبط النسر بسرعة كبيرة، وأمسك بسمكة كبيرة بمخالبه، ثم راح يخفق بجناحيه بشدة كي يتمكن من الارتفاع، وما لبث أن طار مع فريسته.

"أرأيتم تلك السمكة؟ كانت واثقة جداً من مهارتها في الماء، ولذلك اقتربت من الشاطئ كثيراً، وعندها استفاد النسر من هذا الوضع الذي حسبته السمكة مؤاتياً لها. إن هذا هو بالضبط ما سنفعله الآن".

سأل بطليموس: "ماذا تعني؟ إننا لا نملك أجنحة".

ابتسم الإسكندر وقال: "أتذكر المرّة الأخيرة التي ذكّرتني فيها بهذه الحقيقة؟ كنا نتحرك نحو تيساليا، ووجدنا أمامنا جبل أوسا الذي كان بمثابة جدار منيع".

قال بطليموس موافقاً: "هذا صحيح".

عاد الملك للحديث مجدداً: "جيّد. حسناً، أرى أننا لا نستطيع المجازفة بصدام بحري في مثل هذه الظروف. ليس فقط لأن عدونا متفوّق علينا بشكل ساحق في ما يتعلق بالأعداد، ولكن لأنه يمتلك سفناً أقوى من سفننا وأمتن منها. إن هيبتي ستتحطم إذا تدمّر أسطولنا؛

إذ سيتمرد الإغريق في هذه الحالة، وسينهار التحالف الذي عملت جاهداً من أجل تكوينه، وهو الأمر الذي سيحمل معه عواقب وخيمة. سأعطيكم أوامري في هذه الحالة: اسحبوا كل سفننا إلى الشاطئ، وتأكدوا من أن أولى السفن التي ستُسحب من المياه هي تلك التي تحمل قطع آلات الحصار. سنقوم بجمع هذه الآلات، وسنأخذها إلى أسوار ميليتوس".

سأل نيرخوس بتشكّك: "أتريد أن نأخذ الأسطول بأكمله إلى الشاطئ؟".

"أجل، بالضبط".

"لكن، يا مولاي...".

"اسمعني يا نيرخوس، أتعتقد أن مشاة الفرس الذين يتواجدون على متن أسطولهم يماثلون الفالانج المصطفّين على الشاطئ قوة؟".

"كلا، لا أظن ذلك؟".

قال ليوناتوس: "بالطبع لا، إنهم لا يماثلون الفالانج أبداً. أما إذا حاولوا معنا، فسندمر سفنهم قبل أن يصلوا إلى اليابسة".

قال الإسكندر: "هذا صحيح، ولهذا فإنهم لن يحاولوا".

فهم نيرخوس في هذا الوقت نوايا الملك، فقال: "ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون البقاء على متن سفنهم ساكنين إلى الأبد. أرادوا زيادة قوة سفنهم عن طريق زيادة عدد المجذّفين. وهم بفعلتهم هذه، لم يتركوا مجالاً لأي شيء آخر على متن سفنهم. إنهم لا يستطيعون إعداد الطعام، ولا الاحتفاظ بمقادير كافية من المياه، ولهذا، فإنهم يعتمدون تماماً في تموينهم على البر".

ختم الإسكندر كلامه: "وهو ما سنسدّ طريقه عليهم مستخدمين فرساننا، كما سنسيّر دوريات على طول الشاطئ، وعلى الأخص عند

مـصبّ كـل نهر. وكل جدول، وعند كل نبع. إنهم هناك على متن سـفنهم، لـذلك سرعان ما ستنفد مؤنهم من الطعام والمياه، وكل ما سـيجدونه هـو أشعة الشمس الحارقة، والعطش القاتل في حلوقهم، والجوع الكافر في بطونهم، بينما نمتلك نحن كل ما نحتاج إليه.

سيـشرف إيومينـيس على تجميع آلات الحصار، أما بيرديكاس وبطلـيموس فسيقودان الهجوم عند الجهة الشرقية من أسوار ميليتوس، وذلك ما إن تفتح الآلات ثغرةً فيها. أما كراتيروس، فسينطلق بالفرسان بمـساعدة فـيلوتاس، ويسير بهم بمحاذاة الساحل كي يمنع أي محاولة إنـزال. فيما سيقوم بارمينيون في تلك الأثناء بتحريك المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً من أجل تقديم الدعم لعملياتٍ أخرى، وسيساعده الأسود في ذلك. أصحيحٌ هذا أيها الأسود؟".

أجاب كلايتوس: "بالتأكيد يا مولاي".

"ممتاز. سيقوم نيرخوس وكاريلاوس بحراسة السفن الموجودة فوق الـشاطئ مع المشاة وأطقم السفن المسلحة، وسيأمران بحفر الخنادق إذا كان ذلك ضرورياً. أريد أن تشعر ميليتوس بالندم على انقلابها".

14

كـــان يـــوماً رائعاً من أحد أيام أواخر الربيع، وتوسطت شمس الظهيرة كبد السماء، أما البحر، فكان مثل بحيرةٍ ساكنة.

وقف الإسكندر وهيفاستيون وكاليستين فوق قمة جبل لاتموس، وتأمّلوا المنظر الرائع الذي يمتد أمامهم. إلى يمينهم، برز رأس مايكال في البحر مثل مهماز، بينما ظهر خلفه منظر جانبيّ لجزيرة ساموس الكبيرة.

وإلى يـــسارهم، امـــتدت شبه جزيرة ميليتوس المقاومة. تعرضت المديـــنة للدمار على يد الفرس قبل مئتي عام خلت، وذلك لأنها تجرأت على التمرد ضد حكمهم. لكنّ ابنها الأشهر، المهندس هيبوداموس أعاد بـــناءها بـــشكلٍ مهـــيب، وهو الذي صمّم بكل عناية شبكة طرقاتها العريضة المتعامدة، بالإضافة إلى طرقاتها الفرعية الضيّقة.

أعـــاد الرجل بناء هياكل الأكروبوليس فوق أعلى نقطة على الجزيرة مـــستعملاً حجارة رخامية مطلية بألوانٍ زاهية، وعليها نقوش من البرونـــز والـــذهب والفـــضة. بالإضافة إلى وضعه على شبه الجزيرة مجموعات من التماثـــيل الـــتي وقفـــت بمهابة وهي تطل على الخليج الواسع. وأقام ذلك المهـــندس ســـاحة عظـــيمة في وسط المدينة، وهي التي تشكل ملتقى كل الطرقات، وتمثّل كذلك مركز الحياة السياسية والاقتصادية للمدينة.

تقـــع جزيرة لايد الصغيرة على مسافةٍ قريبة من الشاطئ. وتبدو هذه الجزيرة مثل حارسٍ يقوم بمراقبة مدخل ذلك الخليج الواسع.

أما من الجهة الشمالية الشرقية البعيدة، أي عند مصب نهر ميندر، فكـــان مـــن الممكـــن رؤية سفن نيرخوس وهي راسية فوق الشاطئ،

ومحمية بواسطة خندقٍ وحاجزٍ، وتقف متحسّبةً لأي هجوم يُحتمل أن يشنّه مشاة العدو الذين يحاولون الرسو على البر.

بدت سفن الملك العظيم الثلاثمئة مثل دمى القوارب الصغيرة التي يلهو بها الأطفال، وذلك بسبب بعد المسافة.

صـــاح كاليستين: "غير معقول! هنا فوق هذه المياه بالذات، وفي هـــذه المنطقة تقررت نتائج الحروب الفارسية. إن تلك الجزيرة الصغيرة الـــتي تقـــع قـــرب المديـــنة هي لايد، وهناك سحق الفرسُ اليونانيين المتمردين".

قال هيفاستيون: "ها هو كاليستين يعطينا درساً في التاريخ، وكأن دروس خاله في ميبزا لم تكن كافية لنا".

قال الإسكندر: "اهدأ، لأنك إذا لم تعرف الماضي، فلن يكون في وسعك أن تفهم الحاضر".

تابـــع كاليستين كلامه من دون الاهتمام بكلام هيفاستيون: "وهناك في الأســـفل، أي علـــى رأس مايكال انتقم رجالنا منهم بعد مرور خمسٍ وعشرين سنة. كان الأسطول وقتها بقيادة ليوتيكيد، ملك إسبارطة. ولقد شنّ البحارة هجومهم عندما كان الأسطول الفارسي فوق الشاطئ".

قـــال هيفاستيون: "هذا أمرٌ مثيرٌ للاهتمام، لأن الوضع معكوسٌ تماماً اليوم".

قـــال الإسكندر: "هذا صحيح، فرجالنا يجلسون في الظلال بكل راحة، ويأكلون خبزاً طازجاً، بينما أخصامنا يعانون من أشعة الشمس الحارقـــة منذ ثلاثة أيام، ولا يجدون ما يأكلونه غير ما تحمله السفن من كعـــك، ولا بد من أنهم يستعملون الماء الموجود لديهم بحرص في هذا الوقت، ولا يعطون الرأس الواحد غير مغرفةٍ أو اثنتين في اليوم. سيتعيّن عليهم اتخاذ قرارٍ ما قريباً جداً: إما أن يهاجموا أو يمضوا في طريقهم".

أشـــار هيفاســـتيون إليه: "اسمع، إن آلات الحصار التابعة لنا قد انطلقت، وستكون هذا المساء تحت أسوار المدينة، وعندها ستبدأ في دكّ تحصيناتهم".

في تلـــك اللحظة، وصل أحد الجنود التابعين لفرقة الطليعة على صـــهوة جواده حاملاً معه رسالة. قال وهو يسلّم اللوح: "أيها الملك، إنني أحمل رسالة من القائدين بارمينيون وكلايتوس".

راح الملك يقرأ الرسالة:

من بارمينيون وكلايتوس إلى الملك الإسكندر، تحياتنا!

نفّـــذ البرابرة ثلاث محاولات للنـــزول إلى البر من أجل الحصول على كميات من المياه، وذلك في نقاط مختلفة من الشاطئ، لكننا تمكنا من ردّهم في كل محاولة من هذه المحاولات.

لتظلّلك السعادة على الدوام.

صـــاح الإســـكندر: "رائع! هذا ما تصوّرته بالضبط. يمكننا أن ننـــزل الآن".

امتطى الملك جواده بوسيفالاس، وبدأ بنـــزول الطريق المؤدية إلى الخلـــيج كي يلتقي القافلة التي تحمل آلات الحصار وهي في طريقها إلى ميليتوس.

اقترب إيومينيس من الإسكندر وسأله: "حسناً إذاً، أخبرونا كيف يبدو المنظر من فوق؟".

أجـــاب هيفاستيون نيابة عن الإسكندر: "رائع. يمكنك أن ترى الفُـــرس من هناك وهم يعانون الأمرّين بسبب أشعة الشمس الحارقة، وكـــأنهم يُشوَونَ على نيرانٍ خفيفة، أي أن طهيهم بالكامل سينتهي في وقتٍ قريب".

"أيمكنك أن تحزر من وصل للتو؟".

"كلا".

"وصل آبيل. أنهى الرسام لوحة الفارس التي رسمها لك، وهو يرغب في أن تراها أيها الإسكندر".

"آه، بحق الأسياد، ليس لديّ وقت الآن لرؤية أي لوحة. إنني منهمك في الحرب. اشكره بالنيابة عني، وادفع له أجرته، ثم قل له إننا سنلتقي فور تمكّني من ذلك".

قال إيومينيس: "كما تريد، لكنك ستسبّب له صدمة. آه، كدتُ أنسى. لم يصلنا شيء عن ممنون، ويبدو أنه اختفى. هكذا بكل بساطة".

قال الملك: "لا أصدّق ذلك. إن ممنون مراوغٌ جداً، ولذلك سيشكل خطراً كبيراً علينا إذا لم نعرف مكانه".

"لكن، لم يره أحد منا قطّ، كما أننا لا نعرف كيف يبدو. يقولون كذلك إنه لم يُصب بأي جرحٍ في المعركة من النوع الذي يساعدنا على تمييزه. إنه يحارب معتمراً خوذة كورينثية من دون أي شيء يتوّجها. يصعب على المرء أن يميّز رجلاً في غمار المعركة انطلاقاً من نظرة واحدة فقط".

"هذا صحيح، لكنني لست مقتنعاً باختفائه. هل وجدتَ الطبيب اليوناني الذي عالجه؟ يقول بارمينيون إنه من آبيدوس واسمه أريسطون".

"لقد اختفى بدوره".

"أما زال منزل ممنون في زيليا تحت المراقبة؟".

"لم يبقَ أحدٌ فيه غير الخدم".

"لا تتوقف عن البحث عنه. إنه الرجل الذي يجب أن نخشاه أكثر من غيره، وهو أخطر علينا من جميع أعدائنا".

أجـــاب إيومينـــيس قـــبل أن يتراجع كي ينضم إلى قافلة آلات الحصار: "سنفعل كل ما في وسعنا".

ناداه الإسكندر: "انتظر!".

"أنا هنا. هل من مشكلة؟".

"هل قلت إن آبيل موجودٌ هنا؟".

"أجل، لكن...".

"غيّرتُ رأيي. أين هو؟".

"إنه في المعسكر البحري. أمرتُ بنصب خيمةٍ له، وبتحضير حمامٍ ساخن".

"حسناً فعلت. سأراك لاحقاً".

"لكـــن، ماذا...". لم يتمكن إيومينيس حتى من إكمال جملته لأنّ الإسكندر انطلق في طريقه نحو المعسكر.

كان آبيل منـــزعجاً بسبب عدم تخصيص أي شخص كي يهتم به، كما أن أحداً من الجنود لم يعرفه بصفته أعظم الرسامين في زمانه. وبالمقابل، أظهر الجميع حماسة منقطعة النظير تجاه بانكاسب، وهي التي تـــوجهت إلى البحـــر كي تسبح عارية، وتجولت في البر وهي مرتدية أقصر عباءة عسكرية وجدَتها، والتي بالكاد غطّت أماكنها الحساسة.

شـــعر آبيل بالارتياح عندما ترجّل الإسكندر عن جواده، وعندما تقـــدم نحوه فاتحاً ذراعيه. "آبيل، يا أستاذ الريشة الأعظم! أهلاً بك في معـــسكري المتواضع. لكن، ما كان عليك... كنت سأذهب إليك في أسرع وقتٍ ممكن. إنني متشوّقٌ إلى رؤية ثمرة عبقريتك".

أحـــنى آبـــيل رأسه قليلاً: "لا أرغب في أن أزعجك وسط هذا الحـــصار المهم، لكنني، في الوقت عينه، لم أستطع الانتظار كي أريك لوحتيّ".

قال الإسكندر وقد ظهرت عليه علامات الحماسة الصادقة لرؤية اللوحة: "أين هي؟".

"إنها في خيمتي. تعالَ".

لاحظ الملك أن آبيل نصب لنفسه خيمةً بيضاء، وهو الأمر الذي جعـــل الـــضوء يتوزع داخلها بشكلٍ متساوٍ، أي أن ذلك قد قلّل من تداخل الضوء مع ألوان اللوحة.

سار الفنّان إلى داخل الخيمة، وانتظر حتى تعوّدت عينا الملك على الـــضوء. كانت اللوحة مغطاةً بستارة، بينما أمسك أحد الخدم حبلاً منتظـــراً إشـــارةً من سيّده. في هذا الوقت، دخلت بانكاسب الخيمة، واتخذت لها مقعداً قرب الإسكندر.

أومـــأ آبـــيل، ومـــا لبث الخادم أن سحب الستارة فانكشفت اللوحة.

جلـــس الإســـكندر صامتاً بعد أن صُعق بمدى قدرة اللوحة على بعـــث الذكريات في ذهنه. أذهلته التفاصيل كثيراً في لوحة آبيل، وهو الأمـــر الـــذي جعله يفكّر في أن ذلك العمل كان كاملاً، بدرجة أو بأخـــرى، في تلـــك المرحلة بحيث اكتسب جسداً وروحاً. شعّت تلك التفاصـــيل الدقيقة بكل حيوية الحياة الحقيقية، وكانت مشبعةً بالتناغم بين أجزائها، ونابضة بالحركة بشكل لا يصدق.

أما صورة بوسيفالاس فامتلكت قوةً تعبيرية بحيث بدا الجواد حياً، ويتـــنفس مـــن منخريه غاضباً. بدت حوافر الجواد وكأنها على وشك الخـــروج مـــن اللـــوحة كي تنافس المشاهد على الحيّز الحقيقي. كان الفـــارس مـــذهلاً بالدرجة ذاتها، لكنه كان يختلف في الوقت ذاته عن الطريقة التي أظهره بها ليسيبوس في تماثيل الإسكندر حتى ذلك الوقت. سمـــح التناسق غير المحدود للألوان للرسام بالوصول إلى واقعية مذهلة.

فمن جهة، كان الرسم مذهلاً حتى أكثر من البرونـــز، ومن جهةٍ ثانية، كان تحدياً لشخصية الإسكندر.

أظهر وجه الملك في اللوحة كل القلق والحماسة لفاتحٍ كبير، كما أظهـــرت ملامحـــه نبلاً عظيماً. ولكن، بدا عليه شيء من الإجهاد. إذ التصق العرق بخصلات شعره التي تدلت بشكلٍ غير منتظم فوق جبهته، وبانت عيناه واسعتين كثيراً نظراً إلى الجهد الذي يتعدى قدرة الإنسان علـــى احـــتواء الموقف، كما أن جبهته تغضّنت في عبسةٍ بدت وكأنها مـــؤلمة، في حين برزت أوداج عنقه، كما بدت شرايينه منتفخة نتيجة الشعور بالغضب الذي فرضته عليه المعركة. ظهر الرجل في اللوحة على صـــهوة جـــواده بكل عظمته، لكنه كان مجهَداً بشكلٍ مخيف، ومثقلاً بالمأساة. ولم يكن الرجل سيداً مبجلاً كما أظهرته أعمال ليسيبوس.

راقب آبيل رد فعل الملك بقلقٍ بالغ، وخاف أن ينفجر الملك بإحدى نوبات غضبه التي عُرف بها. لكنّ الإسكندر عانقه، وقال له: "إنها مدهشة! إنـــني أنظـــر إلى هذه اللوحة فأرى نفسي في ذروة المعركة. لكن، كيف تمكّـــنت من تحقيق ذلك؟ جلستُ أمامك على صهوة جواد خشبـــي، بينما كان بوسيفالاس واقفاً في إسطبله. كيف تمكّنتَ من ذلك؟".

"تحـــدثت مـــع رجالك يا مولاي، ومع رفاقك الذين كانوا إلى جانـــبك في ميدان المعركة، وتحدثت كذلك مع الذين يعرفونك جيداً. وتحدثت كذلك مع..."، أحنى آبيل رأسه عند هذه النقطة قبل أن يتابع كلامه، "بانكاسب".

الـــتفتَ الإسكندر نحو الفتاة، بينما تطلعت نحوه بابتسامة توحي بالتواطؤ، وما لبث أن قال لها: "أتمانعين أن تتركينا وحدنا؟".

بـــدا أن بانكاسب قد فوجئت، وحتى إنها تردّدت في تلبية طلبه، لكنها نفذّت ما طُلب منها من دون جدال. وما إن غادرت الفتاة حتى

بدأ الإسكندر بالكلام: "أتذكر ذلك اليوم الذي جلست فيه أمامك في إفيسوس؟".

حـــاول آبـــيل أن يفهـــم ما يرمي إليه الإسكندر، لكنه أجاب: "أجل".

"تحـــدثت بانكاســـب عن لوحةٍ جلست لأجلها أمامك بصفتها أفروديت، وهي اللوحة التي رسمتها لـــ... كانت على وشك أن تذكر اسم زبونك، إلا أنك قمت بإسكاتها".

"إنك لا تغفل عن شيء يا مولاي".

"يشبه الملك الفنان كثيراً، لأنه ينبغي له أن يملأ المسرح، لذلك لا يستطيع أن يمنح نفسه ترف الشرود. ينتهي الملك إذا شرد".

رفـــع آبيل رأسه ببطء كي تلتقي عيناه بعيني الإسكندر، وحضّر نفسه للحظة صعبة، لكنه قال: "هذا صحيح".

"من كلّفك برسم تلك اللوحة؟".

"أترى يا مولاي. لم أكن أتخيّل أبداً أن...".

"لا حاجة بك إلى الاعتذار، لأن الفنان يعمل ما هو مطلوبٌ منه. هكذا تجري الأمور. تكلّم بكل حرية ولا تخشى شيئاً. اطمئن".

"ممنون. ممنون طلب مني أن أرسم تلك اللوحة".

"لا أدري لمـــاذا، لكنني تصورت أن يكون هو، لأنه هو الشخص الـــذي يستطيع دفع تكاليف لوحةٍ من هذا النوع وهذا الحجم، وعلى الأخص إذا كان آبيل هو الذي رسمها".

"لكن أؤكد لك أن...".

قاطعـــه الإسكندر: "قلت لك إنك لست مضطراً إلى تفسير أي شيء. أردت فقط أن أطلب منك خدمة".

"ليكن لك ما تريده يا مولاي".

"من المؤكد أنك رأيته".

"أتعني ممنون؟ لماذا؟ نعم، رأيته بالطبع".

"حسناً إذاً... ارسم لي صورة لوجهه. فلا أحد هنا يعرف كيف يبدو، ونحن نريد أن نتعرف إليه في حال وجدناه أمامنا... هل فهمت؟".

"فهمتُ يا مولاي".

"إذاً، ابدأ بالعمل".

"أتعني الآن؟".

"الآن".

تناول آبيل ورقة بردى، وبعض الفحم، ثم شرع بالعمل.

15

ترجلت بارسين برفقة ولديها، وتوجّه الجميع نحو المنــزل الذي كان مضاءً ولكن بحذر، بحيث إن مصباحاً واحداً كان يرسل أنواره في الـــرواق المعمّد. دخلت إلى باحة المنـــزل الوسطى لتجد زوجها واقفاً أمامها مستنداً إلى عصا.

ركضت نحوه، وعانقته، ثم قبّلت شفتيه. صاحت: "حبيبـــي! إن حياتي لا تساوي شيئاً من دونك".

وصاح الولدان: "أبـــي!"، فأسرع ممنون لمعانقتهما، لكنه أغمض عينيه من فرط العاطفة التي أحسّ بها.

"تعالوا، اتبعوني! يجب أن نحتفل".

كانـــوا في منـــزل جميلٍ يقع وسط مزرعة تمتد ما بين ميليتوس وهاليكارناســـوس، وكـــان مـــرزبان كاريـــا الفارسي قد خصّصه لأجلهم.

رُتّبت أسرّة الطعام والطاولات بحسب الطريقة اليونانية، وزخرت الأوعـــية بالـــشراب اليوناني. دعا ممنون زوجته وولديه للجلوس على مقاعدهم، بينما استلقى هو على سريره الخاص.

سألت بارسين: "كيف حالك؟".

"إنـــني بخـــير. وكدت أتعافى تماماً، وما زلت أستخدم العصا لأن الطبيب نصحني ألاّ أُتعب ساقي في هذا الوقت، لكنني أشعر بأنني بخير بحيث أستطيع المشي بسهولة من دون العصا".

"وهل لا يزال الجرح يؤلمك؟".

"كلا. كانت معالجة الطبيب المصري فعالة جداً بحيث إن الجرح قد التأم وشُفي في غضون أيام. لكن، هيا تناولوا الطعام... بأنفسكم لو سمحتم".

أحضر لهم الطاهي اليوناني خبزاً طازجاً، ومختلف أنواع الجبن، وبيضَ بطٍّ مسلوقاً جيداً، بينما سكب مساعده حساء الفاصولياء العريضة، والحمص، والبازيلاء.

سألت بارسين: "ماذا سيحدث الآن؟".

"استدعيتكم إلى هنا لأنني أريد أن أخبركم عدة أمورٍ مهمة. أصدر الملك العظيم مرسوماً شخصياً أسند إليّ بموجبه منصبَ القائد العام لمنطقة الأناضول. ويعني ذلك أنني أستطيع إصدار الأوامر للمرزبانات، وأن أجنّد الرجال، وأن أستخدم أيّ موارد أعتبرها ضرورية".

دُهش ابناه من كل كلمة سمعاها، فالتمعت عيونهما بالفخر.

علّقت بارسين، وإن كانَ ذلك بحماسةٍ أقل: "إذاً، يعني ذلك أنك ستتجهز للحرب من جديد".

تابع ممنون كلامه بعد أن أحنى رأسه، وكأنه يتفحص لون الشراب في كوبه: "أجل، وبأسرع ما يمكنني، ولذلك...".

"ما الأمر يا ممنون؟".

"لذلك، فإن هذا المكان لا يصلح لكم. سيحدث قتال حتى النهاية المرة، ولن يكون هناك مكان آمن بالنسبة إلي..."، تردد قليلاً هنا بينما هزّت زوجته رأسها، "يتعيّن عليكِ أن تفهمي الوضع يا بارسين، لأن ذلك هو ما يريده الملك العظيم أيضاً. ستذهبين برفقة الولدين إلى سوسا، وستعيشون في البلاط، وستُعامَلون بكل احترام من قِبَل الجميع هناك".

"أتعني أن الملك يريدنا أن نكون رهائن".

"كلا. وصدقاً لا أعتقد أن الأمر هكذا، لكن الواقع البسيط يفيد أنني لست فارسياً. إنني من المرتزقة، أي محارب لقاء أجر".

"لن أتركك".

قال الولدان: "ونحن كذلك".

تـــنهّد ممنون: "ما من مخرجٍ آخر لهذا الوضع. ستنطلقون في الغد، وســـتنقلكم عربة إلى كيلايناي. ستكونون بأمان هناك، كما ستتنقلون عـــبر طريق الملك، ولهذا لن تواجهكم أي مخاطرٍ. ستصلون سوسا في أواخر الشهر القادم".

أخفـــضت بارسين رأسها بحيث أصبحت تنظر إلى الأسفل عندما كان زوجها يتكلم، وبدأت الدموع تترقرق فوق وجنتيها.

بدأ ممنون الكلام مجدداً: "سأكتب إليك، وستعرفين أخباري لأنني سأســـتخدم الـــسعاة الملكيين، كما ستتمكنين من الكتابة إليّ بالوسيلة ذاتها. سأنضم إليكم في سوسا عندما ينتهي كل شيء، وهناك سيشرفني الملـــك العظـــيم بأكـــبر مظاهر التكريم، وسيعطيني مالاً كثيراً مقابل الخـــدمات التي أسديتها إليه. سنتمكن في آخر الأمر من العيش بهدوءٍ وسلام في أي مكان تريدونه يا حبيبتي، سواء أكان هنا في كاريا، أو في قـــصرنا في زيليا، أو في ساحل بامفيليا. وسنراقب ولدينا وهما يكبران. لـــذلك، كـــوني قوية الآن، ولا تجعلي الفراق أكثر صعوبة مما هو عليه الآن".

انتظـــرت بارسين الولدين كي يُنهيا تناول الطعام ثم أرسلتهما إلى غرفة نومهما.

تـــوجه الـــولدان إلى والـــدهما وعانقاه كلٌّ منهما بدوره، كما اغرورقت عيونهما بالدموع نتيجة فيض العاطفة التي شعرا بها.

قـــال ممـــنون: "لا أريد أن أرى دموعاً في عيون هذين الجنديين الصغيرين". رفع الولدان ذقنيهما، ونظرا إلى الأعلى بفخر، بينما نهض والـــدهما لـــتوديعهما: "طابت ليلتكما يا ولديّ. ناما جيداً، لأن رحلةً طويلة تنتظركما، وستشاهدان أشياء رائعة مثل القصور التي تلتمع بألف لون، والبحيرات، والحدائق التي تُروى عنها قصصٌ مدهشة. وستتذوقان فاكهة وأطعمة نادرة، وستعيشان عيشة ملوك. اذهبا الآن".

قبّل الولدان يده - وهي عادة فارسية - ثم توجها إلى غرفة النوم.

صرفت بارسين الخدم، ثم رافقت زوجها إلى غرفته. وطلبت منه الجلـــوس على كرسيّ ذي ذراعين، ثم أقدمت، ولأول مرة في حياتها، على أمرٍ لم تفعله في السابق بسبب إحساسها الشديد بالخجل، والذي كـــان جـــزءاً من تربيتها منذ نعومة أظفارها. إذ خلعت ثيابها أمامه، ووقفت عارية وسط الأضواء الحمراء الصادرة عن المصابيح.

حـــدّق إليها ممنون مثلما يحدّق رجلٌ إغريقي إلى الجمال في ذروة تجلّياته.

تحـــدثت بصوت كان خفيضاً ورناناً في الوقت ذاته، كما أن رنة كلماتها امتلكت الدفء ذاته الذي امتلكه الضوء الصادر عن المصابيح، والـــذي غمـــر بشرتها الداكنة والملتمعة مثل البرونـــز، وهو ما حوّل جسدها إلى منظرٍ طبيعيٍ فتّان.

خلع ممنون عباءته الطويلة، وراح يتمتم: "بارسين. بارسين...".

ملأت آثار مئة معركة جسده الجذاب، وبانت عليه آثار الندوب الكـــثيرة، ومـــن بينها آخر جرحٍ أصيبَ به، والذي امتد على طول فخذه راسماً أخدوداً طويلاً أحمر اللون. ولكن، توهجت في عينيه نظرة صلدة كالصخر، وشعّت فيهما طاقة رهيبة ثابتة لا تُقهر، بالإضافة إلى حيوية سامية.

أمـــضت بارسين بضع لحظات وهي تتفحصه بإصرارٍ بينما كان يـــتقدّم نحـــوها بحـــركاتٍ غير واثقة كثيراً. واستخدمت يديها عندما استلقى إلى جانبها كي تمسّد فخذيه القويتين.

بـــدأت خيوط الفجر الأولى بالانتشار فوق تلال كاريا المقوسة والمتعـــرجة، وتـــرافقت مع استلقاء كلّ منهما إلى جانب الآخر نتيجة الإجهاد.

16

تـــردّدت أصوات ضربات الكَبش (آلة لدكّ الأسوار) المتتالية من دون كلـــل على أسوار ميليتوس، ودوّت مثل أصوات الرعد، ووصلت حتى منحدرات جبل لاتموس، كما أن الأحجار التي قذفتها المنجنيقات الكبيرة كان يُمكن رؤيتها من البحر.

دعا الأميرال الفارسي قادته لعقد اجتماعٍ على متن سفينته بهدف مناقـــشة مـــا يجـــب عمله. إذ إنّ التقارير الواردة من ضباطه لم تكن مـــشجعة، لأن دَفـــعَ الرجال الذين أنهكهم الجوع والعطش في مغامرة إنـــزالٍ على الشاطئ كان أمراً مساوياً لدفعهم للانتحار.

قـــال أحـــد الفينيقيين القادمين من آرادوس مقترحاً: "يجب أن نذهب إلى ساموس لنتزّود بالطعام والماء، ثم نعود كي نحاول الرسو من موقـــع قـــوة في معـــسكرهم البحري. وبعد ذلك، سنعمد إلى حرق ســـفنهم، وإلى مهاجمـــة جيـــشهم من الخلف خلال انشغالهم بحصار ميليـــتوس، ثم سنتيح لسكان المدينة إمكانية مغادرتها، وهكذا، سيضطر المقدونـــيون إلى الـــدفاع عن أنفسهم على جبهتين وفوق أرضٍ وعرة، وسنتمتع نحن بأفضلية الوضعية القتالية".

قال قائد قبرصي: "أجل، أنا أوافق على هذا. أعتقد أننا لو بادرناهم بالهجـــوم على الفور، أي قبل أن يحفروا الخنادق أمام سفنهم لكنّا امتلكنا فرصاً أفضل للنصر. لكن، يمكننا أن نتدبر الأمر بهذه الطريقة أيضاً".

لاحـــظ القائـــد الفارسي أن جميع الحاضرين متفقون على رأي واحد: "حسناً، أوافق على هذا. سنذهب إلى ساموس من أجل التزود

بالطعـــام والمـــاء. هذه هي خطتي: ما إن يستعيد أطقم السفن والجنود قـــواهم حتى نعمد إلى الاستفادة من نسيم البحر للعودة ليلاً ولمهاجمة قاعـــدهم البحـــرية. وإذا نجـــح هذا الهجوم المفاجئ فسنحرق سفنهم ونهاجم جيشهم المتواجد عند أسوار ميليتوس من الخلف".

أعطـــى علـــمٌ رُفع فوق سفينة القيادة إشارةً للأسطول من أجل تجهيز المجاذيف والتحضير للانطلاق.

اصـــطفّت السفن بطريقة منظمة بحيث ضمّ كل صفٍّ منها عشر سفن، وعندما بدأت الطبول بقرعٍ إيقاع التقدم انطلقت السفن شمالاً، أي نحو ساموس.

سمـــع الإسكندر، الذي كان خارج أسوار الجهة الشمالية، أحد رجاله وهو يصرخ: "لقد انطلقوا! بدأ الأسطول الفارسي بالمغادرة!".

قال سلوقس، الذي كان في ذلك الوقت يعمل بصفة مساعد قائد ميداني للإسكندر: "ستضطر المدينة إلى الاستسلام. إن وضعهم ميؤوس منه الآن".

قـــال بطلـــيموس: "كلا. انتظروا لحظة. إن سفينة القيادة ترسل إشارة ما إلى المدينة".

تمكّـــن الرجال بالفعل من رؤية إشاراتٍ ملتمعة تنطلق من الجزء الخلفي من أحد المراكب الكبيرة خلال ابتعادهً عن الشاطئ، ولم يتأخر الـــرد عن الظهور، وكان على هيئة علمٍ طويل أحمر اللون يرفرف فوق أعلـــى بـــرجٍ في ميليتوس، وسرعان ما تبعه علمٌ أزرق، وذلك قبل أن يظهر علمٌ أخضر.

قـــال بطليموس مفسراً الأمر: "إنهم يؤكدون استلامهم الرسالة، وهـــم لا يستطيعون فعل ذلك بوسائل ضوئية، لأن الشمس ليست في الموقع المناسب لهم".

سأل لوناتوس: "وماذا يعني كل ذلك، برأيك؟".

أجــاب سلوقس: "يعني ذلك أهم سيعودون. أعتقد أهم ذاهبون إلى ساموس من أجل الحصول على الطعام والماء".

أجــاب لــيوناتوس: "لكـــن القائد في ساموس رجلٌ أثيني من حلفائنا".

هـــزّ ســـلوقس كتفيه وقال: "سيحصلون على ما يريدونه. انتظر وسترى بنفسك. إن الأثينيين خائفون منا، لكنهم لا يحبوننا. إن كل ما عليك فعله هو إلقاء نظرة على الجنود هنا. هل لاحظتَ أهم وضباطهم ينظرون إلينا نظرة استعلاء وكأننا مصابون بداء الجذام، أضف إلى ذلك أهم لا يحضرون مجالس الحرب إلا بدعوةٍ من الإسكندر ذاته، وإلا فهم لا يحركون ساكناً. أتوقع أن يتسلّم الأسطول الفارسي كل شيء يحتاج إليه من ساموس".

قال الإسكندر: "لن هتم بأيّ شيء يحدث. فحتى لو روى الفرس عطـــشهم، وحـــتى لو ملأوا بطوهم، فسيتعيّن عليهم أن يقرّروا ما إذا كانوا سينـــزلون إلى الشاطئ أم لا، لأنني لا أنوي إرجاع أسطولنا إلى البحـــر. يوافق نيرخوس معي على هذا. إن الأمر الوحيد الذي يجب أن نقـــوم بـــه هـــو أن نحرس مدخل الخليج بمراكبنا السريعة كي نتجنب هجوماً مفاجئاً في الليل أو عند الفجر. دعوا القائد القبرصي يعلم بهذا".

وحـــين اتضح أن الأسطول الفارسي كان يتجه إلى ساموس، عاد الملك إلى أسوار المدينة كي يكثّف الهجوم.

انـــشغل لايسيماخوس بتوجيه آلات الهجوم. وفي تلك اللحظة، كان قد أمر بإحضار كبشٍ ضخمة(*) كي تعمل في المكان الذي حفروا

(*) الكـــبش: آلـــة مـــن آلات الحرب، كانت تستعمل في الحصار، وتُقذف على أسوار الحصون.

فيه الليلة السابقة، وذلك بهدف إضعاف الأسوار وإحداث انهيار جزئي فيها.

"أريد من الآن فصاعداً أن تُقصف الأسوار بشكلٍ مستمر في النهار وفي الليل. وكذلك أحضِروا طبل شايرونايا لأن صوته سيُسمع في كل أنحاء المدينة، وهو الأمر الذي سيُدخل الرعب إلى قلوبهم. لا أريد أن يتوقف قرع الطبل حتى تنهار الأسوار تحت وطأة آلات الكبش".

اقتحم فارسان أرض المعسكر، وأبلغا القبرصي أوامر الملك.

أرسل القائد إلى البحر نحو عشرة مراكب محمّلة بالزيت من أجل إحراقها إذا لزم الأمر. ونظّم القائد كذلك نقل الطبل الكبير إلى أسوار ميليتوس.

انطلقت المراكب بعد وقت قصير، وانتظرت عودة الأسطول الفارسي، فيما تردّدت أصداء القرعِ على طبل *شايرونايا* - حسب ما يسميه الجنود - في الأرجاء. كان الصوت الذي ردّدته الجبال المحيطة بهم صوتاً كئيباً، أما ضجيجه فكان مدوياً، وإيقاعياً، ومنذِراً بالسّوء. تبعت صوتَ الطبل المرعد هذا الأصواتُ التي تصدرها آلات الكبش عند اصطدامها بالأسوار، بينما تطايرت في الأجواء الأحجار التي تقذفها المنجنيقات والمصوبة باتجاه الأسوار من أجل إبعاد المدافعين عنها.

كان فريق جديد من الجنود يحلّ محلّ الفريق الذي سيطر عليه التعب. وكلما تعطلت آلة كانت تُستبدل بآلة أخرى على الفور، أي أن سكان المدينة المحاصرة لم يحصلوا على فترة راحة ولم ينعموا بأي فترة خلت من القصف.

وسرعان ما خيّم الظلام، وبدأ الأسطول الفارسي بالمناورة في الخليج تمهيداً للعودة إلى معسكر نيرخوس، وذلك لأن نسيم البحر كان

في صالحه. ولكنّ المجموعات الصغيرة من الرجال الذين كانوا على متن المراكب كانت متيقظة في الظلمة. وما إن رأى الرجال أشكال المراكب الفارسية الضخمة التي لم تعد بعيدة عنهم، حتى فتحوا أوعية الزيت وسكبوها في البحر واحداً تلو الآخر، وذلك بهدف تكوين منطقة زلقة وطويلة، وما لبثوا أن أضرموا فيها النار.

امتدت ألسنة اللهب فوق سطح البحر المظلم فأنارت منطقة واسعة. وما لبثت أبواق الفرَق الموجودة على اليابسة أن صدحت بإشارة الإنذار. وخلال لحظة واحدة، امتلأ الساحل بالأنوار، وارتفعت في الجو النداءات والصرخات. فتحضّر الجنود لمواجهة الخطر الداهم على ضوء المصابيح.

لم يبذل الأسطول الفارسي أي محاولة لعبور جدار ألسنة اللهب، وسرعان ما أعطى القادةُ الأطقمَ الأوامرَ بالتجذيف في الاتجاه المعاكس.

وعندما أشرقت الشمس، كان الخليج فارغاً من كلّ شيء.

كان نيرخوس أول من نقل الأخبار إلى الإسكندر:

"مولاي لقد غادروا! غادرت السفن الفارسية الخليج".

بدأ مساعدو الملك على الفور بتثبيت درع صدره، كما لحقت به ليبتين حاملةً كوب نسطور على عادتها، فسأل الإسكندر: "إلى أيّ وجهة غادروا؟".

"لا نعرف على وجه التحديد، لكنّ أحد المراقبين في رأس مايكال قال إنه رأى الجزء الخلفي من أسطولهم يختفي في اتجاه الجنوب. أعتقد أنهم غادروا ولن يعودوا أبداً".

"فلتسمعك الأسياد المبجلة أيها القائد".

في تلك اللحظة بالذات، دخل القائد الأثيني مزوداً بكامل أسلحته.

سأله الإسكندر: "ما رأيك؟".

أجاب كاريلاوس: "أعتقد أننا محظوظون. وعلى كل حال، لست قلقاً من مواجهتهم في البحر".

قال الإسكندر: "لكنّ الأمور سارت لمصلحتنا. تمكّنا من إنقاذ الرجال والسفن".

سأل نيرخوس: "وماذا سنفعل الآن؟".

"دعونا ننتظر حتى المساء. فإذا لم يظهر لهم أيّ أثر يمكنكم عندها أن تعيدوا السفن إلى الماء وتُبقوها مستعدةً وراسية".

غادر الضابطان كي ينضما إلى طاقميهما، فيما امتطى الإسكندر جواده، وتوجه برفقة سلوقس وبطليموس إلى خط الحصار. استقبلتهم الأصوات الصادرة عن طبل شايرونايا قبل أن يستقبلهم بارمينيون.

نظر الملك إلى الأسوار فرأى ثغرة بدأت تتوسع مع كل ضربة من الضربات. وأحضر الرجال أحد أبراج الهجوم إلى موقعه.

صاح بارمينيون وسط الضجيج: "إننا على وشك الهجوم الحاسم يا مولاي".

"هل مرّرتَ أوامري إلى الرجال؟".

"أجل. لا نريد مجازر، ولا عمليات اغتصاب، ولا نهباً. وكل من يخالف الأوامر سيُعدم على الفور".

"وهل تُرجمت هذه الأوامر للجنود الاحتياطيين من البرابرة؟".

"أجل، يا مولاي".

"رائع. إذاً، يمكنك أن تبدأ".

أومأ بارمينيون، ثم أشار إلى أحد رجاله الذي راح يلوّح بعلمٍ أصفر ثلاث مرات. وتحرك برج الهجوم مرةً أخرى مقترباً من الأسوار. ثم سُمع بعد ذلك صوت انهيارٍ كبير عندما تهاوى جزء كبير من السور

تحــت الضربات. وهو الأمر الذي خلّف سحابةً كبيرةً من الغبار بحيث أصبح من المستحيل التفريق ما بين الأعداء والحلفاء.

أُنـــزل جـــسرٌ مـــن أعلى برج الهجوم على الجدار، وما لبثت مجمـــوعة مـــن المقاتلين المقدونيين أن قفزت إلى سطح الجدار. كانت أوامرهم تقضي برد المقاتلين الذين يدافعون عن الأسوار، وبالانتظار إلى جانـــب الثغرة. اشتد القتال بسرعة، وازداد عنفاً وشراسة، فوقع عدد قلـــيل مـــن المقدونيين من أعلى الحصن، ومن حافة الممر الذي يحيط بالـــسور. لكـــنّ الـــرجال أفلحوا بتشكيل رأس جسرٍ هناك، وأبعدوا المـــدافعين عن ميليتوس، وأرسلوا وابلاً من السهام والرِّماح نحو أولئك الذين كانوا في الجهة المقابلة.

مـــا إن انقـــشعت ســـحابة الغبار حتى تقدمت فرقة من حاملي الـــدروع، وأسرعت بشق طريقها من خلال الثغرة، وسرعان ما تبعتها فرقتان هجوميتان، واحدة تراقية وأخرى تريبالية.

دبّ الـــرعب في صـــفوف جنود ميليتوس، وأخذ منهم الإجهاد الـــناتج عن محنتهم التي يمرون بها كلّ مأخذ، وسرعان ما أخلوا الطريق أمام جنود بارمينيون الذين اخترقوا أسوار المدينة ووصلوا إلى داخلها.

استسلم عدد محدد من الجنود، ولا سيّما أولئك الآتين من مستوياتٍ اجتماعـــية متواضـــعة، لـــذلك تمكنوا من النجاة بأنفسهم. لكنّ المرتزقة اليونانـــيين، وجـــنود النخـــبة الآتين من المجتمع الأرستقراطي، خافوا من الأســـوأ، وركـــضوا نحو الجانب الآخر من المدينة، وما لبثوا أن نـــزعوا دروعهـــم، وقفزوا في مياه البحر. سبح هؤلاء بيأسٍ نحو جزيرة لايد حيث تحصنوا داخل قلعة صغيرة بهدف خوض معركة دفاعية أخيرة.

دخـــل الإسكندر المدينة المهزومة على صهوة جواده، لكنه توجّه علـــى الفور إلى الجهة الغربية من الأسوار. ورأى من بعيد أعداءه وهم

يهـــربون. كـــان بعضهم يغرقون من شدة الإجهاد، بينما تابع بعضهم الآخر السباحة بثبات نحو الهدف.

اســتدار الملك مع هيفاستيون، وأسرعا معاً نحو المعسكر البحري عـــند سفح جبل لاتموس، أي إلى حيث كانت معظم السفن قد عادت إلى الماء في تلك الأثناء. صعد الإسكندر إلى متن سفينة القيادة، وأعطى الأوامر بالتوجه إلى لايد.

لاحـــظ الإسكندر عند وصوله إلى المرسى أن الناجين من الحصار قد أصبحوا داخل الحصن. وبدا هؤلاء مثل الأشباح، فلم يحملوا سوى ســيوفهم بعـــد أن خارت قواهم، وبلّلتهم المياه بسبب السباحة. أمر الإسكندر هيفاستيون بالبقاء خلفه، وبدأ بالتحرك إلى الأمام.

صاح الإسكندر: "لماذا لجأتم إلى هذا المكان؟".

"لأن هـــذا المكان هو من الصغر بحيث يكفيه القليل من الرّجال للدفاع عنه".

صاح الإسكندر مرةً أخرى بعد أن اقترب أكثر من السور: "كم عـــددكم هـــنا؟"، تجمع حراس الإسكندر الشخصيون حوله لحمايته بدروعهم وكذلك فعل هيفاستيون. ولكنَّ الإسكندر ردّهم إلى الخلف.

"ما يكفي لجعل عملية احتلال هذا المكان عملية صعبة".

"افـــتحوا الـــبوابات، ولن ينـــزل بكم الأذى. أحترم شجاعتكم وجرأتكم كثيراً".

سأل صاحب الصوت ذاته الذي تحدث أولاً: "من أنت أيها الفتى؟".

"أنا ملك مقدونيا".

أمر هيفاستيون الحراس بالتقدم مرةً أخرى، لكنّ الإسكندر أشار إليهم بالبقاء حيث هم. تشاور رجال ميليتوس لبعض الوقت، وما لبث الرجل ذاته أن تكلّم مجدداً: "هل أستطيع الوثوق بكلمتك كملك؟".

"لك كلمتي كملك".

"إذاً، انتظر. سأنـــزل على الفور".

سُمعت أصوات المزاليج وهي تُسحب قبل أن تنفتح بوابة الحصن، ثم ظهـــر الرجل الذي سمع الجميع صوته. كان في الخمسين من عمره تقريباً، ولحيته طويلة وغير مشذبة، أما شعره فكان مليئاً بالملح، وبدت أطرافه واهنة، وجلده مجعداً. ورأى الرجل الملك واقفاً أمامه وحده.

سأل الإسكندر: "أيمكنني الدخول؟".

17

تعهد جنود ميليتوس الذين احتموا بجزيرة لايد بالولاء للإسكندر، وذلك بعد أن اجتمعوا به وتحدثوا إليه. كان عددهم ثلاثمئة رجل وتجنّد معظمهم في جيشه، وتعهدوا أن يتبعوه في حملته.

عوملت المدينة باحترام، ولذلك لم تشهد عمليات نهب، كما تمت الموافقة على اقتراحٍ دعا إلى إعادة إصلاح الأسوار. ودعا إيومينيس إلى عقد اجتماعٍ لمجلس المدينة بناءً على أوامر الإسكندر التي قضت كذلك بإقـــرار إعـــادة تثبيت كل المؤسسات الديمقراطية، بالإضافة إلى تحويل الـــضرائب لصالح الإسكندر بدلاً من الملك العظيم. وعلى الفور، اغتنم إيومينيس الفرصة للمطالبة برفع قيمة الضرائب، لكن الحالة بقيت صعبة بالرغم من ذلك، بسبب تكاليف الحرب الهائلة.

في الـــيوم التالي، شرح الأمين العام للدولة الوضع خلال اجتماعٍ للقـــيادة العليا، وقدّم عرضاً دقيقاً ومفصلاً عن حسابات الحملة، وهو عـــرضٌ تـــرك مـــرارةً في حلـــوق كل الحاضرين، وذلك بالرغم من الانتصارات التي حققتها الحملة حتى ذلك الحين.

قـــال لـــيوناتوس: "لا أفهم ما يجري". إن كل ما علينا فعله هو الإجهـــاز على كل شيء نحتاج إليه. تنعم هذه المدينة بالثروات، لكنّ كل ما طلبناه هو مبلغ متواضع".

ردّ بطلـــيموس بصبر: "سأشرح لك. إن ميليتوس أصبحت الآن جـــزءاً مـــن مملكتنا، وإذا أقدمنا على نهبها، فإن ذلك يشبه نهب مدينة مقدونية، مثل آيجيا أو درابيسكوس".

أجاب الأسود: "لكنّ الملك فيليب لم ينظر إلى الأمور بهذه الطريقة عندما استولى على أولينثوس وبوتيديا".

ظهر التوتر على الإسكندر لكنه لم يرد، ولم يقل أيّ من الحاضرين شيئاً. وكسر سلوقس جدار الصمت حين قال: "كانت تلك أزماناً مختلفة يا أسود. واضطر الملك فيليب إلى أن يجعل من تينِّك المدينتين أمثولة لغيرهما من المدن. ولكننا نحن نقوم بتوحيد كل العالم الإغريقي في وطنٍ واحد".

عند هذه النقطة، طلب بارمينيون الإذن بالكلام: "أيها الرجال، أرى ألاّ نُشغل أنفسنا بمشاكل كهذه، لأنه يتحتم علينا التركيز على تحرير كل مناطق هاليكارناسوس. يتعيّن علينا أن ندّخر قوتنا لتحقيق هذا المسعى النهائي، وهو الذي سيتمّم أعمالنا".

سأل الإسكندر بلهجة تشتمل على شيء من الاستياء: "هل الأمر كذلك؟ لم أقل شيئاً من هذا القبيل، لأنني لم أضع حدوداً لمشروعنا. لكن، إذا لم تشعر أيها القائد بميلٍ إلى متابعة مهمتنا فيمكنك أن تعود إلى البلاد في أي وقت تشاء".

أحنى بارمينيون رأسه، وعضّ شفته.

فبدأ فيلوتاس بالقول: "لا يمتلك والدي أي رغبة في...".

ردّ الإسكندر: "أفهم تماماً ما كان والدك يحاول قوله لنا، ولا رغبة لي في إهانة جندي عظيم. لكنّ القائد بارمينيون خاض معارك عديدة، وشارك في عدة حصارات، وأمضى لياليَ كثيرة من دون نوم، ولذلك افتقد إلى الحماسة التي تميّز الجندي الجديد. لن يلومه أحد إذا ما شعر بأنه يريد العودة إلى مدينته لينال ما يستحقه من الراحة".

رفع بارمينيون رأسه، وتطلع حوله مثل أسدٍ عجوز محاطٍ بأشباله التي كبرت وشعرت أنها تستطيع الاعتماد على نفسها.

قال بارمينيون: "لا أحتاج إلى الراحة. ولا أزال قادراً على تعليم أي شخصٍ يتواجد هنا، فيما عدا الملك، أمراً أو أمرين". لكن كان من الواضح تماماً أنه يعني: *والملك أيضاً*. تابع كلامه قائلاً: "مثل كيفية حمل السيف. أما إذا كنت قادراً على اتخاذ قراراتي بنفسي في ما يخص هذه المسألة، فسأقول إنه توجد طريقة واحدة لإرسالي إلى الوطن قبل نهاية هذه الحملة، وبغضّ النظر عن مقصدها النهائي، وذلك بأن أكون حفنة من الرمال داخل إناء جنائزي".

خيّمت فترة صمت طويلة كسرها الإسكندر ذاته في نهاية الأمر: "هذا ما أردت سماعه. سيبقى القائد بارمينيون يدعمنا بكل شجاعته وخبرته. إننا نشكره من أعماق قلوبنا. لكنّ، الآن، يتعيّن عليّ أن أعلمكم بقرارٍ مهمٍّ اتخذته اليوم بالذات، وذلك بعد أن أشبعت المسألة تفكيراً طويلاً وعميقاً. يتعيّن علينا الآن أن نمضي من دون أسطولنا".

أحدثت كلمات الملك دوياً هائلاً من التعليقات التي انتشرت في أنحاء الخيمة الملكية.

ردّد نيرخوس بتشكك: "أنمضي من دون أسطولنا؟".

قال الملك مؤكداً، ومن دون اكتراث: "بالضبط. أكّدت لي الأحداث التي جرت في الأيام القليلة الماضية أننا لا نحتاج إليه. تكفينا عشرون سفينة كي تنقل آلات الحصار المفككة. وسنمضي قُدُماً بالبر ونحتل المدن الساحلية والمرافئ. وبهذه الطريقة، سيفتقد الأسطول الفارسي إلى الأماكن الصالحة للرسو وللمؤن".

علّق نيرخوس بالقول: "يمكنهم أن ترسو السفن في مقدونيا على الدوام".

"أرسلت رسالة إلى أنتيباتر أطلب منه فيها أن يأخذ حذره، وعلى أيّ حال لا أعتقد حقاً أنهم سيفعلون ذلك".

قال إيومينيس: "سيوفر علينا هذا الإجراء ما يزيد عن مئة وخمسين تالنتاً في اليوم، وهو المبلغ الذي لا نمتلكه. لكنني أستبعد شخصياً أن تكون هذه مسألة متعلّقة بالمال".

قال الملك: "يُضاف إلى ذلك أن عدم امتلاكنا وسيلة للفرار بحرية أمر يعطي رجالنا حافزاً إضافياً. سأعلم كاريلاوس غداً بقراري. أما أنت يا نيرخوس، فستتولى أمر الأسطول الصغير الذي سنبقيه معنا، ومع أن الأسطول ليس كبيراً إلا أنه مهمٌ جداً".

قال القائد بلهجة توحي بالإذعان: "كما ترغب يا مولاي، ودعنا نأمل أنك على حق".

قال هيفاستيون: "إنه محق بكل تأكيد. لم يسبق له أن أقدم على عملٍ غير صحيح. إنني مع الإسكندر".

قال بطليموس: "وأنا أيضاً. إننا لا نحتاج إلى الأثينيين. يُضاف إلى ذلك أن الأمر لن يطول بنا قبل أن يقدّموا إلينا فاتورة لقاء تعاونهم معنا، وأنا متأكد من أنها لن تكون فاتورة صغيرة".

سأل الملك: "إذاً، إننا متفقون جميعاً؟".

وافق الجميع على هذا القرار باستثناء بارمينيون والأسود.

فقال بارمينيون: "كلايتوس وأنا لا نوافق على هذا. ولكن، لا أهمية للأمر. أظهر الملك أنه لا يحتاج إلى النصح حتى الآن. وبالرغم من هذا، إنه يعرف أنه يستطيع الاعتماد على ولائنا ومساندتنا".

قال الإسكندر: "إن دعمكما ضروري لخططنا، ولو لم يكن الأسود معنا لكانت مغامرتنا في آسيا قد انتهت منذ زمن. كان هو

الذي قطع الذراع التي كانت تستعد لقطع رأسي في غرانيكوس. دعونا لا ننسى ذلك. لكن، أريد الآن أن نباشر بتناول الطعام لأنني جائع! سأجمع الجيش غداً، وأذيع أخباري هذه أمام الرجال".

ختم إيومينيس الاجتماع، وأعطى تعليمات لإرسال دعوة لتناول الغداء إلى الضباط الأثينيين بالإضافة إلى كاليستين، وآبيل، وبانكاسب. وقبِل الجميع هذه الدعوة بكل سرور.

كان المساء قد بدأ يلقي بظلاله عندما بدأ الإسكندر يعدّ العدّة للمغادرة. لكنه شعر بدوخة بسيطة بسبب الشراب القبرصي، كما شعر بقليلٍ من الإحراج نتيجة جرأةٍ بانكاسب التي تناولت الطعام بيدها اليسرى بالرغم من أنها ليست عُسرى، وذلك لأن يدها اليمنى كانت مشغولةً في مكانٍ آخر.

وما إن غادر الخيمة حتى أمر بإحضار بوسيفالاس إليه، ثم انطلق نحو الريف. أراد أن يستمتع بهواء الربيع العطِر، وبضوء القمر الذي كان يبزغ في تلك اللحظة بالذات.

وتبعه عشرة رجال من حرّاسه الشخصيين، لكن جيادهم جهدت كثيراً كي تبقى بالقرب من بوسيفالاس الذي لم يتباطأ ولو قليلاً، حتى عندما وصل إلى الطريق الذي يؤدي صعوداً إلى جبل لاتموس.

بقي الإسكندر فوق صهوة جواده مدة طويلة حتى شعر بأن الجواد قد تصبّب عرقاً. وعندها، خفّف سرعته، وبدأ بالسّير فوق الهضبة التي امتدت أمامه. رأى قرى صغيرة، وبيوتاً معزولةً لفلاحين منتشرين هنا وهناك. حافظ الحرّاس على مسافة تفصلهم عن الإسكندر بعد أن اعتادوا على مهمتهم، لكنهم أبقوا أنظارهم عليه.

صادف الإسكندر في بعض الأحيان رجال دورية من الفرسان المقدونيين المسرعين، وترافقت مسيرهم مع أصوات كلاب نابحة في المزارع، أو مع الطيران المفاجئ لأسراب الطيور التي قُطعت عليها فترة راحتها. في تلك الأثناء، كان جيشه يحتل مواقع داخل الأناضول، وهي المناطق التي كانت تحت حكم القبائل من دون منازع.

وعلى حين غرة، سمع الإسكندر ضوضاء في الطريق المؤدية إلى مدينة آليندا الصغيرة. وكانت مجموعة من الفرسان تتقدم حاملة معها المصابيح، ومصحوبة بالصياح والشتائم.

فتناول الإسكندر خوذته المقدونية المعتادة ذات المحيط الواسع ووضعها على رأسه، ولفّ عباءته حوله، ثم اقترب ماشياً.

تبيّن له أن الفرسان قد أوقفوا عربةً يرافقها حارسان أبديا بعض المقاومة، وحملا رمحيهما بيديهما، ورفضا السماح بمغادرة الرّكاب العربة.

اقترب الإسكندر من الضابط المقدوني الذي كان يقود الدورية وأومأ إليه. أبدى الضابط المقدوني بعض الانزعاج في البداية، لكن ضوء القمر سطع للحظةٍ فوق علامة جمجمة الثور التي تحملها جبهة بوسيفالاس وسرعان ما عرف الملك.

"مولاي، لكن ماذا...".

أشار الإسكندر إليه كي يُبقي صوته منخفضاً وسأله: "ماذا يحدث؟".

"أوقف جنودي هذه العربة، فأردنا أن نعرف هوية ركّابها، وسبب تنقلهم خلال الليل بحراسة مسلحة، لكنّ الحارسين أبديا مقاومة".

"اطلب من فرسانك أن يتراجعوا، واشرح للرجلين المرافقين أنه ليس عليهما أن يخشيا شيئاً، وأن ركاب العربة لن يصابوا بسوء، ولهذا يمكنهم المثول أمامنا".

نفّذ الضابط الأوامر التي صدرت إليه، لكنّ الرجلين اللذين يحرسان العربة لم يصدّقا. وفي تلك اللحظة بالذات، سُمع صوت امرأةٍ من وراء ستارة العربة وهي تقول: "انتظر... إنهما لا يفهمان اللغة الإغريقية...".

وعلى الفور، ترجلت برشاقة، امرأة تضع غطاء على رأسها، وأسندت رجلها إلى درجة العربة. طلب الإسكندر من الضابط أن يُنير طريقه بالمصباح، ثم تقدّم من المرأة.

"من أنتم، ولماذا تتنقلون في الليل بمرافقة رجالٍ مسلحين؟ ومن معكِ؟".

عكست ملامح المرأة جمالاً أخاذاً: عينان داكنتان واسعتان مع رموشٍ طويلة، وشفتان مرسومتان بعناية، وبالإضافة إلى ذلك، مظهر وقور يترافق مع قدرٍ من استيعاب الموقف.

أجابت مع بعض التردد: "اسمي... متريانيس. احتل جنودك منزلي وأرضي التي تقع عند أسفل جبل لاتموس، ولهذا قررت اللحاق بزوجي في بروسا، بايثنيا".

نظر الإسكندر إلى الضابط الذي تقدّم كي يسأل المرأة: "مَن معك داخل العربة".

أجابت: "معي ولداي". وبعد ذلك، نادت ولديها، فظهر شابان حسنا المظهر. شابه أحدهما والدته، أما الآخر فكان مختلفاً جداً بعينيه الزرقاوين اللتين تميلان إلى الزرقة، وشعره الأشقر.

تفحّصهما الملك عن قرب: "أيفهمان اللغة الإغريقية؟".

أجابت المرأة: "كلا". لكنّ الملك لاحظ النظرة التي وجهتها إلى ولديها، وكأنها تريد أن تقول لهما: "دعاني أتولى الكلام".

قـــال الملك: "لا يُمكن أن يكون زوجك فارسياً، لأن هذا الولد ذو عيـــنين زرقاوين، وشعرٍ أشقر اللون". ولاحظ الملك أن المرأة غير مـــرتاحة علـــى الإطلاق، فنـــزع قبعته كاشفاً وجهه، واقترب منها مأخوذاً بجمالها، وبالنظرة الأرستقراطية التي تشع من عينيها.

"زوجـــي يوناني، وكان... طبيب مرزبان فريجيا. لم أسمع أخباره مـــنذ مدة طويلة، وأخشى أن يكون قد أصيب بمكروه. إننا نحاول أن نصل إليه".

"لكـــن، لـــيس الآن. لأن هـــذا الوقت يمثّل خطراً على النساء والأولاد. ســـتكونون ضيوفي هذه الليلة، وغداً ستتابعون طريقكم مع حرّاس أكثر كفاءة".

"أرجـــوك أيها السيّد القوي، لا تزعج نفسك. إنني متأكدة من أن شـــيئاً لـــن يحـــدث لنا إذا تركتنا نذهب في سبيلنا. أمامنا طريق طويلة".

"لا تقلقـــي، ولا تخشي شيئاً، لا أنتِ ولا ولداك. لن يجرؤ أحدٌ على معاملتكم بطريقة سيّئة". ثم التفت إلى رجاله وقال لهم: "خذوهم إلى المعسكر!".

وقفز إلى صهوة جواده، وأسرع به يرافقه حرّاسه الذين لم يبتعدوا عـــنه قطّ خلال كل ما جرى، ولو للحظة واحدة. وفي طريق العودة، التقى الإسكندر بيرديكاس الذي كان قلقاً بسبب اختفاء الملك.

"إنـــني مسؤول عن سلامتك، لذلك أتمنى أن تُعلمني حين ترغب في التجوّل بمفردك، عندها...".

قاطعـــه الإسكندر: "لم يحدث شيء يا صديقي، لا شيء البتة. أعـــرف كـــيف أعـــتني بنفـــسي. كيف هي أحوال الذين يتناولون العشاء؟".

"كالمعتاد، لكن الشراب قويّ جداً، لأن رجالنا غير معتادين عليه".

"يتعيّن عليهم أن يعتادوا على كل شيء. تعالوا نعود إلى المعسكر".

تسبّب وصول العربة مع الحارسين الأجنبيين المسلحَين بقدرٍ كبير من الفضول والإثارة في المعسكر. بدأ بيريتاس بالنباح، وحتى إن ليبتين بدأت بطرح بعض الأسئلة، مثل: "من هم؟ وأين عثرتَ عليهم؟".

قال لها الملك آمراً: "حضّري لهم حماماً في تلك الخيمة، بالإضافة إلى أسرةٍ للولدين والمرأة".

"المرأة؟ من هي تلك المرأة يا مولاي؟".

صوّب الإسكندر نحوها نظرة صارمةً، وما لبثت ليبتين أن انصرفت من دون أن تنطق بكلمة أخرى.

قال الإسكندر: "قولوا للمرأة إنني سأستقبلها في خيمتي ما إن تصبح جاهزة".

لم تكن الخيمة الكبيرة المخصصة لمجلس الحرب بعيدةً، لذلك تناهت إلى سمعه منها أصوات رجال سكارى، وكذلك أصوات صفارات ونايات، لكن من دون لحنٍ معيّن، بالإضافة إلى قهقهات فتيات مصحوبة بصياح ليوناتوس الذي كان أعلى من أي ضجيجٍ آخر.

أمر الإسكندر بإحضار بعض الطعام له، مثل التّين، والعسل، والحليب. ثم ما لبث أن تناول صورة ممنون التي تركها آبيل على طاولته، وسرعان ما ذُهل حين شاهد الكآبة التي لا يُسبر أغوارها، والتي تمكّن الرسام من التقاطها.

وبعـــد ذلك، وضع اللوحة على الطاولة مرة أخرى، وبدأ بقراءة البـــريد الـــذي وصله على مدى الأيام الماضية. قرأ رسالة من أنتيباتر، الوصي على العرش، أخبره فيها أن الوضع في الوطن هادئ إجمالاً، فيما عـــدا إصرار الملكة العصبـــي على التدخل في شؤون الدولة، كما قرأ رســـالة احتجاج من أوليمبيا لأنّ الوصي قد جرّدها من حريتها، ومن إمكانية تصرفها بطريقة تتناسب مع مركزها ودورها.

ولم تذكر الملكة الهدايا الجميلة التي أرسلها إليها بعد النصر الذي حققـــه في غرانيكوس. ففكّر الإسكندر عندها في أنها ربما لم تستلمها بعد.

18

رآهـــا واقفةً أمامه عندما أبعد الرسائل عن مرمى نظره. لم تضع الـــنقاب علـــى وجهها هذه المرة، لكنها خطّطت عينيها قليلاً بخطوطٍ ســـوداء بسيطة على الطريقة المصرية، بينما لفّت جسدها بفستانٍ من الكـــتان الأخضر مفصلٍ على الطراز الشرقي، ورفعت شعرها الأسود فوق رأسها على الطريقة اليونانية. بدا أن هذه الضيفة الأجنبية لا تزال تعكس ضوء القمر مثلما كان الأمر عندما رآها لأول مرة، بالرغم من أنهما الآن في خيمته.

تحـــرّك الملـــك نحوها فأسرعت إلى الانحناء لتقبيل يده: "لم تكن عندي فكرة يا مولاي... سامحني".

أمسك الإسكندر بيديها الاثنتين، وجعلها تقف على قدميها. كانا قـــريبين جداً عندما التقت عيونهما بحيث إنه تمكّن من أن يشمّ رائحة شعرها الذي كان عطر البنفسج يفوح منه.

وقف مشدوهاً؛ إذ لم يسبق له أن رغب في امرأة على هذا النحو المفاجـــئ، وتمـــنى لو أنه يضمها بحرارةٍ بين ذراعيه. أدركت هي كل ذلك. ومع ذلك، شعرت في اللحظة ذاتها بقوة لا تُقاوَم في نظرته، والتي تمكّنت من جذبها... كما تنجذب فراشة نحو مصباحٍ مضاء.

أخفـــضت عينـــيها وقالت: "أحضرتُ ولديّ كي يقدّما ولاءهما إليك". وتراجعت إلى الخلف نحو مدخل الخيمة، فدخل الولدان.

تحـــرّك الإســـكندر نحو صينية مليئة بمختلف الأطعمة والفواكه: "كلوا شيئاً من فضلكم... لا ترددوا في خدمة أنفسكم".

لكـــن ما إن التفت كي يتحدث مع الولدين حتى فهمَ بسرعة ما حدث عندما أدار ظهره.

رأى أحد الولدين صورة وجه ممنون على الطاولة فدهش، إلاّ أنّ والدته صوّبت نحوه نظرة صارمة قبل أن تضع يدها على كتفه.

تظاهر الملك أنه لم يلحظ شيئاً، لكنه اكتفى بتكرار ما قاله: "ألا تريدون أن تأكلوا؟ ألستم جائعين؟".

أجابـــت المرأة: "شكراً لك يا سيدي. لكنّ الرحلة أنهكتنا، ونريد أن نرتاح فقط، هذا إذا سمحتَ لنا بذلك".

"بالتأكـــيد. يمكنكم الانصراف. ستحمل ليبتين هذه الصينية إلى خيمـــتكم، وإذا شـــعرتم بالجوع أو العطش خلال الليل فيمكنكم أن تأكلوا وتشربوا كما تشاؤون".

نـــادى الإسكندر الفتاة، وأمرها بأن ترافقهم، ثم عاد إلى طاولته وأمـــسك برســـم وجه خصمه مرة أخرى، وتفحصه وكأنه يحاول أن يفهم مغزى نظرة ممنون، أو أن يكتشف سرّ طاقته الغامضة.

انتـــصف الليل، وغرق المعسكر كله بالصمت. أنهى أحد الحرس نوبـــته، وتأكّـــد الضابط المسؤول من أن جميع الحرّاس الذين يحرسون مداخل المعسكر مستيقظون. تلاشت أصداء النداءات وكلمات السر، وســـرعان مـــا خرج شخصٌ ملتف بعباءة خلسةً من خيمة الضيوف، وتوجّه إلى جناح الملك.

كـــان بيريتاس نائماً في بيته، لذلك لم تحمل إليه نسائم البحر أي رائحـــة غـــير رائحة الماء المالح، بينما حملت كل الروائح الأخرى نحو الريف. استند حارسا الجناح الملكي إلى رمحيهما، وقد وقف كل منهما عند إحدى جهتَي المدخل الوحيد للخيمة.

توقف الشخص الملتف بعباءة للحظة قبل أن ينطلق بتصميمٍ نحو الجنديين، وكان يحمل صينية بيديه.

قال أحد الحارسين: "إنها ليبتين".

"مرحباً ليبتين. لماذا لا تأتين في ما بعد كي نتحدث؟ إننا متعبان ونشعر بوحدة قاتلة".

هزّت المرأة رأسها، وكأنها معتادة على مزاحٍ من هذا النوع، وقدّمت إليهما بعض الطعام الموجود على الصينية، ثم دخلت إلى الخيمة.

كشفت المرأة عن رأسها تحت ضوء مصباحين، فظهرت ملامح الضيفة الأجنبية الفخورة بوضوح. تفحّصت المرأة صورة وجه ممنون طويلاً، وكانت الصورة لا تزال على الطاولة، ثم مرّرت أطراف أصابعها فوقها. وبعد ذلك، نزعت دبوساً طويلاً ذا رأس من الكهرمان من شعرها، وتقدمت ببطء نحو الستارة التي تفصل سرير الملك عن سائر الخيمة. وشاهدت في الجهة الأخرى ضوءاً خافتاً ينبعث من مصباح ثالث.

أزاحت الستارة جانباً ودخلت. كان الإسكندر نائماً على ظهره من دون أن يضع فوقه غطاءً غير عباءته العسكرية. شاهدت المرأة إلى جانبه حاملةً خشبية تحمل الدروع التي أخذها من هيكل أثينا في طروادة.

في اللحظة ذاتها، تقلّبت الملكة أوليمبيا خلال نومها في سريرها في قصر بيلا نتيجة كابوس مرعب، ونهضت بسرعة مطلقة صرخةً مرعبةً تردّدت أصداؤها في أنحاء غرف المبنى الخالية.

صوّبت المرأة الفارسية دبوس شعرها نحو قلب الإسكندر مستعملة يدها اليسرى، ثم رفعت يدها اليمنى لتغرس الدبوس الكهرماني. لكن

الملـــك اســـتيقظ في تلك الأثناء والشرر يتطاير من عينيه. أو ربما كان ذلك بتأثير الظل المسلط عليه من المصباح. لكنّ عينه اليسرى، الداكنة مـــثل الليل ذاته، جعلته يبدو مثل مخلوقٍ غريب وضخم، أو مثل وحشٍ أســـطوري. تـــوقفت يـــد المرأة في الهواء ساكنةً وعاجزة عن إنـــزال الضربة القاتلة.

نهـــض الإســـكندر ببطء، ودفع صدره قبالة الرأس البرونـــزي للدبـــوس بحيث إن نقطة من الدماء ظهرت هناك. وتابع التحديق إليها من دون أن يرفّ له جفن.

ســـألها عـــندما نهض واقفاً أمامها: "مَن أنتِ؟ ولماذا تريدين أن تقتليني؟".

19

سمحت المرأة للدبوس أن يسقط على الأرض، لكنها غطّت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء، فسالت الدموع من عينيها.

قال الإسكندر: "قولي لي ما اسمك. لا أريد إنزال الأذى بك. رأيت رد فعل ابنك عندما رأى صورة ممنون على طاولتي. إنه زوجك، أليس كذلك؟". راح يكرّر سؤاله رافعاً صوته بعد أن أمسك بمعصميها: "إنه زوجك، أليس كذلك؟".

أجابت المرأة بصوت منخفض، لكن من دون أن ترفع وجهها: "اسمي بارسين، وأنا زوجة ممنون. أرجوك لا تؤذِ ولديَّ. أناشدك ألاّ تُلحق بي العار. سيدفع زوجي أعلى فدية، وأيّ مبلغٍ تطلبه، مقابل استرجاع عائلته".

جعلها الإسكندر ترفع وجهها، وشعر عندما نظر إلى عينيها أنّه يتحرّق شوقاً إليها مرّة أخرى. أدرك أنه إذا أبقى هذه المرأة قربه فستقدر على أن تفعل به ما تشاء. رأى في نظرتها قلقاً غريباً يختلف عن القلق الأمومي، أو عن الخوف الذي تبديه امرأة عندما تكون سجينة وحدها. رأى ومضاتٍ من العاطفة القوية، إلاّ أنها واقعة تحت سيطرة إرادة قوية بالفعل، ولكنها تحمل إشارات التوتر.

سألها: "أين ليبتين؟".

"إنها في خيمتي تحت حراسة ولدَيّ".

"وأخذتِ عباءتها...".

"أجل".

"هل قمت بإيذائها؟".

"كلا".

"ســـأدعك وشأنك. لكنّ ما جرى سيبقى سراً بيننا وحدنا. فلا حاجة إلى فدية، لأني لا أشنّ حرباً مستعملاً النساء والأولاد. ولكن، عـــندما ألتقي زوجك سأقاتله شخصياً، وسأفوز إذا علمت أن جائزتي ستكون أنت. اذهبـــي الآن وأرسِلي إليّ ليبتين. في الغد، سأرسل معك مرافقين إلى أي مكان ترغبين في الذهاب إليه".

قـــبّلت بارسين يده، وراحت تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة بلغتها الأم، ثم توجّهت نحو الباب، لكنّ الإسكندر ناداها:

"انتظري".

تحرك نحوها ونحو تينّك العينين الرائعتين والدامعتين. أحاط وجهها بيديه وقبّل شفتيها.

"وداعاً. لا تنسيني".

اصـــطحبها إلى خارج الخيمة، ووقف يراقبها بينما وقف حارسا *البيزيتاروي* متأهبَين، وذلك ما إن شاهدا ملكهما.

عـــادت ليبتين بعد قليل، وكانت غاضبة ومتوترة لأن الشّابين قد احتجزاها، لكن الإسكندر هدّأ من روعها، وقال لها:

"ليس هناك من داعٍ للقلق يا ليبتين. لكن المرأة كانت خائفة على سلامتها الشخصية، ولذلك طمأنتُها. اذهبـــي إلى النوم الآن فلا بد من أنك متعبة".

قبّلها، ثم عاد إلى سريره.

في اليوم التالي، أمر الإسكندر بأن تحظى بارسين وولداها بمرافقة مـــسلحة حـــتى ضفاف نهر ميندر، كما أن الإسكندر تبع هذه القافلة الصغيرة لمسافة ستاديات قليلة.

توقف الإسكندر، وما لبثت بارسين أن التفتت ملوحةً بإشارة الوداع.

سأل فرات، وهو الأصغر بين ولديها: "من هو ذلك الرجل؟ ولماذا يحتفظ بصورةٍ لوجه أبي على طاولته؟".

أجابت بارسين: "إنه جندي عظيم ورجلٌ طيّب. لكنني لا أعرف لماذا يحتفظ بصورة والدك، ولعل ذلك يرجع إلى أن ممنون هو الرجل الوحيد في العالم الذي يُقارَن به".

والتفتت مرة أخرى، فرأت الإسكندر لا يزال واقفاً في مكانه ساكناً من دون حراك فوق صهوة بوسيفالاس، وفوق تلك القمة التي تعصف بها الرياح. وعرفت أنها ستتذكره على تلك الصورة.

بقي ممنون عشرة أيام يجول في التلال المحيطة بهاليكارناسوس منتظراً عودة كل جنوده الذين نجوا من معركة غرانيكوس - وهم الذين يبلغ عددهم نحو ألف جندي - وآملاً أن ينضموا إليه من أجل إعادة تشكيل صفوفهم. ذات ليلة، دخل المدينة وحيداً على صهوة جواده، وكان ملتفاً بعباءته الفارسية التي كادت تغطي وجهه. ثم سار بجواده نحو قاعة مجلس المدينة.

تقع تلك القاعة العظيمة قرب المدافن الكبيرة، وتضم المقبرة التذكارية لماوسولوس؛ أمير كاريا، الذي جعل من هذه المدينة عاصمة مملكته.

ارتفع القمر في السماء، وأضاء ذلك المبنى الكبير الذي كان عبارة عن بناء حجري على شكل مكعب يعلوه رواق من الأعمدة الأيونية، والتي يتوّجها هرمٌ مدرّجٌ يدعم العربة البرونزية الفخمة التي تجرها أربعة جياد، وهي العربة التي تحمل رسم الحاكم السابق.

عمـــل على تنفيذ هذه التماثيل الجذابة أعظم فناني الجيل السابق: سكوباس، برياكسيس، وليوخاريس. مثّلت هذه التُحف مشاهد مختلفة مـــن الأساطير الإغريقية، وإرثاً ثقافياً ساهم في جزء من التراث الأصيل للبلاد. وكانت تمثّل على الأخص تلك القصص التي جرت أحداثها في آسيا، مثل الصراع ما بين الإغريق والأمازونيات (نساء محاربات عشن في مـــنطقة مـــا أصـــبحت الآن تدعى أوكرانيا، وحاربن إلى جانب طروادة).

توقف ممنون لحظة أمام لوحة ذات نقوشٍ بارزة ظهر فيها جندي يوناني يمسك بشعر إحدى الفتيات الأمازونيات بينما كان يضغط على ظهـــرها بقدمه. كان ممنون يتساءل دائماً عما يدفع فناً رفيعاً مثل الفن الإغريقي لتصوير لوحات كثيرة من مشاهد العنف ضد النساء، لكنه ما لبث أن توصل إلى أن السبب لا بد من أن يكون الخوف، وهو الخوف ذاتـــه الـــذي يجعل الإغريق يعزلون نساءهم في المنازل، ويلجأون إلى مصاحبة *الرفقة* في المناسبات الاجتماعية.

أخذتـــه أفكـــاره نحو بارسين، التي لا بد من أنها الآن تسير فوق الطـــريق الملكية، وتمر من أمام البوابات الذهبية، لكنه سرعان ما شعر بمـــوجة غامرةٍ من الأسف. تذكّر بشرتها الداكنة، وشعرها الذي يفوح عطـــر البنفـــسج مـــنه. وتذكّر كذلك نغمة صوتها المثيرة وكبرياءها الأرستقراطي.

نخـــس جانبَـــي جواده بكعبَي حذائه، ثم تابع تقدمه محاولاً طرد مـــوجة الكآبة التي سيطرت عليه. في تلك اللحظة، لم تُفلح السلطات الخاصة التي منحه إياها الملك العظيم في تعزيته على الإطلاق.

مـــرّ قبالة التمثال البرونـــزي الذي يمثّل أشهر مواطنٍ من مواطني هاليكارناســـوس، وهـــو هيرودتـــس العظيم، مؤلف الكتاب الضخم

التاريخ. كان هيرودتس أول من روى أخبار الصراع الكبير بين الإغريق والبرابرة خلال الحروب الفارسية، والشخص الوحيد الذي فهم أسبابها الكامنة، وهو الذي كان ابن والدٍ يوناني وأمٍّ آسيوية.

ترجّل ممنون عن جواده حين وصل إلى مبنى مجلس المدينة، وصعد الدرج المضاء بصفّين من المشاعل الضخمة التي تحملها حاملات ثلاثية القوائم، ثم نقر تكراراً على الأبواب إلى أن جاء أحدهم ليفتح له.

قال كاشفاً رأسه: "أنا ممنون".

فاصطُحِبَ إلى القاعة حيث كانت كل الشخصيات المدنية والعسكرية في المدينة مجتمعة معاً: قادة الحامية الفرس، والقائدان الأثينيان إفيالتيس وتراسيبولوس اللذان يقودان الجنود المرتزقة، بالإضافة إلى أورونتوبات مرزبان كاريا؛ وهو شخصٌ سمين يمكن للمرء أن يميّزه على الفور بسبب ملابسه التي تلفت النظر، والقرطين اللذين يضعهما على أذنيه، وخاتمه الثمين، بالإضافة إلى الخنجر الذي يتدلى من حزامه.

كان بيكسوداروس، الحاكمُ الأميري المحلي، موجوداً كذلك، بالإضافة إلى ملك كاريا، وهو رجل ذو لحيةٍ حالكة السواد، وشعرٍ يتخلله بعض الشيب فوق صدغيه، ويبلغ نحو الأربعين من عمره. عرض الرجل قبل عامين على أحد أمراء مقدونيا الزواج من ابنته، لكن الفشل كان من نصيب هذا المشروع، لذلك تفاهم مع المرزبان الجديد لكاريا - أورونتوبات - على أن يصبح صهره.

أُعدَّت ثلاثة مقاعد لترؤس المجلس. كان يشغل اثنين منها بيكسوداروس وأورونتوبات، لذلك احتل ممنون المقعد الثالث إلى يمين المرزبان الفارسي. واتضح له أن الجميع ينتظرون أن يبدأ بالكلام على الفور.

بدأ ممنون الكلام: "يا رجال هاليكارناسوس، ورجال كاريا. شرّفني الملك العظيم بمسؤولية هائلة، وهي إيقاف تقدم ملك مقدونيا، وأنا أمتلك كل العزم على إتمام هذه المهمة مهما كان الثمن.

إنني الوحيد بينكم هنا الذي رأى الإسكندر وجهاً لوجه، والذي قاتل جيشه بالرمح والسيف. يمكنني أن أؤكد لكم أنه عدو مخيف. لا يقتصر الأمر على شجاعته في ميدان المعركة إلى حدّ أنه لا يشعر بأي خوفٍ على الإطلاق، لكنه ماهرٌ جداً بحيث لا يمكن توقع تحركاته. إن الطريقة التي احتل بها ميليتوس تشهد على مقدرته، بالرغم من عدم تفوق أسطوله في البحر.

لكنني لا أرغب في أن أؤخذ على حين غرّة. هاليكارناسوس لن تسقط. سنجبره على استنفاد كل قوته وطاقاته تحت هذه الأسوار إلى أن يصل إلى درجة الإنهاك الكامل. وسنستمر في تلقي المؤن عبر البحر حيث يتمتع أسطولنا بالسيادة، وسنقاوم بقدر ما تكون المقاومة ضرورية، وعندما تحين اللحظة المناسبة سنخرج، وسنسحق جنوده المنهكين من التعب.

هذه هي خطتي: الخطوة الأولى هي عدم السماح للقوات المهاجمة بالاقتراب منا بآلاتها الحربيّة، وهي آلات قوية وفعالة صممها أفضلَ المهندسين الإغريق للملك فيليب خصيصاً. سنستخدم بعد ذلك أساليبه الخاصة كي تعمل ضده. منع المقدونيون أسطولنا من أخذ المؤن والماء عندما احتلوا كل المراسي الموجودة على الشاطئ، ونحن سنقوم بالأمر ذاته تحديداً. سنمنعه من إنزال الآلات من سفنه في المناطق المحيطة بمدينتنا. أعتزم كذلك إرسال فرقٍ من فرساننا، وجنود الهجوم عندنا، إلى كل خليج يقع على مسافة تقل عن ثلاثين ستاديا من هاليكارناسوس.

يُضاف إلى ذلك أن النقطة الوحيدة التي يأمل أن يهاجمنا منها هي القطاع الشمالي الشرقي من أسوارنا. سنحفر خندقاً هناك بطول أربعين قـــدماً وعرض ثماني عشرة قدماً، وهكذا لن يتمكن من تحريك الآلات حتى مستوى أسوارنا، هذا في حال تمكّن من إنـــزالها.

هذا كل ما أردت قوله الآن. تأكّدوا من مباشرة العمل منذ فجر يوم غد، ويتعيّن أن يستمر هذا العمل ليلاً ونهاراً من دون انقطاع".

وافق الجميع على هذه الخطة التي بدت كاملةً بالفعل. وسرعان ما غادروا القاعة واختفوا في شوارع المدينة. بدا لونهم أبيض بفعل انعكاس ضـــوء القمـــر الذي كان بدراً عليهم. لم يتخلّف سوى أثينيين اثنين: تراسيبولوس وإفيالتيس.

سأل ممنون: "ألديكما ما تقولانه لي؟".

أجاب تراسيبولوس: "أجل. أريد أنا وإفيالتيس أن نعرف إلى أيّ مدى يمكننا الاعتماد عليك وعلى رجالك".

قال ممنون: "يمكنني أن أطرح السؤال ذاته عليكما".

قال إفيالتيس، وهو رجل ضخم الجثة يبلغ طوله ستّ أقدامٍ على الأقـــل، ويشبه هرقل بضخامته: "إننا مشبعون بالحقد على المقدونيين الذين أذلوا أوطاننا، وأجبرونا على قبول شروط صلحٍ مذلة. تحوّلنا إلى مرتزقة لأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي نتمكّن فيها من مقاتلة أعدائنا من دون تدمير مدينتنا. لكن، ماذا بشأنك أنت؟ ما الذي يدفعك للقيام بهذا العمل؟ ومن يضمن أن تبقى مخلصاً للقضية إن لم تعد تناسبك؟ وفي النهاية لستَ سوى...".

قاطعه ممنون بالقول: "أحد المرتزقة المحترفين؟ أجل، هذا صحيح. وكـــذلك هـــي الحال مع رجالي جميعهم. إن السلعة الأكثر توافراً في الأســـواق هـــذه الأيام هي سيوف المرتزقة. تدّعيان أن حقدكما هو

الضمانة. وهل يتعيّن عليّ أن أصدّق ذلك؟ سبق لي في أحيان كثيرة أن رأيـــت كـــيف يتفوّق الخوف على الحقد، لذلك قد يحدث هذا الأمر معك أيضاً وبسهولة.

لـــيس لي وطنٌ إلا شرفي وكلمتي، وعليكما أن تثقا بذلك. ولا يفوق ذلك أي شيء في الأهمية بالنسبة إليّ وإلى عائلتي".

"هل صحيحٌ ما يُقال بأن الملك العظيم قد دعا زوجتك وولديك إلى سوســـا؟ وإذا كـــان ذلك صحيحاً، أفلا يعني هذا أنه لا يثق بك، ولذلك يريد أخذ أفراد أسرتك كرهائن عنده؟".

تطلّـــع ممنون نحوه بنظرة باردة كالثلج: "إذا كان مطلوباً مني أن أهـــزم الإسكندر، فإنني أطلبُ منكما ولاءً أعمى وطاعة عمياء. أما إذا وضـــعتما كلمـــتي موضع شك، فأنا لست بحاجة إليكما. اذهبا الآن، لأنني أُعفيكما من مهامكما. اذهبا الآن طالما أنّ الوقتَ يسمح بذلك".

تشاور القائدان الأثينيان بتبادل النظرات فقط، وما لبث إفيالتيس أن تكلّـــم: "أردنـــا فقط أن نعرف مدى صحة ما يُقال عنك. وعرفنا ذلك الآن، ولذلك يمكنك أن تعتمد علينا حتى النهاية المرة".

خرج الرجلان بينما بقي ممنون واقفاً وحده في القاعة الكبيرة.

20

تـــشاور الإسكندر مع ضباطه ثم خرج من المعسكر قاصداً أسوار ميليـــتوس، بيـــنما كـــان رجال نيرخوس يفكّكون آلات الحصار قبل تحميلها على متن السفن التي كانت راسية قبالة الشاطئ. إذ تقرر خلال المشاورات أنه ما إن تنتهي هذه العملية حتى يبدأ القائد بالدوران حول رأس ميليـــتوس للبحث عن مكان رسوٍ مناسب يكون أقرب ما يكون إلى هاليكارناســـوس. رافق نيرخوس قائدان أثينيان كانا مسؤولَين عن أســـطولين صـــغيرين مـــن السفن الحربية التي تمتلك ثلاثة صفوفٍ من المجاذيف.

كـــان الـــشاطئ يعجّ بالجنود، بينما ترددت أصوات الصرخات والـــضجيج مـــن كل الأنواع: ضربات المطارق، والنداءات، وأناشيد أطقم السفن خلال تحميلهم قطع آلات الحصار على متن السفن.

ألقـــى الملـــك نظرةً أخيرة على ما تبقى من الأسطول المتحالف، وكـــذلك علـــى المدينة الرابضة بسلام فوق رأس مايكال، وذلك قبل إعطائـــه إشـــارة الانطلاق. ظهر أمامهم وادٍ معتدل الانحدار يقع بين ســـفوح جـــبل لاتمـــوس المغطاة بأشجار الزيتون من الشمال، وجبل غـــريوس من الجنوب. أما في الأسفل فقد ظهرت الطريق المتعرجة التي تؤدي إلى مدينة ميلاسا.

كـــان يوماً دافئاً ورائعاً. إذ التمعت أوراق أشجار الزيتون على جوانب التلال، بينما تجمّعت طيور الكركي البيضاء في الحقول المغطاة بالنـــباتات الحمراء، وراحت تبحث على طول الجداول عن الضفادع

والأسماك الصغيرة. رفعت الطيور رؤوسها ومناقيرها الطويلة عند مرور جيش الإسكندر، وما لبثت بعد ذلك أن استأنفت بحثها عن طعامها بهدوء.

سأل ليوناتوس كاليستين خلال مسيرهما قرب بعضهما على صهوتَي جواديهما: "أتصدق قصة طيور الكركي مع الأقزام".

أجاب كاليستين من دون أن يبدو عليه أنه واثق من إجابته: "حسناً... ذكرها هوميروس. ومن المعروف عن هوميروس أنه مصدر موثوق".

"هذا صحيح.... أتذكّر دروس ليونيداس العجوز عندما تحدّث عن المعارك المستمرة بين طيور الكركي التي كانت تحاول حمل صغار الأقزام بمناقيرها، والأقزام الذين لم يكفوا عن محاولة كسر كل بيوض الكركي. أعتقد أن كل ذلك هو مجرد حكاياتٍ للصغار. لكن، إذا كان الإسكندر ينوي بالفعل أن يذهب حتى آخر حدود الإمبراطورية الفارسية، فأنا أعتقد أننا سنصل إلى بلاد الأقزام".

هزّ كاليستين كتفيه وأجاب: "يُحتمل ذلك. لكنني لو كنتُ مكانك لما اكترثت بهذه الحكايات لأنها ليست إلا حكايات شعبية. ويبدو أنه إذا صعد المرء نحو أعالي النيل، فسيلتقي بالفعل أقزاماً سود البشرة، لكنني أشكّ كثيراً في أنهم سيكونون أطول من ساعدي هذا، وهو ما يعنيه هذا الاسم، وأنهم يستخدمون فؤوسهم من أجل حصاد قمحهم. تبدأ القصص بالتغيّر والتحوّر مع انتقالها من فمٍ إلى فم. وإذا أردت مثلاً، يمكنني أن أبدأ بالقول إن طيور الكركي تنقل صغار الأقزام لتعطيهم إلى الأزواج الذين لم يرزقوا بأطفال، فأكون عندها قد أضفت تفصيلاً جديداً وخيالياً إلى قصةٍ تُعتبر خيالية مسبقاً، ولكنها تحمل في طيّاتها مسحة من المصداقية. ألا تعتقد ذلك؟".

بـــدا ليوناتوس مرتبكاً قليلاً، ثم التفت كي يلقي نظرة على بغاله التي كانت محملةً بأكياسٍ ثقيلة.

سأل كاليستين: "ماذا تحمل البغال في هذه الأكياس".

"إنها تحمل رمالاً".

"تحمل رمالاً؟".

"أجل".

"ولكن، لماذا؟".

"أســتخدمها للتدرّب على المصارعة. يُحتمل أن نصل إلى أرضٍ صـــخرية في أثناء تقدمنا، وعندها لا أستطيع أن أتدرب جيداً من دون هذه الرمال".

هزّ كاليستين رأسه، ونخس بغله بكعبَي حذائه. فلحق به سلوقس بعـــد وقتٍ قصير، وسعى للوصول إلى مقدمة الموكب، وشدّ لجام بغله عـــندما أصـــبح بمحاذاة الإسكندر، وأشار إلى شيء ما على قمة جبل لاتموس.

"أرأيت ذلك الشيء فوق القمة؟".

نظر الملك إلى الاتجاه الذي أشار إليه سلوقس.

"وما هو؟".

"أرسلت رجلين من الكشافة كي يسبقانا ويلقيا نظرة. إنها امرأة عجوز تلحق بنا مع مرافقيها منذ الصباح".

"يمكـــنني أن أتوقع أي شيء في هذه البلاد عدا أن تلحق بنا امرأة عجوز".

قال لايسيماخوس ضاحكاً، وهو الذي كان قريباً منهما على صهوة جواده، ولذلك سمع كل ما دار من حديث: "لعلها تطارد شيئاً ما!".

ردّ سلوقس: "لا تكن غبياً. ماذا سنفعل أيها الإسكندر؟".

"إنها بالتأكيد لا تمثل أي خطر بالنسبة إلينا. وإذا كانت تحتاج إلينا، فستقوم هي بالخطوة الأولى. لا أعتقد أنه يوجد سبب للقلق".

تابع الجميع الجولة بحراسة مجموعة من فرسان جنود الاحتياط الذين فتحوا الطريق أمامهم إلى أن وصلوا إلى فسحة كبيرة منبسطة حيث يبدأ الوادي بالاتساع باتجاه المدينة بشكلٍ يشبه شكل القمع.

أُعطِيت إشارة التوقف، وسرعان ما بدأ حاملو الدروع بنصب خيمة من قطع من الخيش من أجل توفير بعض الظلال للملك وقادته.

استند الإسكندر إلى جذع شجرة دردار، وشرب الماء من إناء. في هذا الوقت، اشتدت حرارة النهار.

قال سلوقس: "لدينا بعض الزوار".

التفت الملك نحو التلة فرأى رجلاً يقترب من المخيّم. كان الرجل يقود بغلاً أبيض اللون مستخدماً الرسن. وكانت امرأة ترتدي ثياباً أنيقة تجلس على ظهر البغل، وكانت تبدو مسنةً جداً بالرغم من أناقتها. وظهر خلفها خادمٌ يحمل مظلة ملونة، بينما انشغل رجل ثالث بطرد الذباب بواسطة فرشاة مصنوعة من شعر عرف جواد.

وظهرت في الجزء الخلفي من الموكب فرقة صغيرة من الجنود غير العدائيين على الإطلاق، بينما ظهرت في آخر الموكب عربات ذات أحجامٍ مختلفة وحيوانات تحمل أحمالاً متنوعة.

توقفت القافلة عندما وصلت إلى مسافة نصف ستاديا تقريباً. وتقدّم أحد الرجال من القافلة إلى المكان الذي كان الإسكندر يستريح فيه في ظل شجرة الدردار، وطلب أن يؤخذ إليه.

"أيها الملك العظيم. إن سيّدتي آدا، ملكة كاريا تطلب مقابلتك".

أومـــأ الإســـكندر إلى ليبتين كي تُصلح له وضع عباءته وشعره، بالإضـــافة إلى إكليله، ثم أجاب: "سألقى سيّدتك على الرحب والسعة في أي وقت تشاء".

ســأل الغريب باللغة الإغريقية الممزوجة بلهجةٍ شرقية: "وحتى في هذا الوقت؟".

"حـــتى في هذا الوقت. لكن، ليس لدينا الكثير كي نقدمه إليها، لكننا سنتشرّف كثيراً إذا تفضلت بالجلوس إلى مائدتنا".

فهِـــم إيومينـــيس طبـــيعة الوضع، فأصدر الأوامر بنصب الخيمة الملكية، وذلك حتى يتمكن الضيوف من الجلوس في الظل. وأمر كذلك بتحـــضير الطاولات والكراسي بسرعةٍ كبيرة، ولذلك، كان كل شيء جاهزاً عندما اقتربت الملكة.

ركـــع أحد المشاة على أطرافه الأربع، وسرعان ما ترجّلت الملكة عـــن بغلها مستخدمةً ظهره كدرجة. واقتربت بعد ذلك من الإسكندر الذي رحّب بها بكل احترام.

وقـــال بلغـــةٍ إغـــريقية راقية: "أهلاً بك أيتها السيدة العظيمة. أتتكلمين لغتي؟".

أجابـــت المـــرأة الوجيهة بينما كانت تتسلم عرشاً خشبياً محفوراً أنـــــزله خـــدمها من إحدى عربات موكبها: "أتكلمها بكل تأكيد. أيمكنني الجلوس".

دعاها الملك إلى الجلوس بإشارة منه، وجلس بدوره محاطاً برفاقه: "اجلسي أرجوكِ. إن من ترينهم أمامك هم أصدقائي، وهم أقرب إليّ مـــن أشـــقائي، ومـــن كـــل أفراد حرّاسي الشخصيين. أقدّم إليك هيفاســـتيون، لايسيماخوس، وفيلوتاس. أما هذا الرجل الجالس هنا إلى جانبـــــي، والـــذي يبدو أنه أكثر الرجال ميلاً إلى الحرب..."، ولم

يستطع الإسكندر هنا إخفاء ابتسامة صغيرة ظهرت على وجهه قبل أن يُكمل: "فهو أميني العام، إيومينيس من كارديا".

حـيّت السـيدة العجوز إيومينيس بانحناءةٍ من رأسها، وقالت: "مرحباً أيها الأمين العام".

تفحـصها الإسكندر ملياً. كانت المرأة كبيرة في السنّ، يتراوح عمـرها بين الخمسين والستين لكنها أقرب إلى الستين. لم يكن شعرها مـصبوغاً، أي أنها لم تبذل أيّ محاولةٍ لإخفاء الشعر الأشيب حول صـدغيها. لكن، لا بد من أنها كانت امرأة رائعة الجمال في ما مضى. كانت ترتدي فستاناً صوفياً محبوكاً على الطريقة الشائعة في كاريا على شـكل مـربعات، وكان كل مربّعٍ مطرزاً بمنظرٍ مأخوذ من الأساطير. كـان الفستان ملتصقاً بها ويُظهر جسداً كان جذاباً جداً قبل سنواتٍ قليلة.

بـدا لـون عينيها الملتمعتين والرّزينتين كهرمانياً رائعاً، كما بدتا مخططـتين بخطـوطٍ رفـيعة، أما أنفها فمستقيم، فيما بدت وجنتاها بارزتين. أعطتها كلّ هذه الملامح مظهراً من مظاهر الرفعة، أما شعرها فكـان مـرفوعاً على شكل قرص، ومتوجاً بتاجٍ من الذهب الخفيف المـزيّن بالأحجـار الكريمة والفيروز، لكن ملابسها وطريقة تصرّفها عكـست شيئاً كئيباً بطريقةٍ ما. إذ بدت وكأن حياتها لم تعد تعني لها كثيراً.

اسـتغرقت عملـية الـتعارف والمجاملات وقتاً طويلاً. ولاحظ الإسكندر أن إيومينيس كان يكتب شيئاً ما على ورقة، لكنه سرعان ما وضعها على الطاولة أمامه. قرأ الإسكندر الورقة بطرف عينه:

> إن المرأة الجالسة أمامك هي آدا، ملكة كاريا. تزوجت اثنين من أشـقائها، وكان أحدهما أصغر منها بعشرين سنة، لكنهما توفيا.

أمـــا آخر شقيق بقي لديها فهو بيكسوداروس، والذي لا بد من أنك تتذكر أنه كان يُمكن أن يكون والد زوجتك، وهو والذي تمكّن من تجريدها من سلطاتها. يُمكن أن يكون هذا الاجتماع في غاية الأهمية، حاوِل أن تستفيد منه إلى أقصى حدّ.

مـــا إن أنهى الإسكندر قراءة هذه الأسطر القليلة حتى بدأت المرأة الجالسة قربه حديثها: "أنا آدا، ملكة كاريا. أعيش الآن حياةً منعزلة في قلعـــتي في آليندا. أنا متأكدة من أن أخي سيلاحقني إلى هناك إذا قدر علـــى ذلك. لم تمنحني حياتي ولا قدري أيّ أولاد، وها أنا الآن أقترب من سنّ الشيخوخة، بينما يسكن قلبـــي قدرٌ معين من الحزن. ولكن، بالإضـــافة إلى ذلـــك كلّه، أنا أتألم بسبب المعاملة التي تلقيتها من آخر شقيق بقي لي، وهو بيكسوداروس؛ ذلك الرجل الشرير.

همس الإسكندر في أذن إيومينيس الذي كان جالساً قربه: "لكن، كيف عرفتَ كل هذه المعلومات عنها؟".

أجـــاب الأمين العام: "إن معرفة هذه الأمور هي وظيفتي. وكما تذكر، لقد تعرضت ذات مرة إلى المتاعب مع هؤلاء الناس".

تذكّر الإسكندر بالفعل ذلك اليوم الذي تسبّب فيه غضب والده بإفشال مشروع زواج أخيه غير الشقيق آريدايوس بابنة بيكسوداروس. ابتـــسم بيـــنه وبين نفسه، وراح يفكر في طبيعة القدر الغريبة، فها هي تلك السيدة التي تتمتع بمظهرٍ وسلوكٍ غريبين، والغريبة عنه تماماً، والتي كان من الممكن أن تكون نسيبته تجلس أمامه.

"أتسمحين لي أن أطلب إليك الجلوس إلى مائدتنا المتواضعة؟".

أحـــنت آدا رأسها برشاقة مرةً أخرى، وقالت: "أشكرك، وأقبل بسرورٍ كبير. أعرف نوعية طعام الجيوش، ولهذا سمحت لنفسي بإحضار شيء معي، وآمل أن يعجبك".

صفقت بيديها، وسرعان ما أحضر خدمها من العربات أرغفةً من الخبز الساخن، بالإضافة إلى بعض الكعك، والزبيب، والفطائر، والحلويات الملفوفة بالعسل، ولفافات مليئة بالبيض المخفوق، والشراب الحلو، بالإضافة إلى أنواع أخرى من الحلوى.

فغر هيفاستيون فمه، وما لبث أن سال لعابه فوق ذقنه، ووصل بعد ذلك إلى درع صدره. أما ليوناتوس فقد شعر بالرغبة في أن يبدأ بتناول شيء على الفور، لكنّ إيومينيس داس على قدمه على الفور.

قالت آدا مشجعةً: "ابدأوا بتناول شيء من فضلكم. هناك الكثير من الطعام للجميع".

بدأ الجميع بتناول الطعام، وهو الأمر الذي ذكّرهم بطفولتهم، وبالأطباق التي تحضّرها أيادي الأمهات والجدّات الماهرة. بدأ الإسكندر بتناول بعض الكعك، ثم ما لبث أن اقترب من الملكة، وجلس على مقعد إلى جانبها.

"لماذا أتيت إليّ يا سيّدتي، هذا إذا سمحتِ لي بالسؤال؟".

"سبق أن أوضحت لك أنني ملكة كاريا، وابنة ماوسولوس الذي دُفن في المقبرة الكبيرة في هاليكارناسوس. استولى شقيقي بيكسوداروس على العرش، وهو يسيطر الآن على المدينة، وذلك بعد أن أصبح أحد أقرباء المرزبان الفارسي أورونتوبات الذي زوّجه ابنته. لم أجرَّد من السلطة فقط، لكنه جرّدني من كل امتيازاتي، وحرمني من مداخيلي، ومن معظم منازلي.

إن كل ما لحق بي هو ظلم، لذلك يجب معاقبة المسؤولين عنه. ولهذا أتيت إليك يا ملك مقدونيا الشاب، أي كي أعرض عليك القلعة، ومدينة آليندا. إن كل من يسيطر على آليندا يسيطر على كل

المناطق الداخلية في هذه البلاد، وهي المناطق التي لا تستغني عنها هاليكارناسوس أبداً، بل وتهلك من دونها".

تحدّثت آدا بطريقة طبيعية إلى أقصى حدٍّ ممكن، أي وكأنها تتحدث عن لعبة من ألعاب الصالونات. حدّق الإسكندر إليها بدهشة، وبالكاد صدّق ما يسمعه بأذنيه.

أومأت الملكة آدا إلى أحد الخدم كي يقترب منها حاملاً معه صينية من الحلويات بحيث يتمكن الملك من تناول شيء منها: "أتريد كعكة أخرى يا بنيّ؟".

21

همس الإسكندر في أذن إيومينيس أنه يرغب في أن يُترك وحيداً مع ضيفته، وما لبث رفاق الإسكندر بعد قليل أن استأذنوا الإسكندر بهدف الخروج. خرج الرفاق واحداً تلو الآخر، وتذرّع كل واحد منهم بارتباط سابقٍ يدعوه للخروج، وذلك من باب الاحترام للملكة آدا. أما بيريتاس، فقد أصرّ على البقاء منجذباً إلى رائحة الحلوى.

بدأ الإسكندر حديثه: "سيدتي. لا أعتقد أنني فهمت عرضك بالكامل. أتعرضين عليّ القلعة ومدينة آليندا من دون أن تطلبي شيئاً مقابل ذلك؟".

"كلا، ليس هذا هو الواقع بالتحديد، لأنني أريد شيئاً مقابل ذلك".

"إذاً، تكلمي، سأعطيك ذلك الشيء إذا كنت قادراً على ذلك. ماذا تريدين؟".

أجابت آدا، وكأن ما تطلبه هو أسهل شيء في هذا العالم: "أريد ابناً".

شحُب لون الإسكندر وجلس ساكناً، وكانت الكعكة لا تزال في يده، وراح يحدّق إلى الملكة فاغراً فاه. نبح بيريتاس، وكأنه يريد أن يُعلم سيده بأنه سيسرّ بالكعكة إذا كان لا يريدها.

"سيدتي، لا أعتقد أنني قادر...".

ابتسمت آدا وقالت: "لا أعتقد أنك فهمتَ مقصدي يا بنيّ". إن مناداتها الإسكندر يا بنّي بعد وقتٍ قصير من لقائهما هو شيء مهمٌّ

جــداً. "إنني آسَفُ لأنني لم أحصل على فرصة لأكون أماً، ولعل هذا أفــضل بالنظر إلى ظروف عادات الأسرة الحاكمة التي حتّمت عليّ أن أتــزوج شقيقيّ الواحد تلو الآخر. وفي كل مرة كنت أترمل فيها كان حزني يتضاعف لهذا السبب.

لكـــن لو أعطاني القدر زوجاً عادياً وابناً، لكنت أردته أن يكون مــثلك وســيماً ولطــيفاً ونبــيلاً بتربيته، ومع ذلك قوياً بشخصيته، وشــجاعاً، وجريئاً، وودوداً ومتعاطفاً، وذلك حسب ما يُروى عنك. أســتطيع الآن أن أصدّق ما يروى عنك، وذلك بعد أن قابلتك. يعني ذلك أنني أطلب منك أن تكون ابني".

صُــعق الإســكندر بما سمعه، بينما تطلعت الملكة آدا نحوه بعينيها الكهرمانيتي اللون واللطيفتين والحزينتين في الوقت نفسه.

"إذاً؟ ما رأيك يا بنيّ؟".

"أنا... أنا لا أعرف كيف يمكننا أن نتدبر ذلك...".

"الأمر بسيط جداً، لأنه سيحدث عن طريق التبني".

"وما هي طريقة إجراء التبني؟".

"إنـــني ملكـــة، وإذا وافقـــتَ، فكـــل ما أحتاج إليه هو النطق بالكلمات، وعندها تصبح ابني".

تطلع الإسكندر نحوها بمزيد من الدهشة التي ظهرت في عينيه.

قالـــت آدا بملامح تنم عن شيء من القلق: "أيُحتمل أنني أطلب منك أشياء تفوق قدرتك؟".

"كلا، لكن الأمر لا يعدو...".

"لا يعدو ماذا؟".

"إنني، وبكل بساطة، لم أكن مستعداً لسماع طلبٍ كهذا. ولكنني مـــن جهـــة أخرى أشعر بالإطراء. ولذلك..."، انحنتْ آدا قليلاً كي

تـــسمع جيّداً، وكأنها تريد أن تضمن ألاّ تفوتها أي كلمة من الكلمات التي تتوقع سماعها، "... لذلك يسرّني ويشرفني أن أقبل عرضك هذا".

تأثـــرت الملكـــة كثيراً، إلى حدّ أن عينيها دمعتا وقالت: "أتقبل حقاً؟".

"أجل".

"يتعيّن عليّ أن أحذرك بأنني أطلب إليك أن تناديني *أمي*".

"كما تريدين يا... أمي".

جفّفـــت آدا دموعها بمنديلٍ مزخرف، ثم رفعت رأسها، ورفعت كتفـــيها، وتنحنحت، ثم أعلنت: "إذاً، أنا آدا ابنة ماوسولوس، وملكة كاريـــا، أتبنّاك أيها الإسكندر ملك مقدونيا بصفتك ابني، كما أسميك الـــوريث الوحيد لكل أنحاء مملكتي، وكل ما أملكه". ومدّت إليه يدها بعد ذلك، وما لبث الإسكندر أن قبّلها.

"سأنتظرك غداً في آليندا يا بنيّ. يمكنك أن تقبّلني الآن يا عزيزي".

نهـــض الإســـكندر، وطبع قبلاته على خدّيها، واستمتع في تلك الأثـــناء برائحة عطرها الشرقي المستخرج من شجر الصندل والزهور الـــبرية. واقترب منها بيريتاس وهو يهزّ ذيله، ويئنّ على أمل أن تعطيه هذه السيدة بعض الكعك.

مسدته الملكة برفق قائلة: "إن كلبك هذا ظريفٌ جداً... حتى ولو كـــان صـــغيراً بـــين الكلاب الكبيرة". بعد ذلك، غادرت الملكة مع مرافقيها، وتركت كمية كبيرة من الطعام لابنها وأصدقائه، الذين كانوا جمـــيعاً رجـــالاً ضخام الجثّة، ويتمتعون بشهية ممتازة. وقف الإسكندر يراقبها عندما غادرت على ظهر بغلها الأبيض. كان أحد الخدم يمسك بمظلـــة مزخـــرفة كبيرة ليحميها من أشعة الشمس، بينما انهمك آخر بإبعـــاد الـــذباب عنها. ولاحظ الإسكندر عندما استدار أن إيومينيس

يـــتطلع نحوه، لكن الأمين العام احتار ما بين الضحك، أو الإبقاء على وجهٍ رزينٍ خالٍ من المشاعر ومتناسب مع أهمية الظروف.

قال الإسكندر: "دعني أقول لك إنك ستتسبب بمشكلة حقيقية إذا سمحتَ لوالدتي أن تعلم بما جرى... إن أوليمبيا قادرة على تسميمي". التفت بعد ذلك إلى كلبه الذي عيلَ صبره نتيجة هذا الانتظار الذي لا معـــنى له وراح ينبح بشراسة. صاح به الإسكندر: "وأنت يمكنك أن تتوجه حالاً إلى بيتك!".

وفي صبيحة اليوم التالي، أمر الإسكندر بارمينيون أن يقود جيشه نحـــو ميلاسا، وأن يقبل في طريقه، وباسمه، استسلام كل المدن؛ الكبيرة مـــنها والصغيرة. أما الملك ذاته، فقد انطلق برفقة هيفاستيون وحرّاسه الشخصيين نحو مدينة آليندا.

سار الموكب بين مزارع عنب كبيرة، فاحت منها رائحة قوية وطيبة ولكنها حادّة. وعبر الوفد كذلك حقول القمح، ثم سار فوق المراعي المزيّنة بأنـــواعٍ لا حصر لها من الأزهار من مختلف الألوان. وكان من بينها الكثير من أزهار الخشخاش الكبيرة حمراء اللون التي طغت على ما عداها.

بدت آليندا أمامهم وسط حرّ شمس الظهيرة على قمة تلة، ومحاطة بأســـوارٍ ضـــخمة من الأحجار الرمادية التي كانت تعلو خلفها قلعة ضخمة عبارة عن مبنى حجري داكن اللون تعلوه أبراج ترفرف فوقها أعلام مملكة كاريا الزرقاء.

اصـــطف الجنود فوق الممرات مسلحين برماحٍ طويلة، وأقواسٍ، وحاملات أسهمٍ حملوها على ظهورهم. فيما وقفت سرية من الفرسان أمـــام الـــبوابة الرئيسة وتوزعت على صفّين متقابلين، وظهر الفرسان الذين ارتدوا دروعهم على صهوات جيادهم المزخرفة.

فُتحت البوابات ما إن اقترب الموكب منها، فظهرت أمامه الملكة آدا جالسة فوق عربة مظللة، ويحيط بها نحو ستة عشر عبداً شبه عراة، وتتقدمهم خادمات من كاريا يلبسن أزياءً إغريقية، ورحن جميعاً ينثرن تويجات الزهور على الأرض.

ترجّل الإسكندر، وتابع سيره برفقة هيفاستيون حتى وصلا إلى المدخل. فأومأت آدا إلى العبيد كي يُنزلوها، ثم سارت نحو ابنها بالتبني، وقبّلته على وجنتيه وعلى رأسه.

"كيف حالك يا أمي؟".

أجابت الملكة: "أنا في أفضل حالٍ بعد أن رأيتك". ثم أمرت بإبعاد العربة المظلّلة، وأمسكت الإسكندر من ذراعه، ثم مشت معه نحو المدينة حيث كان حشد كبير من الناس في استقبالهم. أطلق الحاضرون صيحات الابتهاج، وهم متشوّقون إلى رؤية ابن آدا".

انهمرت تويجات الزهور، والخشخاش على الموكب من نوافذ المنازل، وراحت تتهادى ببطء بفعل نسيمات الربيع التي حملت معها رائحة الأعشاب المقطوعة والحشائش الطرية.

سُمعت بعد ذلك الموسيقى المتصاعدة من النايات والقيثارات، والتي ترافقت مع سير الموكب، وكانت ألحانها شجية وطفولية، وتحمل معها شيئاً من الغموض، وهي الألحان التي ذكّرت الإسكندر بالأغاني التي اعتادت مرضعته أن تغنيها له عندما كان طفلاً.

تأثر الإسكندر وهو يتأبط ذراع هذه الوالدة المجهولة تماماً - ولكن المتعاطفة واللطيفة - وسط هذه الحشود المبتهجة. وشعر بالإعجاب تجاه هذه البلاد التي تمثّل تلالها الأخرى لغزاً مبهماً بالنسبة إليه قد يكون على شكل مصيدة دموية، أو على شكل مكانٍ رائع من نوعٍ غامض، وهو الأمر الذي دفعه للبحث عن عجائب جديدة في

أرجائهـــا. وراح الإسكندر يتساءل عما يتواجد وراء الجبال التي ترتفع فوق أبراج آليندا.

وصـــل المـــوكب إلى مـــدخل القلعة المزخرفة بتماثيل ولوحات منقوشـــة تمثّل أسياد هذا المكان القديم وأبطاله. وشاهد الجميع أمامهم صـــفاً مـــن وجهاء المدينة الذين ارتدوا أبهى ملابسهم المزخرفة بخيوط الذهب والفضة. حُضّر عرشان في أعلى الدرج المؤدي إلى داخل القلعة. كـــان العرش الرئيس أعلى من الآخر الذي نُصب إلى يمينه، لكنه أقل ارتفاعاً وأكثر تواضعاً من العرش الرئيس.

أشـــارت آدا إلى العرش الأكثر مهابة، وأخذت مكانها إلى جانبه. امـــتلأت الـــباحة الأمامية للقلعة وكل الأماكن الأخرى بالناس الذين جـــاءوا من مختلف الأوساط الاجتماعية ومن كل المناطق، وسرعان ما أمـــرهم مـــنادٍ بالتـــزام الصمت. تلا المنادي ذاته، وبصوته الجهوري، مرسوم التبني بلغة سكان كاريا، وباللغة الإغريقية.

بـــدا وكـــأن التـــصفيق بلا نهاية، وسرعان ما استجابت الملكة للتصفيق بتلويح بسيط من يدها، بينما رفع الإسكندر كلتا ذراعيه نحو السماء، أي كما كانٍ يفعل دائماً أمام جنوده المتجمعين.

وفُـــتحت الأبـــواب الخلفـــية، وسرعان ما اختفى وراءها الملك والملكة.

22

أراد الإســـكندر وهيفاستيون المغادرة في اليوم ذاته، ولكنّ ذلك كان أمراً مستحيلاً بكل بساطة. إذ حضّرت آدا مأدبةً فخمة عند المساء ودعـــت إليها كل وجهاء المدينة. دفع عدد كبير منهم مبالغ طائلة من المال كي يتمكنوا من الحضور، كما أحضروا معهم هدايا ثمينة للملكة، وكأنها كانت أماً شابةً رُزقت بمولودها الأول.

وفي الـــيوم التالي، زار الضيفان قلعة المدينة، ولكن استُبعدت تماماً مـــسألة مغادرتهمـــا في فترة ما قبل الظهر بالرغم من إصرارهما. لاقى الإسكندر صعوبة في تخليص نفسه من أمّه الجديدة، لذلك تحتّم عليه أن يـــشرح لهـــا أنه في حالة حربٍ حقيقية، وأن جيشه ينتظره في الطريق المؤدية إلى هاليكارناسوس.

تـــنهدت آدا خلال توديعه، وقالت له: "للأسف، لا أستطيع أن أزوّدك بالجـــنود. إن ما أمتلكه هنا من الجنود بالكاد يكفي للدفاع عن هذا الحصن. لكن، لعلني أستطيع أن أعطيك شيئاً أهمّ من الجنود".

ثم صـــفقت بـــيديها، وسرعان ما ظهر نحو اثني عشر رجلاً مع حـــيوانات لحمـــل الأثقـــال، وعرباتٍ مليئة بأكياس الخيش، وسلالٍ مصنوعةٍ من أغصان الشجر.

سأل الإسكندر بشيء من القلق: "مَن هم... هؤلاء الرجال؟ من يكونون؟".

"إنهـــم طـــباخون يـــا بـــني. إنهـــم طباخون وخبّازون وصانعو حلـــويات... إنهم أفضل الطباخين الذين يتواجدون عند هذه الجهة من

المضائق. يتعيّن عليك أن تأكل جيداً يا عزيزي وسط كل هذه المحن التي تـــواجهها... وللأسف، يمكنني أن أتخيّل جيداً نوعيّة المأكولات الرّديئة التي تتناولونها. إنني لا أعرف أحداً أثنى على الطباخين المقدونيين بسبب نوعـــية أطـــباقهم وجودتها. أعتقد أن كل ما تحصلون عليه هو اللحم المقـــدد والخبز الذي يخلو من الخميرة، وهي كلها أطعمة صعبة الهضم، لـــذلك فكّرت في أنني..."، وخيّل للإسكندر بأنها ستستمر في حديثها إلى ما لانهاية.

قاطعهـــا الإســـكندر بإيمـــاءة لطيفة وقال لها: "أنتِ لطيفة جداً يـــا أمـــي. لكنني أقول لك بكل إخلاص إن هذا ليس ما أحتاج إليه بالـــتحديد. إن ما يجعل الفطور شهياً هو مسيرة ليلة طويلة، أما تمضية النهار فوق صهوات الجياد فتجعل الغداء طيباً على الدّوام، بغضّ النظر عـــن الأطعمة المحضرة. أما عندما أشعر بعطشٍ قوي، فإن الماء العذب يكون أطيب من كل المشروبات. في الواقع، سيسبب لي هؤلاء الرجال المشاكل أكثر يا أمي. شكراً لكِ على كل حال، إنني ممتن لك وكأنني قبلت".

أحـــنت آدا رأســـها: "ظننت، بكل بساطة، أنك ستقدّر عنايتي بك".

أجاب الإسكندر وهو يُمسك بيدها: "أعرف، أعرف، وأنا أقدّر لـــك هذا كثيراً... إنني ممتنٌ جداً. لكن يتعيّن عليك أن تدعيني أعيش بالطريقة التي اعتدت عليها. وسأتذكّرك دائماً بحنينٍ كبير مهما تقلبت بـــي الأحوال".

قـــبّلها، وامتطـــى صـــهوة بوسيفالاس، ثم انطلق وسط نظرات الطباخين الذين بدا عليهم الارتياح، وذلك لأن الحياة العسكرية لم تكن جذابة بالنسبة إليهم.

ظلّت آدا تراقبه حتى اختفى عن أنظارها هو وصديقه خلف تلةٍ من التلال. ثم التفتت بعد ذلك نحو طباخيها وقالت: "ماذا تفعلون بوقوفكم هناك؟ تعالوا وابدأوا العمل. أريدكم أن تنتهوا غداً، وقبل شروق الشمس، من تحضير أشهى الأطباق التي تقدرون على صنعها. أريد إرسالها بعد ذلك إلى ولدي وأصدقائه في أي مكانٍ يتواجدون فيه. وأيّ والدة أكون أنا إذا قدّمت إليه شيئاً أقل من ذلك؟".

بدأ الطباخون بالعمل، وراحوا يمزجون، ويخفقون، ويخبزون من أجل تحضير مجموعةٍ من الحلويات كي يأكلها ابن ملكتهم الجديد.

كان أول ما رآه الإسكندر خارج خيمته في صبيحة اليوم التالي، وحتى في الصباح الذي تلاه، سريةً من فرسان كاريا الذين قاموا بتسليمه الخبز الساخن، والكعك الطازج المحشو.

بدأ الوضع يميل نحو الإحراج، وسرعان ما بدأ الإسكندر ورفاقه بالسخرية منه. ولهذا السبب، قرّر الإسكندر أن يحلّ هذه المشكلة من أساسها، حتى ولو ترافق ذلك مع أسفٍ شديد. وفي اليوم الثالث، كان الإسكندر قد اقترب من هاليكارناسوس، فما كان منه إلا أن أعاد الرجال مع الطعام الذي يحملونه إلى آليندا من دون أن يمسّه على الإطلاق، لكنه أرفق ذلك برسالةٍ كتبها بخط يده:

من الإسكندر إلى آدا، أمه التي يحبها كثيراً، تحياتي!

إنني ممتن لك فعلاً بسبب كلّ الأطعمة الطيبة التي كنت ترسلينها كل صباح. ولكنني آسف لأنني مضطر إلى أن أتوسل إليك كي توقفي ما ترسلينه إلي. إنني غير معتاد على هذا الطعام القيّم، لكنني معتاد على وجبات بسيطة وعادية. يُضاف إلى ذلك كله أنني لا أرغب في التمتع بامتيازات يُحرم منها جنودي. يتعيّن عليهم أن يعرفوا أن ملكهم يأكلُ الطعام ذاته الذي يأكلونه، ويتعرض للمخاطر ذاتها التي يتعرضون لها.

اعتني بنفسك.

ومـــنذ ذلك اليوم، توقفت مبادرات آدا المفروضة كلياً. وبدأت العمليات العسكرية تفرض وجودها بشكلٍ كامل. إذ تحرك الإسكندر جـــنوباً بعد أن غادر ميلاسا ووصل إلى الشاطئ مجدداً. ولكن، كثُرت في هذه المنطقة الخلجان الصغيرة والكبيرة، وتواجد عدد لا نهاية له من أشـــباه الجـــزر، والرؤوس الداخلة في البحر. سار الجنود في مسارات محـــددة، بالتـــناغم مـــع الأسطول الذي أبحر في أكثر المياه القريبة من الـــشاطئ عمقـــاً. وكانوا قريبين منه في بعض الفترات، بحيث أمكنهم التواصل مع البحارة عن طريق إطلاق الصرخات.

في الـــيوم الـــثالث لمغادرتهم ميلاسا، أي عندما كان الجيش على وشك إقامة معسكرٍ على الشاطئ، اقترب رجلٌ من الحرّاس، وطلب أن يـــؤخذ إلى الملك. في تلك الأثناء، كان الإسكندر جالساً على صخرة فوق الشاطئ، ولكنه كان برفقة هيفاستيون ورفاقه.

سأله الملك: "ماذا تريد منا؟".

"اسمي إيوفرانور، وجئت من ميندوس. أرسلني رفاقي من المواطنين كـــي أبلغك أن مدينتنا مستعدة للترحيب بك، وأنه في وسع أسطولك أن يرسو بأمانٍ في مرفئنا، وهو ميناء حصين ومحميٌّ جيداً".

قـــال بطليموس: "إن الحظ يحالفنا هذه الأيام. إننا نحتاج فعلاً إلى مرفأ جيد كي نفرغ فيه حمولة سفننا، وكي نجمّع أدوات حصارنا".

التفت الإسكندر نحو بيرديكاس وقال له: "اذهب مع رجالك إلى ميندوس من أجل التحضير لرسو سفن أسطولنا. وأرسِل إليّ بعد ذلك أحـــد الـــرجال كـــي يـــبلغني بما فعلتموه، وأنا سأبلغ ربابنة السفن القبرصيين".

قـــال المبعوث معترضاً: "لكنّ أبناء المدينة، يا مولاي، يأملون أن يروك شخصياً. والمدينة ستحضّر لك استقبالاً حاشداً يليق بـــ...".

"ليس الآن يا صديقي الطيّب. يتعيّن عليّ الآن أن أقود جيشي حتى يصل إلى أقرب مكانٍ ممكن من هاليكارناسوس، كما أرغب في الإشراف على العمليات العسكرية بنفسي. أطلب منك في هذا الوقت أن تشكر مواطنيك على ذلك الشرف الكبير الذي خصصتموني به".

غادر الرجل، فيما تابع الإسكندر مجلسه الحربيّ.

قال لايسيماخوس ضاحكاً: "أعتقد أنك ارتكبتَ غلطة عندما أعدتَ كل الطعام إلى الملكة آدا. كانت تلك الأطعمة ستكون مفيدة جداً لنا وسط أحدث هذه المغامرات".

فقال بطليموس محاولاً إسكاته: "هذا يكفي. إذا فهمت جيداً ما يفكّر الإسكندر في القيام به، فلن يتبقى لك إطلاقاً ما تضحك بشأنه".

قال الإسكندر مؤكداً: "أعتقد ذلك بدوري". ثم سحب سيفه من غمده، وبدأ يرسم على الرمال وهو يقول: "هذه هي هاليكارناسوس. تنتشر المدينة حول هذا الخليج، وفيها قلعتان: واحدة إلى اليمين، وأخرى إلى يسار الميناء. يتضح لنا أن المدينة حصينة من جهة البحر. لكنّ الأمر لا يقتصر على هذا فقط. إنهم يمتلكون خطّ إمدادٍ مستمرًّا من البحر، وهو الأمر الذي يعني بأننا لا نستطيع محاصرة المدينة بسبب عدم تمكننا من فرض حظرٍ على حركة تموينها".

قال بطليموس موافقاً: "هذا صحيح. إننا لا نستطيع فرض الحصار".

سأل الإسكندر: "ماذا تقترح أيها القائد بارمينيون؟".

"لا خيار لنا في ظل هذا الوضع إلاّ أن نهاجم من جهة البر، وأن نفتح ثغرة تمكّننا من دخول المدينة، وبالتالي من احتلال الميناء. وعندها، سيُطرد الأسطول الفارسي من بحر إيجة كلياً".

"بالضبط. هذا ما يتعيّن علينا القيام به. ستتوجه يا بيرديكاس غداً إلى ميندوس وتسيطر على المدينة. بعد ذلك، دع الأسطول يرسو في

الميـــناء، ثم أفـــرِغ آلات الحـــرب مـــن السفن وجمّعها، ثم تحرك نحو هاليكارناسوس من جهة الغرب. سنكون في انتظارك بعد أن نكون قد مهدنا الطريق لتثبيت أبراج الهجوم".

قال بيرديكاس مع إيماءة: "جيّد. أريد التوجه إلى رجالي لإعطائهم هذه التعليمات. هذا إذا لم تكن لديك أوامر أخرى".

قـــال الإسكندر وهو يلتفت نحو رفاقه الآخرين: "انصرف الآن، لكن عد قبل أن تخلد إلى النوم. سيُعيّن لكل واحد منكم موقعه الخاص بـــه عندما نصبح على مرأى من الأسوار، أي عند مساء الغد. عودوا الآن إلى فِرَقكم، وتوجهوا إلى النوم باكراً بعد العشاء مباشرة، هذا إذا تمكنتم من ذلك لأن الأيام القليلة القادمة ستكون أياماً صعبة".

انتهـــى اجتماع مجلس الحرب، وسرعان ما توجّه الإسكندر نحو الـــشاطئ كي يتنـــزه وحيداً، وراح يراقب الشمس وهي تختفي خلف البحـــر، وبعـــد أن لوّنت الأمواج بألوان أشعتها الملتهبة، بينما أرخى الظـــلام سدوله ببطء على الجزر الكثيرة البعيدة عن الشاطئ؛ الكبيرة منها والصغيرة.

في تلـــك الـــساعة من المساء، شعر الإسكندر بإحساسٍ حادٍّ من الكآبـــة يخترق روحه، بسبب المعركة الصعبة التي سيخوضها، وتذكّر أعـــوام طفولته التي كانت عبارة عن حلمٍ وقصة، وعندما كان مستقبله يلوح أمامه كرحلة طويلة على صهوة جواده المجنّح.

فكّـــر في أخـــته كليوباترا، التي ربما كانت الآن وحيدة في قصر بوثـــروتوم، الـــذي يقع على صخرةٍ فوق مياه البحر. وفكّر في الوعد الـــذي قطعه على نفسه بالتفكير فيها كل يومٍ قبل هبوط الظلام، وأمل أن تـــشعر بأفكـــاره في هذا الوقت، وأن يكون النسيم الدافئ يداعب خدّيها، وكأنه يقبّلها بلطف. كليوباترا...

لاحــــظ عند عودته إلى خيمته أن ليبتين قد أنارت المصابيح، وأنها تعدّ له عشاءه.

"لا أعـــرف إذا كان لديك ضيوف على العشاء، ولهذا أعددت الطاولة لك وحدك".

"لا بأس. لا أشعر في الواقع بميلٍ إلى تناول الطعام".

وبيـــنما كانت الوجبة تقدّم جلس الإسكندر، فيما تمدّد بيريتاس تحـــت الطاولة منتظراً بقايا الطعام. وفي الخارج، عجّ المعسكر بالحركة والضجيج المترافقين مع تقديم العشاء قبل أن يرخي الليل سدوله، وقبل أن يسيطر السكون الذي يترافق مع نوبة الحراسة الأولى.

دخل إيومينيس حاملاً معه رزمة من أوراق البردى بيديه.

وقـــال وهـــو يسلّم الإسكندر الأوراق: "وصلتنا رسالة. إنها من شقيقتك كليوباترا، ملكة إيبيروس".

"يا لغرابة الأمر. كنت أمشي قبل قليل وأنا أفكّر فيها".

سأله إيومينيس: "هل اشتقتَ إليها؟".

"كـــثيراً. اشتقت إلى ابتسامتها، وإلى النور الذي يشع من عينيها، وإلى نغمة صوتها، وإلى دفء حنانها".

"يـــشتاق إليها بيرديكاس حتى أكثر من ذلك، وهو مستعدٌ لأن يخسر ذراعاً مقابل أن يحتضنها بذراعه الأخرى. سأتركك الآن".

"كلا، ابقَ هنا، واحتسِ بعض الشراب".

صـــبّ إيومينيس لنفسه بعض الشراب، ثم جلس على مقعد بينما فتح الإسكندر الرسالة وبدأ بقراءتها:

من كليوباترا إلى الإسكندر الأعز على قلبـــي، تحياتي!

لا أستطيع أن أتصوّر كيف سيصل إليك هذا الخطاب. هل سيصل إليك وأنت في ميدان المعركة في أثناء إحدى فترات الاستراحة، أو

عندما تكون منشغلاً في محاصرة إحدى القلاع. أرجوك يا شقيقي العزيز ألاّ تغامر من دون أن تكون هناك ضرورة لذلك.

سمعنا جميعاً عن أعمالك الباهرة، ونحن فخورون بك، كما أن زوجي يكاد يغار منك. فلقد فقد صبره، وهو يتشوق إلى الانطلاق كي يبني لنفسه مجداً مماثلاً. لكنني، وعلى العكس منه، أفضّل أن يبقى هنا لأنني أخاف من الوحدة، ولأنني أحب أن يبقى قربي في هذا القصر المطل على البحر. اعتدت أن أصعد معه إلى أعلى برجٍ في القصر كي نشاهد الشمس وهي تغطس في الموج حتى يغمر الظلام كل شيء، وحتى تظهر النجوم في كبد السماء.

أحب كثيراً أن أكتب الشعر، لكنني حين أقرأ كتاب صافو الذي أعطتني إياه والدتي كتذكار يشجعني ويسليني في حياتي الجديدة، أشعر بأنني مفرطة في الطموح.

وبالرغم من كل ذلك، إنني أغني وأعزف الموسيقى. أحضر لي الإسكندر خادمة تعزف على الناي والقيثارة بشكلٍ رائع، وهي تعلّمني العزف بكل صبر وإخلاص.

إنني أقدم أضحيات إلى الأسياد المبجلة كل يوم وأطلب منها أن تحميك.

متى أراك مجدداً؟ حافِظ على معنوياتك عالية.

ترك الإسكندر الرسالة، وأخفض وجهه.

فسأله إيومينيس: "هل هناك أخبار سيئة؟".

"آه، كلا. كل ما في الأمر أن شقيقتي مثل طيرٍ صغير، أُخذ من عشّه باكراً. فأحياناً تتذكّر أنها ما زالت فتاةً صغيرة، وتشتاق إلى منزلها، وإلى أهلها الذين فقدتهم".

أنَّ بيريتاس واقترب من سيّده، وراح يفرك وجهه على ساقه منتظراً أن يلقى ملاطفةً في المقابل.

بدأ الأمين العام بالحديث مجدداً: "غادر بيرديكاس بالفعل. وسيصل يوم غد إلى ميندوس، وسيحتل الميناء من أجل أسطولنا. أما

الـــرفاق الباقون فهم مع فِرَقهم، ما عدا ليوناتوس الذي اصطحب معه فـــتاتين إلى سريره، كما أن كاليستين موجودٌ في خيمته، وهو مشغول بالكتابة، لكنه ليس الوحيد الذي يفعل ذلك".

"حقاً؟".

"بالفعـــل. إن بطلـــيموس يكتب يومياته كذلك، وهي نوع من المذكرات. سمعت كذلك أن نيرخوس يكتب هو الآخر، لكنني لا أدري كـــيف يتمكن من الكتابة في ذاك المركب الذي لا يكفّ عن الصعود والهـــبوط في الماء. سبق لي أن شعرت مرتين بأنني لست على ما يرام، وذلك عندما عبرنا المضائق".

"لا بد من أنه قد اعتاد على ذلك".

"بالفعـــل. وماذا بشأن كاليستين؟ هل سمح لك بقراءة أي شيء كتبه؟".

"كـــلا، لم يسمح لي بقراءة شيء على الإطلاق. إنه حريصٌ جداً علـــى تخبئة أعماله. قال لي إنه سيسمح بقراءة ما كتبه فور انتهائه من المسوّدة النهائية، وليس قبل ذلك".

"يعني ذلك أنه ستمر أعوام عديدة قبل أن تبدأ بالقراءة".

"أخشى أن ذلك صحيح".

"إن الأمر ليس مُزاحاً، سترى".

"أيّ أمر؟".

"احتلال هاليكارناسوس".

أومـــأ الإسكندر، وراح يداعب منطقة ما خلف أُذُنَي كلبه بحيث انتصب شعره في تلك المنطقة.

"كلا، أخشى أنه لن يكون كذلك".

23

تــسبّب الصوت الصادر عن بيريتاس بإيقاظ الإسكندر على نحوٍ مفاجئ، وسرعان ما عرف الملك السبب الذي أقلق كلبه. إذ تناهى إلى أسماعه إيقاع عدو دورية من الفرسان، والذي ترافق مع تبادل معلومات بــين الــرجال المتواجدين خارج خيمته. ألقى الإسكندر عباءته على كتفــيه وركض إلى الخارج. كان الظلام لا يزال مخيماً، بينما القمر لم يـــبرح مكانه فوق التلال، وسط سماءٍ داكنةٍ وشاحبة بسبب الحجاب الذي فرضته عليها الغيوم المنخفضة.

اقترب منه أحد رجال الدورية، وقال لاهثاً: "مولاي! كان ذلك كميناً... ومصيدة!".

سأله الإسكندر بعد أن أمسكه من كتفيه: "ماذا تعني؟".

"كان ذلك فخاً يا مولاي، لأننا عندما اقتربنا من بوابات ميندوس هوجمـــنا من جميع الجهات، وانهمرت علينا السهام والرماح مثل المطر الهاطـــل من السماء، كما أن عدة سرايا من الفرسان المسلحين تسليحاً خفـــيفاً أطبقت علينا من التلال، وبدأت بهجومها بسرعة، ثم انسحبت بيـــنما وصـــل غيرهـــا على الفور. دافعنا عن أنفسنا يا مولاي دفاعاً مستميتاً، ولو كان أسطولنا راسياً في المرفأ لكانوا دمروه بالكامل، لأننا رأينا منجنيقات مجهزة بقنابل نارية في الأمكنة كلّها".

"أين بيرديكاس؟".

"إنـــه لا يـــزال هناك، لكنه تمكّن من الاحتماء داخل منطقة محمية، وتمكّن من جمع رجاله، لكنه بحاجةٍ إلى تعزيزات، وبأسرع وقتٍ ممكن".

رفع الإسكندر يديه عن كتفي الرجل، لكنه ما إن فعل ذلك حتى رآهما مخضّبتين بالدماء، وصرخ قائلاً: "إن الرجل جريح! استدعوا طبيباً بسرعة!".

كانت خيمة الطبيب فيليب قريبة، لذلك حضر بسرعة مع مساعده، وأخرجا الجندي للاعتناء به.

قال الإسكندر للطبيب: "أبلِغ جميع زملائك بالوضع. دعهم يحضّرون الطاولات، والماء الساخن، والضمّادات، والخل... وكل الأدوات الضرورية".

في هذا الوقت، وصل هيفاستيون وإيومينيس وبطليموس وكراتيروس وكلايتوس ولايسيماخوس، وكان الجميع مرتدين ملابسهم وحاملين أسلحتهم.

صاح الملك ما إن رآهم: "كراتيروس!".

"مولاي!".

"أريدك أن تجمع سريّتين من الفرسان على الفور. خذهما إلى بيرديكاس لأنه واقع في ورطة. لا تشاغل العدو بالقتال. اجمع جثث القتلى والجرحى وعد إلى هنا".

التفت بعد ذلك إلى بطليموس قائلاً: "بطليموس!".

"مولاي!".

"خذ دورية من الكشافة ومجموعة من الفرسان المسلحين تسليحاً خفيفاً، أي التراقيين والتريباليين. أريدك أن تسير بمحاذاة الشاطئ، وأن تبحث عن أي مكانٍ يصلح للرسو وإنزال آلات الحصار. ما إن تجد مكاناً كهذا، أسرِع بإرسال إشارة إلى الأسطول ودع السفن ترسو بأسرع وقتٍ ممكن، وساعِد على إنزال الآلات".

"حالاً يا مولاي!".

"أيها الأسود!".

"مولاي!".

"أريدك أن تجر كل المنجنيقات الخفيفة التي في حوزتنا إلى مدخل ميناء ميندوس، ولا تسمحوا لأحد بالدخول أو بالخروج، ولا حتى لصيادي المدينة. وإذا وجدتَ موقعاً مناسباً فلا تتردد في إطلاق أكبر عددٍ ممكن من القذائف الحارقة. أشعِل هذه المدينة بالكامل إذا أمكنك ذلك، وحتى آخر منزلٍ فيها".

استشاط الإسكندر غضباً وراح يدمدم: "ممنون".

سأله إيومينيس: "ماذا قلتَ؟".

"إنه ممنون. إنها فعلته، إنه يردّ لي الضربة التي أنزلتها به عندما عزلت الأسطول الفارسي ومنعته من الوصول إلى الشاطئ. وها هو يفعل الأمر ذاته معي ويحرم سفني من الرسو. إنه هو، وأنا متأكد من ذلك. هيفاستيون!".

"أنا في خدمتك يا مولاي!".

"خذ الفرسان التيساليين مع سرية من كتيبة الرفاق. سر بالفرسان نحو هاليكارناسوس، واختر لك مكاناً مناسباً للتخييم عند الجهة الشرقية أو الشمالية من أسوارها. بعد ذلك، أريدك أن تنتقي مكاناً مناسباً لنصب أدوات الحصار، ودع العمال يعملون على تسوية الأرض وتحضيرها. افعل ذلك بسرعة!".

في هذا الوقت، كان جميع الجنود قد استيقظوا. وسرعان ما بدأت وحدات الفرسان بالمرور في كل الاتجاهات، وتردّدت صيحات الأوامر في كل مكان، وترافقت مع صيحات الرجال وصراخهم ومع صهيل الجياد.

وصل القائد بارمينيون بكامل أسلحته ودروعه، وتبعه مساعدان.

"في خدمتك يا مولاي!".

"وقعنا ضحية خدعة أيها القائد. وقع بيرديكاس في مصيدة في ميندوس، وما زلنا لا نعرف أيّ أخبار عن حصيلة هذه المصيدة. لكنني أعرف بالتأكيد ما سأفعله الآن. سأعطي الرجال الأوامر بتناول فطورهم، ثم سأجمع صفوف المشاة استعداداً للزحف. أريدهم أن يمضوا في طريقهم عند شروق الشمس. سنشرع في مهاجمة هاليكارناسوس!".

أومأ بارمينيون والتفت نحو مساعدَيه: "سمعتما الملك، أليس كذلك؟ إذاً، تحرّكا!".

"أيها القائد...".

"هل من شيء آخر يا مولاي؟".

"أريدك أن ترسل فيلوتاس إلى ميندوس مع مجموعةٍ من الفرسان. أريد أن أعرف ماذا يجري هناك في أسرع وقتٍ ممكن".

أجاب بارمينيون مشيراً إلى ابنه الذي كانَ يركض باتجاههما: "ها هو قادمٌ نحونا. سأجعله ينطلق على الفور".

في هذا الوقت، انطلق هيفاستيون من المعسكر بصحبة سرايا الفرسان التابعة له، وهو الأمر الذي أثار سحابةً كبيرةً من الغبار وراءهم، وتوجه برجاله نحو هاليكارناسوس.

اقتربوا من المدينة عند الفجر، فلاحظوا أن المنطقة المحاذية للأسوار مهجورة تماماً. تطلع هيفاستيون حوله، ثم نخس جواده موجّهاً إياه إلى الأمام كي يصل بسرعة إلى باحةٍ مفتوحة بدت له مناسبة لإقامة معسكرهم.

لكن المنطقة الفاصلة بينهم وبين هاليكارناسوس كانت أرضاً جبلية غير مستوية، لذلك، كان من الصعب رؤية الأشياء التي قد تكون متواجدة قرب الأسوار. وكان التعقّل يفرض عليهم أن يسيروا ببطء.

بـــدا كـــل شـــيء هادئاً وسط السكون الذي ترافق مع شروق الـــشمس، لكنّ هيفاستيون ما لبث أن سمع فجأة ضجةً حادة وإيقاعية غـــريبة بعـــض الشيء، وهي التي شابهت الأصوات التي تحدثها أدوات معدنـــية عند اصطدامها بالصخر، أو بالتربة. تابع صعوده نحو قمة تلة منخفضة الارتفاع، لكنه دُهش من المنظر الذي رآه أمامه.

رأى خـــندقاً ضخماً يمتد أمامه، ولعل عرضه كان خمساً وثلاثين قدماً، أما عمقه فيبلغ ثماني عشرة قدماً. ورأى أن مئات الرجال يعملون علـــى حفر هذا الخندق، وينهمكون في نقل التراب والحجارة المتكسرة إلى مكان تجميعها بحيث تؤلف عائقاً يماثله في الضخامة.

صاح هيفاستيون: "اللعنة! لقد انتظرنا فترةً أطول مما يلزم". صاح بأحد رجاله: "أنت هناك! عد على الفور وأخبِر الإسكندر".

أجاب الفارس وهو يستدير كي يعود إلى المعسكر: "بالطبع". في تلـــك اللحظـــة بالذات، انفتحت إحدى بوابات هاليكارناسوس، وما لبـــثت أن خـــرجت منها سرية فرسان، وسارت على الطريق الوحيدة التي بقيت مفتوحة ما بين الخندق والأسوار.

صـــاح أحد القادة التيساليين: "إنهم آتون نحونا! إنهم هناك... في تلك الجهة!".

أمر هيفاستيون فرقته كي تستدير، ثم ما لبث أن انطلق نحو العدو بينما كان جنوده يندفعون وراء بعضهم فوق المعبر الضيّق، وذلك كي يصلوا إلى الأرض المنبسطة في أسرع وقتٍ ممكن.

رتّـــب رجاله على طول الخط الأمامي الذي يبلغ نحو مئتي قدم، وبحـــيث تمركـــز أربعـــة فرسان في عمق هذا الخط. وبعد ذلك، وجّه الهجـــوم نحـــو مقدمة صفوف العدو. بدأ فرسان العدو بالانتشار على طـــول الخندق كي يأخذوا مراكزهم، فشكلوا بذلك خطاً طويلاً كي

يتحمل وطأة الصدام الوشيك. كان الطرفان قريبين من بعضهما بحيث إن الفُــرس لم يمتلكوا الوقت الكافي للإسراع بجيادهم، ولذلك، تمكّن هيفاستيون من ردّهم على أعقابهم.

شعر العمال الذين كانوا في قاع الخندق بالرعب نتيجة الضجيج الذي أحدثته المعركة، فتركوا أدواتهم قبل أن يتسلقوا الجهة الأقرب إلى المديــنة بالنسبة إليهم، وبأسرع ما أمكنهم ذلك، وما لبثوا أن توجهوا نحــو البوابات، لكنّ المدافعين عن هاليكارناسوس كانوا قد أغلقوا كل المداخل المؤدية إلى المدينة.

أســرعت مجمــوعة من التيساليين إلى احتلال الممر القائم ما بين الخــندق والأسوار، وبدأت بمهاجمة العمال بوابلٍ كثيف من الرماح إلى أن قضت عليهم. و لم يطل الأمر حتى ظهرت سرية أخرى من الفرسان مــن بــوابة جانبية، وهاجمت التيساليين، وهو الأمر الذي دفع هؤلاء للتجمّع مجدداً بهدف الرد.

اســتمرت هذه المناوشات ما بين هجومٍ وهجومٍ مضاد، إلى أن تمكّــن هيفاستيون أخيراً من إحراز تفوّق عندما استخدم جنود *الهيتايروي*، أي فــرقة الــرفاق، والتي كانت مرتاحة تماماً بعكس التيساليين الذين أُنهكوا في هذا الوقت. بعد ذلك، لاحق هيفاستيون من تبقى من جنود العدو، وتبعهم حتى البوابات التي فُتحت هذه المرة بهدف إدخالهم.

لم يجرؤ القائد المقدوني على ملاحقتهم عبر البوابات الضخمة التي تفصل بين الحصنين الكبيرين اللذين يعجّان بالرماة وقاذفي الرماح. وقرّر القائــد أن احــتلال المنطقة الواقعة تحت الأسوار لا يكفي، لذلك أمر رجالــه بحفــر خندق آخر إلى جانب الممر في أثناء انتظارهم وصول العمــال. وأُرســل بعضٍ الخيّالة كي يستكشفوا المنطقة بحثاً عن ينابيع تؤمن المياه للرجال والجياد عند وصول الجيش.

فجـــأة، أشـــار أحد الجنود من فرقة *الهيتايروي* إلى شيء ما على الأســـوار، وقـــال مـــشيراً إلى أعلى برج: "انظر أيها القائد". التفت هيفاســـتيون واقترب كي يتمكن من الرؤية بشكلٍ أفضل، فرأى هناك جـــندياً مغطًّـــى بدرع صدرٍ حديدي لامع، بينما كان وجهه مغطى بالكامـــل بخـــوذةٍ كورينثـــية عريضة. حمل الجندي بيده رمحاً طويلاً ومستقيماً.

دوت صرخة وراء هيفاستيون: "أيها القائد. وصل الملك!".

وصـــل الإســـكندر على رأس فرقة الطليعة، وكان ممتطياً صهوة جـــواده بوســـيفالاس، وما لبث في غضون لحظات أن أصبح بمحاذاة صـــديقه. نظر إلى الأعلى نحو البرج حيث التمعت دروع ذلك المحارب الغامض وسط أشعة شمس الصباح.

حدّق بصمت، وأحسّ بأنه مراقَبٌ هو الآخر: "إنه هو. إنه هو، لأنني أشعر بهذا".

في هذه اللحظة بالذات، توقفت بارسين وولداها في أحد الخانات الـــذي يقـــع خلف مدينة كيلايناي الواقعة على طريق الملك العظيم. تـــناولت منديلاً من حقيبتها كي تمسح العرق المتصبّب على وجهها، لكـــنها أحـــسّت بشيء غريب داخله. تناولت هذا الشيء، فرأت أنه الورقة التي رسم عليها آبيل صورة وجه زوجها ممنون بضربات قليلة - لكن ماهرة - من ريشته. قرأت بارسين الورقة من خلال دموعها. إذ أضيفت في الأسفل وبخط يدٍ غير منتظم بسبب العجلة كلمات قليلة:

إن ملامحك محفورة بقوةٍ مماثلة في قلب *الإسكندر*.

24

كــان في وســع الجنود رؤية المدينة بكاملها من قمة التلة. على الفــور، تــرجّل الإسكندر، وكذلك فعل رفاقه من فرقة الطليعة. امتدّ أمــامهم منظرٌ طبيعيٌ ورائع، ويعجّ بخضرة أشجار الزيتون المنتشرة هنا وهــناك، والمنتــشرة بينها أشجار السرو. امتد هذا المنحدَر ببطء مثل مدرجات المسرح نحو الأسوار الحجرية الضخمة التي تلتف حول المدينة نحــو الجهــتين الــشمالية والشرقية، ولا تخترقه سوى الفجوة الحمراء الضخمة التي حفرها ممنون على بعد نحو مئتي قدمٍ من قاعدة الأسوار.

ومــن الجهــة اليسرى، ارتفع الأكروبوليس بهياكله وتماثيله. وفي تلــك اللحظــة، تصاعد دخان الأضحيات من أحد مذابح الهيكل نحو الــسماء الــصافية. إذ كان الفرس يتوسلون إلى الأسياد المبجلة لتقديم المساعدة إليهم من أجل قهر الأعداء.

قــال كراتيروس: "قدّم كهنتنا أضحياتٍ بدورهم، لكنني أتساءل عن الجهة التي ستصغي *الأسياد* إليها".

"ستصغي إلى الجهة الأقوى".

قال بطليموس: "لن تتمكن الآلات من الوصول إلى أي مكانٍ قريب من الخندق، ولن نتمكن من هذه المسافة من خرق تلك الأسوار".

قال الإسكندر: "هذا صحيح. لذلك سنملأ ذلك الخندق".

سأل هيفاستيون: "نملأ الخندق؟ ألديك فكرة كم من...".

تابع الإسكندر كلامه من دون أن يرفّ له جفن: "ستبدأ بالعمل على الفور. خذ جميع الرجال الذين تحتاج إليهم واملأ الخندق. سنقوم

بتغطيتك بنيران المنجنيقات التي سنطلقها على الأسوار، وكراتيروس سيتكفل بذلك. ما هي أخبار أدوات حربنا؟".

"تم إنزالها في وهدة صغيرة تقع على بعد خمسة عشر ستاديا من معسكرنا، وكادت عملية التجميع أن تنتهي، كما أن بيرديكاس سيقوم بنقلها إلى هذا المكان".

كانت الشمس قد بدأت بالهبوط فوق البحر نحو خط الأفق، وبدت أنها في منتصف المسافة بين البرجين المطلين على مدخل الميناء. غمرت أشعة الشمس التي اكتسبت لون الذهب المصهور المبنى الضخم للمدافن الذي يرتفع في وسط المدينة. وظهرت فوق الهرم الكبير العربة ذات الجياد الأربعة، والتي بدت وكأنها على وشك القفز في الفراغ، والانطلاق عبر الغيوم البنفسجية التي ترافقت مع مغيب الشمس. دخلت بعض قوارب الصيد ميناء المدينة، ونشرت أشرعتها بالكامل، فبدت مثل قطيعٍ من الأغنام لدى عودته إلى زريبته قبل حلول الظلام. ستبدأ بعد قليل عملية نقل السمك الطازج إلى سلالٍ قبل أن تُرسل إلى المنازل، حيث كانت أُسَر هاليكارناسوس تحضّر طعامَ العشاء".

هبّ نسيم البحر من خلال جذوع أشجار الزيتون المعمّرة، وعبر الممرات المؤدية إلى التلال. كان جميع الرعاة والفلاحين في طريق عودتهم إلى منازلهم بسلام، بينما أوَتِ الطيور إلى أعشاشها وأوكارها. كان العالم على وشك الاستسلام إلى سلطان النوم وسط السكينة المخيمة على المساء.

قال الإسكندر: "هيفاستيون".

"أنا هنا".

"رتِّب أمر المناوبة الليلية للعمال. أريد أن يستمر العمل من دون انقطاع، أي مثلما فعلنا عندما شققنا الدرج في الصخر على سفح جبل

أوســا. أريد أن يستمر العمل من دون انقطاع، حتى ولو أمطرت أو أثلجــت. أريدك كذلك أن تعمل على ترتيب مظلات نقالة للعمال، ويمكنك أن تطلب من الحدّادين صنع الأدوات إذا لزم الأمر، كما أريد أن تكـــون الآلات جاهزةً في مواقعها في غضون أربعة أيامٍ وليالٍ على الأكثر".

"أليس من الأفضل أن نبدأ العمل يوم غد؟".

"كلا. ابدأ الآن، وعندما يحلّ الظلام ستعمل على ضوء المصابيح، أو المــشاعل الخفيفة. لا يستدعي هذا العمل الدقة على الإطلاق، فكل ما عليكم عمله هو نقل التراب إلى الخندق. لا أريد تقديم طعام العشاء هـــذه الليلة حتى ننتهي من تثبيت المنجنيقات في أماكنها، وقبل أن تبدأ عملية جرف التراب".

أومــأ هيفاستيون، وعاد إلى المعسكر بسرعةٍ كبيرة. وبعد قليل، ظهر صفٌ طويل من الرجال الذين يحملون مجارفَ، ورفوشاً، ومعاول. وتبعت الرجال عربات تجرها الثيران واتجهت نحو الخندق. وظهرت إلى جانـــب الـــرجال المنجنيقات التي يجرّ الواحدة منها زوجٌ من البغال. كانـــت تلـــك الآلات عبارة عن أقواسٍ عملاقة مصنوعة من أخشاب الـــسنديان والـــدردار. وكانت قادرة على رمي المقذوفات إلى مسافة خمـــسمئة قـــدم. أمر كراتيروس بوضع هذه المنجنيقات في مراكزها. لذلك، ما إن بدأت مجموعة من رماة الأعداء بإطلاق أسهمها من أعالي أســـوار المدينة، حتى أعطى الأوامر بشن هجومٍ مضاد وإطلاق قذائف حديديـــة ثقيلة، وهي التي تكفلت بإخلاء الباحات المتواجدة في أعالي الأسوار.

وبعـــد ذلك، أسرع رجاله إلى إعادة حشو المنجنيقات، فصاح: "يمكنكم أن تبدأوا بالعمل!".

قفز العمال إلى الخندق، ثم ما لبثوا أن تسلقوا الجهة الأخرى للخندق، وبدأوا بجرف التراب إلى الخندق الواسع من ورائهم. وتكفّل الخندق بحماية العمال، وهكذا لم تكن هناك حاجة إلى تغطيتهم بواسطة تلك المظلاّت السنقالة؛ على الأقل في تلك المرحلة المبكرة من عملهم. لاحظ كراتيروس أن رجاله يعملون بأمان، لذلك وجّه المنجنيق إلى ما كان يُطلق عليه اسم بوابة ميلاسا، وإلى البوابة الجانبية الصغيرة المتواجدة في الجهة الشرقية، وذلك خوفاً من محاولة سكان هاليكارناسوس شنّ هجمات مفاجئة على العمال.

أعطى هيفاستيون الفرق الأخرى أوامره كي تتقدم نحو التلال بمناشيرها وفؤوسها، وذلك من أجل قطع الأخشاب اللازمة لإضاءة الموقع خلال ساعات الليل. وسرعان ما بدأ تنفيذ المشروع الكبير.

في تلك الأثناء، عاد الإسكندر إلى المعسكر، ودعا رفاقه إلى العشاء، لكنه وجّه إليهم الأوامر بإرسال تقارير منتظمة حول تقدّم العمل وتطور الوضع.

مضى الليل من دون أي حادث، لذلك تقدّم العمل بحسب أوامر الملك، و لم يستطع العدو أن يفعل أي شيء لمنعه.

وبحلول اليوم الرابع، امتلأت مساحة واسعة من الخندق، وعمل العمال على تسويتها، وهكذا أصبح بالإمكان أن تتقدم آلات الحصار نحو الأسوار.

كانت تلك الآلات هي ذاتها التي استخدمها الملك فيليب في بيرينثوس، وكانت عبارة عن أبراج يبلغ ارتفاعها ثمانين قدماً، ويقوم مئات العمال بتحريكها من أماكنهم الآمنة داخلها. وسرعان ما تردّدت أصوات الاصطدام الإيقاعية للألواح ذات الرؤوس الحديدية التي تضرب الأسوار بشكلٍ مستمرٍ في أنحاء وادي هاليكارناسوس، بينما تابع العمال عملية ملء الخندق في الأسفل.

لم يحسب المدافعون عن المدينة حساب ملء الخندق في هذا الوقت القصير، لذلك وجدوا أنه من المستحيل بالنسبة إليهم إعاقة عمل الأبراج، لذلك سرعان ما ظهرت ثغرة في الأسوار في غضون سبعة أيام، كما أن قسماً كبيراً من الحصنين المحيطين ببوابة ميلاسا قد تحوّل إلى ركام. أرسل الإسكندر قواته الهجومية من فوق ركام الحجارة، وزوّدهم بالأوامر لفتح الطريق نحو وسط المدينة. لكنّ ممنون كان قد رتّب دفاعاته في تلك الأثناء، فتمكّن من ردّ المقدونيين من دون جهدٍ كبير.

تابعت الآلات عملها على مدى الأيام التالية، وتابعت اختراق الأسوار من أجل توسيع الثغرة، بينما استُقدمت القاذفات والمنجنيقات من أجل إبقاء الضغط على الجنود المحاصرين. بدا النصر في متناول اليد، لكنّ الإسكندر دعا قادته إلى عقد اجتماعٍ في خيمته من أجل تنظيم الهجوم الأخير.

لم يبقَ تحت الأسوار سوى الجنود الذين كانوا داخل أبراج الهجوم، وعدد قليل من الحراس الذين يحرسون الخط الأمامي، وهم الذين وُضعوا على مسافات متساوية على طول خط الأسوار.

تلك الليلة، ظهر القمر في السماء، واستمر الحراس في مناداة بعضهم للحفاظ على الاتصال في ما بينهم وسط الظلام المخيِّم، لكن ممنون كان يُصغي إليهم بدوره. وقف الرجل فوق الأسوار ملتفاً بعباءته بسكون، وراح ينظر إلى الأسفل وسط الظلمة، وهو يحاول أن يفهم ما كان الحراس يقولونه لبعضهم.

قَدِم قبل أيام قليلة بعض النبلاء المقدونيين من أصدقاء آتالوس والملكة الراحلة يوريديس، وذلك لعرض مساعدتهم على سكان هاليكارناسوس في صراعهم مع الإسكندر.

فجأةً، تذكّر ممنون هذه الجماعة، فأمر مساعده الميداني الذي كان واقفاً معه في الظلام أن يُحضر الرجال إليه على الفور. كانت ليلة هادئة، وعملت نسائم لطيفة هبّت من جهة البحر على تلطيف حرارة ذلك اليوم الربيعي. وبين وقتٍ وآخر، رفع ممنون عينيه نحو تلك القبة السماوية الضخمة المزينة بالنجوم التي كانت على شكل قوس في الجهة الشرقية. فكّر في بارسين في آخر مرة رآها فيها عارية في سريره، حين كانت تحدّق إليه بعينيها الملتهبتين. أحسّ في تلك اللحظة بشعورٍ حادٌّ من الخسارة، وبألمٍ جسدي حاد.

أدرك أنه بحاجةٍ إلى الدخول في مبارزة مع الإسكندر، واقتنع بأن رغبته في بارسين ستزوده بقوةٍ كاسحة لا تُقهر. وفجأة، أيقظه صوت مساعده الميداني من تأملاته: "أيها القائد، حضر الآن الرجال الذين طلبت مني اصطحابهم إلى هنا".

التفت ممنون، فرأى أن المقدونيين قد حضروا بكامل ملابسهم وأسلحتهم العسكرية، فسمح لهم بالتقدم منه.

قال أحدهم: "ها نحن هنا يا ممنون. إننا جاهزون، وفي خدمتك".

"أيمكنكم سماع أولئك الرجال الذين ينادون بعضهم؟".

أصغى النبلاء جيداً ثم قال أحدهم: "بالطبع. إنهم الحراس التابعون للإسكندر".

"جيّد. أريدكم الآن أن تنزعوا دروعكم، وأن تُبقوا على سيوفكم وخناجركم، وأن تتحركوا برشاقةٍ كبيرة وسط الظلام، وبصمتٍ تام. إليكم ما أريد منكم فعله. اخرجوا من البوابة الجانبية، وليتوجّه كلٌ واحد منكم نحو أحد حرّاس الإسكندر. ازحفوا وراء كل واحدٍ منهم، واجعلوه غير قادرٍ على الحركة. لكن يتعيّن على كلّ منكم أن يكون مستعداً لأخذ مكانه بسرعة كبيرة وأن يجيب عن

الإشـــارات. إنكم تتكلمون باللهجة ذاتها، وباللفظ نفسه، وهكذا لن يلاحظ أحد ما جرى.

ما إن تنتهوا من السيطرة على خطٍّ كبير من خطوط الحرس حتى تعطـــوني إشـــارة. أريدها أن تكون النداء الذي ترسله البومة. عندها، سنقوم بإرسال فرقةٍ هجومية مزودة بالمشاعل والسهام الحارقة من أجل إحراق الأبراج. هلٍ فهمتم؟".

"فهمنا تماماً. يمكنك الاعتماد علينا".

بعـــد وقـــتٍ قـــصير، انطلق المقدونيون. وما لبثوا أن نـــزعوا دروعهـــم، ونـــزلوا الدرج نحو الطريق التي تؤدي إلى البوابة الجانبية. وصـــلوا إلى العـــراء، ثم توزعوا وراحوا يزحفون على أطرافهم الأربعة باتجاه الحراس.

انتظـــر ممـــنون بصمت فوق السور، وراح يتطلع نحو أبراج الهجوم الكبيرة التي بدت في الظلمة كالعمالقة. اعتقد أنه ميّز صوت أحد الحراس، وفكّر في أن جزءاً من الخطة قد نجح بالفعل. مرّت فترة أخرى من الوقت قـــبل أن يسمع نداء البومة الذي كان هادئاً في البداية، وما لبث أن أصبح عالياً وصافياً. كان الصوت قادماً من نقطة على السور تتوسط البرجين.

نـــزل الدرج بسرعة، ثم توجه نحو الفرقة التي كانت تستعد لشنّ غارة.

"كونـــوا يقظين. إذا انطلقتم هكذا، أي مع هذه المشاعل المضاءة فسيعرف الأعداء مكانكم على الفور، وهكذا، سنخسر عامل المفاجأة عـــندنا. إلـــيكم خطتي: يتعيّن عليكم أن تقتربوا إلى أقصى حدٍّ ممكن، وبأكبر قدرٍ من الصمت تقدرون عليه، من النقطة التي حل فيها جنودنا محل الحراس المقدونيين، أي في النقطة التي تتوسط البرجين. ابقوا مختبئين هـــناك حتى تُحضر لكم مجموعة ثانية وعاءً مغطى، وإناءً مليئاً بالقار.

عـــندها، انفخوا في الأبواق بكل ما أوتيتم من قوّة، وهاجِموا الحامية المقدونية، بينما يقوم آخرون بإضرام النار في البرجين.

سيعتقد المقدونيون أهم قد حققوا أخيراً أهدافهم من الحصار، ولن يـــتوقعوا أهم سيتعرضون للهجوم. ستحقق غارتنا هدفها. أما الآن فقد حان الوقت. انطلقوا".

تـــوجه الـــرجال إلى البوابة الجانبية، وراحوا يتسللون إلى العراء واحـــداً تلـــو الآخر، وتبعتهم مجموعة أخرى تحمل إناءً مليئاً بالجمر، ووعاءً مليئاً بالقار. راقبهم ممنون إلى أن غادر آخر رجلٍ منهم وأغلقت البوابة الحديدية، ثم توجه نحو المدينة سيراً على قدميه، وتابع مسيره حتى وصـــل إلى جـــناحه. كان يفعل ذلك كل مساءٍ تقريباً. إذ كان يسير متنكـــراً بـــين الـــناس ليصغي إلى أحاديثهم، ويستطلع أمزجتهم. يقع المنـــــزل الذي كان يقطنه عند أسفل الأكروبوليس، وكان المرء يصل إليه بعد أن يصعد درجاً، ثم يسير عبر ممرٍّ ضيق شديد الانحدار.

انتظره خادم عند باب المنـــزل حاملاً مصباحاً مضاءً. فتح الخادم الـــباب الـــذي يؤدي إلى الباحة، ثم رافق سيّده نحو مدخل رواق ذي أعمـــدة. توجّه ممنون إلى غرفة نومه في الطابق الأعلى، بينما انهمكت الخادمات بتحضير حمامٍ دافئ له. فتح النافذة وأصغى: مزّق صوت بوقٍ ســـكينة الليل بشكلٍ مفاجئ، وكان الصوت صادراً من الجهة الشمالية الشرقية للأسوار. فأدرك أن الهجوم قد بدأ.

اقتربت منه إحدى الخادمات قائلة: "أتريد أن تأخذ حمّامك الآن يا سيدي؟".

لم يُجب ممنون، وانتظر حتى رأى وهجاً أحمر، وما لبث أن رأى عموداً من الدخان يتصاعد ويتلوى في طريقه نحو السماء المظلمة.

عندها فقط، التفت كي يفكّ أزرار درعه وأجاب: "أجل".

25

اندفـــع الجندي لاهثاً إلى داخل الخيمة. لكنه تمكن مع ذلك من الصياح: "مولاي! تعرضنا لهجوم! وأضرموا النيران في أبراج الهجوم!".

هـــبّ الإســـكندر واقفـــاً، وأمسكه من كتفيه: "ماذا تعني؟ هل جننت؟".

"فاجأونا يا مولاي... قتلوا الحراس، وتمكنوا من اقتحام مواقعنا. جلبوا وعاءً مليئاً بالقار، وعجزنا عن إطفاء النيران".

دفعـــه الإسكندر جانباً، ثم ركض إلى الخارج: "بسرعة! أطلقوا الإنذار! فليخرج كل الرجال!كراتيروس، إليك بالفرسان! هيفاستيون، وبيرديكاس، أرسِلا التراقيين والأغريانيين... بسرعة!".

ثم قفـــز الإســـكندر إلى أقـــرب جواد وجده في طريقه، وانطلق بأقـــصى سرعة نحو خط الأسوار. في تلك الأثناء، تمكّن من رؤية النار بوضـــوح، كما رأى عمودين من ألسنة اللهب المتصاعدة نحو السماء السوداء. سمع عند وصوله إلى الخندق ضجيج القتال المتصاعد من كل برجٍ من أبراج الهجوم الخمسة.

وفي غضون لحظات، وصل فرسانُ كراتيروس المسلّحون تسليحاً ثقـــيلاً، ووقفوا إلى جانب الإسكندر، وكانوا برفقة الفرسان التراقيين والأغـــريانيين المسلحين تسليحاً خفيفاً، وما لبثوا أن انطلقوا متقدمين واشـــتبكوا مع المهاجمين. اضطر رجال هاليكارناسوس على الفور إلى التـــراجع من خلال البوابة الجانبية إلى أماكن آمنة. لكنّ برجين من بين الأبراج الخمسة تعرضا للتدمير بالكامل، وكان الدخان لا يزال يتصاعد

مـــنهما. انهار البرجان الواحد تلو الآخر، وترافق ذلك مع دوي هائل، وانطلقت دوامة من ألسنة النيران الملتهبة، وسرعان ما أتت على ما تبقى من أخشابهما.

تـــرجّل الإسكندر، ومشى نحو هذا الجحيم الملتهب. كان قد قُتل عـــدد كبير من جنوده. وكان من الواضح أنهم فوجئوا بالهجوم عندما كانوا نائمين، وذلك لأنهم كانوا ممدّدين أرضاً من دون دروعهم.

ظهـــر هيفاســـتيون بعد ذلك بوقتٍ قصير قائلاً: "رددناهم إلى المدينة. ماذا نفعل الآن؟".

أجاب الملك وقد علت وجهه مسحة كآبة داكنة مثل الليل المخيّم عليهم: "اجمعوا القتلى، وباشروا بإعادة بناء البرجين. سنكمل هجومنا يوم غدٍ بما تبقى لدينا".

في ذلك الحين، وصل قائد الجنود المكلفين بأمر الأبراج. أحنى رأسه، وكـــان من الواضح أنه كان في حالة معنوية سيئة: "كانت غلطتي. عاقِبني إذا أردت، لكن لا تعاقب رجالي لأنهم فعلوا كل ما في وسعهم".

أجـــاب الإســـكندر: "تكفي الخسائر التي يتكبدها القائد لتكون عقابـــاً لـــك. لكن يتعيّن علينا أن نفهم الآن الخطأ الذي ارتُكب. ألم يتواجد أحد ليراقب الحرّاس؟".

"ســـيبدو أن ما أقوله ضربٌ من المستحيل، لكنني قمت بجولات المـــراقبة قبل بداية الهجوم، وسمعت نداءات الحرّاس، وأعطيت أوامري مـــن أجل استخدام أكثر اللهجات المقدونية عمقاً، وذلك كي نتجنب أي مشاكل...".

"وماذا حصل بعد ذلك؟".

"سمعـــتهم جميعاً بأذنيّ هاتين ينادون بلهجة مقدونية. لكن، لا بد من أنك تجد ذلك صعب التصديق".

مرّر الإسكندر يده فوق جبهته: "أصدّقك. لكن، علينا منذ الآن فصاعداً أن نتذكّر أن خصمنا هو من أشد الخصوم الذين واجهناهم حتى الآن دهاءً وخطراً. أريدك، بدءاً من الغد، أن تضاعف عدد الحراس، وأن تغيّر كلمات السر عند كل عملية تغيير للحرس. اجمع القتلى الآن، ورتّب أمر نقل الجرحى إلى المخيّم. سيعتني بهم فيليب ومساعدوه من الجراحين".

"سأفعل ما أمرتني به بالضبط، وأعدك ألاّ يحدث شيء كهذا مرة أخرى، حتى ولو اضطررت إلى الحراسة بنفسي".

أجاب الإسكندر: "لن يكون ذلك ضرورياً. أريدك أن تتعلم من بحّارتنا كيفية إرسال الإشارات في الليل باستخدام درعٍ مصقول وضوء النيران".

أومأ القائد، لكنّ انتباهه تحوّل في تلك اللحظة نحو شخصٍ يسير بين جمر البرجَين المحترقَين. وراح ذلك الشخص ينحني بين الحين والآخر كي يتفحص شيئاً ما على الأرض.

سأل القائد: "من هناك؟".

نظر الإسكندر إلى حيث يقف ذلك الشخص، وعرف الرجل عندما استدار وأضاءت النيران وجهه للحظة.

"لا تقلق. إنه كاليستين". وما إن توجّه الإسكندر على صهوة جواده نحو مؤرخه الرسمي، حتى التفت ونادى القائد: "انتبه! إذا حدث ذلك مجدداً، فإن عقابك سيكون مضاعفاً. إذ إنّك ستعاقب عندها عن هذه الحادثة كذلك!".

وصل الإسكندر إلى جانب كاليستين بسرعة فوجده زاحفاً لدى تفحصه أحد الجنود القتلى. ولا بد من أنه كان أحد الحرّاس لأنه كان مرتدياً دروعه كاملة.

سأل الملك ما إن قفز إلى الأرض: "عمّ تبحث؟".

أجاب كاليستين: "أبحث عن خنجر. استخدموا الخناجر، وكانت تكفيهم طعنة واحدة في منطقة خلف العنق. توجد طعنة أخرى هناك، وهي متماثلة مع الطعنة الأولى".

"إذاً، كان المهاجمون من المقدونيين".

"وما علاقة ذلك باستخدام الخنجر؟".

"أبلغني القائد المناوب أن جميع الحراس قد أجابوا حتى اللحظة الأخيرة عن كل النداءات بلهجة مقدونية".

"أيفاجئك هذا؟ إن أعداءك في الوطن كثيرون، وهناك أناسٌ سيسرّون إذا رأوك ذليلاً ومحطماً. ولا بد من أن بعضهم قد قدموا إلى هنا؛ إلى هاليكارناسوس. إنك تعرف أنها لا تبعد كثيراً عن ثيرماي".

"وماذا تفعل تحديداً في هذه اللحظة؟".

"إنني مؤرخ. يُعتبر التشريح إجراءً ضرورياً بالنسبة إلى أي شخصٍ يطمح إلى أن يكون شاهداً حقيقياً على الأحداث".

"إذاً، جعلت ثيوسديدس مثالاً لك؟ لم أكن لأخمّن ذلك. إن هذه القسوة الصارمة لا تليق بك، لكن هل تستمتع كثيراً بممارستها".

"إنني أستفيد من كل ما أجده. وعلى كل حال يتحتم عليّ أن أعرف كل ما يجب أن يُعرف. إنني أقرر ما هي الأمور التي يجب أن لا تُروى، والأمور التي يجب أن تروى، وكيفية روايتها. هذا هو الامتياز الممنوح للمؤرخ".

"لكن، هناك أشياء تحدث الآن ولا يمكنك حتى أن تخمّنها، بينما أستطيع أنا أن أفعل ذلك".

"وما هي هذه الأمور؟ هذا إذا سمحتَ لي بالسؤال".

"خطط ممنون. إنني أدرك الآن أنه درس كل شيء قمتُ به، ولعله درس أيضاً كل شيء قام به والدي فيليب، وهذا هو سبب تقدمه علينا بخطوة".

"وما هي الأشياء التي يفكّر فيها الآن برأيك؟".

"إنه يفكّر في حصار بيرينثوس".

أحـــبّ كاليستين أن يطرح المزيد من الأسئلة، لكنه لاحظ أنه أصبح وحيداً مع الجثة الموجودة أمامه، إذ قفز الإسكندر إلى صهوة جواده وابتعد به. استمر الحريق في البرجين المنهارين، وسرعان ما انطلق لسان من اللهب وزوبعة من الدخان، لكن الريح بعثرهما في وقت قصير.

أعـــيد بناء البرجين ولكن مع بعض الصعوبات. واستخدم العمال جـــذوع أشجار الزيتون القاسية والمليئة بالعقَد، فخفّت وطأة الحصار قلـــيلاً. لـــذا، استطاع ممنون أن يتلقى المؤن عن طريق البحر بانتظام، لـــذلك لم يجـــد أنـــه مـــن الضروري أن يشنّ غارة أخرى، كما أن الإســـكندر لم يرغب في استخدام آلات أخرى من دون أن يفحصها أولاً بكل عناية، وذلك بسبب تضررها نتيجة لحرائق أصغر.

أما الأمر الذي أقلقه أكثر من غيره، فكان الضجيج المتصاعد من داخـــل المدينة، وهو ضجيج يعرفه جيداً، ويشبه الضجيج الصادر عن النجّارين الذين يعملون على إعادة بناء البرجين.

تركـــزت آلات الحصار الجديدة في مواقعها، وبدأت بتوسيع الثغرة. فلاحظ الإسكندر أنه يواجه الأمر ذاته الذي كان يخشاه: الحصن نصف الدائري الجديد الذي يصل أجزاء السور السليمة ببعضها.

قـــال بارمينيون متذكراً عندما رأى هذه القلعة التي شيّدت على عجلـــة والتي بدأت تظهر من وراء الثغرة التي أحدثتها الآلات: "حدث الأمر ذاته في بيرينثوس".

قال كراتيروس: "إن ذلك ليس كل ما في الأمر. اتبعوني من فضلكم...".

تسلقوا إلى قمة أحد الأبراج، وهو الذي يقع إلى أقصى جهة الشرق، ورأوا من هناك الأمور التي انشغل مواطنو هاليكارناسوس بتحضيرها. إذ وجدوا هناك هيكلاً خشبياً ضخماً رباعي الزوايا مع دعامات بالطول وبالعرض.

قال كراتيروس: "إن هذا الهيكل ليس مجهزاً بعجلات، أي أنه مثبت بالأرض".

قال الإسكندر: "إنهم لا يحتاجون إلى عجلات، لأن كل ما يريدونه هو إبقاء الثغرة تحت مرمى بصرهم. سينتظرون إلى أن نحاول الدخول، ثم سيرموننا بوابلٍ من السهام من مسافة قصيرة، أي أنهم سيقضون علينا".

قال بارمينيون معلقاً: "إن ممنون رجل صلب. سبق لي أن حذرتك يا مولاي".

التفت إليه الإسكندر بسرعة، ولكنه لم يحاول أن يخفي انزعاجه: "سأدمر الأسوار، وكذلك البرج اللعين أيها القائد سواء أأحبّ ممنون ذلك أم لم يحبّه". ثم التفت بعد ذلك إلى كراتيروس وقال له: "راقب البرج بشكلٍ مستمر، ودعني أعلم ما ينوون القيام به". أسرع الإسكندر بالنزول، وامتطى صهوة جواده، ثم عاد إلى المعسكر.

توسعت الثغرة أكثر، لكنّ ممنون تمكّن من الرد على كل هجوم شنّه المقدونيون بهجومٍ معاكس، كما أن حصنه الجديد وفّر موقعاً ممتازاً لرماته الذين تمكنوا من اصطياد المهاجمين في كل مرة عبروا فيها الثغرة.

بقي الوضع على هذا الشكل في حين ازدادت حدة حرارة شمس الصيف يوماً بعد يوم، بينما أخذت مؤن الإسكندر بالنفاد.

ذات ليلة، قاد بيرديكاس وضباطه الهجوم الذي شنّته حامية الجنود من خلال الثغرة. كان بعض الشراب قد وصل من إفيسوس كهدية من إدارة المدينة إلى الإسكندر، إلا أن الملك أمر بتوزيع قسمٍ منه على ضباطه.

كان قد مضى وقت طويل منذ أن تناولوا شراباً بمثل هذه الجودة. كما أنه لم يُعرف عن بيرديكاس ورجاله الاعتدال لدى احتسائهم الشراب. فأخذ منهم الشراب كلّ مأخذ بحلول منتصف الليل. وحين بدأ أحد الرجال بالغناء ممتدحاً جمال نساء هاليكارناسوس، بعد أن سمع قصة عنهن من أحد التجار في المعسكر، تحمّس الرجال الموجودون معه، وراحوا يتفاخرون بأنفسهم، ويَتَحدّون بعضهم بإنهاء الحصار مرةً واحدةً، وبتنظيم هجومٍ مفاجئٍ وحاسم.

خرج بيرديكاس من الخيمة، وتطلع نحو تلك الثغرة اللعينة في الأسوار، والتي قُتل بسببها عدد كبير من الجنود المقدونيين الشجعان. وفي تلك اللحظة، هبّ نسيم البحر اللطيف وبدا أنه أخذ أفكاره إلى آفاق بعيدة، فتصوّر نفسه تحت أسوار طيبة بعد أن تسلّل مع رجاله من خلال بوابات المدينة كي يحسم جمود الوضع.

فكّر في كليوباترا، وفي تلك الليلة الدافئة والعطرة التي دعته فيها إلى مخدعها. كانت ليلةً تشبه هذه تماماً.

وفي آخر الأمر، شعر أن النصر ممكنٌ على الدوام إذا كان التصميم أقوى من المأزق الذي يواجهه المرء. واعتقد مثل سائر الرجال الذين يثملون أنه لا يُقهر، كما افترض أنه يستطيع تحقيق أحلامه. ورأى

الإسكندر في حلمه وهو يجمع جنود جيشه من أجل تكريمه، ثم يكلّف منادياً برفع صوته مثنياً على قاهر هاليكارناسوس.

بعد ذلك، عاد إلى خيمته وملامح القلق بادية على وجهه، ثم قال بهـــدوء بحيث لم يسمعه أحد غير أولئك الأقرب إليه: "اجمعوا الرجال، سنقوم بمهاجمة الحصن".

26

سألـه أحد ضباطه: "هل قلتَ إننا سنهاجم الحصن؟ هل هذا ما قلتَه حقاً؟".

أجاب بيرديكاس: "هذا ما قلتُه بالضبط. وسنرى في هذه الليلة بالذات ما إذا كنتَ تمتلك الشجاعة التي طالما تفاخرتَ كثيراً بشأنها".

بدأ الجميع بالضحك، وصاح آخر: "إذاً، هل نحن جاهزون؟".

بدا بيرديكاس جادًّا حتى وهو ثمل: "توجهوا إلى فرقكم، فليس هناك ما يكفي من الوقت. ستكون إشارتي مصباحاً مرفوعاً فوق خيمتي. أحضروا السلالم، والخطّافات والحبال. سنهاجم حسب الطريقة القديمة وبصمتٍ. ومن دون أبراج الهجوم، ومن دون القاذفات. هيا، تحركوا!".

تطلع رفاقه نحوه، وكان يبدو على ملامحهم مزيج من الدهشة وعدم التصديق. ولكنهم في النهاية أطاعوا أوامره لأن لهجة بيرديكاس كانت قاطعة ولم تترك مجالاً للمراجعة، وإن لم تكن ملامحه على هذه الدرجة من الصرامة. لم يمرّ وقت طويل حتى ارتفع المصباح فوق خيمته، وما لبث الرجال أن وصلوا إلى الأسوار بصفوفٍ متراصة. ساروا بصمت نحو الثغرة التي تمكنوا من خلالها من رؤية ذلك الحصن الذي أقامه جنود هاليكارناسوس على عجل داخل المدينة.

قال بيرديكاس آمراً: "ابقوا إلى جانب الأسوار التي لا تزال واقفة حتى اللحظة الأخيرة، وابدأوا بالهجوم عند إشارتي. يتعيّن علينا أن

نفاجئ الحراس في نوبة حراستهم، أي قبل أن يتسنى لجنود المساندة الوصول إلينا. وما إن نسيطر على أعلى الأسوار حتى نطلق الإنذار بالأبواق من أجل استدعاء الملك والقادة الآخرين. والآن... إلى الأمام!".

مرّر الضباط هذا الأمر بالهجوم، فتقدم الجنود وسط الظلمة إلى حافتَي الثغرة، وما لبثوا أن اندفعوا نحو قاعدة الحصن الجديد، أي أنهم قطعوا مسافة تقارب المئة خطوة. لكن ما إن أوشكوا على التسلّق، ووضع السلالم في مواقعها، حتى مزّقت أصوات الأبواق الحادة سكون الليل، وتعالت الصيحات، وتعالى معها ضجيج الأسلحة.

كانت المنطقة العليا من الأسوار تعجّ بالجنود، وبالمحاربين الآخرين المزوّدين بدروعٍ كاملة، وهم الذين تدافعوا كالسيل من خلال بوابة ميلاسا، وفاجأوا فِرق بيرديكاس على حين غرة، وما لبثوا أن حاصروهم قبالة الأسوار، وأمطروهم بوابلٍ من السهام الطويلة والقصيرة.

صاح أحد الضباط: "آه! وقعنا في مصيدة. أطلق الإنذار يا بيرديكاس. أطلقِ الإنذار! إننا بحاجة إلى مساعدة من الملك!".

صاح بيرديكاس: "كلا! ما زلنا قادرين على الهجوم بمفردنا. ردّوا هجومهم عنّا ريثما نتسلق الحصن".

صاح الضابط: "لقد فقدتَ صوابك! إنهم يحيطون بنا من كل جانب. أطلقِ الإنذار وإلا سأضطر إلى إطلاقه بنفسي. اللعنة عليك!".

تطلّع بيرديكاس حوله، وما لبثت غريزة البقاء أن نفخت الحماسة في عروقه، فتغلّب عقله فجأةً على ثمالته، وأدرك أن الكارثة وشيكة.

قال آمراً: "اتبعوني! أريدكم جميعاً خلفي! سنشق طريقنا حتى المعسكر. أطلقوا الإنذار! أطلقوا الإنذار!".

ترددت أصوات البوق في الهواء الساكن في تلك الليلة الصيفية، وعكستها أسوار ذلك الحصن الطبيعي، حتى وصلت إلى معسكر الإسكندر وكأنها أصوات نحيب.

صاح أحد الحرّاس بعد أن اندفع إلى الخيمة الملكية: "إنه بوق الإنذار يا مولاي! إنه آتٍ من صوب الحصن".

قفز الإسكندر من سريره وتناول سيفه: "أقحم بيرديكاس... ذلك اللقيط الأحمق، نفسه في ورطة. كان يجب أن أعلم بأن ذلك سيحدث!".

خرج من خيمته راكضاً وهو يصيح: "إلى جيادكم! إلى جيادكم أيها الرجال! إن بيرديكاس في خطر!". وما لبث أن انطلق هو الآخر متبوعاً بالحرس الملكي الذي كان مستعداً للقتال في أي وقت، ليلاً ونهاراً.

في هذا الوقت، قاد بيرديكاس رجاله في أثناء تراجعهم، وتمكن من تحقيق بعض النجاح، وراح يحارب بشراسة كي يشق طريق عودته. لكنّ جنود هاليكارناسوس تجمعوا في أعلى الأسوار فوق موقع الثغرة، واستفادوا من التفوّق الذي يوفره لهم موقعهم العالي، بينما كان على المقدونيين أن يتعثروا بين الحجارة والركام.

تابع نافخ البوق إطلاق نداءاته الحادة والقلقة، بينما حاول بيرديكاس الذي تخضبت يداه وركبتاه بالدماء أن يقاتل كي يشق طريقه نحو الثغرة، وسعى كي يحارب من خلال خطوط العدو بكل الشجاعة والقوة اللتين تترافقان مع اليأس الخالص.

سمع بيرديكاس وقع حوافر جياد خيّالة الإسكندر، لكنه كان قد تمكّن في هذا الوقت من فتح ممرٍّ له، وكان يقود رجاله نحو الجهة الأخرى، أي نحو المعسكر.

وقـــف جـــنود ممـــنون صفاً متراصاً، ثم استداروا ووقفوا بحيث أصـــبحت ظهورهم نحو الحصن. وامتلأت الأرض أمامهم بجثث الجنود المقدونـــيين الذين سيقوا إلى حتفهم نتيجة هذا الهجوم الانتحاري الذي نتج عن الحماسة غير المسؤولة لقائدهم.

ظهر الإسكندر أمام رجاله على نحوٍ مفاجئ، وكأنه تمخض عن هـــيم اللـــيل. أضاء نور المصابيح وجهه بلون أحمر يشبه لون الدم، بيـــنما التفّ شعره على كل جهةٍ من جهتَي وجهه فظهر مثل عُرف الأسد.

"مـــاذا فعلـــتَ يا بيرديكاس؟ ماذا فعلت؟ لقد قدتَ رجالك إلى المذبحة!".

جثا بيرديكاس على ركبتيه منهكاً بفعل القتال الشديد، وكذلك نتـــيجة اليأس الذي شعر به. وأخذ فرسان الإسكندر مواقعهم لمواجهة أيّ هجـــومٍ محـــتمل. لكنّ رجال ممنون وقفوا بصلابة عند الثغرة كتفاً قرب كتف، وبصفوفٍ متراصة منتظرين خطوة خصمهم التالية.

قـــال الإسكندر: "سننتظر حتى الفجر. إن اتخاذنا أيّ خطوةٍ الآن هو أمر خطر جداً".

صرخ بيرديكاس في وضعٍ يشبه الجنون: "أعطِني المزيد من الجنود ودعني أهاجم... دعني أخلّص نفسي أيها الإسكندر!".

ردّ الملـــك بـــصوتٍ حـــازم: "لا نستطيع أن نرتكب المزيد من الأخطاء. ستحصل على فرصتك في ما بعد يا بيرديكاس".

انتظـــر الجمـــيع بسكونٍ في الوقت المتبقي من الليل، لكنّ سهاماً حارقـــةً كانـــت تخترق الظلمة بين حين وآخر لإضاءة الباحة المواجهة للثغرة. واخترقت هذه السهام الحارقة الهواء مثل النيازك، وأزّت مرتجفة عند اصطدامها بالأرض.

عند طلوع الشمس، أمر الملك بيرديكاس بإحصاء عدد رجاله، وذلك كي يعرف كم رجلاً قد مات منهم. وتبيّن أنه لم يردّ على نداء التعداد سوى ألف وسبعمئة جنديّ من أصل ألفي رجل قادهم بيرديكاس في ذلك الهجوم. فقد سقط الجنود الآخرون ضحية الكمائن، وبقيت جثثهم غير مدفونة في منطقة تقع ما بين الثغرة والحصن.

أرسل الملك مبعوثاً من قِبله لطلب عقد اجتماعٍ مع ممنون.

شرح الإسكندر الوضع لجنوده: "أريد أن أفاوض ممنون في مسألة استعادة جثث جنودنا".

أصغى المبعوث إلى الشروط التي كان يقترحها الملك، ثم تناول قطعة قماشٍ بيضاء اللون، وانطلق نحو خطوط العدو، وسبق ذلك إطلاق البوق ثلاث مرات، وهو ما يعتبر إشارة إلى طلب عقد هدنة.

وسُمع من خلال الثغرة صوت البوق ثلاث مرات أيضاً، لذلك تحرك الرجل إلى الأمام ببطء، وسار نحو الركام.

مرّ بعض الوقت، وما لبث أن نزل مبعوثٌ من الجهة الأخرى قادماً من أعلى الثغرة. كان إغريقياً من المستعمرات، ويتكلم بلهجة دوريا، وربما كان من رودس.

قال المبعوث المقدوني: "يطلب الملك الإسكندر التفاوض من أجل إرجاع جثث الجنود القتلى، كما يرغب في الاستماع إلى الشروط التي يفرضها قائدك".

أجاب مبعوث ممنون: "لا أمتلك الصلاحية للتفاوض في أي شروط. وبالرغم من ذلك، إنّ القائد ممنون مستعدٌ للقاء ملكك شخصياً، وذلك بعد مغيب شمس هذا اليوم مباشرة".

"أين؟".

أشـــار الإغريقي إلى شجرة تينٍ برية نامية قرب قبرٍ تذكاري يقع بمحاذاة الطريق التي تؤدي من بوابات المدينة إلى ميلاسا، وقال: "هناك. لكـــن يجـــب علـــيكم إبعاد جيشكم مسافة ستاديا واحد. سيجري الاجـــتماع في الوســـط تمامـــاً بين الخطين، كما أن القائد ممنون لن يصطحب معه أي مرافقين، لذلك فهو يتوقع أن يفعل الإسكندر الأمر ذاته".

"ســـأنقل ما قلتَه لي إلى الملك، وإذا لم أعد على الفور، فإن ذلك يعني أن الملك يقبل بهذه الشروط".

ثم امتطى المبعوث صهوة جواده، وانطلق به عائداً نحو الإسكندر. انتظـــر الإغريقـــي بعض الوقت، ثم رجع من حيث أتى صاعداً فوق الـــركام، ومـــا لبث أن اختفى بين صفوف الجنود المصطفين في أعلى السور.

تـــراجع الإســـكندر وجيـــشه بقدر المسافة المطلوبة، ثم عاد إلى المعسكر وانتظر غياب الشمس في خيمته. لم يتناول الملك أي طعام بقية الـــيوم، كمـــا لم يتـــناول أي شراب. أخذ الملك الهزيمة على مستوى شخـــصي، وشعر بالإهانة لأن ممنون تمكّن من الردّ بقوة مرعبة ومماثلة. أحـــسّ الإسكندر، وللمرة الأولى في حياته، بالإحباط والعجز والوحدة العميقة.

وبـــدت الانتـــصارات التي حققها حتى ذلك الوقت بعيدة، وحتى منـــسية. كان هذا الرجل - أي ممنون؛ الرجلُ الآتي من رودس - حجرَ الرحى الذي أعاق طريق تقدمه، وكان عقبةً تزداد منعةً مع مرور الأيام.

أعطـــى الإسكندر حرّاسهُ الأوامر بأن لا يَدَعوا أحداً يقترب منه. حـــتى إن ليبـــتين لم تجرؤ على الاقتراب منه في ذلك اليوم. لكنّ ليبتين

تمكّنت من تفسير ملامح وجهه واستطاعت أن ترى الأنوار والظلال في أعماق عينيه، وكأنهما كانتا سماءً تحمل نُذُر عاصفةٍ وشيكة.

تحضّر الإسكندر للقاء عدوّه مع اقتراب موعدِ مغيب الشمس. لكنه ما لبث أن سمع صخب جدالٍ يجري قرب خيمته، واقتحم بيرديكاس الخيمة بعد ذلك مباشرة، بعد أن أزاح حرّاس الملك جانباً.

أومأ الإسكندر إلى الجنود فتركوهما وحيدين.

صاح بيرديكاس اليائس: "أستحق أن أموت! لقد تسببت بموت عدد كبير من الجنود الشجعان، كما جلبت العار لجيشنا، وأجبرتك على خوض مفاوضات مذلة. اقتلني!"، صاح بذلك شاهراً سيفه.

بدا وجهه مسكوناً بخيالاتٍ مخيفة، بينما احمرّت عيناه المتعبتان. لم يره الإسكندر في حالةٍ كهذه منذ حصار طيبة. تفحّصه جيداً من دون أن يرفّ له جفن، ثم أشار إلى كرسي، وقال له: "اجلس".

استمر بيرديكاس في حمل سيفه، بينما ارتعشت يداه وذراعاه بشكلٍ عنيف.

أمره الإسكندر مجدداً بصوتٍ أكثر حزماً، وأعلى من ذي قبل بقليل: "طلبت إليك أن تجلس".

تهالك صاحبه على الكرسي، بينما وقع السيف من يده.

سأله الإسكندر: "لماذا هاجمتَ الحصن؟".

"كنت أشرب كما شرب الجميع... بدا الأمر ممكناً بالنسبة إليّ... حتى إنّ النصر بدا لي مؤكداً".

"حدث ذلك لأنك كنتَ ثملاً. كان يمكن لأي رجل بكامل قواه العقلية أن يدرك أن ذلك كان مساوياً للانتحار، لا سيّما وأنه حدث في الظلام، وفي تلك المنطقة الوعرة".

"لم أشـــاهد أحداً فوق الأسوار، وكان السكون مخيّماً، ولم يكن هناك وجود لأي حارس".

صاح به الإسكندر: "وهكذا وقعتَ ضحية هذه الخدعة. إن ممنون هو أشرس خصمٍ واجهناه على الإطلاق. أفهمت؟ هل فهمت؟".

أومأ بيرديكاس.

"لا يقتـــصر الأمـــر على أن ممنون محاربٌ شجاع، بل إنه رجلٌ يتمتع بدهاءٍ وذكاء استثنائيين، وهو يراقبنا ليلاً ونهاراً، ويدرس أي ثغرةٍ في تركيـــزنا، وكل خطوةٍ غير صحيحة نخطوها، وكل حركةٍ نقوم بها من دون تخطيط. وبعد ذلك، يضرب الرجل بقوةٍ هائلة.

لـــسنا هنا في ميدان معركة حيث نستطيع الاعتماد على قوّة فرســـاننا وكتائبنا المتفوّقة. إن ما نواجهه هنا هو مدينة غنية وقوية يدافع عنها جيش جيد التدريب، ويتمتع بتفوقٍ علينا بسبب موقعه الاستراتيجيّ. أضف إلى ذلك أنّ هذه المدينة لا تعاني من الصعوبات الـــتي تترافق عادة مع الحصار. تكمن فرصتنا الوحيدة للسيطرة على هـــذه المدينة في فتح ثغرةٍ واسعة بما يكفي في أسوارهم، وهي الثغرة التي تمكننا من التغلّب على دفاعات ممنون، ولا يمكن أن يحدث هذا إلا في وضح النهار.

هـــناك قوتـــنا مقابل قوتهم، وذكاؤنا مقابل ذكائهم، وتعقّلنا مقابل تعقّلهم، ولا شيء آخر. أتعلم ماذا سنفعل الآن؟ سنقوم بإزالة الركام، وسنـــزيل الحجارة من الثغرة حتى ننظف المنطقة بأكملها، وسنرســـل بعـــد ذلـــك الأبراج إلى ذلك الحصن نصف الدائري، وســـندمره. أما إذا بنوا حصناً آخر، فسندمره أيضاً، وسنتابع على هذا المنوال، وبطريقةٍ منهجيةٍ إلى أن ندفع بهم إلى البحر. هل فهمتَ يا بيرديكاس؟

ستطيع أوامري حتى ذلك الحين، وأوامري أنا وحدي. إن خسارتك لرجالك عقاب كافٍ لك. سأقوم الآن باسترجاع جثثهم. وستقوم أنت وفرقتك بأداء مراسم تحية الجنازة لهذه الجثث، كما ستقوم باسترضاء أرواحهم المعذبة بالأضاحي. وسيأتي اليوم الذي تفي فيه بدَينك. أما الآن، فأنا آمرك بألاّ تقتل نفسك".

ثم تناول السيف عن الأرض وقدّمه إلى صديقه.

قبّل بيرديكاس السيف، ووضعه في غمده، ثم وقف مستعداً للانصراف بعد أن اغرورقت عيناه بالدموع.

27

أخفت خوذة كورينثية وجه الرجل الواقف أمامه. أما درع صدره البرونزي، فكان مزخرفاً بخيوط من الفضة. كما لاحظ الإسكندر أنه يضع سيفه داخل غمده. وكذلكً وضع ممنون عباءة من الكتّان الأزرق فوق كتفيه، وجعلها نسيم المساء تنتفخ لتبدو مثل شراع قارب يتهادى في البحر.

وفي المقابل، لم يعتمر الإسكندر أيّ خوذة، وكان قد سار نحو نقطة الاجتماع المعينة ممسكاً بلجام بوسيفالاس. وما إن وصل حتّى قال لممنون: "أنا الإسكندر، ملك مقدونيا، وجئت كي أفاوضك في دفع فدية مقابل الحصول على جثث جنودي".

التمعت نظرة الرجل للحظة من خلال خوذته، فميّز الإسكندر على الفور النور المنبعث من عينيه والذي تمكّن آبيل من نقله إلى الصورة التي رسمها له. كان صوته حاداً، وكأنه خارج من جوف الخوذة: "أنا القائد ممنون".

"ماذا تطلب مقابل استرجاعي جنودي".

"أطلب إجابةً عن سؤال".

تطلّع الإسكندر نحوه بدهشة: "أيّ سؤال؟".

بدا ممنون متردداً للحظة، بينما شعر الإسكندر بأنه على وشك أن يسأله عن أخبار بارسين. وذلك لأنّ رجلاً بمثل مركزه لا بد من أنه يمتلك مخبرين في كل مكان، كما أنه من المؤكد تقريباً أن الشكّ يعذبه بعد أن سمع بما جرى بينه وبينها.

لكـــن السؤال دار حول موضوعٍ آخر: "لماذا جلبتَ الحرب إلى هذه البلاد؟".

"الفُـــرس هـــم الذين غزوا اليونان أولاً. أتيت الآن للانتقام منهم بسبب الخراب الذي أحدثوه بهياكلنا ومدننا، وللانتقام لجنودنا الشبان الذين سقطوا في ماراثون، وفي ثيرموبايلاي، وفي بلاتايا".

ردّ ممنون: "إنك تكذب، لأنك لا تحسّ بأي شيء تجاه الإغريق، وهـــم لا يـــشعرون بشيء تجاهك. أخبرني الحقيقة، ولن أخبر أحداً بما تقوله لي".

ازدادت قوة الريح، وما لبثت سحابة من الغبار الأحمر أن أحاطت بالمحارِبَين.

"أتـــيت كي أؤسّس أكبر مملكة شهدها العالم على وجه الأرض، ولن أتوقف حتى أصل إلى أمواج أبعد محيط".

"هذا ما كنت أخشاه".

"ومـــاذا عنك؟ أنتَ لستَ بملك، حتى إنّك لستَ فارسياً. فلماذا أنت على هذه الدرجة من العناد؟".

"لأنـــي أكره الحرب، كما أكره الشبان المتهورين أمثالك، الذين يـــريدون تحقـــيق الأمجاد عن طريق سفك الدماء في كل أنحاء العالم. ســـأعفّر وجهك بالتراب أيها الإسكندر، وسأجبرك على الرجوع إلى مقدونيا لتموت بطعنة خنجرٍ في ظهرك، أي مثلما حدث لأبيك".

لم يجب الملك عن هذا الاستفزاز: "لن يعمَّ السلام طالما أنّ هناك حـــدوداً وحواجز، ولغات وعادات مختلفة، *وأسياداً مبجلة*، ومعتقدات مختلفة. يتعيّن عليك أن تنضمّ إليّ".

"إن ذلـــك غـــير ممكـــنٍ أبداً. فأنا رجل أمتلك كلمةً واحدة، ومعتقداً واحداً".

"إذاً، الأفضل هو الذي سيفوز".

"ليس بالضرورة، لأن الأقدار عمياء".

"هل ستعيد إليّ جثث جنودي؟".

"يمكنك أن تأخذها".

"كم ستمنحنا من الوقت؟".

"حتى نهاية نوبة الحراسة الأولى".

"سيكون هذا كافياً. أنا شاكرٌ لك".

أحنى قائد العدو رأسه موافقاً.

"وداعاً أيها القائد ممنون".

"وداعاً أيها الملك الإسكندر".

أدار ممنون ظهره، وتوجّه عائداً نحو الجهة الشمالية من الأسوار. وحين وصل، فُتحت بوابة جانبية، وما لبثت عباءته الزرقاء أن اختفت في ظلمة المدخل. ثم أُغلق الباب الثقيل والمقوى بالحديد وراءه محدثاً ضجيجاً قويًّا.

عاد الإسكندر إلى المعسكر، وأمر بيرديكاس بجمع جثث جنوده.

جمع الحمّالون الجثث الواحدة تلو الأخرى، ونقلوها إلى الكهنة ومساعديهم من أجل غسلها وتحضيرها لمراسم الجنازة.

أعدّت خمس عشرة محرقة كبيرة، ووُضعت في كل واحدة منها عشرون جثة بعد أن غُسِلت، وسرّح شعرها وعُطّرت وأُلبست كامل دروعها.

نادى أحد حرّاس الشرف التابعين لبيرديكاس اسم كل جندي سقط في المعركة، كما ذُكر اسم قائده. وفي النهاية، جُمع الرماد ووُضع في آنية مع سيوف القتلى التي كانت قد وُضعت فوق المحارق حتى احمرّ لونها، ثم حُنيَت حسب الطريقة التقليدية. وأُقفلت الآنية، ثم كُتبت عليها الأسماء، ومكان ولادة كل قتيلٍ من القتلى.

وفي اليوم التالي، حُمّلت الآنية الفخارية على متن سفينة، وأُرسلت إلى مقدونيا، وذلك كي ترتاح إلى الأبد في أرض الأجداد.

بدأ المقدونيون في اليوم ذاته، وتحت وابل من المقذوفات بإزالة الركام من حول الثغرة، وذلك لتمهيد الطريق أمام آلات الحصار. راقب الإسكندر من قمة تلة العمليات الجارية، فلاحظ أن برج ممنون العملاق الذي بناه داخل المدينة آخذٌ في الارتفاع.

اقترب منه إيومينيس، وكان مرتدياً الزي العسكري الكامل كعادته، بالرغم من أنه لم يشارك حتى تلك اللحظة بأي عملٍ عسكري.

"سيصعب علينا الاقتراب من الحصن عندما ينتهي العمل في ذلك البرج".

قال الإسكندر: "أجل، لأن ممنون سيضع المنجنيقات والقاذفات في أعلاه، وهو الأمر الذي سيبقينا تحت رحمة نيرانهم المستمرة، ومن على مسافة قريبة".

"إن كلَّ ما سيفعله هو تصويب نيرانه نحو حشود الجنود. وعندها، سيتسبب بحدوث مذبحة".

"وهذا هو السبب الذي دفعني إلى تنظيف الثغرة قبل أن ينتهي العمل في البرج".

"لا يمكننا إنجاز ذلك".

"ولماذا؟".

"قمتُ بحساب نسبة التقدم في العمل. وأعتقد أنك لاحظتَ الساعة التي صنعتها في أعلى التلة".

"أجل... رأيتها".

"حسناً... يرتفع برجهم بمقدار ثلاث وحدات - من المرفق وحتى طرف الإصبع - كل يوم. أعتقد أنك لاحظتَ كذلك الأداة الأخرى التي صممتها إلى جانب الساعة".

أجاب الإسكندر بصوتٍ حمل بعض الانزعاج: "بالطبع رأيتها".

عاود إيومينيس كلامه بتردد: "إذا لم تكن مهتماً بالأمر، فلا ضرورة لإخبارك عنها".

"لا تكن أحمق. ما هي تلك الآلة؟".

"إنها دمية صغيرة اخترعتها، وهي عبارة عن منظار مُركّب على قرصٍ دوار، والذي يجمع ما بين عمود نظر والشيء المرَاقب على خطٍّ واحد. أقوم بعد ذلك بإجراء حساباتٍ هندسية بسيطة كي أعرف كم يرتفع ذلك البناء في اليوم الواحد".

"حسناً، وماذا بعد؟".

"حسناً... عرفت أنه قبل أن ننتهي من إزالة نصف كمية الركام الموجود حول الثغرة سيكونون قد أنهوا عملهم... يعني ذلك، وبكلماتٍ أخرى، أنهم يستطيعون تمزيقنا بطلقاتٍ قليلة يطلقونها من أعلى البرجً. وتبيّن لي بعد إجراء الحسابات أنهم يستطيعون وضع اثنتي عشرة منجنيقاً على ثلاث منصات الواحدة فوق الأخرى".

طأطأ الإسكندر رأسه، وقال بعد وقتٍ قصير: "إذاً... ماذا تقترح علينا أن نفعل؟".

"أتريد، حقاً، أن تعرف رأيي؟ حسناً... لو كنتُ مكانك لكنت نسيت أمر تنظيف الركام، وركّزت كل آلاتنا على القطاع الشمالي الشرقي، أي حيث تبدو الجدران أقل سماكةً. وإذا أردتَ إلقاء نظرةٍ على أدواتي...".

سار الإسكندر وراء الرجل إلى الموقع ونظر إليه.

"هناك... يتعيّن عليك أولاً أن تحدّد المكان بدقّة من خلال الجهة الخارجية، ثم من الجهة الداخلية إلى الجهة اليسرى من الثغرة... أي هكذا".

وقف الإسكندر منتصباً وقال موافقاً: "هذا صحيح. تبدو الجدران أقل سماكةٍ في الجهة الأخرى".

"بالضبط. والآن... إذا حدّدت مواقع كل الأبراج هناك، فستتمكن مع حلول مساء غدٍ من فتح ثغرةٍ واسعة بما يكفي للعمل حول الحصن شبه الدائري، وبالتالي، لاحتلاله من الجانب. إن الأغريانيين ماهرون في التسلّق، وإذا أرسلتهم إلى تلك الجهة، فسيتمكّنون من تنظيف الطريق أمام جنود الهجوم، وسيصبح في إمكان هؤلاء دخول المدينة، ومهاجمة المدافعين من الخلف".

وضع الإسكندر يده على كتفَي إيومينيس: "وأنا الذي كنت أعتبرك مجرد مساعدٍ لي حتى الآن. إذا انتصرنا، فستشارك في جميع اجتماعات القيادة العليا، وستكون لك الصلاحية الكاملة للتعبير عن آرائك. دعنا نبدأ الآن بتحريك هذه الأبراج، وبدكّ الأسوار على الفور. أريد أن تتولى العمل مجموعات مناوبة ليلاً ونهاراً. إن سكان هاليكارناسوس الطيّبين لن يحصلوا على فترات نومٍ كافية ما دمنا هنا".

وفي الأيام التالية، نُفّذت أوامر الملك من دون أي تأخير، وتم نقل أبراج الهجوم إلى الجهة الشمالية الشرقية بعد بذل جهودٍ كبيرة، وبعد استخدام مئات الرجال والحيوانات، وسرعان ما بدأت الآلات عملها مجدداً. أحدثت عمليات دكّ الأسوار العنيفة ضجيجاً يصمّ الآذان، والذي لم يتسبب فقط باهتزاز الجدران، بل باهتزاز الأرض تحتها.

تفحّص إيومينيس، وبأوامر من الإسكندر ذاته، آلات الهجوم برفقة مجموعةٍ من المهندسين الذين صحّحوا توازن هذه الآلات، وأضافوا إليها منصاتٍ جديدة بهدف زيادة فعالية أدائها.

كانت الأحوال مرعبةً داخل الأبراج. فالحرارة والغبار، وضيق المكان، والمجهود الجسدي الناتج عن تحريك الألواح الخشبية المصفّحة بالحديد ودفعها نحو الجدران الحجرية، بالإضافة إلى الضربات الارتدادية العنيفة، والضجيج الذي لا يُحتمل، كانت كلها فوق قدرة الرجال المشاركين في هذا العمل على الاحتمال. واستمر حاملو أوعية المياه في صعود الدرج ونزوله من أجل إطفاء عطش الرجال الذين يعانون من جراء هذا العمل الذي يفوق طاقة البشر.

شعر الجميع بأنّ الملك يراقبهم عن كثب، وهو الذي وعد بتقديم مكافأة سخية إلى أوائل الرجال الذين يتسبّبون بانهيار دفاعات العدو. ومع ذلك، أدرك الإسكندر أن نجاح مهمتهم لا يتعلق كلياً بالآلات وبكيفيّة عملها، لأنه شعر بأن ممنون كان يخطط لتحرّكٍ معاكسٍ من نوعٍ ما.

نادى الإسكندر بارمينيون، وكلايتوس الأسود، كما نادى رفاقه: هيفاستيون، وبيرديكاس، وليوناتوس، وبطليموس، ولايسيماخوس، وكراتيروس، وفيلوتاس، وسلوقس، وإيومينيس، ودعاهم جميعاً إلى اجتماعٍ يعقده فوق التلة.

كان الأمين العام لا يزال مغطى بالوحل، كما كان شبه أصم نتيجة الضجيج، لذلك، اضطرّ الآخرون إلى رفع أصواتهم كي يسمعهم. وُضع الجيش وراءهم في حالة تأهب، واصطفّ الجنود متأهبين للتحرك. إذ وقف حاملو الدروع في الصف الأمامي مسلّحين بأسلحةٍ خفيفة ومستعدين للعب دور جنود الهجوم، ووقف إلى جانبهم

الجنود التراقيون والأغريانيون. فيما وقف وراءهم، أي في الوسط وفي الجناح الأيسر، مشاةُ المقدونيين المسلحون تسليحاً ثقيلاً، أما في الجناح الأيمن، فوقف مشاةُ الحلفاء اليونانيين المسلحون تسليحاً ثقيلاً. وأحاط الفرسان بالجيش. أما في الخلف، فكان جنود الاحتياط بقيادة بارمينيون، وكان معظمهم من المحاربين الذين خاضوا المعارك إلى جانب فيليب، ويمتلكون جميعاً خبرة استثنائية، كما أنهم شديدو المراس في المعارك.

انتظر الجميع بصمت، وقد وضعوا رماحهم إلى جانب أقدامهم، وكان الجيش يتفيأ في ظلال أول صفٍّ من صفوف أشجار الزيتون.

في هذا الوقت، أمر بيرديكاس بتحريك صفٍّ من الآلات القاذفة وبتركيزها على مرتفعٍ، وتوجيهها نحو بوابة ميلاسا؛ وهي البوابة التي يستطيع المدافعون عن هاليكارناسوس شنّ غارة منها بكل سهولة.

أعلن الإسكندر: "يريد إيومينيس أن يقول لنا شيئاً".

ألقى الأمين العام نظرةً على ساعته الشمسية، وعلى الظلّ الممتد على قرصها الخشبي والعمود المركّز في وسطها.

"قريباً جداً سيبدأ الجدار بالانهيار من الجهة الشمالية الشرقية. فلقد بدأت الطبقة العليا من الأحجار بالانهيار، أما الطبقة السفلى منها، فبدأت بالتزعزع تحت ضربات الآلات الثقيلة الموضوعة في المنصات السفلى، ولذلك يتعيّن أن يكون الانهيار متتابعاً على عرض لا يقل عن مئة وخمسين قدماً".

تطلّع الإسكندر حوله، فرأى قادته ورفاقه متعبين من أثر المعارك الطويلة، والليالي الطويلة التي أمضوها من دون نوم، والهجمات المضادة المستمرة، وكل المحن التي تعرّضوا لها خلال أشهر الحصار.

فقال الإسكندر: "اليوم يتقرر مصير كل شيء. إذا ربحنا، فإن صيتنا وحده سيفتح أمامنا أبواب كل المدن الموجودة من هنا وحتى

جبل آمانوس. أما إذا هُزمنا، فسنخسر كل المدن التي قهرناها حتى اليوم. تذكروا شيئاً مهمّاً، وهو أن خصمنا على وشك أن يُقدم على خطوته الحاسمة، ولا يمكن لأحدٍ منا أن يعرف ما هي هذه الخطوة بالضبط. لكن، انظروا إلى ذلك البرج..."، وعند ذلك، أشار إلى هياكل الخشب الضخمة التي برزت في هذا الوقت، والتي ارتفعت من خلالها القاذفات والمنجنيقات لعلوٍّ يزيد عن مئة قدم، "... تدركون الآن خطورة هذا العدو. أما الآن، فإن جيشنا سيتقدم نحو آلات الحصار. ويتعيّن علينا أن نكون مستعدين للتقدم ما إن تنفتح الثغرة. هيا بنا!".

طلب بيرديكاس الإذن بالكلام: "أيها الإسكندر، إنني أطلب منك إعطائي شرف قيادة الهجوم الأول. أعطِني حاملي الدروع، وجنود الهجوم، وأنا أعدك بأنك ستجلس يوم غدٍ في القصر كي تتناول الغداء مع مرزبان هاليكارناسوس".

"خذ كل الرجال الذين تحتاج إليهم يا بيرديكاس، وافعل كلّ ما تراه ضرورياً".

توجّه الجميع لينضموا إلى رجالهم، وعندما تردّد صوت البوق، انطلقوا في زحفهم نحو الأبراج. وبقي الجنود القدامى تحت أنظار القائد بارمينيون الحريصة منتظرين بسكون في ظلال أشجار الزيتون.

28

في تلـــك اللحظة الحاسمة، شعر الإسكندر بأنه لا يستطيع الوثوق ثقـــةً تامـــة إلا بجوادٍ واحد، لذلك أمر بإحضار بوسيفالاس إليه. راح يمـــسّد كمامـــة الجواد ورقبته، وبعد أن مشى إلى جانبه مسافة قصيرة امـــتطاه، وقاده نحو الأسوار. طلب الإسكندر من هيفاستيون وسلوقس أن يسيرا حوله بجواديهما.

وأجـــبرهم صـــفيرٌ حاد على الالتفات، فرأوا البرج الكبير الذي يتواجد خلف الحصن الدائري قد بدأ بالعمل في هذا الوقت، وما لبثت القذائف الحديدية أن انهمرت بغزارة على ميمنة الجيش المقدوني.

صاح الأسود: "ابحثوا عن ملجأ! اخرجوا من هناك، وإلا، فسينالون منكم مثل العصافير. اخرجوا من هناك... قلت لكم *تحرّكوا*!".

نفـــذت ميمنة الجيش استدارةً سريعة، وتمركزت خلف الوسط، بيـــنما أمر كلايتوس رجاله بالركض من أجل الاحتماء بالأسوار حيث لا تستطيع القاذفات أن تطالهم. وردّ لايسيماخوس، الذي كان يقود في هـــذا الوقت وحدات آلات الحرب التابعة له فوق أرضٍ عالية، بهجومٍ مـــضاد باتجاه البرج. أصيب بعض المدافعين عن هاليكارناسوس إصابةً مباشرة فسقطوا من أعلى الأسوار، وهم يصرخون بصوتٍ عالٍ.

وتتالت أصوات الضجيج الناتجة عن سقوط أحجارٍ ضخمة فوق القسم الشرقي من الأسوار، وذلك نتيجة الضربات المتلاحقة.

انطلـــق بيرديكـــاس مع رجاله من حاملي الدروع والأغريانيين، وصـــرخ لـــدى اندفاعه إلى الأمام مثل رجلٍ مجنون وهو يمسك رمحه

بشدة. ولكن، في تلك اللحظة بالذات، تردّد صوت بوق، وما لبث أن أُتـبِع بسرعةٍ بصوت آخر تميّز بالحدة، والتوتر، والتقطع. اقترب أحد الجنود من الإسكندر راكضاً: "مولاي! أيها الملك! هناك إنذار من الجهة الشرقية! إنذار!".

التفت هيفاستيون نحو الإسكندر قائلاً: "مستحيل. لا توجد بوابات في الجهة الشرقية".

قال سلوقس: "بل توجد بوابات قرب الساحل".

قال هيفاستيون: "لكن، كان بإمكاننا أن نراها من هذه المسافة".

وصل جندي آخر: "مولاي! لقد نزلوا من أعلى الأسوار، وهناك الآلاف منهم. استخدموا الحبال وشباك الصيد! لقد أطبقوا علينا يا سيدي!".

قال الإسكندر: "لا توفروا الجياد! بسرعة... بسرعة!". وحثّ الإسكندر بوسيفالاس على التوجّه نحو حراس الصفوف الخلفية، وما لبث أن رأى آلافاً من جنود الفرس يهاجمون من جهة اليمين وهم يطلقون وابلاً من السهام والرماح. ترددت أصوات الأبواق مجدداً، لكنها صدرت من جهة اليسار هذه المرة.

صاح سلوقس: "بوابة ميلاسا! انتبه يا إسكندر! إنها غارة أخرى!".

صاح الأسود: "أريدكم أن تغطوا البوابة الجانبية! انتبهوا، اللعنة! ليوناتوس! ليوناتوس! انتبه إلى تلك الجهة! انتبه إلى ما يحيط بك!".

التفت ليوناتوس مع مرافقيه من *البيزيتاروي*، فوجد نفسه في مواجهة مع المشاة من المرتزقة الذين كانوا بقيادة إفيالتيس العملاق، الذي كان يلوّح بدرعٍ برونزي مزخرف برسوماتٍ تمثل المرأة الإغريقية الأسطورية المتوحشة، والتي يتكون شعرها من مجموعةٍ من

الأفاعـــي. وكـــان يصرخ في أثناء تقدمه: "إلى الأمام! إلى الأمام!حان الوقت! دعونا نجهز عليهم نهائياً!".

تقدّم الملك إلى الخط الأمامي حيث انضمّ جنود الهجوم من الفرس إلى الجنود المرتزقة الإغريقيين التابعين لإفيالتيس والذين كانوا يهاجمون بـــشراسة، بينما بدأت المنجنيقات الموجودة على الحصن عملها بتوجيه ضربات ذات مسار منحنٍ.

بـــدأ المقدونيون بالتفرّق وسط وابلٍ مخيف من القذائف، فيما بدأ المرتزقة الإغريق بالتقدم، وراحوا يدفعون المقدونيين بدروعهم. في هذه الأثـــناء، كـــان الإســـكندر في الجناح الأيسر، لكنه ما لبث أن دفع بوســـيفالاس في خضم القتال. فأشهر فأسه ذات الحد المزدوج، وراح يصرخ بشراسة من أجل تشجيع رجاله. وبعد قليل، وقع حجر ضخم بالقرب منه، فسحق أحد رجاله وكأنّه حشرة. فانتشر الدم على جانبَي بوســـيفالاس، ومـــا لبث الجواد أن وقف على قائمتيه الخلفيتين، وراح يصهل بصوت عالٍ.

حاول الملك أن يندفع نحو الوسط، إلى حيث كان جنوده واقعين تحت وطأة هجوم الأعداء، ولكن، من دون جدوى، إذ إنّ شدة القتال الـــتي واجهها، ووابل الأحجار المندفعة من المنجنيقات قد أعاقا طريقه، ولهذا، تبدّدت كل طاقاته على مواجهة جنود العدو المندفعين من بوابة ميلاسا.

رأى الأســـود إفيالتـــيس يتقدم مثل أسدٍ هصور، ويُقحم نفسه ورجالـــه بـــين المقدونـــيين الـــذين راحوا يتراجعون. وتراجع شبان *البيـــزيتاروي* أمـــام هجوم المرتزقة الساحق والمرعب. كان بيرديكاس، الـــذي كان في أقصى جهة اليسار، هو الوحيد الذي صمد في مكانه. لكـــن الوضع استمرّ في التردي. إذ بدأت المنجنيقات المنصوبة في أعلى

برج الحصن قصفها بمقذوفات غير عادية، والتي كانت عبارة عن أوعية مليـــئة بالقـــار، وســـرعان ما أصابت قواعد أبراج الهجوم المقدونية، وتبعثـــرت محتوياتها على الأرض. ظهر بعد ذلك، وعلى الفور، الرماة الفـــرس في أعلى الأسوار، وأطلقوا وابلاً من السهام النارية. انتشرت ألسنة اللهب، وغلّفت أدوات الحصار، وما لبثت أن حوّلتها إلى مشاعل عملاقة.

أعطـــى بيرديكـــاس مساعدَه القيادةَ، وتسلّق المنصة الأولى وسط ألـــسنة اللـــهب، فوجد أن الرعب قد دفع رجاله إلى ترك الآلات التي يعملون عليها، ولذلك تدلت بحريةٍ من دعائمها.

صـــاح بالـــرجال: "عودوا إلى مواقعكم! أوشكت الجدران على الانهـــيار. تعالوا وجربوا للمرة الأخيرة!". ثم ألقى درعه على الأرض، وأمسك بقبضة الآلة بنفسه بينما كانت ألسنة اللهب تتسلّل برعبٍ من خلال الشقوق الموجودة في أرضية المنصة.

في الـــبداية، راقب الرجال بدهشة بالغة ما يحصل وهم مذهولون مـــن هذه الجرأة التي تفوق قدرة البشر، وما لبثوا أن عادوا الواحد تلو الآخـــر إلى مواقعهم، واستأنفوا عملهم باستخدام الآلات التي راحت تقـــذف الحجـــارة على الأسوار، وراحوا يصيحون كي يتغلبوا على الـــرعب الـــذي يشعرون به، وعلى حرارة ألسنة اللهب التي لا تطاق. عندها، استعاد ذلك الرأس الحديدي الصلب الذي تدفعه مئات الأذرع اليائـــسة زخمه، وراح يدق الجدران بعنف محدثاً ضجيجاً كبيراً. فبدأت الأحجار الكبيرة بالتحرك وهي التي سبق لها أن أزيحت من مكانها، وما لـــبث حجـــرٌ أو حجران أن وقعا وسط سحابةٍ من الغبار والدخان. وتمكـــنت ضـــربات إضافية من فتح ثغرة واسعة نتج عنها انهيار كبير ساعد على إخماد النيران.

أمـــا في وسط الخط المقدوني، فإن تراجُعَ *البيزيتاروي* كان على وشك أن يتحول إلى هزيمة تحت ضغط جنود إفيالتيس. عندها، صرخ الأسود: "ليوناتوس. أوقفه!". سمع ليوناتوس كلماته، فشقّ طريقه وسط صـــفوف الأعداء بسلسلة ضرباتٍ من فأسه البتّارة، وسرعان ما وجد نفسه في مواجهة إفيالتيس.

وقـــف العملاقـــان في مـــواجهة بعضهما بعضاً بسكون، وكان يـــصعب تمييـــزهما نتيجة المحنة التي يمرّان بها. كان كلاهما ينـــزفان من الجروح الكثيرة التي أصيبا بها، كما أن جسديهما التمعا بسبب العرق، فأصبحا مثل تمثالين تحت المطر.

اســـتدار الإســـكندر فـــرأى المحاربين الذين سبق لهم أن خاضوا المعـــارك مع أبيه ساكنين في ظلال أشجار الزيتون، مطمئنين ومرتاحين تحـــت أنظار بارمينيون الذي بدا غير منفعل. صاح الإسكندر: "فلتنفخ في الـــبوق، أريـــدك أن تستدعي جنود الاحتياط!". كان ذلك أملهم الأخـــير بالفعل، لأن الأرض الصخرية والوعرة كانت مليئة بالأحجار، الأمر الذي يصعّب على الفرسان شنّ الهجوم.

سمع بارمينيون صوت البوق، وكانت الدعوة ملحة ومليئة بالقلق، وتدعـــوه لقيادة رجاله إلى المعركة: "أيها المحاربون. تقدموا لأجل الملك فيلـــيب، ولأجـــل الملك الإسكندر!". وعلى الفور، هدر صوت يماثل صـــوت الـــرعد قـــوّة وسط الهواء المثقل بالغبار، وكان صوت طبل شايرونايا!

أسمَـــعَ هـــذا الطـــبل الضخم الذي كان مخبأً بين أشجار الزيتون صـــوتَه، ومـــا لبث جنود الفالانج أن بدأوا بالتحرك إلى الأمام، وقد انتـــصبت رماحهم فبدت مثل نيصٍ مخيف. بدأوا زحفهم الإيقاعي، ثم راحوا يصرخون عند كل خطوةٍ يخطونها: "*آلالالاي! آلالالاي*!".

أمــــر الإســــكندر الذي وصل إلى الوسط بعد جهد جهيد جنودَ *البيزيتاروي* التابعين لليوناتوس بأن يفسحوا المجال على الجانبين، وذلك كــــي يـــسمحوا للمحـــاربين القدامى بالمرور. وبالفعل، فقد اندفعوا كالـــسيل ضـــد مرتزقة ممنون الذين كانوا قد أصيبوا بالإجهاد في تلك الأثـــناء. في هذا الوقت، كان ليوناتوس يحارب مثل أسدٍ ضد خصمه العملاق، وتردّدت أصداء ضرباهما في كل أنحاء السهل.

امـــتلك ليوناتوس خبرةً كبيرة بصفته مصارعاً، وتمكّن من خداع إفيالتـــيس، فأجبره فوراً على الركوع على ركبة واحدة. وخلال لحظةٍ واحدة، رفع المقدوني نفسه، وثبّت قدميه بحزم، ثم ضرب ظهر العملاق بفأسه ضربةً قويّة أردته قتيلاً.

تابع الجنود القتال مع اقتراب مغيب الشمس. لكنّ الإجهاد الناتج عـــن القتال والغضب الشديد المرافق له نالا منهم بشدة. إذ إنّ المرتزقة الإغـــريقيين كانـــوا قـــد خسروا قائدهم في هذا الوقت فاستنـــزفت طاقاهم، كما أن ضغط الهجوم العنيد الذي شنّه قدامى المحاربين التابعين لبارمينـــيون بـــدأ بإعطاء مفعوله. فبدأ الإغريقيون بالتراجع بكرامة في البداية، وما لبثوا أن هربوا من دون انتظام محاولين، ببساطة، أن يصلوا إلى بوابة ميلاسا، أو إلى البوابة الجانبية في القطاع الشمالي قرب البحر. خاف المدافعون عن المدينة بسبب ما شاهدوه، فأقدموا على إغلاق كل البوابات، وهو الأمر الذي أدى إلى هلاك عدد كبير من جنودهم تحت أســـوار المدينة، بالإضافة إلى قضاء رجال بارمينيون على الكثيرين منهم بعد اختراقهم صفوفهم.

وعـــندما أمـــر الإسكندر بنفخ الأبواق التي تعطي الأمر بإيقاف المعـــركة، كـــان بيرديكاس قد انتهى من تثبيت موقعه في ثغرة القطاع الـــشرقي، وكانـــت فرقة من الأغريانيين قد تسلقت الحصن الدائري

وأخلـــته مـــن المدافعين عنه. كما عمد جنود آخرون إلى تسلّق البرج الخشبـــي وصوبوا القاذفات والمنجنيقات نحو وسط المدينة.

أضيئت المشاعل، وأُضرمت النيران كي تحمي الجنود من هجمات العدو المضادة خلال الليل.

وسرعان ما وقعت هاليكارناسوس تحت رحمة قاهرها.

29

لم ينم الإسكندر في تلك الليلة لأن نتيجة المعركة التي خاضها مع ممنون بقيت غير مؤكدة حتى آخر لحظة. إذ شارف على الهزيمة والإذلال أكثر من مرة، ولذلك استحال عليه النوم مع كل هذه الأفكار التي تشغل باله.

أضاء رجاله المشاعل فوق الأسوار، لكنه انتظر حتى انبلاج فجر اليوم التالي من دون أن يتمكّن من الاسترخاء. بدا الأمر وكأن كل حواسه كانت متوترة ومتشنجة. كانت ليلة غاب عنها ضوء القمر، وخيّمت فيها الظلمة والصمت على المدينة برمّتها. وكانت النيران الوحيدة المشتعلة هي تلك الموجودة على الثغرة الكبيرة التي يحرسها جنوده، وتلك الموجودة فوق الحصن الحجري الذي احتله الأغريانيون، وتلك الموجودة عند قاعدة البرج الخشبي الكبير. كان من السهل رؤية المقدونيين بوضوح، بينما بقي أعداؤهم مختبئين عن الأنظار.

كم بقي منهم؟ وكم من الرجال المسلحين اختبأوا في الظلال؟ يُحتمل كثيراً أنهم كانوا يحضّرون لكمينٍ من نوعٍ ما، أو لعل ممنون كان يقبع منتظراً وصول الإمدادات عن طريق البحر.

شعر الملك عندما أصبح النصر في متناول يده أن القدر على وشك أن يغدر به مرة أخرى، وذلك لأن قائد العدو قد يعتمد على أسلوب عسكري جديد في اللحظة الأخيرة. كان ممنون أكبر سناً وأكثر خبرة، كما أنه تمكّن حتى الساعة من احتواء الإسكندر، ومن الردّ على كل ضربة بما يناسبها، كما تمكّن من استباق تحركاته.

في تلـــك الليلة، أصدر الإسكندر أوامره بإعدام أي شخصٍ يقدم علـــى احتساء الشراب، أو حتّى قطرة واحدة منه وسواء أكان المنتهك جندياً عادياً أو قائداً عسكرياً كبيراً. كما أمر بأن يظل الجميع مرتدين ملابسهم القتالية كاملة.

أخـــذت مجموعات قتالية بالتجوّل من باب إلى آخر حاملة معها مـــشاعل مضاءة، وسارت حتى البوابة الجانبية. كما بقي الرجال على اتصالٍ ببعضهم بواسطة إشارات صوتية. كان بيرديكاس الأكثر تيقظاً مـــن بين كل القادة. فلم يمنح الرجل نفسه لحظة استراحة واحدة بعد يـــومٍ طـــويل من القتال المستمر والمُتعب، وبعد أن اقتحم ألسنة النيران ووجّـــه إلى الأســـوار الآلات الحربيّة التي وجّهت الضربة القاضية إلى محاربـــي هاليكارناسوس. تنقّل من مركز حراسة إلى آخر، وراح يهزّ رجاله الذين استسلموا للنوم، وراح يشجّع جنوده الشبّان، ويحثّهم على التعويض عن أدائهم الضعيف بالمقارنة مع أداء الجنود المخضرمين الذين نجحـــوا بالرغم من كبر سنّهم، وتمكّنوا من انتزاع النصر من بين فكّي الهزيمة.

نظـــر إليه الإسكندر، ثم نظر إلى ليوناتوس الذي بدا مثل عملاقٍ وســـط الظلمة وهو يتّكئ على رمحه. وكذلك شاهد بطليموس الذي كـــان في تلـــك اللحظـــة بالذات يقوم بدورية في السهل على صهوة جـــواده، يـــرافقه فرسان آخرون من الحرّاس المستعدين لردّ أي هجوم محـــتمل من الخارج. رأى الإسكندر لايسيماخوس الذي انتصب واقفاً قـــرب المنجنـــيقات، بينما رأى على مسافة أبعد بارمينيون وهو يقف كالأسد العجوز بعد أن وقف في البداية بعيداً ليحافظ على قواه وقوى رجالـــه، منتظراً اللحظة المناسبة لإنـــزال الضربة القاضية بالعدو. كان هؤلاء الرجال بمثابة العمود الفقري لجيشه.

حاول الإسكندر البحث عن أفكار أخرى تلهيه قليلاً عن أفكاره المقلقـــة، وتسلّيه، وتبعده عن التفكير في الحرب وفي تعب المعارك. فكّر في ميزا وفي الغزلان التي ترعى على ضفاف النهر التي تغطيها الأزهار. فكّر كذلك في ديوجينيس العاري الذي لا بد من أنه يغفو الآن بسعادة مـــع كلـــبه الذي يشاركه طعامه والمكان الذي ينام فيه، قرب شاطئ البحـــر. قطعت أصوات الأمواج المتكسرة فوق الشاطئ المليء بالحصى أفكـــار الإسكندر المرتبطة بذلك الفيلسوف. تُرى، ما هي أحلام ذلك الرجل العجوز الحكيم عندما يشاهد الأمواج؟ وما هي أفكاره الغامضة تجاهها؟

فكّر كذلك في والدته، وتخيّلها جالسة في غرفتها المنعزلة تقرأ شعر **صـــافو**. وشعر بأن طفلاً صغيراً يسكن في أعماقه، وهو طفل قلقٌ يبدأ بالـــشعور بالخوف في الليل، ويرتعب عندما يسمع صوت طائر مرتفعاً يتردد في أرجاء السماء الخالية.

مرّ الوقت والإسكندر غارق في تأملاته التي بدت بلا نهاية. وقفز فجأة عندما وضع أحدهم يده على كتفه.

"هيفاستيون. أهذا أنت؟".

ناوله صديقه إناءً مليئاً بحساءٍ ساخن: "كُل شيئاً. أعدّته ليبتين لك وأرسلته إلى هنا مع أحد الجنود".

"ما هذا؟".

"إنه حساء الفاصولياء العريضة، كما أنني تذوقت ملعقة منه".

بدأ الإسكندر بتناول الحساء: "ليس سيئاً أبداً. هل أترك لك شيئاً منه؟".

أومـــأ هيفاستيون: "أي كما كنتَ تفعل في الماضي عندما كنا في منفانا في الجبال".

"هـــذا صـــحيح. لكن، لم يكن هناك أي حساءٍ ساخنٍ في تلك الأوقات".

"أنت على حق".

"أتشتاق إلى تلك الأيام؟".

"كلا... كلا، بالتأكيد لا. لكن التفكير فيها ليس بالأمر السيئ. كنّا معاً ضد العالم بأسره"، وضع يده على رأس الإسكندر وراح يمسّد لـــه شـــعره، "الأمور مختلفة الآن. أتساءل أحياناً عما إذا كانت تلك الأوقات ستعود مجدّداً".

"ماذا؟".

"عندما كنا نتنـــزه أنا وأنت وحدنا".

"مَن يدري يا صديقي؟".

انحـــنى هيفاســـتيون كـــي يحـــرّك النار بطرف سيفه، وما لبث الإسكندر أن لاحظ شيئاً يتدلى من عنق صديقه. كان شيئاً صغيراً التمع تحت ضوء ألسنة اللهب؛ سنّ الحليب التي كانت مغلفة بالذهب. تذكّر ذلـــك اليوم عندما كان ولداً وأعطى هيفاستيون السّن كرمز للصداقة الأبدية وكتذكار.

سأله هيفاستيون عندها: "حتى الموت؟".

فأجابه الإسكندر: "حتى الموت".

تناهـــى إلى سمعهمـــا نداء أحد الحراس وهو يرسل الإشارات إلى رفاقـــه المـــتواجدين إلى يمينه وإلى يساره، فتحرّك هيفاستيون كي يتابع جولاته.

مـــرّت فترة أخرى، وسُمعت نداءات نوبة الحرس الثانية، ولا بد من أن اللـــيل كـــان قد انتصف عندها. وبعد ذلك، سمع الإسكندر خطوات أقدامٍ تقترب منه، ففرك عينيه المتعبتين. كانت تلك خطوات إيومينيس.

جلس الأمين العام على مقعدٍ قريب منه، وحدّق إلى النار.

سأل الملك: "إلامَ تحدّق؟".

أجاب إيومينيس: "أحدّق إلى النار. لا أحب هذه النيران".

التفت الملك نحوه وتعابير الدهشة تملأ وجهه: "ما هو وجه الخطأ في هذه النيران؟".

"تهب ألسنة اللهب نحونا، أي أن الرياح قد غيّرت اتجاهها. إنها تهب من جهة البحر الآن".

"وهذا ما تفعله بالضبط في مثل هذا الوقت من كل ليلة".

"بالضبط. لكن الأمر مختلف هذه الليلة".

حدّق إليه الإسكندر، وسرعان ما قفزت فكرة مخيفة إلى ذهنه. وما هي إلاّ لحظات، حتّى ترددت في الأجواء صيحة إنذارٍ صادرة من جهة السيمين، وهو ما أكد الفكرة التي خطرت في ذهنه بشكلٍ مفاجئ. كانت ألسنة النيران محتدمةً في قاعدة أحد الأبراج الخشبية الكبيرة.

صاح إيومينيس وهو يشير إلى منزلٍ يقع أمامهما مباشرة على بعد مئة قدم أو نحوها: "هناك حريق آخر!".

تردّد صوت بيرديكاس من جهة اليسار: "النار! النار! إنذار!".

وصل لايسيماخوس وأنفاسه متقطعة نتيجة الركض: "إنهم يُزمعون على حرقنا أحياء! إنهم يُحرقون كل البيوت المحاذية للثغرة والجدار الحجري. إن البرج الخشبي يشتعل مثل مشعل... انظر!".

كان ممنون يلعب آخر ورقة يمسكها بيده معتمداً على اتجاه الريح الذي يناسب مقاصده. هبّ الإسكندر واقفاً: "بسرعة! يتعيّن علينا أن نمنعهم من إشعال نيرانٍ أخرى. أرسلوا جنود الهجوم، وحاملي الدروع، والتراقيين والأغريانيين. اقتلوا كل الذين يُشعلون النيران".

في هـذا الوقت، ركض كل رفاق الإسكندر نحوه كي يتسلموا أوامرهم، بمن فيهم سلوقس وفيلوتاس وليوناتوس وبطليموس.

صـاح الإسـكندر ليطغى صوته على صخب ألسنة اللهب التي كانت الرّياح تقذفها باتجاههم إلى مستويات أعلى: "أصغوا إليّ جيداً! أنـت يـا سلوقس، وأنت يا ليوناتوس، خذا نصف عدد *البيزيتاروي* واعـبرا مـن خلال المنطقة المشتعلة، ثم قوما بصفّ الجنود عند الجهة الأخـرى. إن مهمتكما هي منع أي هجوم مضاد. يتضح لي الآن أنهم يريدون استعادة السيطرة على منطقة الثغرة.

وأنـتما يـا بطليموس وفيلوتاس، قوما بصفّ الجنود الباقين وراء الثغـرة، وعيّـنا حراساً على كل البوابات! لا أريد أي مفاجآت من الخلف. وأنت يا لايسيماخوس، أريدك أن تنقل القاذفات والمنجنيقات مـن هـنا قـبل أن يلحق بها الدمار عندما ينهار البرج! اذهبوا الآن! تحركوا!".

غلّفـت الـنيران البرج الخشبـي بالكامل، وما لبثت الرياح أن دفعـت ألـسنة اللهب نحو الجهة الشرقية من الثغرة. كانت الحرارة لا تطـاق، وانتـشر وهج النيران فوق منطقة واسعة حول الأسوار بحيث تمكّن الرماة الأغريانيون من رؤية جنود هاليكارناسوس الذين يشعلون الـنيران، وبالـتالي، من إصابتهم بسهولة. وبعد وقت قليل، التهمت الـنيران دعائم القاعدة، وما لبث ذلك الهيكل الضخم أن سقط محدثاً صوتاً قوياً، وارتفع عمود دخان على مسافة ثلاثمئة قدم، أي إلى مسافة أعلى من البرج، وأعلى من أي مبنى في المدينة بكاملها.

اضـطرّ الإسـكندر إلى التخلي عن نقطة مراقبته بسبب الحرارة الشديدة، لكنه تمركز على البرج التالي، أي قرب البوابة الجانبية حيث اسـتطاع أن يرى بشكل واضح المنطقة التي يراقبها. ومن هناك، أرسل

الإســـكندر جـــنوده إلى مختلف القطاعات، وتلقى الأخبار منهم عن تطورات الوضع.

أمـــر الإسكندر لايسيماخوس بأن يستخدم المنجنيقات من أجل تدمير المنازل الموجودة قرب تلك التي تشتعل فيها النيران بهدف احتواء الـــنار. ومـــا لبث وابلٌ من الحجارة الكبيرة أن انطلق على الفور من الآلات الحربيّة؛ الأمر الذي ساهم في ازدياد الضجيج والفوضى اللذين ميّزا هذه الليلة الملتهبة.

أثبـــتت الخطـــوات المضادة التي اتخذها الإسكندر بأنها خطواتٌ صـــائبة. فقد نجح جنود الهجوم، والعمليات التي قام بها الأغريانيون في وضع حدٍّ للنيران، بينما اصطفّ المشاة المسلحون تسليحاً ثقيلاً في الجهة الأخـــرى مـــن المنطقة المحترقة، وهو الأمر الذي أفلح في إقناع الفرس والمرتـــزقة بعدم القيام بأي محاولة لمفاجأة جنود الجيش المقدوني الذين كانوا متعبين ومذهولين نتيجة أصوات النيران المرتفعة.

اســـتدعى إيومينيس عدداً كبيراً من العمال من المعسكر، وأمرهم بوضع التراب والرمال والركام على النيران التي كانت لا تزال مشتعلة. وهكـــذا، تمكّن هؤلاء من السيطرة على النيران تدريجياً. وتحوّل البرج الخـــشبـــي الذي ساهم كثيراً في الأعمال الحربية إلى كومةٍ كبيرةٍ من الـــرماد والجمـــر، وبرزت من هذه الكومة الدعائم الخشبيّة الضخمة المتفحمة والمحترقة.

بعد طلوع الفجر، سطعت أشعة الشمس على العربة الذهبية التي تجـــرها الجياد الأربعة والمنصوبة فوق سطح مبنى المدافن الكبيرة، بينما كـــان معظم أجزاء المدينة غارقاً في الظلمة. ظهر قرص الشمس ببطء وبـــشكل تدريجـــيّ فـــوق الجبال، وما لبث أن هبط مخروط من أشعة الشمس فوق الهرم المدرّج الكبير وأضاء النقوش المزخرفة متعددة الألوان

الـــتي صنعها سكوباس وبرياكسيس، وأضاء الرواق الكورينثي المعمّد، والقطـــع الذهبية المزخرفة، والأعمدة المزخرفة بخطوط من الذهب على خلفـــية أرجوانـــية. وســـيطر صـــمتٌ مخـــيفٌ، ومقلقٌ فعلاً، على هاليكارناسوس وسط هذا الخليط من الألوان. أيُعقل أن تمتنع الأمهات في المدينة عن البكاء حزناً على أبنائهن الذين سقطوا في المعركة؟

ســـأل الإســـكندر إيومينـــيس الذي اقترب منه في هذه اللحظة بالذات: "أيُعقل هذا؟".

أجـــاب الأمـــين العام: "إنه ممكن، فليس هناك أحد يبكي على جندي من المرتزقة، وهو الذي ليس لديه أم أو ولد أو صديق. إن كل ما يمتلكه هو رمحه؛ الأداة التي يكتسب بها خبز يومه، وهو أمرٌّ خبز من بين كل خبز الدنيا".

30

ركض بطليموس إلى أن أصبح إلى جانبه ثم قال: "أيّها الإسكندر، إننا ننتظر أوامرك".

"خذ بيرديكاس ولايسيماخوس، وتقاسما جنود الهجوم وحاملي الرماح في ما بينكم. فتّشوا المدينة بكاملها. سيتبعكم المشاة اليونانيون المسلّحون تسليحاً ثقيلاً، وجنود *البيزيتاروي* لتعزيز قواتكم. يتعيّن عليكم أن تدفعوا كل الرجال المسلحين الذين بقوا على قيد الحياة لخوض معركة، وابحثوا قبل كل شيء عن ممنون. لا أريد إنزال الأذى به، وإذا وجدتموه، أحضروه إليّ".

قال بطليموس قبل أن ينصرف لإبلاغ رفاقه بهذه الأوامر: "سنفعل كما أمرتنا".

وانتظر الملك تحت سقيفة ملجأ صغير يقع قرب الأسوار، تمكن من خلاله الإسكندر من الحصول على منظرٍ معقول لهاليكارناسوس. وبعد وقتٍ قصير، بعث إليه بطليموس برسالةٍ مفادها:

> لجأ المرزبان أورونتوبات، والطاغية بيكسوداروس، والحامية الفارسية إلى الحصنين الموجودين على الشاطئ. إنهما موقعان حصينان ولا يمكننا تقريب آلات الحصار منهما. لم نعثر على أثرٍ لممنون حتى الآن. إنني أنتظر أوامرك.

أمر الإسكندر بإحضار بوسيفالاس إليه، ثم سار على صهوة جواده في شوارع المدينة. كانت كل الأبواب والنوافذ مغلقةً بإحكام، وكان سكان المدينة مرتعبين، لذلك حبسوا أنفسهم داخل منازلهم.

تـــوجّه علـــى الفور إلى بيرديكاس بعد أن رأى الحصنين اللذين يحميان مدخل الميناء.

"ماذا سنفعل أيّها الإسكندر؟".

تفحّص الملك الحصنين، ثم عاد ونظر إلى الأسوار.

"أريــــد منكم أن تهدموا كل البيوت المشيّدة في الجهة اليسرى من الطريق المؤدية إلى هنا، واهدموا بعد ذلك كل المنازل في منطقة الميناء. وهكـــذا، ســـنتمكن مـــن جلب آلات الحصار، ومن تركيزها قرب الحصنين. يجب أن يفهم الفرس أنهم لن يجدوا أسواراً أو معاقل تحميهم في المـــنطقة كلّها. أريدهم أن يفهموا أنه يتعيّن عليهم أن يغادروا الآن، وألاّ يعودوا أبداً".

أومأ بيرديكاس، وقفز على صهوة جواده، ثمّ سار به حتى المنطقة الـــتي ســـوّيت بالأرض في الليلة الفائتة، وذلك من أجل جمع العمال والهـــدّامين، أو علـــى الأقل أولئك الذين ما زالوا في حالة تسمح لهم بالعمـــل. وتعـــيّن علـــيه أن يوقظهم بأصوات الأبواق لأنهم ناموا في أماكنهم عندما انتهى عمل الليل المرهق.

تمكّن رئيس المهندسين، وهو مواطن تيسالي يُدعى ديادیس، من نـــــزع المنـــصّتين العلويـــتين لأحد أبراج الحصار، وذلك بهدف اســـتخدامهما كدعامتين للآلتين اللتين ستهدمان البيوت الموجودة قرب المرفأ. ودعا إيومينيس بعض المنادين كي ينظموا عملية إخلاء البيوت.

بـــدأ الناس بالخروج من منازلهم عندما أدركوا عدم حدوث أيّ مجـــازر، أو عمليات اغتصاب، أو عمليات نهب. خرج الأطفال أولاً، وهـــم الذين شعروا بفضولٍ يدفعهم لمعرفة طبيعة الحركة التي جرت في المدينة. ثم خرجت النساء بعد ذلك، وفي النهاية خرج الرجال.

تبـــيّن أن عملـــيات الهدم كانت أكبر مما توقع الإسكندر، ويعود الـــسبب في ذلك إلى أن بيوتاً كثيرةً قد بُنيت فوق بعضها، أي عندما كـــان يُهـــدم أحد الجدران كانت جدرانٌ أخرى تتهاوى. وقيل بعد ذلـــك - لهـــذا الـــسبب - إن الإســـكندر قـــد سوّى كل منازل هاليكارناسوس بالأرض.

تمكّـــن العمال في غضون أربعة أيام من تمهيد مساحةٍ واسعة من الأرض تسمح بإحضار آلات الحصار للعمل على هدم الحصنين. لكن، في تلك الليلة نفسها، أقدم ممنون وأورونتوبات وبيكسوداروس، وعددٌ آخر من الجنود على ركوب بعض السفن الراسية في الميناء، والإبحار بها بعـــيداً للانضمام إلى القسم الأعظم من الأسطول الفارسي الموجود في الشمال في مياه كيوس.

أمـــا الجـــنود المرتزقة من الإغريق الذين بقوا على قيد الحياة فقد احتموا في الأكروبوليس الذي كان منيعاً حقاً بسبب موقعه المرتفع.

لم يرغب الإسكندر في هدر مزيد من الوقت في ملاحقتهم هناك، وذلـــك لأنّ قواته كانت تحاصرهم على أيّ حال. لذا، أمر الإسكندر بحفـــر خـــندق حول ذلك الحصن، بإبقاء الموقع تحت مسؤولية بعض صغار ضباطه بانتظار استسلام المرتزقة.

بعد ذلك، دعا الإسكندر إلى اجتماعٍ لقيادته العليا عُقد في قاعة مجلـــس المديـــنة. حضر كاليستين ذلك الاجتماع بعد أن تم قبول طلبه بالحـــضور. وحـــضر في أثـــناء عقـــد هذا الاجتماع وفدٌ من أهالي هاليكارناسوس مؤلف من وجهاء المدينة الذين أرادوا مقابلة الملك.

قال الإسكندر: "لا أرغب في استقبالهم، لأنني لا أثق بهم".

ردّ بارمينـــيون: "لكن هناك قرارات لا بد من اتخاذها، وهي تلك المتعلّقة بالتركيبة السياسية لمدينةٍ في غاية الأهمية".

قـــال كاليستين: "يمكنك أن تُدخل النظام الديمقراطي مثل ذلك الذي أدخلتَه في إفيسوس".

علّـــق بطليموس ساخراً: "بالفعل، لأن ذلك سيُبقي العم أرسطو سعيداً. ألا تظن ذلك؟".

سأل كاليستين الذي بدا منـــزعجاً قليلاً: "وما هو وجه الخطأ في ذلك؟ إن الديمقراطية هي أعدل الأنظمة، وأكثرها توازناً لحكم مدينة. وهذا النظام يوفّر أكبر ضمانة...".

فقاطعه بطليموس قبل أن يُكمل جملته: "لكنّ هؤلاء الناس أتعبونا كثيراً، وخسرنا بسببهم عدداً كبيراً من الرجال. إنّ عدد الرجال الذين خسرناهم فوق هذه الأسوار يفوق ما خسرناه في غرانيكوس، ولو كان الأمر يعود إليّ...".

صـــاح ليوناتوس: "بطليموس على حق! يجب عليهم أن يدركوا الجهة التي تُصدر الأوامر الآن، كما يتعيّن عليهم أن يدفعوا ثمن الأضرار التي ألحقوها بنا".

كان يُمكن لهذا النقاش أن يتحوّل إلى فوضى، لكنّ إيومينيس سمع في تلك اللحظة بالذات حركةً خارج الباب، لذلك نهض كي يستطلع الأمر. ثم عاد إلى الإسكندر، وهمس شيئاً في أذنه، فابتسم الملك وهبّ واقفاً.

ســـأل الملك بصوت عالٍ: "هل يرغب أحد منكم في تناول قطعة من الحلوى؟". لم يُسفر هذا السؤال عن تهدئة الجميع فقط، بل جعلهم ينظرون إلى بعضهم بدهشة.

كـــسر ليوناتوس الصمت بشكلٍ مفاجئ: "هل تمزح؟ يمكنني أن آكـــل فخذ ثور بكامله، وليس قطعة حلوى فقط. لكنني أتساءل عن الشخص الذي تخطر في ذهنه هذه الفكرة الغريبة، أي إحضار الحلوى لنا في هذا الوقت، و...".

فُتح الباب، وما لبثت الملكة آدا - والدة الإسكندر بالتبني - أن دخلت مرتدية ملابسها الملكية كاملة، ودخلت وراءها مجموعة من الطهاة الذين يحملون صوانيَ كبيرة مليئة بقطع الحلوى الساخنة. فغر ليوناتوس فاه عندما رأى هذا المنظر، لكنّ إيومينيس تناول قطعة من الحلوى، ودفعها إلى فمه.

"كُل واسكُت!".

وقف الإسكندر ساكناً، ثم تحرّك ليسلّم عليها قائلاً: "والدتي العزيزة، كيف حالك؟ أحضروا كرسياً للملكة على وجه السرعة. لكن، ما هذه المفاجأة السّارة! لم أتوقع أبداً أن أراكِ في هذا الوقت".

أجابت آدا بلهجة تحمل في طياتها بعض المزاح: "ظننت أنك ستتلذذ بتناول بعض قطع الحلوى بعد كل ما مرّ بك من محن. وجئت كذلك كي أتأكد من أنك لا تعامِل مدينتي بقسوة كبيرة".

تناول الملك قطعة من الحلوى وبدأ بمضغها: "إنها ممتازة يا أمي. ولقد ارتكبت حماقة عندما أرجعتها في المرة الماضية. أما بالنسبة إلى مدينتك، فإننا نناقش أوضاعها في الوقت الحاضر. ولكن، بما أنك هنا فإنني أعلم ما يتوجب علينا فعله بالضبط".

سألت آدا: "وما عسى أن يكون ذلك؟". كان كاليستين على وشك أن يطرح السؤال ذاته، لكن فكّه تدلى وعجز تماماً عن الكلام عندما سمع الإسكندر يجيب: "سنعيّنك مرزباناً لكاريا مكان أورونتوبات، وستتمتعين بكامل الصلاحيات في هاليكارناسوس وما يحيط بها من مناطق. وسيتأكد قادتي من إخضاع كل هذه المناطق لتصبح تحت سيطرتنا".

تمكّن كاليستين من هزّ رأسه، وكأنه يريد أن يقول يا *للجنون*، لكن الملكة تأثرت بكلمات الإسكندر وقالت: "لكن، يا بنيّ، لا أعرف إذا...".

قاطعهـــا الإسكندر بقوله: "لكنني أعرف أنك ستكونين حاكمةً ممتازة، وأعرف أنني أستطيع الوثوق بك كلياً".

ثم طلب إليها الإسكندر الجلوس على عرشه الخاص، والتفت إلى إيومينـــيس: "يمكـــنك الآن أن تُدخل وفد المدينة. إذ يحق لهم الآن أن يعرفوا هوية الشخص الذي سيحكمهم بدءاً من يوم غدٍ فصاعداً".

كانـــت عمليات التفتيش ما زالت جاريةً عندما أُعلن عن وصول آبيل. وسارع الرّسام البارع إلى إعلان ولائه للملك الشاب، كما أراد أن يقدّم اقتراحاً إليه.

"مـــولاي، أعـــتقد أن الوقت قد حان كي تُرسَم كما تستحق بالفعل، أي كأحد *الأسياد*".

بذل الإسكندر مجهوداً كبيراً كي لا ينفجر ضاحكاً: "أتعتقد ذلك حقاً؟".

"إنـــي لا أشك في ذلك. كنت متأكداً بالفعل من إحرازك النصر هـــنا بحـــيث حضّرت لك رسماً صغيراً. ولهذا، أطلب الإذن كي أريك إيـــاه. أنت تعرف بالطبع أن الرسم النهائي سيكون مختلفاً تماماً عندما يظهر في لوحة طولها عشرون قدماً وعرضها عشر أقدام".

قـــال لـــيوناتوس مـــردّداً: "طولها عشرون قدماً وعرضها عشر أقـــدام؟". وافتـــرض ليوناتوس بكل ثقة أن استخدام كل هذا الخشب والطلاء لرسم شاب معتدل القامة مثل الإسكندر نوعٌ من الهدر.

نظـــر إلـــيه آبيل باستياء، لأنه كان بالنسبة إليه مجرد بربري غير مـــثقف لـــيس أكثر، بشعره الأحمر، وبشرته المليئة بالنمش. ثم التفت الرسام العظيم نحو الإسكندر وقال: "مولاي. إن اقتراحي يصبح منطقياً أكثـــر إذا تذكرتَ أن رعاياك من الآسيويين معتادون على أن يحكمهم

أشخاص متفوقون، وملوك يعتبرون أنفسهم أسياداً، ويظهرون أنفسهم هكـــذا. لهذا السبب، أشعر أنه يتوجب عليّ أن أرسمك كزيوس. أي بوجود النسر عند قدميك، والصاعقة بيدك اليمنى".

قـــال إيومينـــيس الذي دخل بصحبة ليوناتوس، وكان ينظر إلى الرســـم الذي خطّته يد الفنان: "آبيل على حق. اعتاد الآسيويون على التفكير في أن حكامهم هم كائنات فوق مستوى البشر، وهكذا يجب أن يروك".

سأل الإسكندر: "كم سيكلفني هذا التبجيل؟".

هزّ الرسام كتفيه: "أعتقد أنها تكلّفك تالنتين اثنين...".

"تالنتين؟ لكن يا صديقي أستطيع أن أدفع تالنتين ثمن كميات من الخبز والزيتون والسمك المملح، والتي تكفي رجالي مدّة شهر تقريباً".

"مولاي، لا أعتقد أن اعتبارات كهذه تهم ملكاً عظيماً".

قاطعـــه إيومينيس بالقول: "أجل، إنها لا تهم ملكاً عظيماً، لكنها تهـــمّ أمين الدولة. لأن الجنود يضعون اللوم عليّ إذا لم يجدوا كميات كافية من الطعام، أو إذا كانت نوعية الطعام رديئة".

نظر الإسكندر إلى آبيل أولاً، ثم نظر إلى إيومينيس، وما لبث أن نظـــر إلى الرســـم، ثم نظر مجدّداً إلى آبيل وقال: "عليّ أن أعترف مع ذلك...".

"أليـــست جميلة؟ لكن عليك أن تتصورها وهي بحجمها الكامل، وبألـــوانها الخلابـــة، وتصوّر تلك الصاعقة التي تُعمي الأبصار في أثناء انطلاقها من يدك. من سيجرؤ على تحدي *سيد* شاب مثل هذا؟".

في تلـــك اللحظـــة، دخلـــت بانكاســـب وسارت مباشرة نحو الإســـكندر، وعانقـــته ثم قبّلته. حيّته وهي تحدّق إلى عينيه: "سيدي". واحتضنته بحيث تمكّن من الإحساس بها.

أجاب الإسكندر بكل تحفظ: "يا فتاتي العزيزة... إنه لمن دواعي سروري دائماً أن أراكِ مجدداً".

همست في أذنه بحيث لامس طرف لساها الرّطب أذنه: "إن السرور ملكك متى تطلبه".

التفت الملك ثانية نحو آبيل كي يضع حداً لهذا الوضع المحرج: "أريد أن أفكّر أكثر في الأمر. إنه مبلغ كبير، وعلى أيّ حال سأراك عند العشاء".

غادر الرّسام ورفيقته غير المتمنّعة الغرفة في اللحظة التي دخل فيها بطليموس، وفيلوتاس، وبيرديكاس، وسلوقس، وكانوا جميعاً متلهفين لمعرفة نوايا الإسكندر في تلك اللحظة.

دعاهم الملك إلى الجلوس حوله قرب الطاولة التي نشر عليها خريطة: "إننا هنا الآن... وهذه هي خطتي: يجب تفكيك آلات الحصار لتنقل بواسطة العربات إلى تراليس، لأن بارمينيون الذي سيزحف نحو المناطق الداخلية من أجل ضمان إخضاع كل الأراضي الواقعة بمحاذاة وادي ميندر وهيرموس سيحتاج إلى هذه الأدوات إذا قررت إحدى المدن أن تقاوم".

سأل بطليموس: "وماذا بشأننا نحن؟".

"ستأتون معي، لأننا سنتحرّك عبر ليشيا نزولاً نحو الساحل، وسنصل حتى بامفيليا". وأشار في أثناء كلامه إلى الطريق التي ينوي أن يسلكها.

نظر إليه إيومينيس، ثم تفحص وجوه رفاقه، وأدرك أن أياً منهم لم يفهم طبيعة هذه المهمة.

"أتريد حقاً أن تسلك تلك الطريق؟".

أجاب الإسكندر: "أجل".

"لكنها ليست سالكة من هناك. كما أنه لم يسبق لأيّ جيش أن حاول السير فوق تلك الحجارة والصخور التي تُشرف على البحر. ومن المؤكد أنّه لن يحاول أحدٌ عبورها في الخريف، أو في الشتاء".

فأجاب الإسكندر: "أعرف ذلك".

31

تلقـــى آبيل في نهاية الأمر التكليف برسم لوحة الإسكندر، ولكن مقابـــل نصف القيمة التي طلبها في البداية. وحدث ذلك بفضل عملية الـــتفاوض الشاقة التي قام بها إيومينيس، وهو الذي أراد في واقع الأمر، أن يدفـــع له أقل من ذلك المبلغ. على أيّ حال، بدأ الفنان عمله على الفـــور في مرسم خاص أقامته له الملكة آدا، والذي لم يكن يبعد كثيراً عن الآجورا، أو الساحة العامة. لم يتوافر للملك الوقت الكافي للجلوس أمام الفنان كي يرسمه، ولذلك اضطر هذا الأخير إلى رسمه خلال أوقات تـــناول الطعـــام، أو خلال الحفلات التي كانت تعقب المآدب. وهي الحفـــلات الـــتي كان يحييها تيسالوس، الممثل المفضّل لدى الإسكندر، بالإضـــافة إلى بعـــض الحفلات الموسيقية. علّق آبيل الرسومات على جدران المرسم، وقام بإلباس نموذج ليبدو مثل الملك، ثم بدأ بالعمل.

لم تـــسنح الفرصة للإسكندر لتأمل اللوحة والإعجاب بها عندما أتمهـــا آبيل، وذلك لأنه كان بعيداً جداً. لكنّ أولئك الذين شاهدوها اتفقوا على أنها جميلة، حتى ولو كانت ملامح الملك تبدو داكنةً قليلاً. ومـــع ذلـــك، بـــدا أن الفنان قد تعمّد هذا الأمر ليبدو بوضوح لون الصّاعقة الأبيض الناصع.

وقبل مغادرته، تحدث الملك إلى بارمينيون على انفراد، وذلك في إحدى غرف قصر آدا.

عـــند دخـــوله الغرفة، رحّب الإسكندر بالقائد العجوز، وقدّم إليه كوباً من الشراب. كما أن بارمينيون قبّل ملكه على خدّيه قبل جلوسه.

سأله الملك: "كيف حالك أيها القائد؟".

"إنني بخير يا مولاي. وكيف حالك أنت؟".

"إنـــني بحـــالٍ أفضل الآن بعد أن استولينا على هاليكارناسوس. ويعـــود قـــسم كبير من الفضل إليك وإلى جنودك المخضرمين. كان دعمك لنا حاسماً".

"إنّ ما تقوله يشرّفني. إنني لا أفعل أكثر من تنفيذ أوامرك".

"سأطلب منك الآن تنفيذ أمرٍ آخر".

"أنا في خدمتك يا مولاي".

"خذ الفرسان التيساليين، وسرية من فرسان *الهيتايروي*، وحلفاءنا مـــن المـــشاة اليونانيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وعُد بهم إلى سارديس برفقة إمينتاس".

أشرقَ وجه بارمينيون: "هل سنعود إلى الوطن يا مولاي؟".

هـــزّ الإسكندر رأسه، وبدا أنه تضايق من جواب بارمينيون. وما لـــبث القائد العجوز أن طأطأ رأسه وقد شعر بالإهانة بسبب تفسيره المتسرّع لكلمات الملك.

"كـــلا يا بارمينيون. إننا لن نعود إلى الوطن، بل سنقوم بتجميع قواتـــنا قبل التقدم إلى الأمام. تعال وانظر إلى هذه الخريطة. ستعود إلى وادي هيرموس كي تسيطر على فريجيا بالكامل. وستأخذ معك أدوات الحصار، وذلك تحسباً من مقاومة إحدى المدن.

"أمـــا بالنسبة إليّ، فسأتابع التقدّم بمحاذاة الساحل حتى أصل إلى تيرميسوس. وبهذه الطريقة سأنجح في عزل الأسطول الفارسي عن كل الموانئ المتواجدة على سواحل بحر إيجة".

لاحـــظ الإسكندر شيئاً من التوتر في لهجة القائد العجوز عندما قال: "أتعتقد ذلك حقاً؟ تلقيت معلومات تفيد بأن ممنون يجنّد المزيد من

الــــرجال في كـــيوس، كما يستعدّ للإبحار إلى إيوبويا، ومن هناك يريد الـــتوجه إلى بلاد آتيكي، وبعد ذلك إلى وسط اليونان من أجل تشجيع السكّان على التمرد ضدنا".

"أنا على علمٍ بكل ذلك".

"ألا تظن أنه يتعيّن علينا الرجوع إلى الوطن كي نواجه هذا الخطر الداهم؟ يُضاف إلى ذلك أن الشتاء لم يعد بعيداً و...".

"يستطيع أنتيباتر أن يواجه الوضع. إنه حاكمٌ متعقل وقائد ممتاز".

"بالطبع يا مولاي. إنني لا أشك في ذلك. إذاً، مهمتي هي احتلال جميع مناطق فريجيا".

"بالضبط".

"وماذا بعد ذلك؟".

"قلـــت لـــك إنـــه في هذا الوقت سأتحرك بمحاذاة الساحل نحو تيرميـــسوس، وبعـــد ذلـــك، سألتف شمالاً نحو آنكيرا، حيث سنلتقي هناك".

"هل تزمع على الزحف بمحاذاة الساحل نحو تيرميسوس؟ أتعلم أن الطـــريق تـــتحول على طول عدة ستاديات، إلى ممرٍّ ضيقٍ وخطرٍ جداً بسبب الصخور المرتفعة. ولم يسبق لأي جيش أن تجرأ على سلوك تلك الطريق".

سكب الإسكندر المزيد من الشراب، وارتشف بضع جرعات ثم قال:

"أعرف ذلك. قالوا لي ذلك".

"يُـــضاف إلى ذلـــك أن آنكيرا تقع في منطقةٍ جبلية، وفي وسط الهضبة. وعندما نصل إليها سنكون في منتصف فصل الشتاء".

"أجل، في منتصف فصل الشتاء".

تـــنهّد بارمينيون: "حسناً، إذا كان لا بد من هذا الأمر، فسأنصرف كي أتحضّر للانطلاق. أعتقد أنه ليس لديّ الكثير من الوقت".

أجـــاب الإســـكندر: "كـــلا. في الواقع، ليس لديك متّسع من الوقت".

أفـــرغ بارمينيون كوبه ووقف، ثم استأذن للانصراف بأن أحنى رأسه قليلاً ثم بدأ بالسير نحو الباب.

"أيها القائد".

توقف بارمينيون والتفت إليه قائلاً: "نعم يا مولاي".

"انتبه إلى نفسك".

"سأحاول".

"سأفتقد إلى نصائحك وخبرتك".

"سأشتاق إليك بدوري يا مولاي".

غادر القائد ثم أغلق الباب وراءه.

وعاد الإسكندر إلى خريطته كي يدرس الطريق التي ينوي اتّباعها. ولكـــن، لم يطل به الأمر حتى سمع أصواتاً قلقة صادرة من وراء الباب، ثم سمـــع صـــوت أحد الحراس وهو يصرخ: "لا أستطيع إزعاج الملك بتفاهات كهذه".

ففتح الملك الباب وسأل: "عمّ تتكلم؟".

كـــان أحد شبان *البيزيتاروي* واقفاً هناك، وكان من الواضح أنه جندي عادي لأنه لا يحمل أيّ شارات تدل على رتبته.

سأل الملك: "ماذا تريد؟".

قاطعه الحارس: "لكن، لا تضيّع وقتك يا مولاي مع هذا الشاب. تقتـــصر مشكلته على أنه يشعر بالشوق إلى زوجته، ويريد تمضية بعض الوقت معها".

قال الإسكندر مبتسماً قبل أن يسأل الجندي: "يبدو ذلك منطقياً بالنسبة إليّ. ما اسمك؟".

"اسمي إيوديموس يا مولاي، وأنا من درابيسكوس".

"هل أنت متزوج؟".

"مـــولاي، تـــزوّجت قبل وقت قصير من انطلاقنا من مقدونيا. أمـــضيت أسبوعين مع زوجتي و لم أرها منذ ذلك الحين. ولقد سمعت لتوي أننا لن نعود إلى مقدونيا، بل سننطلق شرقاً. فهل هذا صحيح؟".

فكّر الإسكندر لدقيقة في قوة أنظمة المعلومات بين جنوده، لكنه قرّر بسرعة أن ذلك ليس مفاجئاً. وأجاب: "أجل، هذا صحيح".

فطأطأ الجندي الشاب رأسه مذعناً.

"لا يبدو عليك أنك حريص على اتباع ملكك ورفاقك".

"ليس الأمر هكذا يا مولاي. بل فقط إنني...".

"هل استفاقت مشاعرك الجياشة تجاه زوجتك".

"في الواقع، ... أجل، يوجد الكثيرون هنا مثلي. أرادت عائلاتنا أن نتـــزوج، وأن نترك ورثة لنا في حال... إذ لا يبدو أي شيء أكيداً عندما يكون المرء في الحرب".

ابتـــسم الإســـكندر قائلاً: "لا حاجة إلى قول المزيد. فأنا أيضاً نصحت بأن أتزوّج. ولكن إحدى المزايا القليلة لكون المرء ملكاً هي أنه لا يتزوج إلا حين يريد. كم عددكم هناك؟".

"ستمئة وثلاثة وتسعون".

صاح الملك: "لقد تنبهت إلى كل التفاصيل!".

"حـــسناً، أجـــل... اعتقدنا أنه بما أن الشتاء قادم، فلن تقع أيّ معارك، ولذلك أردنا أن نطلب منك...".

"الإذن للعودة إلى زوجاتكم".

تـــشجع الجندي بسبب الصراحة التي أبداها الملك، وقال معترفاً: "هذا هو الواقع بالضبط يا مولاي".

"هل اختارك رفاقك كي تتكلم بالنيابة عنهم؟".

"أجل".

"ولماذا؟".

"لأنه...".

"تكلّم بصراحة من فضلك".

"لأنني كنت أول جندي يعبر الثغرة عندما انهار الجدار، ولم أقفز من برج الحصار المحترق إلا بعد أن دمّرته آلات الحصار".

"ذكـــر لي بيرديكاس أن جندياً قام بهذا العمل، لكنه لم يذكر لي اسمه. إنني فخور بك، وسعيد لأنني التقيتك شخصياً يا إيوديموس، وأنا ســعيد لأنـــني سأمنحك ما طلبتَه أنت ورفاقك. سيحصل كل واحد منكم على مئة سيزيكو، وعلى فرصة شهرين".

تأثّــر الجـــندي كـــثيراً، واغـــرورقت عيـــناه بالدموع، وقال متلعثماً: "مولاي، إنني... فعلاً...".

"ولكن، لديّ شرط واحد".

"لك ما تريده يا مولاي".

"أريد منكم أن تحضروا إليّ محاربين جدداً عندما تعودون. أريد أن يجلب الواحد منكم مئة رجل، سواء أكانوا من المشاة أو من الفرسان. فلا فرق عندي".

"أعدك. يمكنك أن تعتبرهم منذ الآن بين صفوف جنودك".

"يمكنك أن تنصرف الآن".

احتار الجندي في كيفية شكر الإسكندر، فوقف جامداً في مكانه.

"حسناً؟ ألم تكن مستميتاً للعودة إلى منـــزلك وإلى زوجتك؟".

"أجل. لكن، أردت أن أقول لك... أردت أن أقول فقط...".

ابتســـم الإســـكندر، وأشـــار إليه أن ينتظر قليلاً. ثم توجّه إلى صندوق، وتناول منه قلادة ذهبية تحتوي على حجر منقوش يحمل رسم آرتميس وأعطاه إيّاها.

"إنها حامية العرائس والأمهات. أعطِ زوجتك إيّاها، وقل لها إنها هدية مني".

أراد الجندي أن يتحدث، لكن الكلمات جمُدت في حلقه بحيث لم يـــتمكن من التفوه بها. وكل ما استطاع التفوه به بصوتٍ مرتعش هو: "شكراً يا مولاي".

32

في بداية فصل الخريف، غادر الشبّان البالغ عددهم ستمئة وثلاثة وتسعين شاباً، والذين عبّروا عن رغبتهم في الانضمام إلى زوجاتهم، وذلك في بداية رحلة عودتهم إلى مقدونيا التي سيمضون فيها فصل الشتاء. وبعد وقت قصير، انطلق بارمينيون برفقة عددٍ من جيشه والفرسان التيساليين. وأعطى الملك - بعد أن تشاورَ مع القائد العجوز - قيادة الفرسان التيساليين إلى ابن عمه إمينتاس، وهو الذي أظهر شجاعة وإخلاصاً عظيمين على الدوام. وكان الأسود، وفيلوتاس، وكراتيروس أعضاءً من هذه المجموعة أيضاً.

وبعد ذلك، عقد الإسكندر اجتماعاً مغلقاً مع سلوقس، وبطليموس، وإيومينيس، ودعاهم لتناول العشاء معه.

أراد الإسكندر أن يتجنب إثارة الغيرة، لذلك أوكل إلى رفاقه الآخرين، بمن فيهم هيفاستيون، مهمات في المنطقة المجاورة. وأوحى إلى الثلاثة الآخرين بأن دعوهم إلى هذا الاجتماع في المعسكر إنما جاءت عن طريق الصدفة. لكن الموضوع الذي فتحه الإسكندر لم يترك لديهم أي شك في أن الملك أراد الاعتماد على ذكائهم أكثر مما أراد الاعتماد على مهاراتهم الجسدية.

ولم يُسمح حتى للخدم بحضور الاجتماع، باستثناء ليبتين التي أحضرت لهم الطعام في أثناء تحلّقهم حول الطاولة، أي مثلما كانت تفعل في الأيام التي كانوا يحضرون فيها دروس أرسطو في مييزا.

"أعلمـــني مخبرونا أن ممنون قد تلقى مبلغاً ضخماً من المال أرسله إليه الملك العظيم. نُقل هذا المبلغ عن طريق البحر، وكانت تلك عملية خطرة للغاية. يريد ممنون استخدام هذا المبلغ من أجل تجنيد ما يزيد عن مـــئة ألف رجل، وهو جيش يريد استخدامه كي يغزو به اليونان. لكنّ الأمـــر الأهـــم مـــن كـــل ذلك ربما، هو أنه بدأ بتوزيع الهدايا على الشخـــصيات النافذة في كل المدن اليونانية. وسبق للقائد بارمينيون أن أبدى رأيه...".

قال سلوقس مخمناً: "بأنه يتعيّن علينا أن نعود إلى البلاد...".

ردّ الإسكندر: "هذا صحيح".

بـــدأت ليبـــتين بـــتقديم طعام العشاء الذي كان مؤلفاً من سمكٍ مـــشوي مع الفاصولياء، والشراب المخفف بالماء. كانت وجبة خفيفة تدل على أن الملك أراد أن يبقى الحاضرون في حالة صحو.

سأل بطليموس: "وما هي خططك؟".

"اتخذت قراري بالفعل. لكنني أريد أن أعرف آراءكم. سأبدأ بك يا سلوقس. ما رأيك؟".

"أرى أنـــه يتعـــيّن علينا أن نمضي قُدُماً. فحتى لو نجح ممنون في احـــتلال اليونان، ماذا سيجني؟ فهو لن يتمكن من دخول مقدونيا لأن أنتيباتـــر، وبكل بساطة، لن يسمح له بذلك. أما إذا تابعنا احتلال كل الموانـــئ الموجودة على الساحل الآسيوي، فإن الملك العظيم سيفقد في الـــنهاية القـــدرة علـــى التواصـــل معه. وعندها، سيضطر الرجل إلى الإذعان".

"وماذا عنك يا بطليموس؟".

"أوافـــق سلوقس الرّأي. دعونا نُكمل، وإذا تمكّنا من إيجاد طريقة لقـــتل ممنون، فإن ذلك سيكون أمراً حسناً. إذ سيوفر علينا هذا الأمر

مشاكل لا حصر لها، وسيبدو الأمر وكأن ذراع الملك العظيم اليمنى قد قُطعت".

بـــدا الإســـكندر مصدوماً ومتفاجئاً من هذا الاقتراح، لكنه تابع استشاراته: "وأنت يا إيومينيس؟".

"أرى أن بطليموس محق. يجب أن نتابع الزحف. ولكن، ينبغي لنا أن نـــتخلص من ممنون إذا استطعنا ذلك، لأنه خطير جداً وذكي جداً، ولا يُمكن للمرء أن يتوقع خطواته".

بقـــي الإســـكندر صـــامتاً لفترةٍ قصيرةٍ من الوقت، وراح يمضع سَـــمَكته مـــن دون حماســـةٍ كبيرة، ثُم ما لبث أن ارتشف جرعةً من الشراب.

"إذاً، دعـــونا نمـــضي قُدُماً. سبق لي أن طلبت من هيفاستيون أن يـــتقدم ليصل إلى الممر الذي يُقال عنه إنه وعرٌ جداً، وهو يقع ما بين ليشيا وبامفيليا. وسنعلم في غضون أيامٍ قليلة إذا كان بهذا السوء الذي يـــتحدثون به عنه، وسيعود بارمينيون إلى وادي هيرمس، وسيسير حتى المـــرتفعات العالـــية حـــيث سنلتقيه هناك في فصل الربيع. أما طريقنا فستكون تلك الطريق الساحلية المؤدية إلى وسط الأناضول".

ووقف بعد ذلك، ثم توجه نحو الخريطة التي نشرها فوق الطاولة: "سيكون ملتقانا هنا، أي في غورديوم".

سأله بطليموس: "غورديوم؟ أتعلم بماذا تشتهر غورديوم؟".

قـــال إيومينيس: "إنه يعلم. إنه يعلم. تشتهر بعربة الملك ميداس المـــربوطة بإحكام بعقدة شديدة. هناك توقع قديم مفاده أنّ *أم الأسياد العظيمة* قالت إنّ كل من ينجح في فكّ هذه العقدة فسينجح في حكم آسيا كلها".

سأل سلوقس بتشكّك: "وهل هذا هو سبب ذهابنا إلى غورديوم؟".

قاطعه الإسكندر: "إننا نبتعد عن الموضوع، لأننا لسنا هنا للحديث عن التوقّعات، بل لوضع خطة العمل للأشهر القليلة القادمة. إنني مسرور لأنكم وافقتم جميعاً على ضرورة المضي قدماً. إننا، في واقع الأمر، لن نتوقف في الخريف، ولا خلال الشتاء. تعوّد رجالنا على الطقس البارد، وهم رجالٌ جبليون، كما أن ذلك ينطبق أكثر على التراقيين والأغريانيين. يعرف بارمينيون أنه لن يستطيع التوقف قبل أن يصل إلى مقصده".

طرح إيومينيس المسألة الأكثر إلحاحاً على طاولة البحث عندما قال: "وماذا بشأن ممنون؟".

أجاب الملك وقد تصلّب وجهه: "لا أسمح لأحد بأن يدفعني إلى قتله غدراً. إنه رجل شجاع ويستحق أن يموت حاملاً سيفه بيده، لا أن يموت مسموماً في سريره، أو مطعوناً في ظهره في أثناء سيره في الظلال".

حاول بطليموس إعادته إلى طريق الصواب: "اسمع أيها الإسكندر. لم نعد نعيش في أيام هوميروس، والدرع الذي تحتفظ به قرب سريرك لم يكن يوماً درع آخيل حقاً، لأن عمره لا يزيد عن مئتي عام أو ثلاثمئة عام على الأكثر، والواقع هو أنك تعرف كل هذه الحقائق. فكّر في جنودك، لأن ممنون ما زال قادراً على التسبب بقتل الآلاف منهم. هل هذا ما تريده، أي أن تثق فقط بمثالياتك عن البطولة؟".

هزّ الملك رأسه بالنفي.

قال إيومينيس: "إننا نقول هذا من دون أن نحسب أن ممنون قد يخطّط للأمر ذاته بالنسبة إليك، أي أن يدفع مالاً لأحد القتلة كي يقتلك، أو أن يرشو طبيبك كي يسمّمك... هل فكّرتَ في ذلك؟ يستطيع ممنون أن يحصل على مبالغ ضخمة من المال".

تابع سلوقس حديثه: "هل خطر في بالك يوماً أنه قد يدعم ابن عمك إمينتاس الذي سلّمته قيادة الفرسان التيساليين؟".

هزّ الملك رأسه: "إمينتاس رجل طيّب، ولقد أظهر لي الولاء على الدوام. وليس لدي سبب كي أشك فيه".

كرّر سلوقس: "ما زلت مقتنعاً بأن المخاطر كبيرة جداً".

قال إيومينيس موافقاً: "وأنا أيضاً".

تــردّد الإسكندر قليلاً، وراودته صورة خصمه وهو يقف قبالته تحــت أســوار هاليكارناسوس ووجهه مغطى بتلك الخوذة الكورينثيّة المزخرفة، والتي تبرز منها وردة رودس الفضية، وما لبث أن سمع صوته مجدداً: "أنا القائد ممنون".

هــزّ رأسه للمرة الثالثة، ولكن مع تصميمٍ أكبر هذه المرة: "كلا، لــن أعطــي أوامر من هذا النوع. يبقى الرجل رجلاً حتى في الحرب، وكــان أبــي يقول لي إنّ ابن الأسد أسد مثله..."، وتوقف قليلاً قبل أن يُكمل: "... وليس أفعواناً ساماً".

قــال ســلوقس مستسلماً: "يبدو أنه لا جدوى من الإصرار. إذا كان الملك قد قرّر هذا الأمر فليكن".

أومأ بطليموس وإيومينيس، ولكن من دون اقتناعٍ حقيقي.

قــال الإسكندر: "أنا مسرور لأنكم وافقتم جميعاً. ولكن، دعونا الآن نلقــي نظــرة علــى هذه الخريطة، ونحاول تنظيم زحفنا بمحاذاة الشاطئ".

اســتمر الاجتماع حتى شعر الجميع بتعبٍ يمنعهم من الاستمرار فيه. كان إيومينيس أول من غادر مكان الاجتماع، وما لبث بطليموس وســلوقس أن تــبعاه بعد وقتٍ قصير. لكن، ما إن خرج الجميع حتى دعاهم الأمين العام إلى دخول خيمته، وطلب منهم الجلوس، ثم أرسل جــندياً كي يطلب إلى كاليستين الحضور، وهو الذي كان في الجانب الآخر من المعسكر وقد استسلم للنوم بسرعة.

بدأ إيومينيس حديثه قائلاً: "ما رأيكما؟".

سأله بطليموس: "ما رأينا بماذا؟".

ردّ سلوقس: "لكن الأمر واضح. أليس كذلك؟ إنه يتحدث عن رفض الملك التخلّص من ممنون".

قـــال إيومينـــيس: "إنـــني أفهم الإسكندر، وعليكما أن تفهماه بدوركما. يستحقّ عدوّنا الإعجاب بالفعل. إنه رجل استثنائي، ويمتلك قدرات فكريّة وجسديّة. ولكن، هذا هو بالضبط سبب تشكيله خطراً مميتاً بالنسبة إلينا. دعونا نتصور أنه نجح في التسبّب في نشوء تمرد ما بين الإغـــريق، وتصوّروا أن أثينا، وإسبارطة، وكورنث قد انضمّت إليه. عـــندها، ستزحف هذه الجيوش المتحالفة شمالاً كي تغزو مقدونيا، كما أن الأسطول الفارسي سيكون بمثابة فكّي كماشة مطبقة من البحر... هـــل نحـــن متأكدون، إلى هذا الحد، من أن أنتيباتر سينجح في ردّهم؟ ومـــاذا يحدث في حال فشل أنتيباتر؟ وإذا تمكّن ممنون من إعادة إيقاظ طمـــوحات أحـــد الـــناجين من السلالة اللينسشية، مثل قائد فرسان التيساليين التابعين لنا، فهل ستنشب عند ذلك حرب أهلية، أم سيعود الحكم العسكري؟ وإذا تمكّن ممنون من الانتصار، فسيتمكن عندها من إغلاق المضائق كي يسدّ في وجهنا طريق العودة إلى الأبد. هل نرغب في تعريض أنفسنا إلى هذه المجازفة؟".

قـــال ســـلوقس: "لكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً يخالف رغبات الملك".

"أقول إننا نستطيع ذلك طالما أنه لا يعرف عن الأمر شيئاً. لكنني لا أســـتطيع، مع ذلك، أن أتحمّل هذه المسؤولية بمفردي. أما إذا اتفقنا جمـــيعاً، فيمكنـــنا عـــندها أن نمضي قُدُماً، وإلا فسنترك الأمور تأخذ مجراها، ونتحمّل المخاطر عند حدوثها".

ردّ بطلـــيموس: "دعنا نفترض أننا نتفق جميعاً على هذا الأمر، ما هي خطتك بالضبط؟".

سأل سلوقس: "ولماذا أرسلتَ بطلب كاليستين؟".

ألقـــى إيومينيس نظرةً إلى خارج خيمته كي يعرف إذا كان ذلك المؤرخ في طريقه إليهم. لكن لم يظهر له أيّ أثرٍ.

"اسمعـــاني جيداً. إن ممنون موجود الآن في كيوس حسبما علمنا، ويـــستعد للإبحار شمالاً، ربما نحو ليسبوس. وسينتظر هناك هبوب رياحٍ مؤاتـــية كي يعبر البحر نحو اليونان. يتعيّن عليه أن ينتظر بعض الوقت كي يحمِّل كل السلع اللازمة لجنوده. إنه الوقت المناسب للتخلص منه إلى الأبد".

ســـأل بطلـــيموس: "كـــيف؟ أتريد استئجار قاتل، أم ترغب في تسميمه؟".

"لا أريـــد أن أستخدم هذه الطريقة أو تلك، لأن القاتل المستأجَر لـــن يتمكّن من الاقتراب منه بما يكفي، وذلك لأن الرجل يحيط نفسه دائمـــاً بأربعة رجال يدينون له بولاء أعمى، وهم مستعدون فوراً لقتل أي شـــخصٍ يقترب منه لأكثر من المسافة المسموح بها. أما بالنسبة إلى الـــسمّ، فإنني أتصور أنه يطلب من شخصٍ ما أن يتذوق طعامه وشرابه قـــبل أن يتناوله هو. ويعود ذلك إلى أنه كان على اتصالٍ بعالم الفرس منذ زمنٍ طويل، ولا بد من أنه تعلّم منهم هذه الأمور".

قالٍ بطليموس مقترحاً: "توجد سموم ذات تأثيرٍ بطيء".

"هـــذا صـــحيح، لكنها تبقى سموماً. إن مفعولها معروف جيّداً وكـــذلك عوارضها. وإذا انكشف هذا الأمر وقيل إن ممنون قد مات مـــسموماً، فإن الشكوك ستحوم حول الإسكندر على الفور، ونحن لا يمكننا أن نسمح بحدوث ذلك".

سأل سلوقس: "إذاً، وما العمل؟".

"يـــوجد احتمالٌ ثالث". وهنا أخفض الأمين العام بصره وكأنه أحسّ بالخجل مما يدور في خلده.

"وما هو؟".

"مرضٌ. أعني علةً لا شفاء منها على الإطلاق".

صاح سلوقس: "لكن ذلك مستحيل! إذ يصاب الإنسان بالمرض، ولكنّ الأمراض من الممكن الشفاء منها".

قال إيومينيس: "يبدو أن الأمور ليست بهذه البساطة يا صاحبـــي. إذ إنّ بعض الأمراض تكون بسبب مخلوقات صغيرة جداً، لا يمكن للعين البشرية أن تراها، وهي تنتقل من جسمٍ إلى آخر. أعرف أن أرسطو قد قـــام سراً ببعض هذه التجارب قبل ذهابه إلى أثينا، وذلك استناداً إلى أبحاثه حول التوالد التلقائي".

"وماذا يعني ذلك بكلمات أخرى؟".

"يعـــني ذلـــك أنه يبدو لنا في حالاتٍ محددة أنّ هذه الكائنات لا تـــتوالد تلقائياً أبداً، لكنها تنتشر. وعلى أيٍ حال يعرف كاليستين عن هـــذا الأمـــر. إنـــه يعرف عن هذه التجارب، ويمكنه أن يراسل خاله بشأنها. لا يحدث شيء في بداية الأمر، وبهذه الطريقة لن يشكّ أحد في طـــباخه أو في طبيـــبه. إذ سيتحرك ممنون ويتصرّف بطريقةٍ عادية في البداية، وستمر أيام عدة قبل أن تظهر التأثيرات".

نظـــر بطلـــيموس إلى سلوقس بدهشة، وشعر الاثنان بالقلق في الوقت نفسه بسبب هذه الخطة.

قـــال بطلـــيموس: "يبدو لي أنه يصعب كثيراً وضع هذه الخطة موضـــع التنفـــيذ، لأنهـــا تتطلب تكوين سلسلةٍ معقدة من الظروف الملائمة".

"هذا صحيح، لكنها الطريقة الوحيدة المتاحة أمامنا بحسب رأيي. ومع ذلك، توجد حقيقة تعمل لصالحنا، وهي أن طبيب ممنون تخرّج من مدرسة ثيوفراستوس و...".

تطلـــع ســـلوقس نحو إيومينيس بدهشة قائلاً: "لم أكن أعتقد أن مهماتك تتضمن التجسّس على الناس".

"مـــن الواضح أنني قمت بعملٍ لا بأس به، لأن هذه المعلومة من ضمن المعلومات السرية. وعلى أي حال، جعلني الملك فيليب في أيامه على تواصلٍ مع كل مخبريه اليونانيين والبرابرة".

في تلك اللحظة بالذات، ظهر كاليستين في الخيمة. وسأل بصوتٍ يوحي بالنعاس: "ماذا تريد مني في هذه الساعة؟".

وجـــد الإسكندر صعوبة في النوم بعد أن أقلقته كثيراً فكرة قيام ممـــنون بالتخطيط لشن هجومٍ على اليونان، أو حتى على مقدونيا. هل ســـينجح أنتيباتر العجوز في مهمته؟ أليس من الأفضل إعادة بارمينيون إلى الوطن؟

وهكـــذا، انهمكـــت ليبتين في عملها، بينما غادر الخيمة، ومشى بمحاذاة الشاطئ.

كانـــت ليلةً دافئة وهادئة، وتناسقت خطواته مع إيقاع الأمواج لدى اصطدامها بالحصى. ونشر بدرٌ شبه كامل صفاءً شفافاً فوق جزرٍ كـــثيرة متناثرةٍ على سطح الماء، كما أضاء المنازل البيضاء المتناثرة على سفوح التلال، والتي تستمر في تسلسلها نـــزولاً حتى الخلجان والموانئ الصغيرة.

وفجـــأة، وصل الإسكندر إلى رأس صخري، ولكنّه تسلق القمة بدلاً من أن يعود أدراجه، فرأى المنظر من هناك أكثر جمالاً.

شعر الإسكندر أنه بحاجة ماسة إلى المساعدة نتيجة الإعياء الشديد الذي أحسّ به وهو يتسلّق الرأس الصخري، إضافةً إلى التعب الجسدي والتعب الفكري اللذين كانا يُثقلان على روحه منذ مدة. وخطر والده في ذهنه من دون وجود أيّ سبب محدد، وكاد يراه أمامه منتصباً فوق ذلك الرأس الصخري. تمنى الإسكندر لو أن ذلك حقيقيّ، وتمنى لو كان في استطاعته أن يهرع إليه كما كان يفعل في مييزا وهو يصرخ *أبي!* وتمنى كذلك لو أنه يستطيع أن يجلس إلى جانبه ويسأله النُصح.

كان تائهاً في أفكاره عندما وصل إلى القمة، فانفتح أمامه القسم التالي من الشاطئ. أدهشه المنظر الذي رآه. إذ شاهد عند الجهة الأخرى من الرأس الصخري نوعاً من المقابر القديمة التي تشتمل على عدة مدافن تذكارية محفورة في الصخور، ورأى مقابر أخرى تنتصب منعزلة بفخرٍ فوق الشاطئ، وكأنها أشباح وسط كل ذلك البياض الذي ينشره ضوء القمر، لكن أمواج البحر غمرت بعضها.

شاهد رجلاً واقفاً هناك بصمت وقد أدار ظهره إليه، كما رأى مصباحاً متدلياً من عصا ثبّتها في الرمال.

كانت بنية الرجل تشبه بنية والده، وكان ملتفاً بعباءة بيضاء مزخرفة برسوم مذهّبة، أي أنها كانت مثل العباءة التي ارتداها فيليب عند مصرعه. توقّف الإسكندر ووقف هناك عاجزاً عن الكلام، وكاد لا يصدّق عينيه. توقّع أن يلتفت الرجل ويتحدث إليه بصوت فيليب، وأن ينظر إليه كما اعتاد فيليب أن يفعل. لكن الرجل وقف هناك بلا حراك، ولم تتحرك فيه سوى عباءته البيضاء التي حرّكتها الريح مصدرة صوت حفيف خفيفاً.

اقترب الملك فسمع خرير مياه صادراً من نبع موجود وسط صخرة. كانت المياه تماثل البلّور في نقاوتها، كما عكست الضوء

المنبعث من مصباح الرجل. وتمادى جدول صغير من مياه النبع عبر رمال الشاطئ حتى اختلط بأمواج البحر المالحة. لم يلتفت الرجل نحوه، بالرغم من سماعه بالتأكيد وقع خطوات الملك، لكنه بدا وكأنه ينظر إلى شيء ما داخل النبع. اقترب الإسكندر أكثر، لكن غمد سيفه لامس صخرة وسط الظلمة، فالتفت الرجل فجأة وسط الظلمة، ولمعت عيناه بقوةٍ نتيجة الضوء المنبعث من المصباح. كانت عيناه كعيني فيليب!

قفز الإسكندر واجتاحته قشعريرة، وكان على وشك أن يصرخ *أبي!*

لكنه تمكن في تلك اللحظة بالذات من تمييز الفوارق الموجودة في ملامح الرجل، ولحيته الداكنة. كان الرجل الواقف أمامه غريباً لم يسبق له أن رآه حتى تلك اللحظة.

سأله: "من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟".

حدّق إليه الرجل بملامح غريبة، وما لبث الإسكندر أن ميّز فيه شيئاً مألوفاً. شعر بطريقةٍ ما بأنّه يرى نظرة والده في تينّك العينين الملتهبتين.

أجاب الرجل: "إنني أراقب هذا الينبوع".

"لماذا؟".

"لأنني *ضالع*".

"وماذا تستطيع أن ترى هناك؟ الظلمة مخيمة، وضوء المصباح ضعيفٌ وشحيح".

"إنها المرة الأولى - حسب ما أذكر - التي أرى فيها سطح المياه منخفضاً بمقدار كيوبيت واحد، كما أنه كشف عن رسالة".

"عمّ تتكلم؟".

رفــع الــرجل المصباح، وقربه من الصخرة التي تتفجّر منها مياه الينبوع، فأنار المصباح المكان، وبدت كتابة بأحرف غير معروفة.

أوضح الرجل مشيراً إلى الكتابة: "إنني أتحدث عن هذه".

"أيمكنك أن تقرأها؟".

تكلّم *الضالع* بصوتٍ غريب، وكأن شخصاً آخر يتكلم:

"إن سيّد آسيا يقترب، وهو الذي يجمع في عينيه الليل والنهار".

ثم رفع المصباح بعد ذلك، وقرّبه من وجه الإسكندر: "إن عينك الـــيمنى زرقاء بمثل زرقة السماء، بينما عينك اليسرى داكنة مثل الليل. كم أمضيتَ من الوقت وأنتَ تراقبني؟".

"لم أراقبك لوقتٍ طويل. لكنك لم تجبني عن سؤالي: مَن أنت؟".

"اسمي أريستاندر. ولكن، من أنت يا صاحب عينَي الضوء والظلام؟".

"ألا تعرفني؟".

"لا أعرفك بما يكفي".

"أنا ملك مقدونيا".

تفحّـــصه الرجل مجدداً، وبعمق، مبقياً المصباح قريباً من وجهه: "ستحكم كل أنحاء آسيا".

"وأنت ستتبعني إذا لم تكن تخاف من المجهول".

طأطـــأ الرجل رأسه قائلاً: "إنني أخاف من شيء واحد فقط. إنها رؤيـــة لاحقـــتني مـــنذ زمنٍ طويل، ولكن من دون أن أتمكّن من فهم معناها. وتتعلق الرؤية برجلٍ عارٍ يُحرق حياً فوق محرقة جنازته".

لم يقـــل الإســـكندر شـــيئاً، لكنه بدا وكأنه يُصغي إلى الصوت الإيقاعي المستمر لتكسّر الأمواج فوق الشاطئ. وعندما التفت نحو قمة

الرأس الصخري، رأى حرّاسه يراقبون هذا الاجتماع غير المخطّط له. وبعـــد ذلك، غادر الإسكندر بعد أن قال للرجل: "ينتظرني يوم عمل شـــاق، لذلك يتعيّن عليّ أن أعود الآن. آمل أن أراك في المعسكر يوم غد".

أجـــاب الرجل قبل أن ينصرف في الاتجاه المعاكس: "آمل ذلك بدوري".

33

اهتزت سفينة القيادة بلطف في مرساها في ميناء كيوس، وما لبث أحـــد القوارب أن اقترب منها ببطء. رفرف العلم الملكي الذي يحمل صـــورة *أهورا مازدا* مع كل هبةٍ من نسائم الليل، كما تسلّل من الجزء الخلفي من السفينة وهجٌ شاحب من أحد المصابيح.

انتشر أسطول الملك العظيم الحربـــي في الجوار، وكان مؤلفاً من نحو ثلاثمـــئة سفينة أو أكثر، وكلها مجهزة بالمنصّات. وكان بعض السفن مزوّداً بـــثلاثة أزواج من المجاذيف، فيما كان بعضها الآخر مزوّداً بخمسة أزواج منها. وكانت كلها راسية بمحاذاة الأحواض، ومثبتة بإحكام بواسطة الحبال.

اقتـــرب القـــارب، وأخـــذ أحد بحارته يدق على هيكل السفينة بمجذافه: "أحمل رسالة إلى القائد ممنون".

أجاب ضابط الحراسة: "انتظر. سأُنـــزل إليك سلماً".

بعـــد ذلك بقليل، تسلّق البحّار سلّم الحبال الذي أُنـــزل إليه من جانب السفينة، وطلب رؤية القائد الأعلى.

فتّـــشه ضابط الحراسة، وقاده نحو مؤخر السفينة، أي حيث كان ممـــنون ما زال مستيقظاً ومنهمكاً بكتابة الرسائل، وبقراءة التقارير التي بعـــثها إليه الحكّام وقادة الحاميات الفارسية التي لا تزال موالية للملك العظـــيم، وكذلك التقارير التي بعثها إليه المخبرون الذين كانوا يعملون في أنحاء اليونان كافة.

قـــال البحّار وهو يسلّمه لفافةً من ورق البردى: "هذه رسالة لك أيها القائد".

تناول ممنون اللفافة فلاحظ على الفور ختم زوجته عليها. وكانت هذه أول رسالة يتسلمها منها منذ فراقهما.

سأل ممنون: "هل هناك شيء آخر؟".

"كلا أيها القائد. ولكن، إذا كنتَ ستكتب الرد فسأنتظر".

"حسناً. اذهب إلى المطبخ واطلب إليهم أن يعطوك شيئاً كي تشربه وتأكله إذا كنتَ جائعاً. سأناديك فور أن أنتهي". ارتعشت يدا ممنون وهو يفتح الرسالة بعد أن أصبح بمفرده.

من بارسين إلى ممنون؛ زوجي الحبيب. تحياتي.

حبيبي، وصلنا بعد رحلة طويلة إلى سوسا بأمان وسلام. رحّب بنا الملك داريوس، وشرّفنا بتكريم كبير. وخصّصوا لنا جناحاً من القصر مع خدمٍ وخادمات، مع العلم أن الجناح يشتمل على حديقة جميلة ورائعة. تحتوي هذه الحديقة على ورودٍ من مختلف الألوان التي يتصوّرها الإنسان، وزهورٍ من مختلف الروائح، ونباتات أوراقها على شكل قلب، بالإضافة إلى أطيار من مختلف أنحاء العالم، وطواويس وطيور الدرّاج من الهند ومن القوقاز، ونمورٍ مدربة من إثيوبيا البعيدة. كما تحتوي الحديقة على برك وينابيع تسبح فيها أسماك ملونة.

إننا نُحسَد على وضعنا؛ لولا بعدك عنا. إن غرفة نومي منفصلة عن غيرها، وواسعة، لكنها باردة جداً من دونك.

قرأتُ منذ ليالٍ عدة نسخة من المسرحيّات التّراجيديّة التي كتبها يوريبيديس، والّتي أعطيتني إياها كهدية. قرأت *آلستس* فاغرورقت عيناي بالدموع. بكيت يا زوجي العزيز وأنا أفكّر في ذلك الحب البطولي الذي وصفه الشاعر بعمق. وتأثرت بشكلٍ خاص لدى قراءتي المقطع الذي تواجه فيه المرأة موتها بينما يعدها زوجها بألاّ تحلّ محلّها أيّ امرأة أخرى. وقال لها إنّه سيطلب من نحاتٍ معروف أن يصنع لها تمثالاً ليضعه في سريره.

آه، ليتني أتمكن من القيام بالأمر ذاته! وليتني استدعيت فناناً عظيماً، وأحد عباقرة الفن اليونانيين الكبار، مثل ليسيبوس أو آبيل، وأمرته أن ينحت تمثالاً لك، أو يرسم صورتك كي أزيّن بها غرفة نومي.

الآن فهمت، والآن فقط بعد أن أصبحتَ بعيداً عني، معنى الفن بالنسبة إلى شعبكم. فهو الفن الذي يثير القوة التي تدفعكم أنتم اليونانيين إلى تمثيل العري عندما تنحتون تماثيل *لأسيادكم* أو ترسمون أبطالكم.

أتوق كثيراً إلى رؤيتك حتّى لو كان ذلك من خلال تمثالٍ أو لوحة.

لكنّ الحرب تُبعدك عني، وهي الحرب التي لا تجلب إلا الحداد، والأحزان، والدمار. عُد إليّ يا ممنون، ودع شخصاً آخر غيرك يقود جيش داريوس. لقد فعلت أكثر مما هو مطلوب منك، ولا يُمكن لأحد أن يلومك على شيء لأن الجميع يتحدثون عن مفاخرك الجريئة في الدفاع عن هاليكارناسوس. عُد إليّ يا زوجي العزيز، ويا بطلي اللامع. أريدك أن تعود لأن كل هذا الثراء الموجود في سوسا، وكل ثروات العالم ليست شيئاً مقارنة بلحظة واحدة أمضيها بين ذراعيك.

أعاد ممنون لفّ الرسالة، وهبّ واقفاً، ثمّ مشى نحو طرف السفينة. التمعت أضواء المدينة الشاحبة في سكينة الليل، وتمكّن ممنون من سماع الأولاد الذين يلعبون في الشوارع والباحات المظلمة، وهم يستغلون آخر أيام الخريف الدافئة. وسمع من مسافة أبعد لحن أغنية يؤديها شابٌ لفتاة يحبها، والتي يُحتمل أنها كانت تصغي إليه، ولا بد من أن خدّيها قد احمرّا خجلاً تحت ظلال إحدى الأشجار.

شعر بأنه تحت ضغط كآبة لا نهاية لها. كما شعر بإنهاك مميت، لكنه أحسّ في الوقت ذاته بأن مصير إمبراطوريةٍ مترامية الأطرافِ يقع على عاتقه، وكذلك آمال حاكمٍ عظيم، بالإضافة إلى احترام جنوده

له. وتعني كل هذه الأمور مجتمعة أنه لا يستطيع الإذعان لمشاعر الكآبة تلك.

وكانت قد وصلت إلى ممنون أخبار آخر محاربيه الشجعان الذين لجأوا إلى الأكروبوليس في هاليكارناسوس، وكانوا يقاومون حتّى النهاية المرة، ويكافحون الجوع والعطش. لم يستطع إرغام نفسه على قبول واقع أنه عاجزٌ عن تحريرهم. تمنى لو أن ديادالوس العظيم موجود بالفعل، أليس هو والد آيكاروس، المخترع الذي استطاع صنع أجنحة للإنسان؟ إذاً، كان من الممكن عندها أن يتمكن من الطيران ليلاً إلى حيث تقيم زوجته ويجعلها سعيدة، ومن ثمّ يعود إلى مهامه قبل شروق الشمس.

لكن أوامر الملك العظيم كانت مختلفة تماماً. إذ يتوجّب عليه الإبحار نحو جزيرة ليسبوس حيث من المقرّر أن يحضّر للنزول في إيوبويا، وسيكون ذلك أول غزوٍ فارسي للبلاد منذ ما يزيد عن مئة وخمسين عاماً.

وكان ممنون قد تسلّم منذ وقتٍ قريب رسالةً من الإسبارطيين الذين أعلنوا عن استعدادهم للتحالف مع الملك داريوس، ولقيادة تمردٍ عام للإغريق ضد مقدونيا.

عاد ممنون إلى طاولته وبدأ بالكتابة:

من ممنون إلى بارسين؛ زوجتي الأعز على قلبي. تحياتي.
أعادتني رسالتك إلى أجمل الذكريات وأشدّها تأثيراً، أي إلى تلك الأوقات التي أمضيناها معاً في زيليا وكاريا قبل آخر فراق لنا. لا تستطيعين تصوّر مدى الألم الذي أشعر به نتيجة شوقي إليك، وكيف أن صورتك الجميلة لا تفارق أحلامي كلّ ليلة. لذلك، لن أشتهي امرأةً أخرى، ولن يهدأ لي بال حتى أتمكن من معانقتك مرةً أخرى.

يتعيّن عليّ أن أقوم بهذه المهمة الأخيرة. إذ ستكون هذه المعركة الحاسمة، وسأعود إليك بعدها كي أعيش بسلامٍ مع ولديّ، وبين ذراعيك طالما تعطيني *الأسياد* أنفاس الحياة.
قبّلي ولدينا بالنّيابة عني وانتبهي إلى نفسك.

فكّر وهو يقوم بلفّ الرسالة كيف أن هذه الورقة الخشنة ستقع تحت لمسة أصابع بارسين الناعمة مثل تويجات الزهور والمعطرة مثلها. ثم تنهّد ونادى المبعوث وسلّمه الرسالة.

سأله: "متى ستصل إليها؟".

"قريباً، أي في غضون أقل من عشرين يوماً".

"جيد. لتكن رحلتك آمنة، ولتحمِك الأسياد".

"لتحمِك *الأسياد* بدورك أيها القائد ممنون".

راقب ممنون البحار وهو يختفي في قاربه قبل أن يستدير إلى الخلف وينادي قبطان السفينة.

"سنبحر الآن أيها القبطان. أعطِ السفن الأخرى إشارة الانطلاق".

"الآن؟ لكن، أليس من الأفضل أن ننتظر حتى طلوع الفجر؟ إذ ستكون الرؤية أفضل عندها و...".

"كلا. أريد أن تبقى تحركاتنا سرية. فنحن مقدمون على أمرٍ في غاية الأهمية. أعطِ الإشارة إلى السفن الأخرى كي يحضر كل قادة الوحدات القتالية إلى سفينة القيادة".

انحنى القبطان، وهو يوناني من باتارا، وشرع بتنفيذ أوامر قائده. وبعد فترة قصيرة، ظهرت عدة قوارب واقتربت من سفينة ممنون، وما لبث القادة أن صعدوا إلى متن السفينة.

حيّا القادة القائد العام الواحد تلو الآخر، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم على جانبي مؤخر السفينة، فيما جلس ممنون في مؤخر

الـــسفينة علـــى مقعـــد المهندس البحري. كان مرتدياً عباءته الزرقاء ودروعه، وقد وضع خوذته الكورينثية قربه على أحد المقاعد، وكانت الخوذة مصقولة وفي مقدّمتها زهرة رودس فضية.

"أيهـــا القادة، تقدم إلينا الأقدار في هذه الفترة آخر فرصةٍ لنا كي نـــستعيد شـــرفنا كجنود، وكي نستحق الأموال التي نتلقاها من الملك العظـــيم. لم يعد لدينا أيّ موانئ نستطيع اللجوء إليها فيما عدا موانئ قيليقيا وفينيقيا البعيدة، وهي التي تبعد عنا مسافة أيامٍ عديدة بحراً. إذاً، لا خـــيار لديـــنا غير التحرّك إلى الأمام كي نقطع مصدر قوة عدونا جذرياً.

"وصـــلتني رسالة سرية مشفرة من أهل إسبارطة. إذا غزونا البر، فـــإنهم وجيـــشهم مستعدون للانضمام إلينا ضد الإسكندر. ولذلك، قـــررت أن نبحـــر إلى ليـــسبوس، وأن نتجه من هناك نحو سكيروس وإيوبـــويا، حيث سنلتقي أولئك الأثينيين الوطنيين الذين سيدعموننا. وبعثت برسالة إلى ديموستين، وأعتقد أن ردّه سيكون إيجابياً. هذا كل شيء حتى الآن. عودوا إلى سفنكم وتحضّروا للمغادرة".

تهـــادت سفينة القيادة ببطء خارج الميناء بمصابيحها المضاءة وقد أمسك القائد ممنون الدفة بيديه بإحكام. وسرعان ما تبعتها جميع السفن الأخـــرى. كانـــت ليلة صافية ومليئة بالنجوم. ولكن، تغيّر الطقس في اليوم الثاني، فهاج البحر بتأثير رياحٍ جنوبية قوية، وعانت بعض السفن مـــن بعـــض الأضرار، واضطر الأسطول إلى السّير بقوة التجذيف لمدة يومين كاملين.

وصلوا إلى مقصدهم في اليوم الخامس، ثم دخلوا الحوض الغربـــي الكبير الذي يصلح لرسو السفن بأمان، وانتظروا تحسّن الطقس. أعطى ممنون أوامره بإصلاح كل السفن التي أصيبت بأضرار، ثم أرسل ضباطه

بهـــدف تجنـــيد مرتزقة للانضمام إليهم. وفي هذا الوقت، زار الجزيرة، وطلـــب رؤية منـــزل الشاعرة صافو ومنـــزل الشاعر ألكايوس اللذين كانا من مواطني الجزيرة.

لاحـــظ ممـــنون عدة جُمل مبعثرة هنا وهناك أمام المنـــزل الذي يُفتـــرض أن صـــافو كانـــت تسكنه. وكانت الجمل عبارة عن نسخٍ لأشـــعارها علـــى ألواحٍ خشبية، أو على لفائف أوراق البردى، وهي الأغلى ثمناً بكثير.

سأل ممنون كاتباً تغلب عليه الملامح الشرقية: "أيمكنك أن تترجم لي إحدى هذه القصائد إلى اللغة الفارسيّة؟".

"أجل، بالطبع يا سيدي".

"حسناً إذاً، أريد أن تترجم لي القصيدة التي تبدأ هكذا:

أرى هذا الذي يجلس إلى جانبك
وكأنه مساوٍ *للأسياد*
لأنه يصغي إليك
وأنت تتكلمين بعذوبة
وتبتسمين بكل إثارة(*).

قال الكاتب وهو يغمس ريشته في محبرته: "أعرفها يا سيدي. إنها قصيدة تتحدث عن الغيرة".

أومـــأ ممـــنون، ولكن من دون اكتراث: "أجل، إنها كذلك". ثم جلس على الجدار منتظراً انتهاء الكاتب من ترجمته.

ســـبق لممـــنون أن سمـــع أن بارســـين أمضت بعض الوقت مع الإسكندر، ومرّت عليه لحظات شعر خلالها بالفزع.

(*) صافو، المقطع 32.

34

اتجه الإسكندر شرقاً بمحاذاة الساحل بعد مغادرته هاليكارناسوس، وذلك بالرغم من أن الجميع حاولوا ثنيه عن سلوك هذا الاتجاه. وكان هناك بالفعل ممرٌ من خلال ليشيا. ولكن، لم يسبق لأحد أن حاول سلوكه خلال فصل الشتاء. وكانت الطريق أفضل حالاً بقليل من ممرٌ عبر الصخور يرتفع بحدّة فوق البحر الهائج والمليء بالصخور، كما أن هذه الطريق مكشوفة على الرياح الغربية التي تجلب معها طقساً قاسياً على الدوام.

كانت الأمواج المتكسرة على الصخور تتحول إلى رغوة ضخمة من الفقاعات التي تصطدم بالصخور بقوّة، وذلك قبل أن تعود لتصطدم مرةً أخرى بالرأس الصخري الذي يقف وحيداً ومعزولاً تحت رحمة عناصر الطبيعة.

كان هيفاستيون قد سبقهم إلى هذا الرأس الصخري، وأخبرهم بعد عودته عن انطباعاته الحية عن المكان، وقال للإسكندر: "إنه مرعبٌ حقاً. تصوّر جبلاً أعلى من أثوس، وأكثر ضخامةً من بانجايوس، كما أن سطحه ناعم وأسود، وكأنه لوحٌ من الحديد يتدلى بشكل عموديّ حتى البحر. أما قمته فهي مغلفة بالغيوم التي يهدر فيها هزيم الرعد. شاهدت بنفسي الصواعق بين السماء والقمة، والتي كانت تنزل إلى البحر في بعض الأحيان على شكل ومضات متوهجة تعمي الأبصار. إن هذه طريق قديمة جداً شقها الليشيون في الصخور. ولكنها زلقةٌ على الدوام بسبب الرذاذ المتطاير من الأمواج، وبسبب العشب البحري

الذي ينمو بكثرة خلال فصل الشتاء. إن السقوط في البحر هناك يعني الموت المحتّم والسريع، لأن الأمواج تدفع على الفور أي إنسانٍ - مهما كـان سباحاً ماهراً - إلى الصخور الحادة التي تؤلف ما يشبه التاج في قاعدة المنحدر الحاد، وتقوم بتقطيعه إرباً خلال وقتٍ قصير".

سأل الإسكندر: "هل عبرت نحو الجهة الأخرى؟".

"أجل".

"كيف؟".

"اعتمدت على الأغريانيين الذين ثبّتوا أوتاداً حديدية بين شقوق الـصّخور، ولفّوا حبالاً حولها. وهكذا تمكّنا من التمسّك بها عند مجيء الأمواج".

قـال الملك: "تبدو لي هذه الفكرة ممتازة، لأننا سنجتاز الممر بهذه الطريقة".

قال هيفاستيون: "لكن، كنا خمسين رجلاً فقط. أمّا الآن، فأنت تنوي إرسال خمسة وعشرين ألف رجل، وخمسة آلاف جواد، عبر هذه الطريق. كيف ستتدبر أمر الجياد؟".

سـكت الإسـكندر هنيهة بينما كان يجمع أفكاره وقال: "ليس لدينا أيّ خيارٍ آخر. سنحاول سلوك هذه الطريق، وسنسيطر على جميع موانئ ليشيا، وهكذا سنتمكن من عزل أسطول الملك العظيم عن بحرنا. وإذا اضـطررت، فسأتقدّم على رأس المشاة فقط، ولكنني سأمضي في طريقي مهما يكن".

"لـيكن لـك ما تريده. فنحن لا نخاف شيئاً. ولكن، أردتك أن تعلم بالمخاطر المترافقة مع سلوك تلك الطريق".

غـادروا في الـيوم التالي، وسرعان ما وصلوا إلى مدينة زانتوس، وتوقفوا فوق صخورها التي تقع فوق نهرٍ يحمل الاسم ذاته. أما المنطقة

المحـــيطة، والمحفورة بالصخر فلقد اشتملت على مقابر كثيرة بواجهاتها المزخـــرفة على شكل مبانٍ، واشتملت كذلك على هياكل ذات أعمدة كـــثيرة. قيل إن واحدةً من هذه المقابر تحتوي على جثمان أحد أبطال ليـــشيا، والـــذي كان يُدعى ساربيدون، وهو الذي قُطع إلى نصفين بسيف باتروكلوس خلال حرب طروادة.

أراد الإسكندر أن يرى هذا القبر، ووقف مشدوهاً أمام تمثالٍ قـــديمٍ أتلفـــته عناصر الطبيعة ومرور الزمن. كان من الصعب تمييز الـــنقوش القديمة التي أصبحت غير مقروءة بالكامل في هذا الوقت. سمعـــه كاليستين، الذي كان واقفاً بالقربٍ منه، وهو يهمس بأبيات هـــوميروس، والـــتي كانت عبارة عن خطاب ألقاه بطل ليشيا أمامً رجاله قبل بداية الصدام النهائي مباشرة؛ هذا الصدام الذي فقد فيه حياته:

آه، أيمكننا أن ننجو من هذه الحرب
لن أعود إلى ساحات المعارك ثانية.
ولا أنوي أن أرسلكم إلى هناك باسم الشرف!
ولكن، تحيط بنا الآن أشكال الموت بالآلاف
ولا يمكن لأي رجلٍ أن ينجو منها، أو أن يكون بأمان.
دعونا نهاجم، سواءً أكان الهدف أن نعطي المجد إلى أحد الرجال
أو أن ننتزع هذا المجد منه(*).

الـــتفت الإسكندر إلى كاليستين، وسأله بصوتٍ يحمل مسحةً من الحـــزن العمـــيق: "أتعتقد أنه كان سيردّد هذه الكلمات لو تمكّن من الكلام اليوم؟".

"من يدري؟".

(*) هوميروس الإلياذة، الفصل 322 – 8 – XII ترجمة روبرت فيتزجيرالد.

اقتـــرب الإســـكندر من القبر، ووضع يديه وجبهته عليه، وكأنه يحـــاول أن يسمع الصوت الذي أضعفته القرون المتباعدة، وما لبث أن استدار وانطلق كي يقود جيشه.

تقدمـــوا نـــزولاً نحو مصبّ النهر، أي حيث امتدّ أمامهم ميناء باتارا، وهو أهم ميناءٍ في ليشيا كلها. كانت المباني في هذه المدينة جميلة ومـــشيّدة علـــى الطِّــراز الإغريقي، كما كان سكانها يرتدون الأزياء الإغريقية، ولكن لغتهم كانت قديمة جداً، وغير مفهومةٍ إطلاقاً من دون الاستعانة بمترجمين.

تأكد الملك من أن جيشه قد خيّم بطريقة مناسبة، وأمر بالتوقف لعدة أيام. أمل الملك أن يتلقى أخباراً من بارمينيون الذي كان يُفترض به أن يكون قد وصل في هذه الأثناء إلى المرتفعات الداخلية. ولكن، لم يصل أي خبر من ذلك القائد. ومع ذلك، وصلت إلى الميناء سفينة من مقدونيا، وهي آخر سفينة تصل قبل فصل الشتاء.

ســـلك قبطان تلك السفينة مساراً صعباً يندر استخدامه، وذلك كـــي يتفادى أي احتكاك بأسطول ممنون. كما جلب معه تقريراً من أنتيباتـــر حـــول الوضع في البلاد، وحول الصراعات المريرة التي كان يخوضها مع أوليمبيا؛ الملكة الأم.

غـــضب الإســـكندر، وشعر بحزنٍ كبير من الأخبار التي وصلته. ولكـــنه شعر بالارتياح عندما رأى لفافةً أخرى من ورق البردى تحمل الختم المولوشي الملكي. ففتح الرسالة مع بعض التوجّس، وبدأ بالقراءة:

> مـــن كليوباتـــرا، ملكـــة المولوشيين، إلى أخي الإسكندر، ملك مقدونيا. تحياتي.
>
> أخي العزيز، مرّ وقت يزيد عن السنة منذ أن عانقتك للمرة الأخيرة، و لم يمضِ يوم واحد من دون أن أفكّر فيك وأشتاق إليك.

تـــرددت أصداء إنجازاتك حتى وصلت إلى هذا القصر في بوثروتوم. وهذه الأخبار تجعلني فخورة بك، ولكن الفخر لا يعوّض عن غيابك.
يزمع إسكندر، ملك مولوشيا، زوجي وصهرك، على المغادرة إلى إيطاليا. ولهذا، جمع جيشاً عظيماً يبلغ تعداده نحو عشرين ألفاً من المحاربين الشجعان والمدربين جيداً على الطريقة المقدونية، والذين تربوا على مبادئ والدنا فيليب.
يحلـــم زوجـــي بأن يقهر إمبراطورية عظيمة تقع إلى الغرب، وأن يـــتمكن من تحرير كل اليونانيين من تهديد برابرة تلك البلاد؛ أي القرطاجيين والبروشيانيين واللوكانيين. أما أنا فوحيدةٌ هنا.
تحـــولت والدتي في هذه المدة إلى شخص يزداد غرابة يوماً تلو الآخر، كما أنها متوترة ومزاجية، ولذلك، فأنا أتجنّب زيارتها عندما أتمكن من ذلـــك. سمعت بأنها تفكّر فيك ليلاً ونهاراً، وتقدم أضحيات للأسياد كـــي يبتـــسم الحـــظ لك. لا أستطيع إلا أن ألعن الحرب الّتي تُبقي الأشخاص الذين أكنّ لهم أعظم الحب في هذا العالم بعيدين عني.
انتبه إلى نفسك.

علـــم الإســـكندر أن الحملة على الغرب على وشك أن تبدأ. إذ كـــان الإسكندر الآخر، ويكاد يكون على صورته ومثاله، وتربطه به عـــرى الـــدم والصداقة، يستعد للزحف باتجاه أعمدة هرقل من أجل إخـــضاع كل البلاد. سيجتمع به مجدداً في يومٍ من الأيام، ولعل ذلك ســـيحدث في الـــيونان، أو في مـــصر، أو في إيطاليا. وفي ذلك اليوم، سيعيش العالم بداية حقبة جديدة.

استفاد الإسكندر من هذه الاستراحة كي يطلب من إيومينيس أن يقرأ له التقرير اليومي الذي يسجّل فيه الأمين العام تطورات الأحداث التي تطرأ على الحملة، وكذلك المسافات التي قطعتها الحملة، والزيارات التي يقوم بها الإسكندر، والضيوف الذين يستقبلهم، والتفاصيل الدقيقة لاجتماعات القيادة العليا، وحتى الحسابات المالية.

قال الإسكندر بعد أن استمع إلى صفحات قليلة: "تتميّز صفحات الوصـــف بأسلوب أدبـــي معين. حتى إنه من الممكن أن تُعاد صياغتها كي تكون تاريخاً أميناً ومناسباً لحملتنا".

ردّ إيومينـــيس: "أنا لا أستبعد هذا الاحتمال أبداً. لكنني أكتفي الآن بتسجيل الوقائع بحسب ما يسمح لي الوقت بذلك. أمّا كاليستين فهو من يهتمّ بالتاريخ الحقيقي للحملة".

"هذا صحيح تماماً".

"ولكـــن، لـــيس كاليستين وحده من يفعل ذلك. فأنت تعرف أن بطلـــيموس يكـــتب أيـــضاً عـــن حملتـــنا. هل قرأ لك شيئاً من كتاباته؟".

"ليس بعد، ولكنني أشعر بفضول يدفعني إلى رؤية ما كتبه".

"وكذلك يستمرّ أميرالك نيرخوس في الكتابة".

"يـــبدو لي أن جميع المشاركين في هذه الحملة كُتّاب. أتساءل عن أفـــضل كاتب بينهم. على أي حال، إنني أحسد آخيل لأن هوميروس كان إلى جانبه كي يدوّن كل أعماله".

"كان ذلك في الماضي يا صديقي، لكنّ نيرخوس يعوّض عن هذا النقص لأنه يبلي بلاءً حسناً في إقامة علاقات مع المجتمعات المتعددة التي تسكن هذه البلاد. إنه يعرف أشخاصاً كثيرين هنا، كما يتمتع بتقدير كبير بينهم. ولقد أوضح لي الرجل منذ وقتٍ قريب وجهة نظر البحّار بالنسبة إلى الوضع".

"وما هي وجهة نظره؟".

"إنـــه مقتنع بأنك لا تستطيع الاستغناء عن الأسطول، وأنه يتعيّن علـــيك أن تجمـــع أسطولاً على الفور. إن ترك ممنون يهيمن كلياً على البحار هو أمرٌ في غاية الخطورة".

"وما رأيك أنت؟ إن ذلك سيشكّل معضلةً مالية بالنسبة إلينا على ما أظن".

"يُحتمل أن تستطيع الآن تدبّر الأمر بالاعتماد على مداخيل سارديس وهاليكارناسوس".

"إذاً، يمكنك البدء بالترتيبات. تكلّم مع نيرخوس، ثم تفاوض مع الأثينيين، وأريدك أن تعيد فتح الموانئ التي تمكّنا من احتلالها. يمكننا الآن المخاطرة قليلاً".

"سأجتمع مع نيرخوس على متن سفينته. وسنقوم معاً ببعض الحسابات. ففي واقع الأمر، إنني لا أمتلك أيّ فكرة عن كلفة السفن الحربية، وكم من السفن نحتاج كي نصعّب الحياة على ممنون اللعين. لكنني أريد كذلك أن أعرف ما هي نواياك في هذا الشتاء المقبل".

نظر الإسكندر إلى خارج نافذة المنزل الذي اختاره ليكون مقر إقامته، ونظر إلى الجبال التي تغطي الثلوج قممها: "سنتقدم حتى نجد لنا طريقاً تؤدي إلى داخل البلاد. يتعيّن عليّ أن ألتقي بارمينيون بأسرع وقت ممكن من أجل توحيد قواتنا. لكنني قلقٌ يا إيومينيس. فإذا هلك قسم من جيشنا، فلن يبقى هناك أمل بنجاة القسم الآخر".

أومأ الأمين العام، وجمع أوراقه، ثم غادر المكان.

جلس الإسكندر إلى طاولته، وتناول ورقةً، وغمس طرف ريشته بالحبر، ثم بدأ بالكتابة:

من الإسكندر إلى كليوباترا؛ شقيقتي الأعز على قلبي. تحياتي.

لا تحزني يا عزيزتي على رحيل زوجك. إذ يوجد رجالٌ وُلدوا كي ينفّذوا ما اختارته لهم الأقدار، وهو من بينهم. فلقد تعاهدت أنا والإسكندر، وها هو يترك بلاده ومنزله وعروسه احتراماً لذلك العهد. إنني لا أريدك أن تكوني زوجة رجل عادي ليست لديه

آمال أو طموحات. ففي تلك الحالة، ستكون الحياة مقيتةً أكثر. أنــت ابــنة أوليمبيا وفيليب مثلي تماماً. وأعرف أنك تفهمين ما أقــولَه. ســيكون فرحك أكبر بعد فراقكما، وأنا متأكد من أنه سيرسل في طلبك كي تذهبـي وتري الشمس التي تغيب في مياه المحيط البعيد المبجّلة والغامضة، والتي لم تُبحر فيها بعد أيّ سفينة.

يقــول أرسطو إن الإغريق ينظرون في مدنهم إلى هذا البحر مثلما تفعل الضفادع على ضفاف مستنقع، وأعتقد أنه محقّ. لكننا وُلدنا كـي نتعرّف إلى بلاد مختلفة، وبحارٍ مختلفة، وكي نعبر حدوداً لم يجـرؤ أحــد على عبورها من قبلٍ. إننا لن نتوقف قبل أن نبسط سلطتنا على كامل المعمورة.

لا يكفي كل ذلك لتسكين ألم شوقي إليك، لذلك، فإنني مستعد للتخلي عن أي شيء، وفي هذه اللحظة بالذات، كي أجلس قربك وأسند رأسي إلى حضنك، وأصغي إلى صوتك العذب.

تذكّريني، كما تعاهدنا؛ في كل مرة تشاهدين فيها غروب الشمس في البحر، وفي كل مرة تحمل إليكِ الريح أصواتاً من بعيد.

35

بعد مرور نحو عشرة أيامٍ على وصول جيش الإسكندر إلى المدينة، أُعلِن عن وصول زائرٍ يحمل اسم إيمولبوس من سولوي.

سأل الإسكندر إيومينيس: "أتعرف من هو؟".

"بالطبع أعرف من يكون. إنه أفضل مخبرٍ يعمل لديك إلى الشرق من جبال طوروس".

"ويحك، لماذا لا أعرفه إذا كان أفضل المخبرين لديّ؟".

"لأنه تعامل دوماً مع والدك و... معي أنا".

قـــال الإسكندر متهكماً: "آمل ألاّ تمانع إذا تعاملت معه شخصياً الآن".

رد إيومينـــيس على الفور: "كلا، إطلاقاً. إن كل ما كنت أطمح إليه هو تجنيبك بعض المهامّ المملة. وإذا شئت يمكنني أن أنصرف...".

"لا تكن غبياً. أدخِله على الفور".

لم يتغيّـــر إيمولـــبوس كثيراً عن آخر مرةٍ رآه فيها إيومينيس في بيلا. وكـــان المخـــبر لا يزال يعاني من البرد الشديد لأنه اضطر إلى التنقل عبر جبال المناطق الداخلية المكسوة بالثلوج على ظهر بغل، وذلك بسبب هياج البحر. ما إن رأى بيريتاس قبعته المصنوعة من فراء الثعلب حتى بدأ يزمجر.

قـــال إيمولـــبوس وقـــد بان القلق على ملامحه: "إنه كلبٌ صغير وظريف. ولكن، هل يعضّ؟".

أجـــاب إيومينـــيس: "كلا، شرط أن تنـــزع ذلك الثعلب عن رأسك".

وضع المخبر قبعته على مقعد، فسارع بيريتاس إلى عضّها على الفور، ومضى في مضغها طيلة المقابلة.

"ما هي الأخبار التي جئتنا بها؟".

بدأ إيمولبوس بسلسلةٍ من المجاملات وكلمات الإطراء والتي تتعلق بمآثر الملك الشاب العظيمة، وما لبث أن دخل في صلب الموضوع.

"مولاي. تسببت أعمالك بموجة من الذعر الشديد في بلاط سوسا. ويقول الكاهن المجوسي إنّه يرى أهريمان فيك".

علّق إيومينيس بعد أن شعر بشيء من الإحراج: "إنه سيّد الشر، وهو يشبه هايديس؛ *سيّد* العالم السفلي عندنا".

"تعرف أن *سيّدهم* هذا يظهر كأسدٍ في لوحاتهم وتماثيلهم. وبما أنك تعتمر خوذة على شكل أسد، لذلك، فإن الشبه كبير جداً بينكما بالفعل".

"وما هي الأخبار عدا عن ذلك؟".

"يعتمد الملك العظيم اعتماداً كبيراً على مواهب ممنون، ويبدو أنّه بعث إليه بمبلغ ألفي تالنت".

"إنه مبلغ ضخم للغاية".

"بالضبط".

"أتعرف ما هي الغاية من وراء إرسال هذه الأموال؟".

"أرسلها من أجل كل شيء على ما أعتقد. أي من أجل تجنيد المزيد من الرجال، ومن أجل دفع الرِّشى، وتمويل الحلفاء المحتملين. لكنني سمعت عن نقل أموالٍ إضافية عبر البر، وبالتحديد ألفي تالنت أخرى. وهي تتجه نحو المناطق الداخلية من الأناضول".

"وما هي الغاية من إرسال هذه الأموال؟".

هــزّ إيمولبوس رأسه وقال: "في الواقع، ليست لديّ أيّ فكرة. ألا يــتواجد أحد قادتك في تلك المنطقة؟ يُحتمل أن يتمكن من إعطائك معلوماتٍ أكثر دقةً...".

وبــشكلٍ مفاجئ، التمعت فكرة بشعة في ذهن الإسكندر، ماذا يحــدث لو أن الملك العظيم حاول رشوة بارمينيون؟ لكنه استبعد على الفور هذه الفكرة المخجلة.

"هل يتمتع ممنون بدعم الملك غير المشروط؟".

"إنــه يتمتع بدعمٍ كامل. ومع ذلك، يتواجد في البلاط عددٌ من النبلاء الذين يكنّون حسداً فظيعاً تجاه هذا اليوناني الغريب الذي أعطاه الملك القيادة العليا على جنوده، وسلطةً على كل الحكّام الفرس. يُعتبر ممــنون الآن أقوى رجلٍ في الإمبراطورية الفارسية بعد الملك داريوس. ولكن، إذا سألتني عن وجود - أو احتمال وجود - مؤامرةٍ ضدّه...".

قال الإسكندر مقاطعاً: "أنا لا أطلب منك شيئاً من هذا القبيل".

أجــاب المخبر: "سامِحني. لا أرغب في إهانتك. آه، هناك شيء آخر".

"تكلّم".

"وصــلت بارســين، زوجة ممنون إلى البلاط، وهي امرأة تتمتع بجمالٍ أخّاذ".

اســتجاب الإســكندر بطريقة لم تخفَ عن عين إيمولبوس الخبيرة فأضاف: "أتعرفها؟".

لم يجب الإسكندر، لكنّ إيومينيس أشار إلى إيمولبوس بعدم متابعة هذه النقطة، وبمتابعة الحديث من حيث توقف.

"وكما قلت لك، إنها امرأة رائعة الجمال..."، أشار إيومينيس إلى الرجل كي يمضي بالحديث، "كما أحضرت معها ولديها، وهما شابان

وسيمان، يحمل أحدهما اسماً إغريقياً لكنه يشبه والدته، بينما يحمل الآخر اسماً فارسياً ويشبه والده. أليس ذلك غريباً بعض الشيء؟ هناك من يقول إنّ الملك العظيم أرادهم أن يحضروا إلى البلاط كرهائن لأنه لا يثق بممنون".

"وهل هذا صحيح برأيك؟".

"أتريد حقاً أن تعرف رأيي؟".

"إنه سؤال غبي".

"أنت على حق. حسناً... أنا لا أصدّق هذا. أعتقد أن الملك داريوس يثق بممنون بصورة عمياء، وذلك لأنه قائد المرتزقة. لم يوقّع ممنون على أي عقد، لكنه لا يتراجع عن وعدٍ قطعه أبداً. إنه رجلٌ حديدي".

قال الإسكندر: "أعرف".

"أرغب في أن تتذكر شيئاً آخر".

"وما هو؟".

"يسيطر ممنون على البحار".

"هذا صحيح، في الوقت الحاضر على الأقل".

"تماماً. أعتقد أنك تعرف جيداً أنّ أثينا تتلقى كل حاجاتها من الحبوب الآتية من البحر الأسود عن طريق البوسفور. وإذا رغب ممنون في إقفال هذه الطريق التجارية، فإن المجاعة ستضرب هذه المدينة، وهكذا سيضطرّ سكانها إلى التحالف مع الفرس، وسينضم أسطولهم إلى الأسطول الفارسي، وهو الأمر الذي سينتج عنه تشكيل أكبر أسطول للسفن الحربية ظهر في البحار حتى الآن".

طأطأ الإسكندر رأسه، وقال: أعرف".

"ألا تخيفك إمكانية حصول هذا الأمر؟".

"لا تخيفني الأمور التي لم تصبح حقيقة بعد".

صمت إيمولبوس هنيهة قبل أن يتابع: "لا شك عندي أبداً في أنك ابن أبيك. ويبدو لي، على أيّ حال، أن الملك العظيم قد قرّر ألاّ يقوم بأي خطوة، وأن يترك لممنون مجالاً واسعاً للتحرك. وينحصر الصراع الآن بينكما أنتما الاثنين. ولكن، إذا ضعُف ممنون، فإن الملك العظيم سيدخل المعركة، وستشارك معه آسيا بكاملها".

لفظ هذه الكلمات الأخيرة بلهجة كئيبة فاجأت مستمعيه.

قال الإسكندر: "شكراً لك. سيدفع لك مساعدي العام أجرك لقاء خدماتك".

ظهر شبح ابتسامة ساخرة على ملامح وجه إيمولبوس: "بالنسبة إلى هذا الموضوع، فإنني أحب أن أطلب منك زيادةً طفيفة على الأجر الذي اعتاد والدك، طال مجده، أن يدفعه لي. فلقد ازداد عملي صعوبة وخطراً في هذه الظروف، كما أن أحلاماً مزعجة تراودني عنك منذ بعض الوقت، وتُظهرك مخوزقاً، لكنني أؤكد لك أن هذه الأحلام كانت أفضل بكثير في ما مضى".

فأومأ الإسكندر وتبادل نظرةً مع إيومينيس.

قال الأمين العام وهو يرافق إيمولبوس إلى الباب: "سأهتم بالأمر". ألقى الرجل نظرةً متأسفة على ما بقي من قبعته المصنوعة من فراء الثعلب، وحيّا الملك بانحناءة ثم غادر المكان.

راقبهما الإسكندر في أثناء سيرهما معاً عبر الممر، وتمكّن من سماع المخبر وهو يتابع تأسفه: "إنني أفضّل أي شيء آخر على تلك العصي الحادة التي يستخدمها البرابرة".

أجاب إيومينيس: "حسناً إذاً، لقد أخطأت الخيار... لأننا نمتلك هنا خمسة وعشرين ألف رجل منهم".

هزّ الملك رأسه وأغلق الباب.

في اليوم التالي، قرّر الملك متابعة الزحف عبر الممر الساحلي الخطِر الذي تحدث عنه هيفاستيون بفعالية ورعب، وذلك لأنه لم يتسلم أيّ أخبار من بارمينيون.

أرسل الملك الأغريانيين كي يسبقوهم من أجل تثبيت الأوتاد الحديدية والحبال في الصخور كي يتمسّك بها الجنود. ولكن، تبيّن بعد ذلك أن كل هذه العدة المعقدة كانت غير ضرورية. إذ تغيّر الطقس فجأة، وما لبثت الرياح الغربية الرطبة والعاصفة أن هدأت، وسرعان ما أصبح سطح البحر مثل سطح وعاءٍ من الزيت.

فعاد هيفاستيون الذي رافق الأغريانيين والتراقيين كي يُبلغ الملك أن أشعة الشمس تجفّف الممر الذي لم يعد خطِراً بعد الآن.

"يبدو أن *الأسياد* إلى جانبك".

أجاب الإسكندر: "يبدو ذلك. دعنا نعتبر ذلك فألاً حسناً".

التفت بطليموس الذي كان على صهوة جواده وراءهم مباشرة إلى بيرديكاس، وقال له: "أستطيع أن أتخيّل ما الذي سيكتبه كاليستين".

"في واقع الأمر، لم أفكر أبداً في حملتنا هذه في المشاكل التي يواجهها المؤرخ".

"سيكتب أن البحر قد انفتح أمام الإسكندر، لأنه تعرّف إلى ملكه وقدرته شبه المبجلة".

"وماذا بشأنك أنت؟ ماذا ستكتب؟".

هزّ بطليموس رأسه قائلاً: "دعونا ننسى الأمر ونمضي قُدُماً، لأن طريقاً جديدة وطويلة لا تزال تنتظرنا".

قاد الإسكندر جيشه بعد عبوره ذلك الممر نحو المناطق الداخلية للبلاد، وصعدوا طرقات شديدة الانحدار حتى وصلوا إلى القمم

الصخرية المكسوة بالثلوج. في معظم الأحيان، ترك الجيش القرى وشأنها، إلا إذا هاجم سكان بعض القرى الجنود، أو رفضوا تقديم المؤن التي يحتاج إليها الجيش. وعندما وصلوا إلى الجهة المقابلة من الجبل، بدأوا بالهبوط نحو وادي يوريميدون، ومن هناك بدأوا بالصعود مجدداً نحو المناطق الداخلية والمرتفعات.

كان الوادي ضيقاً نسبياً، وفيه جوانب شديدة الانحدار مكونة من صخور حمراء، وهي التي مثّلت تبايناً شديداً مع مياه النهر شديدة الزرقة. امتدت مساحات من الأعشاب البنية على الجانبين، ورأى الجنود مساحات واسعة على امتداد النظر.

سار الجيش مدّة يوم كامل إلى أن غابت الشمس، فوصل إلى طريق ضيّقة ومحميّة من الجانبين بقلعتين متجاورتين ترتفعان فوق صخرتين مرتفعتين. وظهرت معالم مدينة محصّنة فوق رابية صخرية.

قال بطليموس وهو يسير على صهوة جواده، ويشير إلى تلك القلعة التي بدت حمراء بفضل أشعة الشمس الغاربة: "إنها تيرميسوس".

اقترب بيرديكاس من جهة الملك الأخرى، وقال بقلق: "لن تكون مهمتنا سهلة مع هذا الحصن. توجد مسافة أربعمئة قدم على الأقل بين أسفل الوادي وأعلى الأسوار. ولن نستطيع الوصول إلى ذلك الارتفاع، حتى ولو ركّبنا أدوات الحصار الواحدة فوق الأخرى".

وصل سلوقس مع ضابطين من فرسان الهيتايروي وقال: "أعتقد أنه يتعيّن علينا أن نقيم مخيمنا هنا. لأننا إذا تقدمنا يُحتمل أن يهاجمونا، ونحن لا نمتلك وسائل للرد".

قال الملك موافقاً: "حسناً يا سلوقس، سنرى ما يمكننا عمله في الغد مع انبلاج الفجر. أنا متأكد من وجود ممرٍّ في مكانٍ ما، وكل ما علينا فعله هو العثور عليه".

سُمع في تلك اللحظة صوت صادر من خلفهم يقول: "إنها مدينتي، مدينة كهّان المجوس و*الضالعين*. دعوني أتقدم بمفردي".

استدار الملك، وعرف أن أريستاندر هو صاحب الصوت، وهو الرجل الذي التقاه عند نبع المياه القريب من البحر، والذي تمكّن من قراءة النقوش التي تصعب قراءتها.

حيّاه الإسكندر قائلاً: "مرحباً أيها *الضالع*! تعالَ وأخبرني ماذا تنوي أن تفعل".

قال أريستاندر مكرراً: "إنها مدينتي. المدينة الرائعة الموجودة في مكان خلاّب. إنها المدينة التي يعرف فيها الجميع - حتى الصغار - كيفية قراءة علامات السماء وأحشاء الحيوانات. دعوني أتقدم قبل أن يتحرك الجيش".

"حسناً، يمكنك أن تتقدم، ولن يتحرك أي جندي قبل عودتك".

استدار أريستاندر وأومأ برأسه، وبدأ بالسير مسرعاً فوق المنحدر الذي يفصل الطريق عن القلعتين التوأم. والتمعت عباءته البيضاء في أثناء سيره في الطريق الصخرية المنحدرة، وبدا مثل شبحٍ وحيد وسط الظلام الذي كان قد حلّ في ذلك الوقت.

36

وقف أريستاندر أمامه مثل شبح، وزاد المصباح الوحيد المضاء في الخيمة غموض ملامح وجهه، فهبّ الإسكندر واقفاً على قدميه وكأنه أصيب بلسعة عقرب.

سأله: "متى عدتَ؟ ومن أدخلك إلى الخيمة؟".

"سبق أن قلت لك إنني أعرف الكثير، ولذلك أستطيع التجوّل في الليل بحرّيّة وفي أي مكانٍ أشاء".

ألقى الإسكندر نظرة على كلبه، فوجد بيريتاس نائماً بطمأنينة، وكأنه في تلك الخيمة بمفرده.

سأله الملك مجدداً: "كيف فعلتَ هذا؟".

"لا أهمية لذلك".

"إذاً، ما هو الأمر المهم؟".

"إنها الأخبار التي أوشكُ على إبلاغك إياها. ترك رفاقي من المواطنين الحراسَ الذين يحرسون المعبر الصخري، وتوجهوا جميعاً إلى منازلهم داخل تيرميسوس. يمكنك أن تفاجئهم، ثم تتقدم على رأس جيشك. وسترى في الجهة الأخرى إلى يسار الجبل ممراً يؤدي إلى بوابات المدينة. أما سكان المدينة، فسيستيقظون على أصوات أبواق جيشك".

خرج الإسكندر من الخيمة فلاحظ أن المعسكر غارقٌ في الصمت، وكان كل الجنود نائمين بطمأنينة، بينما اقترب الحراس من النيران المشتعلة كي يتدفأوا بها. التفت نحو أريستاندر الذي ما لبث أن

أشار إلى السماء: "انظر! إنه نسرٌ يحوّم بدوائر واسعة فوق الأسوار. وهذا يعني أن المدينة ستكون تحت رحمتك بعد الهجوم الذي ستشنّه هذه الليلة. لا تطير النسور ليلاً، ولهذا، فإنني أعتبرها إشارة من *الأسياد* بالتأكيد".

أعطى الإسكندر الأوامر بإيقاظ جميع الجنود من دون نفخ الأبواق، ثم ما لبث أن استدعى لايسيماخوس والقائد الأغرياني. "إنها مهمتكما. أعلم أنه لا يوجد في أعلى الصخرة إلا مجموعات من الحراس. يتعيّن عليكما أنتما والجنود أن تفاجئوهم وتقضوا عليهم من دون إحداث ضجة. وبعد ذلك، سنقود الجيش من خلال ذلك الممر. إذا نجحتم في هذه المهمة، فأنا أريد منكم أن ترسلوا إلينا إشارة، وهي إلقاء الحجارة على الأرض".

استمع الأغريانيون إلى الأوامر بلغتهم الخاصة بهم، ووعد الإسكندر بمكافأتهم إذا نجحوا في هذه المهمة. أبدى هؤلاء السرور بقبولهم هذا التحدي الجديد، ووضعوا الحبال المصنوعة من القنّب على أكتافهم، كما حملوا أكياساً تحتوي على المطارق والأوتاد الحديدية وأدواتٍ أخرى، بينما دسّوا خناجرهم تحت أحزمتهم. رآهم الإسكندر عندما بزغ القمر من وراء الغيوم لفترةٍ قصيرة وهم يتسلقون الصخور الجبلية برشاقة. أما أكثر الرجال تهوراً بينهم فقد تسلقوا الصخور بخفة، ومن دون أن يحملوا أي شيء في أيديهم، ووصلوا إلى أقصى حدٍّ يستطيعون الوصول إليه قبل أن يربطوا حبالهم ببعض الأحجار الناتئة، أو قبل أن يلجأوا إلى تثبيت وتدٍ حديدي في أحد الشقوق، وذلك قبل أن يُنزلوا الحبال بحيث يتمكن رفاقهم من التسلّق بسهولة أكبر.

عاد القمر ليختفي بين الغيوم، فاختفى الأغريانيون كلياً عن الأنظار. تقدّم الإسكندر إلى الأمام، وما لبث بطليموس أن تبعه،

وكـــذلك فعل حارسه الشخصي حتى وصل الثلاثة إلى مدخل المعبر. فانتظروا هناك بعد أن اختبأوا بعيداً عن الأنظار.

وبعـــد وقتٍ قليل، سمعوا صوت خبطة قوية، وتبعتها خبطة ثانية وثالثة. إذ كان الأغريانيون يرمون جثث الحراس واحداً تلو الآخر.

قـــال بطليموس بعد أن ألقى نظرة سريعة على الجثث المهشمة: "لقد أتموا مهمتهم، ويمكنك الآن أن ترسل الجيش كي يتابع تقدمه".

لكنّ الإسكندر طلب إليه التريّث. عادت الأصوات الحادة مجدداً، وسرعان ما تبعتها أصوات الأحجار الحادة المتساقطة من أعلى الجدران الصخرية.

فقـــال بطليموس مكرراً: "كما أخبرتك، لقد أنهوا مهمتهم. إنهم يتميـــزون بالسرعة الشديدة، ولا يُمكن لأحدٍ أن يتغلّب عليهم في مثل هذه الظروف".

طلـــب الإسكندر منه تمرير تعليماته إلى كل فرق الجيش للمضيّ قـــدماً بصمتٍ عبر المعبر. وما لبث صفٌّ طويل من الجنود أن انطلق، بيـــنما أنـــزل الأغريانيون أنفسهم فوق سطح الصخور بعد أن أنهوا مهمتهم مستعيدين حبالهم معهم.

عثر الأدلاء والكشافة الذين سبقوا الجيش على الممر الذي يؤدي إلى المديـــنة والـــذي يقع إلى يسار الوادي الضيّق. وقبل انبلاج الفجر، كـــان الجـــيش مـــصطفاً تحت الأسوار فوق الأرض الوعرة جداً، التي جعلت من نصب الخيم أمراً عسيراً.

وما إن نصبت خيمته بين صخرتين كبيرتين حتّى دعا الإسكندر رفاقـــه إلى عقـــد اجـــتماع. وبينما كان المبعوث يبحث عنهم أعلن هيفاســـتيون عن وصول زائرٍ آخر يطلب رؤية الإسكندر. كان الرجل مصرياً ويُدعى سيسين، وقال إنه يريد مقابلة الملك بأسرع وقتٍ ممكن.

سأل الإسكندر بدهشة: "رجلٌ مصري؟ ولكن، من هو؟ هل تعرّفت إليه من قبل؟".

هزّ هيفاستيون رأسه قائلاً: "كلا، لا أعرفه. لكنه يدّعي أنه يعرفنا نحن الاثنين، ويقول إنه قد عمل لدى والدك الملك فيليب، وأنه كان يرانا نركض ونلعب في ميدان بيلا. يبدو لي أنه قد قطع مسافة طويلة كي يصل إلينا".

"لكن، ماذا يريد؟".

"يقول إنّه يريد التحدث إليك على انفراد".

في تلك اللحظة بالذات، وصل مبعوث الإسكندر: "مولاي، وصل القادة وهم ينتظرون في الخارج".

قال الإسكندر آمراً: "أدخِلهم". ثم التفت إلى هيفاستيون قائلاً: "دعه يحصل على بعض الطعام، وتدبّر له مكاناً يأوي إليه حتى تجهز خيمة. وعُد بعد ذلك إلى هنا. أريدك أن تحضر اجتماع المجلس".

انطلق هيفاستيون كي ينفذ الأوامر، وما لبث أصدقاء الملك أن دخلوا على الفور: إيومينيس، وسلوقس، وبطليموس، وبيرديكاس، ولايسيماخوس، وليوناتوس. أما فيلوتاس، فكان مع والده في مناطق فريجيا الداخلية مع كراتيروس والأسود. قبّل الجميع الإسكندر على وجنتيه ثم جلسوا.

بدأ الإسكندر بالكلام: "لقد رأيتم المدينة، وعاينتم طبيعة الأرض الصخرية والقاسية. إننا لن نتمكن من جرّ أبراج الهجوم التي يمكن أن نصنعها من أخشاب الغابات إلى مواقعها. كما أنه من المستحيل حفر نفقٍ لأن هذا يعني العمل في الصخور الصلبة بالمطارق والأزاميل. إن ذلك مستحيل! إن الحل الوحيد في ظل هذه الظروف يكمن في فرض حصارٍ على تيرميسوس. ولكن، ليست لديّ فكرة عن الوقت الذي

سيمضي قبل أن تستسلم المدينة، لأن ذلك قد يستغرق أياماً، وربما شهوراً...".

قال بيرديكاس: "إننا لم نقلق أنفسنا بهذه الاعتبارات عندما كنا في هاليكارناسوس لأننا حسبنا ما نحتاج إليه من الوقت".

قال ليوناتوس: "دعونا نبني جبلاً من الأخشاب مقابل الأسوار، ثم نشعل فيه النيران كي نشويهم".

هزّ الإسكندر رأسه: "هل لاحظتم كم تبعد الغابات عن هذا المكان؟ وهل حسبتم كم رجلاً سنفقد إذا أرسلنا الرجال لنقل الأخشاب إلى أسفل الأسوار من دون غطاءٍ يحميهم؟ لا أريد أن أرسل الرجال إلى حيث يلقون حتفهم إلا إذا عرّضت نفسي للمخاطر ذاتها مع وجودكم قربي. يُضاف إلى ذلك أن الوقت ليس لصالحنا، كما أنه من الحيوي بالنسبة إلينا أن نلتقي جنود بارمينيون بأسرع وقتٍ ممكن".

قال إيومينيس: "لديّ فكرة. يشبه هؤلاء البرابرة اليونانيين تماماً. فهم ينشغلون على الدوام بصراعاتٍ مميتة. وبالتأكيد إنّ هناك أعداء لسكان تيرميسوس في مكانٍ ما. لذلك، فإن كل ما يتعيّن علينا فعله هو أن نوقع الخلاف بينهم. وبعد ذلك، يمكننا أن نتقدم إلى الشمال".

قال سلوقس: "ليست هذه بالفكرة السيئة".

علّق بطليموس بالقول: "إطلاقاً، هذا على افتراض أننا تمكّنا من العثور على هؤلاء الأعداء".

سأل الإسكندر أمينه العام: "هل ستهتم بهذه المسألة؟".

هزّ إيومينيس كتفيه: "بالطبع، هذا إذا لم يرغب شخصٌ آخر في تنفيذها".

"إذاً، لقد اتفقنا جميعاً. وبما أننا هنا فسنضرب حولهم حصاراً. لا يُسمح لأحد بالدخول أو الخروج من هذه المدينة. يمكنكم أن تنصرفوا الآن وتنضمّوا إلى رجالكم".

تفـرّق الـرفاق قاصدين وحداهم، وما لبث هيفاستيون أن عاد وقال: "أرى أنك قد انتهيت من الاجتماع. ماذا قررتم؟".

"قـرّرنا أنـه ليس لدينا الوقت الكافي لمقاتلة هذه المدينة. ولهذا، سـنحاول العـثور على شخصٍ ما يقوم بهذه المهمة بالنيابة عنا. أين ضيفنا؟".

"إنه ينتظر في الخارج".

"إذاً، أدخله".

خرج هيفاستيون، وما لبث أن عاد على الفور مع رجل يبدو أنه مـسنٌ قليلاً أي أقرب إلى العقد السابع منه إلى العقد الخامس. وكان أشـيب الشعر واللحية، أما ملابسه، فكانت مثل ملابس سكان الجبال المحليين.

قال له الإسكندر: "تعالَ. أعرف أنّك طلبت أن تتحدث إليّ. من أنت؟".

"اسمي سيسين، وأتيت حاملاً رسالةً من القائد بارمينيون".

نظـر الإسكندر إلى عينيه الداكنتين والزائغتين وقال: "لم أركَ من قبل. إذا كان بارمينيون هو الذي أرسلك، فلا بد من أنك تحمل رسالة تحمل ختمه".

"لا أحمـل خطابـاً مكتوباً منه، لأن حمله يشكّل خطراً كبيراً في حـال تم إلقاء القبض عليّ. لكنني أحمل أوامر بأن أنقل إليك شخصياً الأمور التي أبلغني إياها".

"إذاً، تكلّم".

"يتواجد مع بارمينيون أحد أقربائك، وهو يقود الفرسان".

"إنـــه قريبـــي إمينتاس من لينـــزستوس. إنه جندي ممتاز، ولهذا سلّمته قيادة الفرسان التيساليين".

"وهل تثق به؟".

"حضر إلى جانبـــي فور اغتيال والدي، وهو يُظهر ولاءه لي منذ ذلك الحين".

سأل الرجل ثانيةً: "هل أنت متأكدٌ من هذا؟".

بـــدأ صبر الإسكندر بالنفاد عند هذه النقطة: "إذا كان لديك ما تخبرني إياه، فافعل ذلك مباشرة، من دون لفٍّ أو دوران".

"اعتـــرض بارمينـــيون طـــريق مبعوث فارسيّ كان يحمل رسالةً موجّهة من الملك العظيم إلى ابن عمك".

مدّ الإسكندر يده وقال: "أيمكنني أن أراها؟".

هـــزّ سيسين رأسه مبتسماً ابتسامة صغيرة: "إنها وثيقة هامة جداً، ولا نـــستطيع المغامـــرة بفقدانها في حال ألقيَ القبض عليّ. لكنّ القائد بارمينـــيون أجـــاز لي مـــع ذلك أن أنقل إليك شفهياً محتويات تلك الرسالة".

أشار الإسكندر إلى الرّجل بأن يتابع كلامه.

"يعـــرض الملك العظيم على ابن عمك إمينتاس من لينـــزستوس عرش مقدونيا، وألفَي تالنت من الذهب مقابل حياتك".

عجز الإسكندر عن الكلام لبعض الوقت. وفكّر على الفور في ما قاله له إيمولبوس من سولوي في ما يتعلق بإرسال مبلغٍ كبيرٍ من المال من قـــصر سوسا إلى الأناضول، وفكّر في الشجاعة والولاء اللذين أظهرهما ابـــن عمـــه حتى هذه اللحظة. وشعر فجأة بأنه عالقٌ وسط شبكةٍ من المؤامـــرات، والتي تبدو إزاءها الشجاعة والقوة والجرأة من دون قيمة،

وهـــو وضعٌ يستدعي مواهب والدته أكثر بكثير مما يستدعي مواهبه. لكن الوضع يتطلّب على أيّ حال حلاً فورياً.

قال الإسكندر: "إذا تبيّن لي أن كلامك غير صحيح فسوف آمر بتقطيعك إرباً إرباً قبل رميك إلى الكلاب".

رفـــع بيريتاس، الذي كان يغطّ في النوم في إحدى زوايا الخيمة، رأســـه ثم أخـــذ يلعـــق فمه، وكأنه مهتم بهذا التغيّر المفاجئ في لهجة الإسكندر. فلم يتأثر سيسين أبداً، بل قال: "لن يصعب عليك أن تتأكد إن كنت أكذب عندما تلتقي بارمينيون".

"ولكـــن، ما هو الدليل الذي تمتلكه، والذي يثبت أن ابن عمي ينوي قبول المال، وما عرضه عليه الملك العظيم؟".

"لا أملـــك دلـــيلاً من الناحية النظرية. ولكن، فكّر في الوقائع يا مولاي. هل يُقدم داريوس على تقديم عرضٍ كهذا، وعلى المخاطرة بهذا المبلغ الكبير من المال لو لم يكن متأكداً من الردّ؟ وهل سمعتَ عن رجلٍ يستطيع رفض مغريات السلطة والثروة إلى ما لانهاية؟ لو كنت مكانك يا مولاي لما خاطرتُ أبداً، لأن ابن عمك يمتلك أموالاً طائلة، ويـــستطيع أن يوظّـــف ألـــف قاتل، ويمكنه أن يقوم برشوة جيشٍ بكامله".

"أتقترح عليّ ما يجب أن تكون عليه خطوتي التالية؟!".

"كـــلا، إنـــني خادمٌ مخلصٌ يقوم بواجبه، ويجتاز الجبال المكسوة بالثلوج مرتين، ويعاني من الجوع والبرد، ويخاطر بحياته أكثر من مرة في بلادٍ لا تزال في قبضة جنود الملك العظيم وجواسيسه".

لم يُجِب الإسكندر، ولكنه فهم عند هذه النقطة أنه لا يملك أي خـــيار غـــير اتخاذ قرارٍ ما. وفسّر سيسين الصمت بطريقة منطقية إلى أقصى حدٍّ.

"أعطـــاني بارمينـــيون الأوامر بالعودة إليه في أسرع وقتٍ ممكن مـــزوداً بتعليماتك. لا يُمكن أن تكون هذه الأوامر مكتوبة بدورها، إذ يجـــب علـــيّ أن أبلغهـــا إليه شخصياً. إن القائد يشرفني حقاً بثقته الكاملة".

أدار الإســـكندر ظهره لأنه لا يريد أن يمنح سيسين فرصة قراءة أفكـــاره. فكّـــر الإسكندر في كلّ شيء، وأخذ كل الاحتمالات في الحسبان، ثم التفت إليه وقال: "هذه هي رسالتي إلى القائد بارمينيون:

> تلقـــيت رسالتك الشفهية، وأنا أشكرك على إلقائك الضوء على مؤامـــرة كان من الممكن أن تؤدي إلى فشل مهمتنا، أو أن تنتهي بموتي أنا.
>
> رغـــم كل شيء، فنحن لا نملك دليلاً على أنّ ابن عمي لديه نية قبول المال والاقتراح، وذلك استناداً إلى ما أُبلغتُ به.
>
> ولهـــذا السبب، أريد أن تعتقله إلى حين وصولي، وإلى أن أمتلك فرصة استجوابه شخصياً. لكنني أريد أن يلقى معاملة تليق برتبته ومركزه. آمل أن تكون بخير. انتبه إلى نفسك.

كرّرها الآن".

نظـــر سيسين مباشرة إلى عيني الإسكندر بعد أن أمره هذا الأخير بتكـــرار رســـالته الشفهية، ثمّ كرر الرسالة حرفياً، ومن دون أي ترددٍ مهما كان.

أجـــاب الملـــك مخفياً دهشته: "حسناً، والآن اذهب كي تتناول الطعـــام وتنام. هذه الليلة، ستحصل على سريرٍ، وستنطلق مجدّداً عندما تشعر بأنك نلتَ ما تحتاج إليه من الراحة وأصبحت مستعدًّا".

"أطلـــب الحـــصول علـــى كيسٍ من الأطعمة وعلى قربة ماء، وسأغادر على الفور".

"انتظر".

انتصب سيسين واقفاً على الفور بعد أن كان قد انحنى لدى طلبه الإذن بالمغادرة: "في خدمتك يا مولاي".

"كم يوماً أمضيتَ كي تصل إلينا من موقع القائد بارمينيون؟".

"أحد عشر يوماً على ظهر البغل".

"أبلِغ بارمينيون أنني سأغادر تيرميسوس في غضون خمسة أيام على الأكثر، وأنني سأنضمّ إليه في غورديوم مستغرقاً الوقت ذاته الذي استغرقته أنت للوصول إلى هنا".

"أتريدني أن أكرّر هذه الرسالة أيضاً؟".

قال الإسكندر: "لن يكون ذلك ضرورياً. أشكرك على المعلومات التي أبلغتَني إياها، وسآمر إيومينيس بأن يكافئك على أتعابك".

أجاب سيسين: "لن يكون ذلك ضرورياً يا مولاي. إن مكافأتي هي مساهمتي في حمايتك. لا أطلب أي شيء زيادة على هذا". وحدج الملكَ بنظرة أخيرة كان يُمكن أن تعني شيئاً، ثم انحنى باحترام وغادر.
جلس الإسكندر على مقعده بتثاقل، ووضع رأسه بين كفّيه.

جلس بسكون لفترة طويلة، وعادت به أفكاره إلى الأيام التي كان فيها في بيلا، أيْ عندما كان طفلاً يلعب مع رفاقه وأبناء أعمامه بالكرة، فشعر برغبة في الصراخ أو البكاء.

لم يستطع تقدير الوقت الذي مضى على وجود ليبتين وهي تنظر إليه وتضع يدها على كتفه قبل أن تقول بنعومة: "هل تلقيتَ أخباراً سيئة يا مولاي".

وضعت ليبتين خدّها على كتفه: "تمكنت من العثور على بعض الحطب للتدفئة ولتسخين بعض الماء. أترغب في الاستحمام؟".

أومأ الملك، وتبع الفتاة إلى جناحٍ خاصٍّ في الخيمة حيث كان ينتظره حوضٌ مليء بالمياه الساخنة التي يتصاعد منها البخار. نزعت

عـــنه ليبـــتين ثيابه على ضوء المصباح، وكانت الظلمة قد خيّمت قبل بعض الوقت.

37

تمكّن إيومينيس بمساعدة أريستاندر من التوصل إلى اتفاقية مع السلغانيين، وهم شعب يسكن في الجوار، والأعداء الألدّاء للترماسيين، وذلك بالرغم من أنهم يتكلمون اللغة ذاتها، وأسيادهم المبجّلة هي ذاتها. إذ أعطاهم إيومينيس المال، وطلب من الإسكندر أن يمنح قائدهم لقباً مهمًّا مثل *الأمير الأعظم وحاكم بيسيديا الوحيد*. وعلى الفور، اتخذ السلغانيون مواقعهم حول المدينة واستعدوا للحصار.

ذكّر أريستاندر الملك وهو يفسّر الوضع بطريقته الرفيعة: "سبق أن أخبرتك أن الترماسيين سيكونون تحت رحمتك بعد وقت قصير".

حرص الملك على استسلام المدن المجاورة على طول الساحل - مثل سايد وأسبندوس - وهي مدن جميلة بُنيت جزئياً على الطراز الفارسي مع باحات، وأروقة معمّدة وهياكل مزينة بالتماثيل. وفرض الإسكندر على هذه المدن دفع الضرائب التي كانت تدفعها للفرس في السابق. وفي نهاية الأمر، تحرّك الإسكندر شمالاً تاركاً وراءه تحت أسوار تيرميسوس مجموعةً من الضباط من فرقة الهيتايروي، وفرقةً من جنود الهجوم حاملي الدروع، هذا بالإضافة إلى بعض حلفائه من البرابرة.

كانت جبال طوروس مغطاة بالثلج، لكن الطقس كان جيداً بما فيه الكفاية، فبدت السماء صافيةً بلونها الأزرق الداكن. وتناثرت هنا وهناك مجموعات معزولة من أشجار الزان والسنديان التي ظهرت أوراقها الحمراء والبنية المائلة إلى اللون الأصفر من بين بياض الثلج الناصع مثل جواهر موضوعة فوق صينية فضية. وكان الإسكندر قد

أرسل التراقيين والأغريانيين بقيادة لايسيماخوس مع بداية تقدّم الجيش كـــي يسبقوه إلى احتلال المعابر، ولتجنّب الهجمات المفاجئة. وهكذا، تقدّم الزحف من دون ظهور أيّ مخاطر جدية.

اشترى إيومينيس كميات كبيرة من المؤن من القرى، وذلك كي لا يُـــزعج السكان المحليين، ومن أجل ضمان أهدأ عبورٍ ممكن للجيش عبر مرتفعات سلسلة الجبال العظيمة.

امتطـــى الإسكندر صهوة جواده بوسيفالاس، وتقدّم بصمت كل الجـــنود الـــذين علموا بأنه كان منشغلاً بمشكلة ما. اعتمر الإسكندر خـــوذته المقدونية التقليدية، بينما غطّت كتفيه عباءةٌ عسكرية مصنوعة من الصوف الكثيف. ركض بيريتاس بمحاذاته، وبدا أنه يقفز بين حوافر ذلك الجواد العظيم. وكان قد سبق للحيوانين أن أقاما تفاهماً ودياً قبل بعض الوقت، كما أن الكلب كان يستلقي على كومة القش القريبة من بوسيفالاس عندما لا يكون نائماً أسفل سرير الإسكندر.

وبعـــد ثلاثـــة أيام من السّير عبر الجبال، وصل الجيش إلى حيث امـــتدت أمامـــه المرتفعات الداخلية للبلاد. رأى الجنود سهلاً منبسطاً ويابساً لفحته الرياح الباردة والقارسة. وتراءى لهم من بعيد تجمّع مياه لامـــع، وصـــافٍ وداكن، وقد أحاط به البياض الساطع الذي يُعمي العيون.

كـــان إيومينيس قد شعر بالبرد فنـــزع عباءته العسكرية القصيرة وارتدى بدلاً منها سروالاً أكثر دفئاً من صنع فريجيا. وما إن رأى المنظر حتّى غمغم قائلاً: "ها نحن الآن أمام المزيد من الثلج".

ردّ الإسكندر الذي كان إلى جانبه فوق صهوة جواده: "كلا... إن مـــا تـــراه ليس إلا ملحاً. إنها بحيرة آسكانيا، وهي أكثر ملوحة من البحر. إذ تتبخر كمية كبيرة من مياهها في فصل الصيف، فتمتد طبقة

من الملح إلى الخارج، ويقوم السكان المحليون ببيع الملح في أنحاء الوادي".

وبينما كان الجنود يمرّون فوق الملح، كانت الشمس قد بدأت بالانحدار خلف الجبال، وأحدثت أشعتها المنكسرة بفعل ملايين بلورات الملح تأثيراً رائعاً، وجواً سحرياً يتجاوز الواقع. تأمّل الجنود المكان بصمت، من دون أن يتمكنوا من تحويل أبصارهم عن التغيّرات المستمرة في الألوان، وعن أشعة الضوء المنكسرة بفعل ملايين الأسطح البلورية التي تحوّلت إلى عروضٍ من الشرارات التي تشبه تلك المنطلقة من النيران.

قال سلوقس: "يا للعظمة! نستطيع الآن أن نقول فعلاً إننا بعيدون عن الوطن".

قال بطليموس موافقاً: "أجل. لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا طوال حياتي".

علّق أريستاندر بالقول: "ليس ذلك كل ما ينتظركم. إذ يوجد على مسافة أبعد جبل أرغايوس الذي ينفث النيران وألسنة اللهب من قمته، ويغطي المناطق كلها بطبقةٍ من الرماد. يُقال إن العملاق تايفون (إعصار) مقيّد داخله".

أشار بطليموس إلى سلوقس كي يتبعه، ونخس جواده وسار به إلى الأمام وكأنه يريد استعراض صفّ الجنود. تابع السير لمسافة نصف ستاديوم قبل أن يشدّ لجام الجواد، فأبطأ سيره.

سأل: "ما خطب الإسكندر؟".

توقف سلوقس إلى جانبه وقال: "لا أعلم. بقيَ على هذه الحال منذ أن أتى ذلك الزائر المصري كي يراه".

ردّ بطليموس: "لا أحب المصريين. ومن يعلم أيّ سخافات زرعها في رأس الإسكندر؟ ألم يكفنا ذلك الضالع (الرائي) أريستاندر".

"أعـــتقد أن هيفاستيون يعلم شيئاً، لكنه ليس مستعداً للبوح بأي شيء".

"أنا متأكد من ذلك. إنه يفعل ما يريده الإسكندر بالضبط".

"هـــذا صحيح. ولكن، من يدري طبيعة هذا السر؟ لا بد من أنها أخـــبار سيئة. وما هو سبب هذا التسرع في المضي قُدُماً... أتعتقد أن أمراً ما قد أصاب بارمينيون؟".

نظـــر بطلـــيموس لفترةٍ وجيزة إلى الإسكندر الذي كان يسبقهم بجواده، ولكن ليس بمسافة كبيرة.

"لا بـــد من أنه قالَ شيئاً. يُضاف إلى ذلك أن بارمينيون بصحبة الأســـود، وفيلوتاس، وكراتيروس، وحتى إمينتاس ابن عم الإسكندر، والمسؤول عن قيادة الفرسان. أيعقل أن يكونوا قد هلكوا جميعاً؟".

"مـــن يعلم؟ لعلهم وقعوا في كمين... أو لعل الإسكندر يفكّر في ممنون. إن ذلك الرجل قادرٌ على كل شيء، وربما يكون قد نـــزل في مقدونيا، أو في بيرايوس بينما نحن نتكلم هنا".

"ماذا يمكننا أن نفعل؟ إذا دعانا إلى تناول العشاء يمكننا أن نسأله عن الأمر".

"يتعلق هذا الأمر بطبيعة مزاجه. أعتقد أنه من الأفضل أن نتحدث مع هيفاستيون".

"أجل. أنت محقّ. دعنا نفعل هذا".

في هـــذا الـــوقت، اختفت الشمس تحت خط الأفق، لكن أفكار الشابين تحوّلت إلى النساء الشابات اللواتي تركاهنّ وراءهما في بيريا، أو في يـــوردايا، ولعلـــهن يفكّرن فيهما الآن في مثل هذا الوقت من اليوم الذي يوحي بالكآبة.

سأل بطليموس على نحوٍ مفاجئ: "هل فكّرت يوماً في الزواج؟".

"كلا، وأنت؟".

"وأنا كذلك. لكنني ما كنت لأمانع الزواج بكليوباترا".

"آه، إذاً، هكذا!".

"وبيرديكاس، لم يكن ليمانع هو الآخر إذا كان الأمر هكذا".

"صحيح، بيرديكاس كذلك".

سُمعت صيحةٌ قوية من أمام صفّ الجنود. كان الكشافة يعودون مسرعين الواحد تلو الآخر، وذلك بعد أن عادوا من مهمة مراقبة، وهي آخر مهمة لهم قبل حلول الظلام. "كيلايناي! كيلايناي!".

سأل إيومينيس: "أين؟".

أشـــار أحد الكشافة إلى تلة بعيدة تلمع من فوقها أضواء عديدة. كان منظراً رائعاً، وكأن تلة نملٍ عملاقة قد أضاءها ألوف اليَراع.

بدا أن وجه الإسكندر قد تهلل قليلاً، وما لبث أن رفع ذراعه كي يوقف صف الجنود المتقدم، وقال آمراً: "سنخيّم هنا. سنقترب غداً من المديـــنة. إنها عاصمة فريجيا، ومقر المرزبان الفارسي لهذه المقاطعة. وإذا كان بارمينيون لم يتمكن من احتلالها بعد، فسنقوم نحن بهذه المهمة. لا بد من أن مبالغ كبيرة من المال تتواجد في تلك القلعة".

قال بطليموس: "يبدو أن مزاجه قد تغيّر".

قـــال سلوقس: "هذا صحيح بالفعل. لا بد من أنه تذكّر ما اعتاد أرسطو أن يقوله: *إما أن يكون هناك حلٌ للمشكلة، ولذلك لا جدوى من القلق بشأنها. وإما ألاّ يكون هناك حلٌ، ولذلك لا جدوى من القلق بشأنها*. يُحتمل أن يدعونا إلى العشاء في نهاية الأمر".

38

اقتـــرب الشتاء، ووصل أرسطو إلى ميثون على متن إحدى آخر الـــسفن الـــتي غـــادرت ميناء بيرايوس. قرّر القبطان أن يستغل الرياح الجنوبـــية القوية كي يسلّم شحنة من زيت الزيتون، والشراب، وشمع الـــنحل، وهـــي السلع التي كانت ستتأخر في المستودعات حتى قدوم الربيع لو لم تشحن فوراً. وعندها، ستكون الأسعار قد انخفضت.

مـــا إن نـــزل أرسطو من السفينة حتى ركب عربة يجرها بغلان، وطلب من السائق أن يأخذه إلى ميبزا. امتلك أرسطو مفاتيح كل المباني الموجـــودة هناك، كما سُمح له أن يذهب إلى هناك ويغادر متى يشاء، وأن يـــستخدم كل المنشآت وفي أي وقتٍ شاء. كان مدركاً تماماً بأنه ســـيلتقي شخـــصاً كي يتحدث إليه، وهو الشخص الذي يُحتمل أن يـــزوّده بمعلـــوماتٍ أولـــية عـــن الإسكندر. كان ذلك الشخص هو ليسيبوس.

عـــندما وصل أرسطو، كان النحّات في مشغله يعمل على صنع نمـــوذجٍ طينيٍّ للتمثال الكبير والمعقد لجنود الإسكندر الذين سقطوا في معركة غرانيكوس، وهو النُصُب الذي سيُصَبّ بمقاييسه النهائية. كان قد حلّ الظلام، ولهذا، كانت المصابيح تشتعل داخل المختبر، وفي غرفة الطعام، وداخل بعض غرف الضيوف.

حـــيّاه ليسيبوس بالقول: "أهلاً يا أرسطو. إنني آسف، لكنني لا أستطيع أن أصافحك، لأن يديّ متسختان. سأكون معك إذا انتظرتَني بضع لحظات فقط".

اقتـــرب أرسطو أكثر كي ينظر إلى النموذج. كان تمثالاً يمثّل ستة وعـــشرين رجـــلاً واقفين على منصة يتراوح طولها ما بين ثماني أقدام وعـــشر أقـــدام. كان الانطباع الذي تتركه اللوحة مذهلاً. إذ كان في إمكـــان المرء أن يشعر فعلياً بحركة المياه، وبشراسة الجياد المهاجمة. فيما بـــدا الإســـكندر وسط هذا المنظر فخوراً بدروعه، وقد تلاعبت الريح بشعره وهو ممتطٍ صهوة جواده بوسيفالاس.

غسل ليسيبوس يديه في حوض المياه واقترب منه.

"ما رأيك به؟".

"إنـــه في غايـــة الروعة. إن ما يدهش المرء في أعمالك هو الطاقة الحيوية التي تظهر في تركيبات أساسية مثل الجسم".

بدا الإلهام على ملامح ليسيبوس في أثناء رفعه يديه الضخمتين كي يصف المشهد، وأوضح: "سيشاهد الزائر كل هذا على حين غرّة، أي عـــندما يكـــون قادماً من فوق قمة مرتفعٍ صغير. سيكون الانطباع أن الجـــنود يهاجمون المراقب ويسحقونه. طلب مني الإسكندر أن أكرّمهم علـــى مـــدى الأجـــيال، وها أنا أبذل كل طاقاتي في سبيل إرضائه، ولتعويض أهالي الجنود عن خسارتهم المؤلمة ولو جزئياً".

قال أرسطو: "إنك تمنحه في الوقت ذاته مركز الأسطورة الحية".

"أعتقد أن ذلك ما كان ليحدث لولا إسهاماتي، أليس كذلك؟".

نـــزع ليسيبوس رداءه الجلدي وعلّقه على مسمار: "يكاد العشاء أن يجهز، أيمكنك أن تتفضل وتأكل معنا؟".

أجـــاب أرســـطو: "يـــسعدني ذلك. مَن يتواجد معنا في هذا المكان؟".

أشـــار النحّات إلى شابٍّ ذي شعر خفيف كان واقفاً في الزاوية، ويعمـــل علـــى حفـــر قطعة من الخشب، وهو الذي ما لبث أن حيّا

الفيلسوف بانحناءة من رأسه تدل على الاحترام. "إنه مساعدي شاريس. كما يوجد مبعوثٌ من مدينة تارانت، وهو إفيميروس من كاليبوليس، الرجل الطيّب الذي يُحتمل أنه يحمل إلينا أخباراً من الإسكندر ملك إيبيروس".

غادرا المشغل، ومشيا نحو غرفة الطعام عبر الرواق الداخلي ذي الأعمدة. فراح أرسطو يفكّر بحزن في آخر مرة تناول فيها الطعام مع الملك فيليب.

سأل ليسيبوس: "هل ستمكث طويلاً؟".

"كلا، ليس لوقتٍ طويل. أرسلت تعليماتٍ إلى كاليستين في رسالتي إليه، وطلبت إليه أن يرسل جوابه إليّ هنا في ميِيزا، وأنا متشوقٌ كي أقرأ أخباره. سأذهب بعد ذلك إلى آيجيا".

"أتريد الذهاب إلى القصر القديم؟".

"سأقدم أضحية في مدفن الملك، كما أرغب في رؤية عددٍ من الأشخاص".

تردّد ليسيبوس للحظة: "سمعت رواية تفيد بأنك تحقق في قضية اغتيال الملك فيليب. ولكن، ربما كان هذا الخبر مجرد إشاعة".

قال أرسطو من دون اكتراث: "إنه ليس إشاعة".

"أيعرف الإسكندر بهذا؟".

"أعتقد ذلك، بالرغم من أنه أوكل المهمة في البداية إلى ابن اختي كاليستين".

"وماذا بشأن الملكة الأم؟".

"لم أخبرها بهذا. لكن أوليمبيا تمتلك مخبرين وجواسيس في كل مكان. أعتقد أنها تعلم".

"ألا تخشى أن تعلم؟".

"أنــا واثقٌ من أن الوصي على العرش، أي أنتيباتر، سيضمن عدم إصـــابتي بـــأيّ سوء. أترى سائق العربة الذي يقف هناك؟"، قال وهو يشير إلى الرجل الذي أقلّه إلى ميبزا، والذي كان في تلك اللحظة يهتم ببغليه في الإسطبل، "إنه يحمل في حقيبته سيفاً مقدونياً من النوع الذي يحمله حرّاس القصر".

ألقـــى ليسيبوس نظرةً على الرجل الذي كان جبلاً من العضلات والـــذي يتحرك بخفة الثعلب. وأمكنه أن يلاحظ، حتى من تلك المسافة البعـــيدة، أنّه جندي من الحرس الملكي. "آه! يمكنه أن يجلس أمامي إذا أردتُ صنع تمثال هرقل".

سار الرجلان إلى غرفة الطعام.

قـــال الفنان: "لا توجد أسرةٌ لتناول الطعام هنا. بقي كل شيء على ما كان عليه، وعلى كل شخصٍ أن يأكل وهو جالس إلى الطاولة".

"إنني أفضّل هذه الطريقة لأنني لست معتاداً على تناول الطعام وأنا ممددٌ على السرير. حسناً إذاً، ما هي أخبار الإسكندر التي وصلتك؟".

"اعتقدت أن كاليستين يزوّدك بهذه الأخبار".

"بالطـــبع، إنه يفعل ذلك. لكنني حريصٌ على معرفة انطباعاتك أنت. هل رأيتَه منذ وقت قريب".

"أجل، رأيته مرة واحدة، وذلك كي أريه مخطط التمثال".

"وكيف حاله؟".

"إنـــه مـــنغمسٌ كلياً في أحلامه وطموحاته، ولن يوقفه أي شيء حتى تحقيق هدفه".

"وما هو هدفه برأيك؟".

لزم ليسيبوس الصمت بضع لحظات، وبدا أنه يراقب خادماً وهو يحرك نيران الموقد. ثم أجابه من دون أن يلتفت: "إنه يريد تغيير العالم".

تنهد أرسطو: "أعتقد أنك فهمت الأمر. لكن المهم هنا هو ما إذا كان هذا التغيير نحو الأفضل أم نحو الأسوأ؟".

في تلك اللحظة، دخل الضيف الأجنبي إفيميروس من كاليبوليس، وما لبث أن عرّف عن نفسه في أثناء تقديم طعام العشاء، والذي كان مؤلفاً من أطباق حساء الدجاج مع الفاصولياء، والخبز، والجبن، والبيض المسلوق جيداً، بالإضافة إلى الزيت والملح، كما قُدّم شرابٌ من طاسوس.

سأل ليسيبوس: "ما هي أخبار إسكندر إيبيروس؟".

أجاب الضيف: "إنها أخبار مهمة. يقود الملك جيشه الخاص بالإضافة إلى جيشنا، وهو يتحرك بهما من نصرٍ إلى نصر. هزم الميسابيين والإيابيجيين، فوقعت كل مناطق أبوليا بين يديه، وهي بلاد تساوي مساحتها مساحة مملكته".

"وأين هو الآن؟".

"لا بد من أنه الآن في مقرّه الشتوي في انتظار متابعة حملته في الربيع القادم ضد السامنيين، وهم شعب من البرابرة الذين يسكنون في جبال المناطق الشمالية. أقام الملك تحالفاً مع برابرة آخرين يحملون اسم الرومان، والذين سيهاجمون من الشمال بينما يسير هو من الجنوب".

"وكيف ينظر إليه شعب تارانت؟".

"لستُ مُلمّاً بالسياسة. لكنهم ينظرون إليه بشكل إيجابيّ حسب علمي... في هذا الوقت على الأقل".

"وماذا تعني؟".

"إن رفاقي من المواطنين هم شعب غريب، لأن اهتماماتهم الأساسية تتمثل بالتجارة وعيش حياة هانئة. ولهذه الأسباب، فهم لا يهتمون بالقتال. أما عندما يتورطون في مشاكل، فإنهم يستدعون جهةً

ما لتساعدهم. إن هذا هو ما فعلوه مع إسكندر إيبيروس، لكنني متأكد من وجود أشخاص بينهم يقولون إنه ساعدهم أكثر مما هو ضروري، وبشكلٍ مثالي أكثر من المتوقع".

ابتسم أرسطو ساخراً: "أتعتقدان أنّ الإسكندر قد ترك بلاده وعروسه الشابة، ويواجه المخاطر والصعوبات، ويسهر الليالي، ويقود زحفاً عسكرياً لا نهاية له، فقط كي يتمكنوا من التركيز على التجارة والحياة الرغيدة؟".

تابع إفيميروس كلامه: "تبنّت مجموعة من المواطنين الأثرياء فكرة جمع أموال لمشروعٍ كبير من شأنه أن ينشر شهرة المدينة في أنحاء العالم كافة".

غسل ليسيبوس فمه بشراب أحمر بعد أن انتهى من تناول الطعام، واتكأ على مسند رأس كرسيه، وقال للرجل: "تابِع".

"إنهم يريدون صنع تمثالٍ عملاقٍ لزيوس، ليس داخل معبد أو هيكل، ولكن في الهواء الطلق، وفي وسط الساحة العامة".

اتسعت عينا شاريس عند هذه النقطة، وكان هذا المساعد الشاب قد تحدث مع معلّمه أكثر من مرة عن أحلامه والتخيّلات التي تراوده.

ابتسم ليسيبوس، وتخيّل أفكار مساعده، ثم قال: "الأمر المهم هنا هو مدى ضخامته".

بدا إفيميروس متردداً للحظة، ثم قال فجأةً: "دعنا نقول أربعين كيوبيتاً".

دُهش شاريس، بينما تمسّك ليسيبوس بذراعَي مقعده ثمّ هبّ واقفاً.

"تقول أربعين كيوبيتاً؟ يا رجل! أتدرك أنك تتحدث عن تمثالٍ يساوي ارتفاعه ارتفاع البارثينون في أثينا؟".

"صحيح. إننا معشر اليونانيين الذين يعيشون في المستعمرات نفكّر في المشروعات الكبيرة".

التفت النحّات إلى مساعده الشاب: "ما رأيك يا شاريس؟ إن أربعين كيوبيتاً تعني أن الحجم ضخم جداً، أليس كذلك؟ للأسف، ليس هناك من أحد في العالم يستطيع في هذه اللحظة صنع تمثالٍ عملاق بذلك الحجم".

"لكن المكافأة سخيّة جداً".

ردّ ليسيبوس: "ليست المسألة متعلقة بالمكافأة، بل إنها مسألة تقنيات. فنحن، وببساطة، لا نمتلك التقنيات اللازمة لإبقاء البرونز سائلاً لمدة تكفي لتغطية مساحات كهذه، كما أننا لا نستطيع زيادة حرارة المعدن المصهور بالشكل المطلوب من دون المخاطرة بإحداث شقٌّ في القالب. إنني لا أقول هنا إنّ الأمر مستحيلٌ تماماً، لذا، يمكنك أن تسأل فنانين آخرين... ولَمَ لا تسأل شاريس الموجود هنا، مثلاً؟"، أضاف وهو يعبث بشعر تلميذه الخجول: "إنه يقول إنه سيصنع ذات يوم أكبر تمثالٍ في العالم".

هزّ إفيميروس رأسه: "إذا لم يرغب ليسيبوس العظيم في تنفيذ هذه المهمة فمن غيره يستطيع ذلك؟".

ابتسم ليسيبوس ووضع يده على كتف مساعده: "لعل شاريس يستطيع تنفيذها. من يعلم؟".

دُهش أرسطو حين رأى ملامح الشاب التي تدل على قدرة تخيّل واسعة: "من أين أنت أيها الشاب؟".

"إنني من ليندوس التي تقع في جزيرة رودس".

بدا أن الاسم قد ذكّر الفيلسوف بشيء أصبح مألوفاً لديه حديثاً، فكرّر قبل أن يعود إلى موضوع المناقشة: "أنت من رودس... إنهم يطلقون على التماثيل هناك اسم *العمالقة*. أليس كذلك؟".

بدأ خادم برفع أطباق الطعام، وسكب المزيد من الشراب.

ارتشف ليسيبوس جرعةً ثم قال: "تبقى فكرتك على أيّ حال فكرةً مدهشة يا إفيميروس، حتى ولو كانت في رأيي غير قابلة للتنفيذ. على أيّ حال، إنني مشغولٌ في هذه الأيام، وسأكون مشغولاً لعدة سنواتٍ آتية. لذلك، لا وقت لديّ لدراسة عملٍ من هذا النوع وللتخطيط له. لكن، يمكنك أن تُبلغ رفاقك المواطنين بأن ذهن ليسيبوس يحتفظ بصورة عن زيوس، وأنها يُمكن أن تتحقق عاجلاً أم آجلاً سواءً أكان ذلك في غضون سنة، أم في غضون عشر سنوات، أو ربما بعد عشرين سنة... من يدري؟".

وقف إفيميروس، وقال: "إذاً، وداعاً يا ليسيبوس. إذا غيّرتَ رأيك يمكنك أن تتأكد من أننا سنرحّب بك في تارانت".

"وداعاً يا إفيميروس. يتعيّن عليّ أن أعود إلى مشغلي حيث تنتظرني مجموعة من الفرسان والمصنوعة من الطين كي أضفي عليها الحيوية التي تكتسبها من البرونز المصبوب، وهذه المجموعة هي من جنود الإسكندر".

39

دخـــل أرســـطو غرفته التي اعتاد عليها، وأضاء المصابيح، ثم فتح صـــندوقه الشخــصي وتناول منه الرسالة التي كان يتوقع وصولها من كاليـــستين، والـــتي كانت عبارة عن رزمة ملفوفة من أوراق البردى، ومـــربوطة بخـــيطٍ جلدي. كُتبت الرسالة المشفّرة برموزٍ سرية وفريدة كلـــياً، وهي الرموز التي لا يعرف مفتاح فكّها أحدٌ غيره، بالإضافة إلى ابـــن شـــقيقته وثيوفراستوس. أمسك الفيلسوف لوحة مفتاح الرموز ووضـــعها فوق الكلمات، وهكذا عزل الكلمات المهمة عن الكلمات المكتوبة بطريقة عشوائية، ثم بدأ بقراءة الرسالة.

وبعـــد أن قـــرأ أرسطو الرّسالة بكاملها وضعها فوق المصباح، وراقـــبها وهي تتجعد بفعل الحرارة حتى آخر زاوية فيها، إلى أن أتت ألسنة اللهب عليها، وعلى الأسرار التي تحتويها بالكامل، ولم تُبقِ النيران مـــنها غـــير أجـــزاء متناثـــرة وصـــغيرة. توجه أرسطو بعد ذلك إلى الإسطبلات، وأيقظ سائق العربة الذي نقله إلى ميبزا. أعطاه الفيلسوف رزمةً مقفلة ومرفقة برسالة منه، وشرح للسائق أهمية أن يتبع التعليمات التالـــية المـــتعلقة بالرسالةً: "خذ أفضل جواد، وانطلق فوراً نحو ميثون. ســـيكون بانـــتظارك هـــناك قبطان السفينة التي جئت على متنها من بيرايـــوس. اطلـــب إليه أن يأخذك إلى ثيوفراستوس الموجود في مكانٍ مذكـــورٍ في الرســـالة. أعطِـــه الـــرزمة. أما إذا لم تستطع أن تتصلً بثيوفراستوس لأي سبب من الأسباب، فإنني أريدك أن تبحث عن ابن شقيقتي كاليستين كي تسلّمه الرزمة".

"أشـــك في أن يوافق القبطان على الإبحار، لأن الطقس سيصبح سيئاً".

تناول أرسطو كيساً من المال من داخل عباءته: "يُحتمل أن يُفلح هذا المبلغ في إقناعه بالإبحار. اذهب الآن، وبسرعة".

انتقى الرجل جواداً من الإسطبل، وتناول سيفه وعلّقه في حزامه، بينما حلت الرزمة محلّ السلاح. ثم انطلق بعدها على الفور.

كـــان الوقت متأخراً. لكن ليسيبوس استمر في العمل، وما لبث أن توجه نحو نافذة مشغله عندما سمع ضجة، فرأى أرسطو يتحرّك بسرعة عبر رواق الـــباحة الداخلية ذي الأعمدة. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان ليـــسيبوس يحلق ذقنه، رأى الفيلسوف مرة ثانية. كان أرسطو مرتدياً ثيابه، وحـــاملاً حقيـــبة سفره فوق كتفه، ومتوجهاً نحو الإسطبلات حيث كان الـــبغلان مربوطين بالعربة. جفّف ليسيبوس وجهه بسرعة وأراد النـــزول كـــي يـــودّع الفيلـــسوف، لكن أحد الخدم طرق الباب في تلك اللحظة بالذات، وناوله قصاصة ورق صغيرة كُتب عليها:

> من أرسطو إلى ليسيبوس. تحياتي.
> فرضـــت علـــيّ أعمال هامة أن أغادر على الفور. آمل أن نلتقي مجدداً في أقرب وقت. أتمنى لك النجاح في عملك.
> انتبه إلى نفسك.

عندما نظر ليسيبوس من خلال النافذة مجدداً، كان أرسطو يختفي داخـــل عربة صغيرة تتحرك فوق الطريق المتجهة شمالاً. كانت السماء رماديةً، والبردُ شديداً وكأن الثلج قد تساقط. لذا، أغلق النحّات النافذة وأنهى حلاقته قبل أن ينـــزل كي يتناول طعام فطوره.

ارتحل الفيلسوف يوماً كاملاً، ولم يتوقف إلا ليتناول وجبةً خفيفة في خـــانٍ صغير في كيتيون التي تقع في منتصف المسافة التي سيجتازها.

كان المساء قد حلّ عندما وصل إلى آيجيا وما لبث أن توجه على الفور إلى مـــدفن الملـــك فيليب. كان مصباحان ثلاثيّا القواعد يشتعلان عند جهتَـــي مذبح. سكب مقدار قارورة من العطور الشرقية فوق قاعدتَي المصباحين، وما لبث أن استغرق في التأمل أمام البوابة الحجرية الكبيرة المتوّجة بمناظر جميلة تزيّنها. تخيّل في تلك اللحظة الملك وهو يترجّل عن صهوة جواده في باحة ميزا شاتماً بسبب رجله المصابة، وصارخاً: "أين الإسكندر؟".

كرّر أرسطو لنفسه، ولكن بهدوء: "أين الإسكندر؟".

وبعـــد ذلك، أدار ظهره إلى المدفن الكبير، وتحرّك مبتعداً. نام في تلـــك الليلة في منـــزلٍ صغير كان يمتلكه ويقع في أطراف المدينة. بقي الفيلـــسوف في المنـــزل طيلة نهار اليوم التالي مستغرقاً في قراءاته. كما رتّـــب بعض الأوراق التي دوّن عليها ملاحظاته. ازدادت حالة الطقس سوءاً، وما لبثت الغيوم الداكنة أن تجمّعت على قمم جبل بيرميون التي كانـــت مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج. انتظر أرسطو حلول الظلام، ثم ارتدى عباءته، وغطى رأسه بقبعة العباءة، وبدأ يمشي في الشوارع شبه المهجورة.

مـــرّ أمـــام المسرح الذي اغتيل فيه الملك وسط سحابة من الغبار وبركةٍ من الدماء بينما كان في ذروة مجده. وبعد ذلك، مشى في طريق تؤدي إلى الحقول. كان يبحث عن قبرٍ منعزل.

رأى أمامـــه وســـط باحة مفتوحة مجموعة من أشجار السنديان المعمّـــرة. ومـــا لـــبث أرسطو أن اختبأ بين جذوعها الغليظة والكبيرة فاختفـــى بـــين ظلال المساء. وبدت على بعد مسافةٍ قريبة منه ربوة، ظهرت فوقها صخرة صغيرة وُضعت هناك كعلامة. انتظر الفيلسوف، وبدا أنه تائهٌ في أفكاره.

وبين الحين والآخر كان يلقي نظرة على السماء الداكنة. ووضع عـــباءته فوق كتفيه كي يحمي نفسه من الرياح الباردة التي بدأت تهب من الجبال مع حلول المساء.

وأخـــيراً، سمـــع وقـــع خطواتٍ عبر الممر، ولاحظ أنوار مصباح تـــومض بالقرب منه، وما لبث أن استدار إلى جهة اليسار، فرأى على بعد مسافة قريبة منه شبح امرأةٍ صغيرة تتقدّم من الربوة.

رآهـــا تركع، كما لاحظَ أنها وضعت شيئاً على القبر، وما لبثت أن وضعت يدها ورأسها على الصخرة، وغطتها بعباءتها. بدت وكأنها تريد أن تدفئها. فيما بدأت رقاقات ثلجٍ بيضاء بالظهور وسط الظلمة.

أراد أرســـطو الحصول على مزيدٍ من الدفء فلفّ عباءته حوله بإحكام، لكن هبةَ ريحٍ باردة دفعته إلى أن يعطس فجأة. فوقفت المرأة، واستدارت على الفور نحو غابة السنديان الصغيرة.

سألت بصوتٍ مرتعش: "من هناك؟".

"شخصٌ يبحثُ عن الحقيقة".

ردّت المرأة: "إذاً، أظهِر نفسك".

خرج أرسطو من مخبئه، وتحرّك نحوها: "أنا أرسطو من ستاجيرا".

أومأت المرأة: "الرجل الحكيم والعظيم. ما الذي أتى بك إلى هذا المكان المحزن؟".

"سبق أن قلتُ لكِ... إنني أبحث عن الحقيقة".

"أيّ حقيقة؟".

"حقيقة مقتل الملك فيليب".

أحـــنت المرأة الشابة ذات العينين الواسعتين والداكنتين رأسها، ثم انحنت، وكأنها تحمل على كتفيها وزناً يفوق طاقتها.

"لا أعتقد أنه يمكنني مساعدتك بأي طريقةٍ من الطرائق".

"لماذا أتيتِ إلى هنا متخفية في الظلمة من أجل تقديم آيات التقدير إلى هذه المقبرة؟ إنها المقبرة التي دُفن فيها بوزانياس، الرجل الذي اغتال الملك".

"لأنه كان رَجُلي، وكنت أحبه كثيراً. أعطاني هدايا زفاف كثيرة، وكنا ننوي أن نتزوج".

"سمعتُ عن قصةٍ كهذه، وهذا هو سبب حضوري إلى هنا. هل صحيح ما يقال؟".

هزّت المرأة رأسها: "أنا... أنا لا أعرف".

"يقولون إن فيليب عندما تزوّج زوجته الشابة الأخيرة، سيطرت الغيرة على بوزانياس الذي تصرّف بطريقة أثارت غضب آتالوس والد العروس". لاحظ أرسطو كل الملامح التي ارتسمت على وجه المرأة، كما رأى الدموع وهي تسيل على خدّيها الشاحبين. "سرت شائعات مفادها أن آتالوس دعاه إلى المنتجع الذي يتصيّد فيه حيث أمسكه الصيّادون واعتدوا عليه لليلة بكاملها".

في هذا الوقت، بدأت المرأة بالبكاء، وبان عليها الغمّ، ولم تقدر على السيطرة على حزنها. ولكن الفيلسوف تابع حديثه من دون اكتراث: "طلب بوزانياس من فيليب أن يسمح له بالانتقام بسبب ما أصابه من إذلال ولما فشل في نيل مطلبه، قتله. هل هذا ما حدث بالفعل؟".

حاولت المرأة تجفيف دموعها بطرف عباءتها.

"هل هذا ما حدث بالفعل؟".

قالت المرأة وهي تتنهد: "أجل".

"هل هذه هي الحقيقة بأكملها؟".

لم تجب المرأة.

"أعرف أن قصة منتجع الصيد صحيحة، كما قال لي المخبرون. ولكن، ما سبب هذه القصة بأكملها؟ هل كانت، ببساطة، قضية مشينة؟".

همّت المرأة بالانصراف، وكأنها تريد إنهاء هذه المحادثة كليًّا. غطّت رقاقات الثلج شال المرأة الذي كانت قد وضعته على رأسها فأصبح أبيض اللون، كما تغطت الأرض تحت قدميها بطبقةٍ رقيقة من الثلج الأبيض. أمسك أرسطو بذراعها، وحدّق إلى وجهها بعينيه الرماديتين اللتين تشبهان عيني النسر، وقال بإصرار: "حسناً؟".

هزّت المرأة رأسها.

فجأة، قال الفيلسوف بلهجة استرضائية: "تعالي. أملك منزلاً في مكانٍ قريب، ولا بد من أن النار لا تزال مشتعلة في المدفأة".

تبعته الشابة بوداعة ممسكة بمصباحها، بينما تقدّمها أرسطو نحو منزله. وحين وصلا، دعاها إلى الجلوس قرب المدفأة، وحرّك نارها.

"لا أستطيع أن أقدّم إليك سوى نقيع أعشابٍ ساخن، لأنني لا أعتزم المكوث هنا إلا فترة قصيرة".

تناول إناءً كبيراً من فوق المدفأة، وسكب محتوياته التي يتصاعد منها البخار في كوبين من الفخّار.

"حسناً إذاً، ما هي الأمور التي تعرفينها ولا أعرفها؟".

"لم يكن بوزانياس سوياً على الإطلاق. كان شابًّا بسيطاً من أصولٍ متواضعة، وكان يحب النساء. أما بالنسبة إلى الملك فيليب فقد سرت شائعات كثيرة عن علاقاته، لكنّ أحداً لم يرَ شيئاً".

"تبدين على علمٍ بأمورٍ كثيرة... ما سبب ذلك؟".

"إنني أعمل في مطابخ القصر".

"لكـــن ذلك لا يمنع إمكانية حصول حادثة من نوعٍ ما، حتى ولو كانت حادثة معزولة".

"لا أعتقد ذلك".

"ولماذا؟".

"لأن بوزانياس أخبرني أنه فاجأ آتالوس وسط محادثةٍ سريةٍ وخطيرة".

"ألا يُحتمل أن بوزانياس كان يسترق السمع؟".

"هذا أمرٌ محتمل".

"وهل أخبرك عن طبيعة تلك المحادثة؟".

"كلا، لكن ما فعلوه كان - برأيي - يهدف إلى إرعابه، أي إلى مـــضايقته مـــن دون أن يصل الأمر إلى قتله. لأنهم إذا قتلوا أحد أفراد الحرس الملكي، فإن ذلك كان سيثير شبهات كثيرة".

"إذاً، دعيـــنا نفترض ما حصل: فاجأ بوزانياس آتالوس بينما كان منـــشغلاً بمحادثة متهورة. ودعينا نقول إنها محادثة تتعلق بمؤامرة، وإنه هـــدّد بكـــشف كـــل شيء. عندها، دعاه آتالوس إلى مكان معزول متظاهـــراً بأنه يريد التفاوض معه. وفي واقع الأمر، أراد أن يلقّنه درساً فتـــركه تحـــت رحمة صيّاديه وقسوتهم. لكن، لماذا أراد بوزانياس قتل الملك؟ لا يبدو الأمر منطقياً بالنسبة إليّ".

"ومـــا هو المنطق في الإشاعة التي مفادها أنّ بوزانياس قتلَ الملك لأنـــه رفض أن يسمح له بالثأر بسبب الإذلال الذي ألحقه به آتالوس؟ كـــان بوزانياس حارساً قوياً، وكان ماهراً في استخدام السلاح، لذلك كان يمكنه أن يأخذ ثأره بيده وبسهولة".

فكّر أرسطو في البنية الضخمة لسائق عربته ثم قال: "هذا صحيح. إذاً، كيف تفسّرين هذا الأمر كله؟ إذا كان بوزانياس شاباً مخلصاً كما تقولين، فلماذا اغتال ملكه؟".

"لا أعرف. لكنه إذا أراد أن يفعل ذلك، ألا تعتقد أنّه كان يملك فرصاً أفضل بصفته حارساً شخصياً؟ كان يمكنه أن يقتل فيليب في أثناء نومه، وفوق سريره".

"فكّـــرت كثيراً في هذه الفرضية. لكن، يبدو لي عند هذه النقطة أنّـــنا لا نـــستطيع تقديم إجابات عن أسئلتنا. أتعرفين شخصاً ما يمكنه تقـــديم معلـــومات أكثـــر إلينا؟ يُقال إنّ هناك أشخاصاً متواطئين مع بوزانياس، أو يشكلون له نوعاً معيّناً من الغطاء. كان هناك من ينتظره مع جواد قرب غابة السنديان حيث التقينا قبل وقت قليل".

فجـــأةً، قالـــت المرأة الشابة التي راحت تحدّق إلى عينَي أرسطو: "يُقال إن هوية أحدهم قد كُشفت".

"وأين هو الآن؟".

"إنـــه يقيم في أحد خانات بيروا الواقعة على ضفاف هالياكمون. إنه يسمي نفسه نيكاندر، لكنه اسم مزيّف بالتأكيد".

"وما هو اسمه الحقيقي؟".

"لا أعرف. ولو كنتُ أعرف في ذلك الوقت، لربما كنت سأتمكن مـــن معرفة سبب إقدام بوزانياس على ما فعله، وسبب هذه المعاناة التي مرّ بها".

رفع أرسطو الإناء عن النار مجدداً، وكان على وشك أن يسكب المـــزيد مـــن النقـــيع في كوب تلك الشابة، لكنها أوقفته بإشارةٍ منها ووقفت.

"يجب أن أنصرف الآن، وإلا سيأتي شخصٌ ما للبحث عني".

شرع أرسطو يقول: "كيف يمكنني أن أشكرك على الأمور...".

فقاطعـــته المرأة بقولها: "جِد المذنب الحقيقي الذي يقف وراء كل هذا، وأعلِمني بشأنه".

ثم فــتحت الباب، وسارت بسرعة عبر الطريق المهجورة. ناداها أرسطو: "انتظري... لم تُخبريني حتى عن اسمك!". لكن الشابة كانت قــد اخــتفت وسط سحابةٍ من رقاقات الثلج البيضاء، وأسرعت عبر ممرات تلك المدينة النائمة.

40

استقبله أنتيباتر، الوصي على العرش، في غرفة العرش القديمة. كان أرسطو ملتحفاً عباءةً صوفية خشنة فوق سروالٍ من نسيج تراقيا. وسمع صوت حسيس النيران في المدفأة الموجودة في وسط الغرفة، لكن كمية كـــبيرة من الحرارة الناتجة كانت تخرج مع الدخان من الفتحة الموجودة وسط سقف الغرفة.

سأل الفيلسوف: "كيف حالك أيها القائد؟".

"أنا بخير طالما أنني بعيد عن بيلا. إنني أصاب بصداعٍ بمجرد رؤية الملكة. كيف حالك أنت يا أرسطو؟".

"إنـــني بخير. لكن سنين العمر بدأت تترك آثارها عليّ. كما أنني لست معتاداً أبداً على تحمّل البرد".

"ما الذي جاء بك إلى هذه المنطقة؟".

"أردت أن أضـــع أضـــحيةً علـــى قبر الملك قبل أن أعود إلى أثينا".

"إن هـــذا الوفاء يزيدك شرفاً كبيراً، لكن ما تقوم به خطرٌ جداً. كـــيف يمكنني أن أحميك إذا استمررت في إبعاد الحراس الذين أرسِلُهم لحراستك. كن متيقظاً يا أرسطو، لأن الملكة نمِرةٌ حقيقية".

"لطالما كنتُ على علاقة جيدة مع أوليمبيا".

قـــال أنتيباتر عندما نهضَ كي يقف قرب النيران، ومدّ يديه نحو المدفأة كي يدفئهما: "لكن لا يكفي أن تكون على علاقة جيدة معها. أؤكـــد لـــك أن ذلـــك غير كافٍ". تناول دورقاً (إبريقاً) فضياً كان

موضـــوعاً فوق طرف المدفأة، وكوبين مصنوعين من الفخار الأتيكي الممتاز: "أتريد بعض الشراب الدافئ".

أومأ أرسطو.

"ما هي أخبار الإسكندر؟".

"أبلغني بارمينيون في آخر رسالة له أنه يزحف عبر ليشيا".

"إذاً، يسير كل شيء حسب الخطة المرسومة".

"ليس كل شيء، مع الأسف".

"ما المشكلة؟".

"ينتظـــر الإســـكندر بعـــض التعزيزات، ويتواجد الشبان الذين أعطـــاهم إجـــازات استثنائية في المضائق وبصحبتهم المجندون الجدد، لكنهم لا يستطيعون المرور لأن أسطول ممنون يطبّق حصاراً بحرياً. وإذا كانت حساباتي صحيحة، فلا بد من أن يكون الآن في فريجيا الكبرى، أي قـــرب ساغالاســـوس أو كيلايـــناي، ولا بد من أنه قلق من عدم وصول الشبان".

"ألا يُمكن القيام بأيّ شيء لمساعدته؟".

"إن تفوق ممنون البحري ساحق. لذلك، إذا أقدمتُ على إرسال أسطولي، فسيقوم بإغراقه قبل أن يتمكّن من الإبحار لمسافة قصيرة. إننا في ورطـــة يا أرسطو. إن أملي الوحيد هو أن يحاول ممنون النـــزول في أراضٍ مقدونية، وفي هذه الحال، يُحتمل أن نتمكّن من النيل منه. لكن الرجلَ يقظٌ جداً، لذلك نادراً ما يقترف الأخطاء".

"وماذا تنوي أن تفعل في هذه الحالة؟".

"لا شيء في هذا الوقت. سأنتظر حتى يقرّر ممنون الخطوة التالية، لأنـــه لا يمكـــن لأسطوله أن يظل راسياً إلى الأبد. وماذا بشأنك أنت يـــا أرسطو؟ هل حقاً قطعتَ كل هذه المسافة فقط كي تضع أضحية

على مذبح الملك فيليب؟ وإذا لم تخبرني بما تعتزم عمله بالفعل، فسأجد صعوبة كبيرة في حمايتك".

"أتيت كي أتحدث إلى شخصٍ ما".

"أيتعلق الموضوع بمقتل الملك؟".

"أجل".

أومأ أنتيباتر وكأنه كان يتوقع هذا الجواب.

"وهل ستمكث هنا لمدة طويلة؟".

"سأغادر غداً كي أعود إلى أثينا، هذا إذا تمكنت من إيجاد سفينة في ميثون، وإلا، فسأسافر براً".

"وكيف تسير الأحوال في أثينا؟".

"إنها على ما يرام طالما أنّ الإسكندر منتصر".

قال أنتيباتر متنهداً: "بالضبط".

فقال أرسطو: "بالضبط".

أمر الإسكندر جيشه بالتمركز في كيلايناي، وهي مدينة قريبة من منبع نهر ميندر، والمركز الرسمي لمرزبانة فريجيا الكبرى. لم يلقَ الإسكندر مقاومةً لأن الجنود الفرس لجأوا إلى حصنٍ يقع في أعلى مكان في المدينة، وهو عبارة عن رأسٍ صخري ينحدر بشدة فوق بحيرة صغيرة من المياه الصافية الآتية من نهر مارسياس، وهو رافد من روافد ميندر. أيقن الإسكندر أن عدد الجنود لا بد من أن يكون قليلاً لأنهم لم يحاولوا الدفاع عن أسوار المدينة، وهي الأسوار التي كانت متداعية هنا وهناك.

ذهب لايسيماخوس كي يستكشف القلعة، لكنه ما لبث أن عاد بمزاجٍ سيئ. قال مستنتجاً: "إنها حصينة، ولا سبيل للوصول إليها سوى

مـــن بـــوابة خلفية تقع في الجهة الشرقية. لكن الدرج المؤدي إلى هذه البوابة لا يتسع إلا لمرور رجل واحد، كما أنه يقع تحت مرمى البرجين المتقابلين. يتعيّن علينا أن نحاصرهم، وآمل أنهم لا يمتلكون من المؤن ما يمكّـــنهم من الصمود لوقتٍ طويل. أما بالنسبة إلى المياه، فإنهم يمتلكون الكثير منها لأنه لا بد من وجود بئر في القلعة تكون متصلة بالبحيرة".

قال ليوناتوس مقترحاً: "وماذا لو سألناهم عما ينوون فعله؟".

أجـــاب لايسيماخوس: "إننا لا نملك وقتاً للمزاح. كما أننا لا نملك فكـــرة عن مكان تواجد بارمينيون، أو عن أوضاع جنوده. ويعني ذلك أننا إذا أضعنا وقتاً كبيراً في محاصرتهم، فإننا نخاطر في عدم التقائه أبداً".

ألقـــى الإســـكندر نظرةً على أسوار القلعة. لم يظهر على الجنود الفرس أنهم في وضعٍ قتالي أبداً، وبدوا أقرب إلى الفضول منهم إلى القلق نتيجة الوجود المقدوني. إذ احتشد الجنود في أعلى الأسوار وتطلعوا إلى الأسفل، كما أسندوا مرافق أيديهم على حواجز الأسوار.

قـــال الإســـكندر: "يُحتمل ألاّ تكون الفكرة التي عرضها ليوناتوس غـــريبة". ثم التفت بعد ذلك إلى إيومينيس وقال له: "أريد منك أن تشكل وفداً وترسله مع مترجمٍ. وأريد منهم أن يقتربوا قدر استطاعتهم من البوابة الخلفـــية. إنهم لا يعلمون شيئاً عن خططنا، لكنهم يعلمون بالتأكيد أنّ شيئاً لم يوقفنا حتى الآن. ويُحتمل أنهم لا يرغبون في مقاتلتنا".

شعر ليوناتوس بالفخر لأن الملك تقبّل فكرته فقال: "هذا صحيح، فلـــو أرادوا إيقافنا لكان باستطاعتهم مهاجمتنا مئة مرة في أثناء صعودنا من تيرميسوس".

قاطعه الإسكندر بالقول: "لا جدوى من تبديد طاقاتنا في مناقشة مـــثل هذه الافتراضات. سننتظر عودة إيومينيس، وعندها سنعرف ما ينتظرنا بالتحديد".

قال كاليستين: "أريد في هذا الوقت أن ألقي نظرةً على المدينة. أيرغب أحدكم في مرافقتي؟ يقولون إنه عند الجهة الأخرى من البحيرة يقع الكهف الذي سلخ فيه أبولو الساطير مارسياس حياً. وذلك لأنه تحدّاه في مسابقة موسيقية، ولأنه خسر طبعاً".

عيّن لايسيماخوس نحو عشرة جنود من حاملي الدروع لمرافقة كاليستين في جولته الاستطلاعية في كيلايناي، وذلك لأنه يتعيّن عليه أن يرى الأماكن التي سيصفها في كتاباته.

في هذا الوقت، جمع إيومينيس وفده بعد أن تأكد من وجود مبعوث فيه، ثم انطلق نحو البوابة الخلفية، وطلب أن يتحدث إلى آمر الحامية.

لم يتأخر الرد على هذا الطلب. إذ فُتحت البوابة الخلفية محدثةً ضجيجاً قويًّا، وما لبث القائد أن خرج مصحوباً بمجموعة صغيرة من الرجال المسلحين. وعلى الفور، أدرك إيومينيس أن القائد لم يكن فارسياً، بل من سكان فريجيا، أي أنه بالتأكيد أحد المواطنين المحليين. لا بد من أن المرزبان الفارسي قد غادر المدينة في وقتٍ سابق.

ألقى الأمين العام التحية على القائد، ثم طلب من المترجم ترجمة كلماته التالية: "يقول الملك الإسكندر إنكم إذا استسلمتم، فلن يصيبكم أيّ أذى، ولن يحدث أي دمارٍ للمدينة على الإطلاق. أما إذا قاومتم، فسنحاصر القلعة، وعندها لن نسمح لأي شخص بمغادرتها حياً. ما هو جوابكم على ما قاله الملك".

لا بد من أن القائد كان قد اتخذ قراره مسبقاً لأنه أجاب من دون أي تردد: "يمكنك أن تخبر الملك إننا لا ننوي الاستسلام في هذا الوقت. سننتظر يومين، وإذا لم تصلنا تعزيزات من حاكمنا، فسنستسلم".

دُهش إيومينيس من صراحة القائد، فحيّاه بأحسن تحية، وعاد كي يُبلغ الإسكندر بنتيجة اللقاء.

صاح لايسيماخوس: "يا للسخف، لو أن شخصاً آخر أخبرني هذا ما كنت لأصدقه".

أجاب إيومينيس: "ولِمَ لا؟ يبدو لي أنه قرار منطقي جداً، ولا بد من أنه فكّر فيه جيداً. فإذا شنّ الحاكم الفارسي هجوماً مضاداً وهزمنا، فسيتحتم عليه أن يفسّر سبب استسلامه من دون قتال، ولعل الأمر سينتهي به على خازوق. أما إذا لم يظهر الحاكم في اليومين القادمين، فإن ذلك يعني أنه لن يأتي على الإطلاق، وهكذا سيضطر إلى الاستسلام كي يتجنب المشاكل معنا".

قال الإسكندر: "إنه الحل الأفضل. يُمكن للقادة أن يختاروا مقراهم في المدينة، ويمكنهم أن يطلبوا المنازل الضرورية لهم. أما الضباط ذوو الرتب الأدنى، فليبقوا مع جنودهم في الخيَم. وأريد أن تتمركز كتيبة من *البيزيتاروي* حول القلعة، وأن يتمركز الحراس أسفل الرأس الصخري. لا أريد السماح لأحد بالدخول أو بالخروج، كما أريد وضع كتيبة من الفرسان التراقيين والتيساليين على الطرقات المؤدية إلى المدينة، وذلك حتى نتفادى المفاجآت. سنرى ما إذا كانت مسألة اليومين التاليين هذه حقيقية أو مجرد مزحة. سأنتظركم جميعاً على مائدة العشاء في قصر الحاكم الذي اتخذته مركزاً لي. إنّه قصر جميل وفخم. طاب مساؤكم".

حضر كاليستين بدوره إلى قصر الحاكم بعد أن أكمل جولته في المدينة ووصل في الوقت المحدد. أحضر له أحد الخدم بعض الماء كي يغتسل، ثم استلقى على أحد أسرّة الطعام المصفوفة حول الإسكندر على شكل شبه دائرة. دعا الملك تيسالوس؛ الممثل المفضّل لديه، والضالع أريستاندر، بالإضافة إلى طبيبه الخاص فيليب لتناول طعام العشاء.

سأل الملك عندما بدأ الطهاة بتقديم العشاء: "إذاً، ماذا رأيتَ هناك؟".

أجاب كاليستين: "كما سبق وقلت لك، يوجد مخبأ في الكهف الذي ينبع منه نهر مارسياس. يقولون إن المخبأ يعود إلى الساطير مارسياس الذي أقدم أبولو على سلخ جلده. أنت تعرف القصة، وهي أن مارسياس تحدى *السّيد* أبولو في مباراةٍ موسيقية. كان من المفترض أن يعزف مارسياس على نايٍ من قصب، فيما يعزف *السيد* على القيثارة. قبِل أبولو التحدي، ولكن بشرط واحد: إذا خسر مارسياس، فسيسمح بأن يُسلَخ حياً، وهذا ما حدث بالضبط. وهذا أمر مفهوم لأن لجنة الحكام كانت مؤلفة من *سيدات* الفن التسع، وهنّ بالطبع لا يفعلن أي شيء يُغضب سيدهن".

ابتسم بطليموس: "يصعب عليّ التصديق أن الجلد الموجود في الكهف هو جلد الساطير مارسياس".

أجاب كاليستين: "يبدو أنه كذلك لأن القسم العلوي منه يبدو قريباً جداً من جلد الإنسان؛ حتى ولو كان محنطاً. بينما يُشبه القسم الأسفل جلد الماعز".

قال الطبيب فيليب: "ليس من الصعب تنفيذ هذا العمل. إن أيّ جرّاحٍ ماهر يمكنه أن يقطع أيّ شيء يريده ثم يخيطه. إنني أعرف بعض المحنّطين الذين يستطيعون تكوين أغرب المخلوقات. كما أن أرسطو قد أخبرني مرة أنه رأى قنطوراً محنطاً في أحد الهياكل المشيدة على جبل بيليون في تيساليا، لكنه شرح لي إنه كان في الواقع جذع إنسان تم وصله بمهارة بجسم مهرة".

التفت الملك بعد ذلك نحو أريستاندر: "ما رأيك؟ هل ما رآه كاليستين هو جلد الساطير مارسياس؟ أم أن ذلك ليس إلا خدعة متقنة

نفـــذها الكهـــان مـــن أجل جذب الزوار، وجمع التقدمات السخية للهيكل؟".

بـــدأ بعـــض الضيوف بالضحك، لكنّ *الضالع* سدّد نحوهم نظرة تقدح شرراً، وما لبثت الضحكات أن تلاشت، حتى تلك التي صدرت عن أقوى الرجال وأشدّهم ثقة بأنفسهم.

قـــال أريستاندر: "ما أسهل أن يضحك المرء على هذه الوسائل الوضيعة. لكنني أتساءل إذا كنتم ستضكون على المعاني التي تكمن وراء هـــذه الظواهر المجسدة. هل تجرأ أحدٌ منكم، أيها المحاربون الشجعان، علـــى استكشاف المجالات التي تقع وراء حدود مداركنا؟ أيرغب أحد منكم في مرافقتي في جولةٍ نحو خيالات الليل؟ إنكم تعرفون جميعاً كيفية مـــواجهة الموت في ميادين المعارك، لكن هل تعرفون كيف تواجهون المجهـــول؟ أتعرفون كيف تقاتلون الوحوش غير المادية، وهي وحوش لا تُقهر تخفيها طبيعتنا الأعمق الموجودة فينا عن وعينا؟".

قال الملك محاولاً تهدئته: "لا يسعى أحد هنا للسخرية من *الأسياد* يا أريستاندر. وإذا كانوا يسخرون فعلاً، فهم يسخرون من تفاهة بعض المخـــادعين الواثقين من أنفسهم، أولئك الذين يستغلون سذاجة الناس. تعالَ الآن ودعنا نشرب معاً. وكن فرِحاً من كل قلبك. إن محناً كثيرة تنتظرنا قبل أن نكتشف ما ستكون عليه أقدارنا".

بـــدأ الجمـــيع بالـــشرب والأكل مجدداً، وسرعان ما استعادت الأحاديـــث حيويتها. ولكن، لم يتمكن أحدٌ منذ ذلك الحين من نسيان التعابير التي ارتسمت على وجه أريستاندر والكلمات التي تفوّه بها.

41

انتظر قائد حامية كيلايناي مرور اليومين المتفق عليهما ثم استسلم كما هو متوقع. وهكذا، حصلت خزائن الجيش المقدوني على قسمٍ كبير من المال الذي كان بعهدة الحاكم. وسمح الإسكندر للقائد بالاحتفاظ بمركزه، وأبقى بعض ضباطه، بالإضافة إلى مجموعةٍ صغيرة من الجنود، من أجل الدفاع عن القلعة، ثم انطلق مجدداً في الطريق المؤدية شمالاً.

وصل إلى غورديوم بعد مسيرة خمسة أيام عبر المرتفعات التي كانت مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج، فوجد بارمينيون بانتظاره. وكان القائد قد أقام مراكز مراقبة فوق التلال المحيطة بهذه المدينة القديمة الموجودة في فريجيا، وهكذا تمكّن من استلام خبر وصول الإسكندر ما إن ظهر العلم الأحمر الذي يحمل النجمة الأرغادية الذهبية وسط بياض الثلج الذي كاد يعمي الأبصار.

توجّه القائد المخضرم للقاء الإسكندر مع وفد بقيادة ابنه فيلوتاس. أمر القائد الحرّاس بالاصطفاف وتقدم راجلاً وحده، لكن برفقة جواده الذي أمسكه من لجامه. ترجّل الملك بدوره، ومشى نحو بارمينيون، بينما راح الجنود يصرخون بتحيتهم، ويعبّرون عن فرحتهم بلقاء جناحَي الجيش.

عانق بارمينيون الملك وقبّله على وجنتيه قائلاً: "مولاي. لا يمكنك أن تتصوّر كم أنا سعيدٌ لرؤيتك. قلقتُ كثيراً لأننا لم نستطِع أن نفهم استراتيجية الفرس".

"وأنا بدوري أشعر بأنني في غاية السعادة لرؤيتك أيها القائد. هل ابنك فيلوتاس بخير؟ وماذا عن رجالك؟".

"كلهم بخير يا مولاي. كما أنهم رتّبوا برنامجاً للاحتفال بقدومك، وسيكون هناك الكثير من الشراب والمرح". سار القائد إلى جانب الإسكندر، بينما راح بوسيفالاس يضرب سيّده ضربات خفيفة بمقدمة وجهه، وذلك كي يحوز على انتباهه. تقدّم الجيش بأكمله وراءهما كما استفاد الفرسان من مساحة الميدان الرحب فتقدموا بخطٍّ واحد طويلٍ يبلغ عرضه ثلاثة صفوف، بحيث رأى الجنود بوضوح المنظر الرائع للرجلين وهما يسيران بهدوء فوق تلك الهضبة اللامتناهية. تجمّع الجيش بأكمله خلفهما، وسُمعت أصوات عشرات ألوف الحوافر في المكان.

سأل الملك: "هل وصلت تعزيزاتنا؟".

"كلا، للأسف".

"حسناً، هل تعلم إن كانت في طريقها إلينا؟".

"كلا، لا علم لي بهذا".

سار الإسكندر بصمت لأن السؤال التالي كان الأصعب بشكلٍ خاص. أمّا بارمينيون فقد حافظ على هدوئه حرصاً منه على عدم تعقيد الوضع أكثر مما هو عليه.

قال الإسكندر وكأنه يطلب معلوماتٍ ليست على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية: "أين هو؟".

"أبلغني سيسين رسالتك الشفهية، لذلك نفّذت أوامرك حرفياً. إنّ إمينتاس موضوع الآن في الإقامة الجبرية، كما أنني عيّنت فيلوتاس مؤقتاً كقائد للفرسان التيساليين".

"وكيف تلقى الأمر؟".

"بشكلٍ سيئ. لكن ذلك كان متوقعاً".

"لا أستطيع تصديق الأمر، لأنه كان مخلصاً لي على الدوام، كما أنني رأيته وهو يخاطر بحياته أكثر من مرة".

هزّ بارمينيون رأسه وقال: "تُفسد السلطة يا صاحبي الكثير من الرجال". لكنه فكّر في سرّه إن السلطة تُفسد كل الرجال، ثم تابع حديثه: "وما زلنا مع ذلك لا نمتلك دليلاً على أنه قبِل العرض".

"وماذا بشأن المبعوث الفارسي الذي نقل الرسالة؟".

"احتفظت به سجيناً عندي ويمكنني أن أريك الرسالة التي نقلها".

"هل هي باللغة الإغريقية أم بالفارسية؟".

"إنها بالإغريقية، لكننا يجب ألاّ نفاجأ لأن بلاط الملك العظيم يضم عدداً كبيراً من اليونانيين ومن بينهم عدد من الأثينيين، لذلك لا توجد صعوبة في كتابة وثائق من هذا النوع".

"وماذا بشأن الدفعة الموعودة؟".

"لم يظهر لها أثر على الإطلاق. حتى الآن على الأقل".

ظهر في ذلك الوقت معسكر بارمينيون. وهو المعسكر الذي اشتمل بمعظمه على الخيَم، ومع ذلك تواجدت فيه الإنشاءات الخشبية، مما يدلّ على مرور وقتٍ على تواجد الجيش في ذلك المكان.

في تلك اللحظة، سُمعت سلسلة من نفخات الأبواق، وما لبث الفرقة بأكملها أن خرجت إلى الميدان الفسيح احتفالاً بالملك العائد.

امتطى الإسكندر وبارمينيون صهوتَي جواديهما، وراحا يتفقدان الجنود الذين راحوا يدقون سيوفهم على دروعهم، وهو الأمر الذي نتج عنه ضجيج قويّ، وراحوا يصيحون بشكلٍ إيقاعي: "*الإسكندر، الإسكندر، الإسكندر*". تأثر الملك كثيراً بهذا الترحيب فبادلهم التحية، وراح يلوّح بيديه، ويحدّق إلى ذلك البحر المائج من الجنود المبتهجين.

قال بارمينيون: "إننا نسيطر تماماً على نصف مناطق الأناضول تقريباً. ولم يسبق لأي إغريقي أن سيطر على مساحة مماثلة من الأراضي، ولا حتى أغاممنون. ومع ذلك، إن ما يقلقني هو انعدام الحركة عند الفرس. أما في غرانيكوس فقد قاتَلَنا حاكما فريجيا وبيثينيا بمبادرة ذاتية منهما. عندها، لم يتوافر لهما ما يكفي من الوقت للتشاور مع الملك العظيم. لكن، لا بد من أن داريوس في هذه المرحلة قد اتخذ قراراته. لكنني، وببساطة، لا أفهم هذا الهدوء. فليست هناك هجمات، أو كمائن... أو حتى طلب تفاوض".

قال الإسكندر: "هذا جيّد، لأنني لا أنوي الجلوس معه إلى طاولة التفاوض".

لزم بارمينيون الصمت، لأنه فهم مزاج الملك جيداً. كان الإسكندر يكنّ الاحترام لقائد واحد وهو ممنون الذي لم يسمع أخباره منذ فترة. لكنّ تأخّر وصول التعزيزات من مقدونيا كان يعني أن الخصم الذي يثير أكبر قدرٍ من الخوف لا يزال حياً ويتحرّك.

استمرت المحادثة في مقر القائد المخضرم، وانضم إليهما عدد من الرفاق الآخرين: الأسود، وفيلوتاس، وكراتيروس. كان من الواضح أنهم جميعاً يريدون الاستمتاع ببهجة التقاء جناحَي الجيش بدلاً من مناقشة الأمور العسكرية. وسرعان ما تشعّبت موضوعات الأحاديث لتتناول الشراب والنساء بدلاً من مناقشة الاستراتيجية والوسائل العسكرية. كان المعسكر يعجّ بالنساء في هذا الوقت. فبعضهن كن موجودات بتدبير من الوسطاء، بينما انضمت أخريات إلى الجنود نتيجة الهدايا والوعود، فيما اشتُري عدد منهنّ كجاريات من أحد التجار الكثر الذين كانوا يلاحقون الجيش بالطريقة ذاتها التي تلاحق فيها البراغيث الكلاب.

بقـــي الإسكندر ليتناول طعام العشاء. لكن ما إن بدأ الاحتفال حـــتى ابـــتعد عـــن المكان. كان القمر رائعاً في الخارج، والليل لطيفاً وهادئـــاً. اقترب الإسكندر من أحد ضباط بارمينيون الذي كان يقوم بجولة تفتيش على الحراس وسأله: "أين تحتفظون بالأمير إمينتاس؟".

شـــعر الـــضابط بالقلق على الفور عندما لاحظ أن الملك يتجوّل وحـــيداً في أرجـــاء المعسكر في هذا الوقت من الليل. فرافقه شخصياً، وقـــاده إلى أحـــد المساكن الخشبية التي كانت متناثرة هنا وهناك. فتح الحراس المزاليج وأفسحوا له الطريق.

كـــان إمينـــتاس مـــستيقظاً وجالساً في غرفة خالية، جدرانها من جـــذوع الأشـــجار العارية. كان يقرأ لفافة من ورق البردى. وكانت اللفافـــة مفـــتوحة علـــى طاولة خشبية خشنة السطح من جراء وضع حجرين فوقها. رفع إمينتاس رأسه ما إن أحسّ بوجود شخصٍ ما عند المدخل، وفرك عينيه كي يرى بشكلٍ أوضح، ثم هبّ واقفاً ما إن أدرك هـــوية الشخص الواقف أمامه، وما لبث أن تراجع نحو الحائط بعد أن غطت وجهه تعابير من الألم والانـــزعاج، ثم سأل: "هل أنت من أمر بإلقاء القبض عليّ".

أومأ الإسكندر: "أجل".

"ولماذا؟".

"ألم يُخبرك بارمينيون؟".

"كـــلا، ألقـــى القـــبض عليّ أمام رجالي، وفي وضح النهار، ثم أحضرني إلى هنا".

"يعـــني ذلـــك أنه أساء فهم أوامري، وأنه أظهر قسوةً زائدة في تنفيذها".

"وماذا كانت أوامرك بالتحديد؟".

"أن يحتجزك حتى وصولي، وليس أن يهينك أمام رجالك".

سأل إمينتاس مجدداً: "وما هو السبب؟". بدا الرجل في حالة سيئة. وبدا أنه لم يسرّح شعره منذ مدة، ولم يحلق ذقنه أو يغيّر ملابسه.

"تم اعتراض طريق مبعوث من الملك العظيم. وكان هذا المبعوث يحمل رسالةً إليك. وفي الرسالة كان الملك العظيم يعدك بمبلغ ألفَي تالنت، وبعرش مقدونيا إذا تخلصتَ مني".

"لم أتسلّم رسالة كهذه. ولو كنت راغباً في قتلك لفعلت ذلك. فلقد أتيحت لي الفرصة مئة مرة منذ مقتل والدك".

"لكنني لا أستطيع المخاطرة".

هزّ إمينتاس رأسه، واستند إلى الجدار الخشبي. أضاء المصباح الجزء السفلي من وجهه، بينما بقيت عيناه في الظل. فكّر في اللحظة التي اغتيل فيها فيليب، وكيف أنه فضّل أن يساند الإسكندر بدلاً من خوض حرب داخل الأسرة الواحدة. وتذكر كيف كان من بين الذين رافقوا الملك الشاب وهم ينكّسون أسلحتهم، وساروا معه حتى القصر. كما أنه حارب إلى جانبه منذ ذلك الحين.

راح يتمتم بصوتٍ مرتعش: "لقد أمرت باعتقالي من دون أن ترى الدليل... أنا الذي خاطرت بحياتي في المعارك مرات كثيرة من أجلك".

أجاب الإسكندر: "ليس للملك خيار. وعلى الأخص في لحظاتٍ كهذه". تذكّر صورة أبيه الذي سقط على ركبتيه وسط بقعة من الدماء بينما غطى شحوب الموت وجهه. "يُحتمل أن تكون بريئاً، وأن هذه المسألة تفتقر إلى المنطق، ولكن لا يسعني أن أتظاهر أنها لم تحدث. كنتَ ستفعل الأمر ذاته لو كنتَ مكاني. أستطيع تقصير مدة إذلالك قدر الإمكان. ولكن، يجب أن أعرف الحقيقة أولاً. سأرسل إليك

خادمـــاً كي يساعدك على الاغتسال، وكي يقص لك شعرك ويغسله لك، ويحلق ذقنك. تبدو مريعاً".

أعطى الإسكندر الأوامر للحراس للتأكد من وجود شخص يهتم بـــالأمير إمينتاس، ثم توجّه عائداً إلى خيمة بارمينيون حيث كان الجنود يحـــتفلون. سمـــع الصراخ والضحكات، وأصوات الأطباق، وأصوات التـــنهدات والهمهمـــات، بالإضافة إلى الموسيقى الصادرة عن النايات، والآلات البربرية الأخرى التي لم يستطع تمييزها. وكانت تلك الموسيقى تخلو من الإيقاع.

دخل إلى الخيمة وسار عبرها، ثم توجه للجلوس قرب هيفاستيون. عانقـــه، ثم شـــرب مـــن كوبه. استمر في الشرب طيلة الليل فأحسّ بالاكتئاب في البداية، وما لبث أن دخل حالة من فقدان الوعي.

42

وقبل منتصف النهار بوقت قصير، وصل كاليستين ودخل خيمة الملك يرافقه أحد الحراس. كان الإسكندر يعمل وقد ظهرت أمارات التعب على وجهه نتيجة احتفال ليلة البارحة. لكنه كان صاحياً ومتيقظاً تماماً في هذا الوقت. ظهرت أمامه ورقة بردى غير مطوية، بينما أمسك بيده كوباً تتصاعد منه الأبخرة. ربما كان ذلك نقيعاً وصفه له الطبيب فيليب كي يساعده على تهدئة الصداع الذي شعر به بعد إكثاره من الشراب.

قال الإسكندر: "تعالَ. أريدك أن تلقي نظرة على هذه الوثيقة".

سأل كاليستين وهو يقترب من الطاولة: "ما هذه؟".

"إنها رسالة نقلها مبعوث من الملك العظيم إلى ابن عمي إمينتاس. أريدك أن تلقي عليها نظرة فاحصة، ثم قل لي رأيك فيها".

تفحّص كاليستين النصّ من دون أن يظهر على وجهه أيّ تعبير يدلّ على الدهشة، ثم ما لبث أن سأل: "ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟".

"لستُ متأكداً... الشخص الذي يُحتمل أنه كتبها، على سبيل المثال".

ألقى كاليستين نظرة ثانية على الوثيقة، ولكن بعناية أكبر هذه المرة: "كائناً من كان الذي كتبها، فهو شخص يمتلك يداً ماهرة، وهو من دون شك مثقفٌ ومهذب. يُضاف إلى ذلك أن ورق البردى من نوعية ممتازة، وكذلك الحبر. الحقيقة هي...".

ودُهــش الإسكندر عندما شاهده وهو يبلّل طرف إصبعه ببعض لعابه، ثم يمرّرها فوق الكتابة ويقرّبها من فمه.

"أستطيع أن أقول لك إن هذا النوع من الحبر مصنوعٌ في اليونان باستخدام عصير شجرة البيلسان والسخام...".

قاطعه الملك: "صُنع في اليونان؟".

"أجــل. لكــن هذا لا يعني شيئاً بحدّ ذاته. يسافر الناس حاملين حبرهم معهم. إنني أستخدمه بدوري، ولعل بعض رفاقك يستخدمونه أيضاً...".

"هــل هــناك معلــومات أخــرى يمكنك استخلاصها من هذه الوثيقة؟".

هزّ كاليستين رأسه: "لا أعتقد ذلك".

قال الإسكندر: "دعني أعلم إذا خطر أي شيء في ذهنك في هذا الصدد". وبعد ذلك، شكره وسمح له بالذهاب.

مــا إن غــادر كاليستين حتى سارع الملك إلى دعوة إيومينيس. وعمد خلال فترة انتظاره إلى فتح قارورة حبره الخاص، وتغميس إصبعه فــيها وتذوّقها. ثم فعل الأمر ذاته الذي فعله المؤرخ، فلاحظ أن مذاق الحبر كان متماثلاً.

وصل إيومينيس بسرعة قائلاً: "هل استدعيتَني؟".

سأل الإسكندر: "هل صادفتَ الرجل المصري في المعسكر؟".

"قال لي بارمينيون إنه غادر بعد أن سلّمه جوابك".

"إنــه أمــرٌ غــريب. أريدك أن تحصل على معلوماتٍ أكثر إن استطعت".

ردّ إيومينــيس: "سأبذل قصارى جهدي". وما لبث أن سأل قبل مغادرته: "هل وصلتك أخبار جديدة عن تعزيزاتنا؟".

هزّ الإسكندر رأسه: "للأسف، لم تصل أي أخبار".

هــب نسيم بارد عندما فتح إيومينيس ستارة الخيمة كي يغادر، وهو الأمر الذي جعل الأوراق تتطاير من فوق طاولة الملك. وأضافت ليبتين بعض الفحم إلى الموقد، مما أدى إلى توافر بعض الحرارة الإضافية، بينما تناول الإسكندر ورقة بردى وراح يكتب:

> مــن الإســكندر ملك مقدونيا إلى أنتيباتر، الوصي على العرش وحامي القصر الملكي. تحياتي.
>
> أهنــئك على الحكمة التي أظهرتها في إدارة شؤون الوطن خلال انشغالنا في قتال البرابرة في بلاد بعيدة.
>
> مــنذ وقت قصير، ألقى بارمينيون القبض على مبعوث من الملك العظــيم، وكان هذا المبعوث يحمل رسالة إلى ابن عمي إمينتاس، يعــده فيها بعرش مقدونيا، وبمبلغ ألفي تالنت من الذهب مقابل التخلص مني.
>
> انكشف الأمر بفضل رجلٍ مصري يدعى سيسين ادّعى أنه صديق والــدي فيلــيب، لكن هذا الرجل اختفى. يبلغ هذا الرجل نحو الــستين مــن عمره، وهو قليل الشعر، معقوف الأنف، وعيناه داكنــتان وسريعتا الحركة، كما أن لديه شامة على خدّه الأيسر.
>
> أرغــب في أن تــستجوبه، وأن تعلمني إذا ظهر في المدينة أو في القصر.
>
> كن حذراً.

طــوى الإســكندر الرســالة، وأرسلها على الفور مع مبعوث شخصي، ثم توجّه إلى خيمة بارمينيون. كان القائد مستلقياً فوق سريره المــيداني، بينما كان خادم يمسّد له كتفه اليسرى بزيت الزيتون وعصير القــرّاص، لأنــه أحسّ بالألم من جرّاء جرحٍ قديم أصيب به في إحدى المعارك التي خاضها في تراقيا عندما كان شاباً. أو ربما كان ذلك بسبب الطقــس البارد. هبّ بارمينيون واقفاً على الفور ما إن شاهد الملك، ثم

وضــع علــيه عباءةً. "لم أتوقع قدومك يا مولاي. ماذا يمكنني أن أقدّم إليك؟ أترغب في بعض الشراب الدافئ؟".

"أيها القائد. أريد أن أستجوب ذلك السجين الفارسي. أيمكنك أن تستدعي أحد المترجمين؟".

"بالطبع. أتريده الآن؟".

"أجل، وبأسرع وقتٍ ممكن".

ارتــدى بارمينيون ثيابه بسرعة، وأمر الخادم بالانطلاق والبحث عن مترجم، ثم اصطحب الإسكندر إلى حيث كان المبعوث الذي ألقيَ القبض عليه سجيناً تحت رقابة مشددة.

قال الملك خلال سيرهما: "أفترض أنك استجوبته مسبقاً".

ردّ بارمينيون: "أجل".

"وماذا قال لك؟".

"لم يُضف شيئاً إلى ما كنا نعرفه. قال إن الملك العظيم قد أعطاه رســالة شخــصية كي يعطيها إلى أحد القادة اليونانيين، والذي يُدعى إمينتاس".

"ألم يقل شيئاً آخر؟".

"لم يُــضف شــيئاً آخر؟ فكّرت في تعذيبه لكنني فكّرت في أنّ الــتعذيب لــيس مجدياً، لأنه لا يوجد أحد يكلّف مبعوثاً بسيطاً بنقل رسالة تحتوي على معلوماتٍ في غاية الأهمية".

"وكيف تمكّنتَ من اعتراض طريقه؟".

"كان ذلك بفضل سيسين".

"أتعني الرجل المصري؟".

"أجــل. وصــل ذات يوم، وأخبرنا أنه رأى تجاراً يثيرون الشبهة ومعسكراً للنساء".

"إذاً، سبق لك أن تعرفت إلى سيسين؟".

"بالطبع، عمل الرجل مخبراً لصالحنا خلال أول اجتياحٍ لنا لآسيا، وذلك بناءً على أوامر والدك. لكنني لم أره منذ ذلك الحين".

"ألم يُثر ذلك الشكوك لديك؟".

"كــلا، لم يكن عندي سبب يجعلني متشككاً. كان الرجل مخبراً يُعــتمد علــيه، وكنا ندفع له مقابل خدماته، أي كما فعلنا في هذه المرة".

بــدا شيء من الغضب على وجه الإسكندر ولكنه أجاب: "كان عليك أن تتحفظ عليه، على الأقل حتى أصل".

قال بارمينيون: "أنا آسف، لم أشعر بأنه من الضروري أن أفعل ذلــك. كمــا قال لي إنه يلاحق جاسوساً فارسياً آخر، وهكذا... لكــن ، إن كنت قد أخطأت، فإنني أطلب منك السماح يا مولاي، أنا...".

"لا تهتم، لأنك تصرّفتَ حسب ما أحسستَ به. دعني الآن أرى السجين".

في هــذا الــوقت، وصل الرجلان إلى الكوخ حيث كان ذلك السجين الفارسي محتجزاً. أمر بارمينيون الحارس بفتح المزاليج.

أطــاع الجندي، ودخل أولاً كي يتأكد من أن كل شيء على ما يرام. لكنه عاد على الفور، وهو مصعوق.

سأل القائد: "ما المشكلة؟".

قــال الجــندي متلعــثماً ومشيراً بيده إلى الكوخ: "إنه... إنه ميت".

دخل الإسكندر الكوخ، وجثا على ركبتيه إلى جانب الجثة، وقال آمــراً: "فليأتِ طبيبــي على الفور". ثم التفت بعد ذلك إلى بارمينيون

وقـــال: "يـــبدو واضحاً أن هذا الرجل يعرف أكثر مما أخبرك، وإلا ما كانوا ليقدموا على قتله".

أجاب القائد وقد شعر بنوعٍ من الحرج: "آسف يا مولاي. أنا... أنا جندي. إن مكاني هو في ميادين القتال. أعطِني مهمة، حتى أصعب المهام في ميدان المعركة وسسأنفذ ما تريده بالضبط، لكنني أجد نفسي عاجزاً أمام هذه المؤامرات. إنني آسف...".

قال الملك: "لا تهتم. سنعرف بعد قليل ما سيقوله فيليب".

وصل الطبيب، وبدأ بفحص جثة المبعوث.

سأله الإسكندر بعد مضي بعض الوقت: "هل وجدتَ أدلّة ما؟".

"أكاد أجزم أنه تعرّض لعملية تسمم. وأكاد أجزم أيضاً أن السمّ قد دُسّ له في الوجبة التي تناولها في الليلة الماضية".

"أيمكنك أن تحدّد نوع السم المستخدم؟".

وقـــف فيليب، وأمر بإحضار بعض الماء كي يغسل يديه: "أعتقد ذلك. ولكن، سأضطر إلى تشريح الجثة...".

قال الملك آمراً: "افعل ما ينبغي لك فعله. أريد منك عندما تنهي عملك أن ترتب له جنازةً وفقاً للطقوس الفارسية".

نظـــر فيلـــيب حوله قائلاً: "لكن، ليست هناك أبراج صمتٍ في الجوار".

الـــتفت الملـــك نحو بارمينيون وقال آمراً: "حسناً يمكنك أن تأمر بإنشاء واحد ، فالأحجار متوافرة بكثرة وكذلك اليد العاملة".

قـــال القائـــد وهـــو يومئ: "كما تريد يا مولاي. ألديك أوامر أخرى؟".

فكّـــر الإسكندر للحظة وقال: "أجل، أريد منك أن تطلق سراح إمينتاس وأن تعيده إلى مركزه. وأريدك فقط أن... تحترس".

"بالطبع يا مولاي".

"جـــيّد، تستطيع الآن أن تعود إلى جلسة التدليك يا بارمينيون. يتعيّن عليك أن تهتمّ بكتفك لأن الطقس أوشك أن يتغيّر مجدداً". ونظر الإسكندر إلى السماء قبل أن يضيف: "لكنه لن يتغيّر نحو الأفضل".

43

ذات مساء من أيام فصل الشتاء، شعر القائد ممنون بتوعك مفاجئ. أحسّ بغثيان شديد، وبألمٍ حادٍّ في مفاصله وكليتيه، كما ارتفعت حرارته كثيراً. لزم ممنون حجرته الصغيرة، وكان جسده يرتعش وأسنانه تصطك، ورفض تناول كل الأطعمة التي قدّمت إليه.

لم يتمكن القائد من تناول أي شيء غير القليل من الحساء الساخن بين وقتٍ وآخر، لكنه لم يتمكّن من إبقائه كله في معدته. وصف له طبيبه أدويةً لتخفيف أوجاعه، كما أمره بشرب ما أمكنه من السوائل كي يعوّض تلك التي كان يخسرها باستمرار نتيجة التعرّق، لكن شيئاً من ذلك لم يُجدِه نفعاً.

ألقى مرض ممنون بظلاله الثقيلة على كل أفراد طاقمه، ولاحظ عدد كبير منهم مدى عدم اكتراث نائب القائد الجديد، وهو رجلٌ فارسي يُدعى تيجرانيس، والذي كان حتى ذلك الوقت قائد أسطول البحر الأحمر. كان الرجل يتميّز بطموحه وحنكته السياسية. ولم يبذل أي جهدٍ في البلاط لإخفاء رفضه قرار الملك داريوس الذي قضى بتولّي ممنون - رجل يوناني من المرتزقة - القيادة العامة للجيش.

حلّ تيجرانيس مكان ممنون، وذلك عندما تبيّن أن ذلك القائد اليوناني لم يعد قادراً على القيام بمسؤولياته. وكان أول أمرٍ أصدره القائد الجديد يقضي برفع مراسي سفن الأسطول والإبحار جنوباً، أي أنه أقدم عملياً على فكّ الحصار المفروض على المضائق.

في ذلــك الوقت، طلب ممنون أن ينــزل إلى اليابسة على الفور، فلم يعارض تيجرانيس هذا الطلب. كما طلب أن يصطحب معه خمسة رجالٍ من المرتزقة التابعين له، والذين كانوا من أشد الجنود إخلاصاً له، وذلــك كــي يساعدوه في رحلته التي كان يُزمع القيام بها. فنظر إليه القائــد الجديــد بقدرٍ معيّن من التعاطف، لأنه اقتنع أن ذلك المريض العاجــز لن يتمكن أبداً من قطع مسافةٍ كبيرة، وذلك نظراً إلى حالته. تمنى له تيجرانيس كل الخير بلغته الفارسية ثم انصرف.

وعــند منتصف الليل، أُنــزِل قارب إلى عرض البحر وعلى متنه ستة رجال. وما لبث القارب أن تهادى في المياه بفعل ضربات المجاذيف القوية. أبحر القارب إلى أن وصل الرجال إلى خليجٍ صغير ومهجور يقع علــى الــساحل الشرقي من هيليسبونت. في تلك الليلة بالذات، بدأ الرجال الستة رحلتهم لأن ممنون أراد أن يأخذوه إلى زوجته وولديه.

قــال لهــم فــور نــزولهم إلى الشاطئ: "أريد أن أراهم قبل أن أموت".

ردّ أحــد المرتــزقة: "لن تموت أيها القائد، لأنك مررتَ بفترات أسوأ من هذه. يمكنك أن تصدر الأوامر ونحن سنأخذك إلى أي مكانٍ تريده، حتى ولو كان في أقاصي الأرض. سنحملك على أكتافنا إذا لزم الأمر".

ظهــرت ابتــسامة متعبة على وجه ممنون. ويبدو أن فكرة رؤيته أســرته مجــدداً قد أعادت إليه بعض طاقاته الغامضة، ومنحته شيئاً من القوة. انطلق أحد رجاله كي يبحث عن وسيلة نقلٍ، لأن قائد الرجال لم يكــن في حالة تسمح له بامتطاء جوادٍ. وما لبث الرجل أن عاد في الــيوم التالي مع عربة يجرها بغلان، بالإضافة إلى أربعة جيادٍ ابتاعها من إحدى المزارع.

عقد الرجال المرتزقة اجتماعاً إلى جانب الطريق، وقرروا أن يتوجه أحدهم في طريق الملك العظيم كي يبعث برسالة إلى بارسين كي تتوجّه نحوهم، وذلك لأن الرجال فقدوا الأمل بأن يتمكّن قائدهم من الصمود طيلة الرحلة نحو قصر سوسا، وهو الذي يستغرق نحو شهرٍ للوصول إليه.

بدا أن المرض قد أعطى القائد هدنة لعدة أيام. وعاد ممنون إلى تناول طعامه مجدداً، لكن حرارته كانت ترتفع مجدداً مع حلول المساء وتُلهب صدغيه، وحتى إنها أثّرت في دماغه. فبدأ يهذي، وما لبثت أن خرجت من شفتيه صرخات أعادت ذكرى حياةٍ بأكملها أمضاها في القتال، وفي المواجهات، وفي التنقل بين الآلام المرعبة التي كان يُنـزلها بالآخرين وتلك التي يتلقاها، وبين الأنين والدموع نتيجة الآلام المفقودة والأحلام التي اختفت.

أما أكثر رجاله خبرة، وهو رجل من تيجيا، والذي كان يقاتل إلى جانبه على الدوام، فقد نظر إليه باضطرابٍ وقلقٍ شديدين، وهو يمسح جبينه بقطعة قماش مبلّلة، ثم راح يغمغم: "لا تقلق أيها القائد، إنها مسألة بسيطة، ولن تقدر حمى حمقاء على هزيمة ممنون من رودس، إنها لن...". بدا الأمر وكأن الرجل يحاول إقناع نفسه بما يقوله.

وصل الرجل الذي أُرسل كي يسبق الموكب إلى جسرٍ فوق نهر هاليس الذي يقع على طريق الملك العظيم، وهو الجسر الذي يُقال إن كروسوس من ليديا هو الذي بناه. وهناك، علم الرجل أن الوفد ليس مضطراً إلى قطع كل المسافة نحو سوسا، وذلك لأن الملك داريوس قرّر أخيراً تلقين ذلك الشاب اليوناني الوقح، الذي غزا مقاطعاته الغربية، درساً لا ينساه، ولذلك بدأ بالتقدم ووراءه سار نصف مليون رجل، ومئات من العربات الحربية، وعشرات الآلاف من الفرسان. اصطحب

الملك معه البلاط بأكمله، وبالتأكيد كانت بارسين من بين الذين رافقوا الملــك. وصل النداء الذي أطلقه رجل ممنون بسرعة تماثل سرعة أنوار الــنيران، وانعكاسات المرايا البرونــزية التي انتقلت من سفح جبلٍ إلى آخر. انتقلت هذه الإشارات بالسرعة ذاتها التي كانت تنتقل فيها جياد نيسايان حتى وصلت إلى الملك العظيم تحت سقف خيمته ذات الألوان الأرجوانية والذهبية، فاستدعى بارسين.

قال لها: "زوجك مريضٌ جداً، ولقد طلب أن يراك. إنه قادم عبر الطــريق الملكية، ويأمل أن يراك للمرة الأخيرة. إننا غير متأكدين من إمكانــية وصــولك إلــيه قبل أن يموت. ولكن، إذا رغبتِ في المحاولة فسأرسل معك عشرة حراسٍ من فرقة الخالدين كمرافقين".

أحــسّت بارســين وكأن قلبها يكاد يذوي في صدرها، لكنها حافظــت على هدوئها، ولم تذرف دمعة واحدة. "أيها الملك العظيم. أشــكرك علــى إبلاغــي هــذه الأخبار المحزنة، وعلى إعطائي الإذن بالمغادرة. سأذهب إلى زوجي على الفور، ولن يهدأ لي بال، ولن أرتاح قبل أن أصل إليه وأعانقه".

ثم عــادت إلى خيمــتها، وغيّــرت ثيابها وارتدت عباءة صوفية وســروالاً جلدياً، وهكذا بدت مثل محاربة آمازون، كما انتقت أفضل جــواد وجدته، وانطلقت بأقصى سرعة متبوعة بالحراس الذين عيّنهم الملك العظيم لمرافقتها، والذين وجدوا صعوبة في اللحاق بها.

ارتحلــت لأيامٍ وليالٍ، ولم تتوقف للراحة إلا لساعات قليلة بين الحين والآخــر، أو عــندما كانت تستبدل جوادها أو عندما كانت تحسّ بأن ســاقيها لم تعودا قادرتين على حملها من شدة التعب. وذات مساء، رأت قافلــة صغيرة تتقدم من بعيد فوق طريقٍ شبه مهجورة. ورأت عربةً مغطاة يجرها بغلان وبرفقتها أربعة رجالٍ مسلحين على صهوات جيادهم.

نخست جوادها كي تحثّه على الإسراع حتى أصبحت قرب العربة، فما كان منها إلا أن ترجلت ونظرت إلى داخل العربة. رأت ممنون مستلقياً فوق كومة من جلود الحملان. ولاحظت أن لحيته طويلة، وأن شفتيه متشققتان، بينما كان شعره غير مسرحٍ ومتجعد. رأت أمامها الرجل الذي كان قبل وقتٍ قصير أقوى رجلٍ في العالم من بعد الملك العظيم وقد تحوّل إلى رجلٍ بائس.

لكنه كان على قيد الحياة.

داعبته بارسين، وقبّلت شفتيه بلطف، وكذلك جبينه من دون أن تعرف ما إذا كان قد تعرّف إليها. بعد ذلك، نظرت حولها مرتعبة وقلقةً، وراحت تبحث عن ملجأ ما. رأت منزلاً حجرياً يبدو فوق تلة بعيدة، ولعله منزل يعود إلى أحد أصحاب الأراضي الكبار. طلبت من الرجال الذين يرافقونها أن يتوجهوا إلى ذلك المنزل كي يطلبوا استضافتها مع زوجها لعدة أيام، أو حتى لعدة ساعات... إذ لم تعرف عندها المدة التي تحتاج إليها.

قالت لمرافقيها: "أريد الحصول على سريرٍ لزوجي، وأريد أن أغسله وأغيّر ثيابه. أريده أن يموت كرجل، وليس كحيوان".

أطاع قائد الحرس، وسرعان ما نُقل ممنون إلى المنزل حيث رحّب بهم مالك المنزل الفارسي بكل تقدير واحترام. وأمر صاحب المنزل بتسخين المياه، وسرعان ما نزعت بارسين ثياب زوجها، وغسلته، ثم ألبسَته ثياباً نظيفة، كما قام الخدم بقصّ شعره. وضعت بارسين ضمادة جديدة على جبهته قبل أن تضعه فوق السرير، ثم ما لبثت أن جلست قربه، وأمسكت يده.

كان الوقت قد تأخر قليلاً، وما لبث صاحب المنزل أن أتى ليسأل إن كانت السيدة الجميلة ترغب في النزول لتناول طعام العشاء

مع مرافقيها، لكن بارسين امتنعت بلطف عن النـــزول قائلةً: "سافرت لأيامٍ وليالٍ كي أكون معه، لذلك لن أتركه حتى ولو لحظة واحدة طالما أنه على قيد الحياة".

غادر الرجل، وأغلق الباب وراءه، بينما عادت بارسين إلى مكانها الـــسابق إلى جانـــب ممنون، وراحت تلمسه وترطّب شفتيه بين الحين والآخـــر. وبعـــد منتصف الليل بقليل، استسلمت بارسين للنوم فوق كرسي، ولكنها كانت تستيقظ بين وقتٍ وآخر.

ظـــنّت فجأة أنها تسمع صوت زوجها في أحلامها، لكن الصوت اســـتمر، وبإصرار في ترديد اسمها: "بار... سي... ن..."، أجفلت، ثم جلـــست وفتحت عينيها. كان ممنون قد أفاق من سباته، وراح يبحث عنها بعينيه الواسعتين، والزرقاوين، والمحمومتين.

مدّت يدها كي تداعب وجهه، وراحت همس: "يا حبيبـــي".

حدّق إليها ممنون بتلهف شديد، وبدا أنه يريد أن يقول شيئاً.

"ماذا تريد؟ تكلّم، رجاءً".

فتح ممنون فمه مجدداً، وبدا أن بعض الحيوية قد عادت إلى أطرافه، وبـــدا أن وجهه قد استعاد بعض وسامته. قرّبت بارسين أذنها من فمه قدر الإمكان، وذلك كي لا تفوتها كلمة واحدة.

"أريد أن...".

"ماذا تريد يا حبيبـــي؟ اطلب أي شيء... أي شيء يا عزيزي".

"أريد أن... أراكِ".

تذكرت بارسين آخر ليلة أمضياها معاً وفهمت ما يريده. وقفت أمامـــه عن عمد، وتراجعت قليلاً حتى غطى نور المصباحين المعلّقين في الـــسقف جسمها قدر الإمكان، ثم بدأت بنـــزع ثيابها. ووقفت أمامه عاريةً وفخورةً.

رأت الدمــوع تــسيل من عينيه، وما لبثت دمعتان كبيرتان أن نــزلتا فوق خدّيه الغائرين فأدركت أنها فهمت ما قصده تماماً. شعرت بنظــراته تجتاح وجهها وجسدها ببطء وبلطفٍ، وشعرت أن هذه هي طريقته في ممارسة الحب معها للمرة الأخيرة.

قــال ممنون بما تبقى له من قوة في صوته: "ولداي...". حدّق إلى عينــيها بنظـــرة أخيرة خارقةٍ حملت كل ما تبقى له من حياة وشغفٍ تجاهها، وما لبث رأسه أن سقطَ على الوسادة، ثم لفظ آخر أنفاسه.

لفّت بارسين عباءةً حولها، ثم سقطت فوق جسد زوجها الهامد، وأمطـــرته بقبلاتها. في ذلك الوقت، لم يُسمع في المنـــزل سوى صوت بكائها الذي لا عزاء له، ففهم المرتزقة اليونانيون الذين كانوا مستيقظين في الخــــارج ومتحلقين حول نارٍ أوقدوها حقيقة ما جرى. فوقفوا، ثم قدموا سلاحهم بصمت تشريفاً للقائد ممنون من رودس، والذي حرمته الأقدار القاسية من شرف الموت حاملاً سيفه كجندي.

انتظــر الجمـــيع حتى الفجر قبل التوجه إلى غرفته وتحضير جثته للجنازة.

قال أكبر الرجال سناً، وهو جندي من تيجيا: "سنضعه في محرقة جرياً على عاداتنا. إن فكرة ترك الجثة لتنهشها الكلاب والطيور عارٌ لا يُحتمل. يُظهر هذا الأمر مدى اختلافنا عن غيرنا من الشعوب".

فهمـــت بارسين. فهمت أنه يتعيّن عليها في هذه اللحظة الأخيرة أن تتنحى جانباً كي تدع ممنون يعود إلى شعبه كي يتلقى التكريم الذي يليق به في جنازته حسب الطقوس اليونانية.

جهّـــز الـــرجال محرقة وسط مرجٍ يغمره الصقيع، ثم وضعوا جثمان قائدهم فوقها بعد أن ألبسوه دروعه، وخوذته المزينة بزهرة رودس فضية.

وسارعوا بعد ذلك إلى إيقاد النار في المحرقة.

أذكت الرياح التي هبّت فوق المرتفعات ألسنة النيران، فاستعرت بينما كانت تلتهم بشراهة بقايا ذلك المحارب العظيم الذي قضى نحبه. اصطفّ جنوده حاملين رماحهم بأيديهم، وصرخوا باسمه عشر مرات وتردد صوتهم حتى وصل إلى السماء الباردة المثقلة بالغيوم. وعندما تلاشت آخر صرخاتهم أدركوا أنهم أصبحوا وحدهم تماماً في هذا العالم، من دون أبٍ أو أمٍّ أو أشقاء، ومن دون منازل، أو مكانٍ يقصدونه.

قال أكبرهم: "أقسم إنني سألحق به إلى أيّ مكان". وجثا على الأرض واستلّ سيفه، ثم وجّهه إلى قلبه وألقى عليه بكل ثقله.

فقال رفيقه بينما كان يستل سيفه هو الآخر: "وهذا ما سأفعله أنا".

قال الرفيقان الآخران: "وهذا ما سنفعله نحن أيضاً". وسقطوا أرضاً الواحد تلو الآخر راسمين بدمائهم بركاً على الأرض، بينما مزّقت الصيحات الأولى للديوك صمت الفجر المخيف وكأنها نفخة في بوق.

44

أعطى فيليب، طبيب الإسكندر، نتائج تشريحه جثة المبعوث الفارسي الذي نقل رسالة الملك العظيم إلى الأمير إمينتاس.

"أؤكد أنه مات مسموماً. لكنه نوعٌ من السم لم أتعرّف إليه من قبل. ولهذا السبب، أعتقد أنه لا جدوى من استجواب الطاهي. فهو شاب طيب، ولا يعرف بالتأكيد الطريقة اللازمة لتحضير هذا السم. فأنا عاجزٌ عن تحضيره، فكيف الأمر بالنسبة إليه هو؟".

سأل الإسكندر: "هل من المحتمل أن يكون السجين قد سمّم نفسه؟".

"إنه أمر وارد. يوجد رجال في بلاط الملك العظيم أقسموا على خدمته حتى الموت. أخشى أنه من الصعب جمع معلوماتٍ إضافية تتعلق بهذه المسألة".

مرّت أيام عدة من دون وصول أخبار عن التعزيزات المنتظر وصولها من مقدونيا، لذلك بدأت معنويات الجنود بالهبوط بسبب انعدام الحركة والملل الذي يسبّبه الانتظار. وذات صباح، قرّر الإسكندر أن يصعد إلى الهيكل في غورديوم، والذي يُقال إن الملك ميداس قد شيّده.

رافق الإسكندرَ أصدقاؤه وكهنته الذين قرروا ارتداء ثيابهم الرسمية من أجل هذه المناسبة.

كان الهيكل معبداً محلياً قديماً يشتمل على صورة منحوتة في الخشب. لكن اللوحة كانت قد تضرّرت بعض الشيء بسبب سوس

الخشب. كانت اللوحة مزينة بكمية غير معقولة من المجوهرات والطلاسم وغيرها من الأشياء التي قدمها أولئك الذين زاروا المعبد عبر القرون. أما جدران الهيكل فكانت تتدلى منها التذكارات والهدايا والنذور من مختلف الأنواع، وكان بعضها عبارة عن أطراف بشرية مصنوعة من الطين والخشب، وهي النذور التي تشهد على شفاء من مرض، أو توسّل من أجل الشفاء.

كانت هناك أقدام وأيدٍ تحمل علامات مرض الجرب الذي يُرمز إليه بألوانٍ ساطعة. كما كانت هناك أيضاً عيون وأنوف، وآذان...

كانت كل هذه الأشياء تمثّل التعاسة والأمراض والأوجاع التي أثّرت جميعها في الجنس البشري منذ زمن قديم؛ أي منذ أن فتح ذلك الأحمق إيبيميثيوس صندوق باندورا (المرأة الأولى في الأساطير الإغريقية) وحرّر بذلك كل الأشياء السيئة التي غزت العالم.

قال إيومينيس متذكراً وهو ينظر حوله: "إن كل ما بقي في النهاية هو شيء من الأمل. وما هي طبيعة هذه الأشياء إذا لم تكن تعبيراً عن الأمل الذي غالباً ما يخيب، ولكنه يبقى مع ذلك قريباً، وحتى إنه الرفيق الذي لا غنى للجنس البشري عنه؟".

أما سلوقس الذي كان واقفاً بالقرب منه فقد كان مرتبكاً بسبب هذه الفلسفة المفاجئة، فنظر إلى إيومينيس صعوداً ونزولاً. ولم يتوافر لهما الوقت للمناقشة لأن الكهنة تقدموا الجميع في هذا الوقت نحو غرفةٍ جانبية، حيث توجد أثمن تذكارات المعبد، أي عربة الملك ميداس.

كانت عربةً غريبة ذات أربع عجلات، لكنها ذات تصميم بدائي جداً، ويوجد في قسمها العلوي حاجز شبه دائري. أما ترس القيادة فكان عبارة عن دفة تنتهي بقضيب موصول بمحور في الخلف، بينما كان المقود مثبتاً مع الدفة بواسطة عقدة من حبل القنّب، وهو الذي

كان على درجة كبيرة من التعقيد، بحيث قيل سابقاً إنه من المستحيل فكّ هذه العقدة.

وتفيد أسطورة قديمة أن كائناً من كان الشخص الذي يفكّ العقدة فسيحكم آسيا ذات يوم. ولذلك قرّر الإسكندر أن يحاول إيجاد حلٍّ لهذه المشكلة. فأصرّ كل من إيومينيس وبطليموس، بالإضافة إلى سلوقس، على الإسكندر أن يحاول فكّ العقدة.

قال إيومينيس مصرًّا: "لا يسعك إلا أن تحاول، لأن الجميع يعرفون هذه الأسطورة. أما إذا اخترتَ أن تتجاهلها فسيعتقدون أنك لا تثق بنفسك، وأنك لا تثق بقدرتك على إلحاق الهزيمة بالملك العظيم".

قال سلوقس: "إن إيومينيس على حق. فهذه العقدة رمزٌ، لأنها ترمز إلى تقاطع طرقات عدة، وطرقات القوافل التي تمر في مدينة غورديوم، وهي الطرقات التي تؤدي إلى أطراف الأرض. إنك تتحكم الآن بهذه العقدة لأنك قهرتها بقوة السلاح. ولكن، يبقى عليك أن تفك هذه العقدة الرمز، وإلا يُحتمل ألاّ تكون جهودك كافية".

في هذا الوقت، التفت الإسكندر نحو أريستاندر: "وأنت أيها *الضالع*، ماذا لديك لتقوله؟".

لم يتفوه أريستاندر إلا بكلمات قليلة: "إن تلك العقدة رمز للانسجام الفعلي. ستتمكن من فكّ العقدة، وستسيطر على آسيا والعالم بأكمله".

أثار هذا الجواب ارتياح الجميع، لكن إيومينيس لم يرغب في المخاطرة، لذلك استدعى أحد ضباط القائد نيرخوس، وهو رجل يعرف كل أنواع العقد المستخدمة في السفن التجارية والحربية، وذلك كي يعلّم الملك أسراره، وهكذا سيشعر الإسكندر بالثقة بنفسه، وبقدرته على حلّ هذا اللغز.

يُـضاف إلى ذلـك أن كهـنة المعبد أبدوا استعدادهم للقيام بما أمكنهم لتسهيل الأمور أمام هذا السيّد الجديد، وذلك لأنهم لا يريدون أن يُظهروه بمظهر الفاشل، وأن يصبح عرضةً للسخرية.

قـال أحدهم بعد أن أشار إلى العربة القديمة التي نخرها السوس: "هـذه هـي عـربة الملـك ميداس". أراد الكاهن تسهيل الأمر على الإسـكندر فأضـاف مبتـسماً: "وهـذه هي العقدة". استنتج كل الموجودين، وعلى الأخص إيومينيس وسلوقس وبطليموس من ابتسامة الكـاهن أن الأمور ستسير على ما يرام. وكانت ثقتهم بالملك كبيرة، بحيث دعوا الضباط ذوي الرُتب الأدنى لمشاهدة إنجاز الملك.

أدرك الإسـكندر عندما انحنى، وبدأ بمحاولة فكّ العقدة أنه كان مـتفائلاً أكثـر من اللزوم. كان القنّب ملتفاً بطريقة محكمة، لذلك لم يستطع العثور على نهاية العقدة لا في الأعلى ولا في الأسفل، ولا حتى عند الجانبين. وكان العثور على نهايتها ضرورياً لفكّها. في هذا الوقت، ازدادت أعداد الحاضرين بحيث لم يبقَ هناك مجال في الغرفة حتى للكهنة الـذين ارتـدوا أزيـاءهم الرسمية، فوقفوا متلاصقين بينما كان العرق يتصبّب منهم.

شعر الملك أنه يكاد يختنق، بينما تزايد غضبه ونفاد صبره. وشعر أن مجـده الشخـصي الذي دفع الكثير من أجله في ساحات المعارك، حـاملاً رمحه وسيفه، كان على وشك الزوال في غضون لحظاتٍ نتيجة هذا الوضع الذي لا يبدو له مخرج.

تطلّع نحو إيومينيس الذي هزّ كتفيه قليلاً، وذلك كي يقول إنه لا يملـك حـلاً جاهـزاً هـذه المرة. فيما لم يُظهر أريستاندر من تيرميسوس، ذلك *الضالع* الذي تكلّم مرة واحدة، أي رغبة في الكلام مجدداً.

تطلع نحو سلوقس وبطليموس وكراتيروس وبيرديكاس، لكنه لم يـــرَ ســـوى الذعر والإحراج في عيونهم. جثا مجدداً فوق تلك العقدة المستعـــصية، لكنه ما لبث أن شعر بمقبض سيفه يضغط على جسده، فعـــرف أنها علامة. في تلك اللحظة بالذات، اخترق شعاع من أشعة الـــشمس الغـــرفة مـــن خلال نافذة السقف فجعل شعره يلمع مثل سحابة ذهبية، كما جعل قطرات العرق على جبهته تلمع مثل حبات اللؤلؤ.

اختـــرق الحفيف المعدني، الذي نتج عن سحبِ الملك لسيفه من غمـــده، الصمت العميق الذي خيّم على الغرفة. ولمع حدّ السيف مثل الصاعقة وسط حزمة ضوء الشمس، وذلك قبل أن يهوي على العقدة الغوردية بقوةٍ لا حدّ لها.

قُطعـــت عقدة القنّب، فأرخت قبضتها عن النير الذي ما لبث أن هوى على الأرض مصدراً صوتاً خافتاً.

نظـــر الكهنة إلى بعضهم بدهشة، ثم نظروا إلى الإسكندر الذي وقف منتصب القامة، ثابتاً على قدميه، ثم أعاد سيفه إلى غمده مجدداً. لاحـــظ الجمـــيع عندما رفع الملك رأسه أن عينه اليسرى قد أصبحت داكنة، وأنها تلمع الآن تحت أشعة الشمس.

صـــرخ بطليموس: "لقد حلّ الإسكندر العقدة الغوردية! ستدين آسيا بالولاء له!".

صـــرخ كل الرفاق بصوت عالٍ، كما سمع الجنود الذين تجمعوا خارج الهيكل هذه الهتافات. فبدأوا بالهتاف بدورهم معبّرين بذلك عن كـــل الـــبهجة التي أحسّوا بها في أعماقهم والتي كانت مكبوتة نتيجة الخـــوف والأوهام. كما ترافقت صرخاتهم مع طرقهم أسلحتهم فوق دروعهم إلى درجة أن جدران الهيكل بدأت بالاهتزاز.

ظهـــر الملـــك متألقاً بدرعه الفضي فسارع الجنود إلى حمله على أكـــتافهم، وداروا به حول المخيّم، معبّرين بذلك عن نشوة النصر. و لم ينظر أحد إلى أريستاندر الذي سار وحيداً، بينما علت وجهه تعابير من القلق والانـــزعاج.

45

مـــرّت أيـــام قبل وصول التعزيزات التي طال انتظارها، وكانت مؤلفة من المجندّين الجدد والأزواج الشبان الذين غادروا هاليكارناسوس مـــن أجـــل تمضية فصل الشتاء مع زوجاتهم. استُقبل هؤلاء الأزواج بأصـــوات الصفير التي انطلقت من أفواه رفاقهم الذين واجهوا أهوال القـــتال وصعوبات الشتاء، ولذلك انطلقوا الآن في توجيه صرخاتٍ من كـــل الأنواع؛ حتى تلك التي تشتمل على كلمات بذيئة. راح بعضهم يلـــوح بألواحٍ خشبية ويصرخ بأعلى صوته: "هل استمتعتم بأوقاتكم؟ يتعيّن عليكم الآن أن تدفعوا الثمن!".

كـــان الضابط الذي يقودهم واحداً من رجال أنتيباتر، وهو قائد كتيـــبة أصله من أوريستيس ويحمل اسم ثراسيلوس. توجه الرجل فوراً إلى الملك كي يقدّم تقريره.

سأل الإسكندر: "لماذا استغرقتم وقتاً طويلاً كي تصلوا إلينا؟".

"لأن الأسطول الفارسي ضرب حصاراً حول المضائق، ولم يرغب أنتيباتر - الوصي على العرش - في أن يخاطر بقواتنا في مواجهة مفتوحة مـــع ممـــنون. وذات يومٍ، رفعت سفن العدو مراسيها بشكلٍ مفاجئ، وأبحـــرت جنوباً مستفيدة من الرياح الشمالية، وهكذا تمكنا من عبور المضائق".

قال الإسكندر: "إنه أمر غريب، ومن المؤكد أنه لا يبشّر بالخير. إذ إنّ ممـــنون لا يُقدم على إرخاء قبضته إلا كي يضرب في مكانٍ آخر يشكل نقطة ضعف. آمل أن أنتيباتر...".

قاطعه الضابط بالقول: "سرت شائعات مفادها أنّ ممنون قد مات يا مولاي".

"ماذا؟".

"هذا ما سمعناه من أحد مخبرينا في بيثينيا".

"وما هو سبب موته المفترض".

"لا أحد يعرف بالضبط. يقولون إن علة غريبة...".

"علة؟ يصعب عليّ أن أصدّق ذلك".

"الأمـــر غير مؤكد حتى الآن يا مولاي، وكما قلت لك إنها مجرد شائعات ويجب التأكد منها".

"أجـــل، بالطـــبع. انصرف الآن، ورتّب وضعك ووضع رجالك لأننا سنغادر في أسرع وقتٍ ممكن. ستحصلون على يوم واحدٍ للراحة كأقصى حدٍّ، فلقد انتظرنا بما فيه الكفاية".

أدى الـــضابط التحـــية، وما لبث الإسكندر أن أصبح وحده في خيمـــته كي يتأمل في هذه الأخبار غير المتوقعة، والتي لم يشعر إزاءها بالارتـــياح أو بالرضا. إذ كان الإسكندر قد قرّر في سرّه أن ممنون هو الخـــصم الوحيد الذي يليق به أن ينازله، أي مثلما كان هيكتور الفريد قادراً على مقاتلة آخيل الذي قدم حديثاً، واستعد وقتاً طويلاً لمنازلته في مـــبارزة مثلما يفعل أحد أبطال هوميروس. حتى إنّ فكرة منازلة الملك العظيم شخصياً لم تكن تحمل معنى بالنسبة إليه مثل منازلة ممنون.

تذكـــر تمامـــاً شخـــصية ذلك القائد المهيبة، والخوذة التي تغطي وجهه، ونغمة صوته، وإحساسه العميق بالاضطهاد بسبب اضطراره إلى أن يكـــون يقظاً على الدوام، واستعداده للهجوم والمراوغة من دون أن يحـــسّ بالـــتعب. لكـــنهم يتحدثون عن مرض... ليس هذا ما أراده، وليست هذه هي قوانين القتال للمواجهة الملحمية التي ركّز عقله عليها.

نـــادى الإسكندر بارمينيون وكلايتوس الأسود كي يرتبا خروج الجـــنود في غضون يومين، كما أبلغهما بالأخبار التي تلقاها. "أخبرني قائد مجموعات التعزيزات التي وصلتنا شائعاتٍ حول موت ممنون".

أجـــاب القائـــد مـــن دون أن يخفي دهشته: "سيكون ذلك في صـــالحنا، لأن أسطوله الذي كان يسيطر على المياه بيننا وبين مقدونيا كان تهديداً حقيقياً لنا. يقف الحظ إلى جانبنا يا مولاي".

أجـــاب الإســـكندر بوجه داكنٍ مثل الرعد: "يبدو أنني حرمت من معـــركة عادلـــة مـــع الخصم الوحيد الذي يستحق أن يواجهني". اتجهت أفكاره في تلك اللحظة، وبشكلٍ مفاجئ، نحو بارسين وجمالها الأسمر المثير، وفكّـــر في أن القـــدر قد تحرّك بطريقة لا تجعل بارسين تكرهه لأن ممنون مـــات بسبب المرض. كان الإسكندر مستعداً في تلك اللحظة لمواجهة أي عقبة قد تظهر بينه وبينها، لكن ليته فقط يعرف مكان وجودها.

أيقظـــه صوت الأسود: "يبدو أنه في مكانٍ ما بين دمشق والمنطقة الواقعة إلى شمالها".

الـــتفت الإســـكندر نحوه فجأة، وبدا الأمر وكأن الضابط يقرأ أفكاره. حدّق إليه الضابط بدوره بدهشة، وصدم من ردّ فعله هذا.

سأل الملك: "عمّ تتحدث أيها الأسود؟".

"كنت أتحدث عن الوفد الذي أرسله إلينا إيمولبوس من سولوي".

قال بارمينيون: "هذا صحيح، لأنه أرسل إلينا مبعوثاً يحمل تقريراً شفهياً".

"متى؟".

"كان ذلك في منتصف صباح هذا اليوم. طلب أن يتحدث إليك، لكـــنك كـــنتَ في الخـــارج بـــرفقة هيفاستيون وباقي الحرّاس خلال استعراضكم المجندين الجدد، لذلك قمت أنا باستقباله".

أجاب الإسكندر: "فعلتَ ما هو صواب أيها القائد. ولكن، هل أنت متأكد من أن المبعوث آتٍ من قبل إيمولبوس؟".

"أعطانا المبعوث كلمة السرّ، وهي الكلمة التي تعرفها جيداً".

هزّ الإسكندر رأسه: "*نخاع الخراف!* هل سبق لك أن سمعت بكلمة سرٍّ سخيفة كهذه؟".

قال الأسود بعد أن رفع ذراعه موافقاً: "إنه اسم طبقه المفضل".

قال بارمينيون متابعاً كلامه: "وكما كنت أقول، يبدو أن الملك العظيم يزحف مع جيشه نحو معبر ثابساكوس".

قال الملك مكرراً: "معبر ثابساكوس... إذاً، تسير الأمور حسب ما تصورت. خرج داريوس كي يُقفل المعبر عند المناطق الواقعة إلى الشمال من دمشق".

قال الأسود: "أعتقد أنك محق".

سأل الإسكندر: "وكم يبلغ عددهم؟".

أجاب بارمينيون: "إنهم كُثُر".

كرّر الملك السؤال بنفاد صبر: "كم يبلغ عددهم؟".

"نحو نصف مليون رجل، إذا كانت معلوماتي صحيحة".

"أي أنهم يفوقوننا بنسبة عشرة رجال إلى واحد. إنه عدد كبير حقاً".

"وماذا سنفعل؟".

"سنمضي إلى الأمام، لأنه لا يوجد أمامنا أي خيار آخر. تجهزوا للمغادرة".

أدى القائدان التحية، وتوجها نحو الباب، لكن الإسكندر نادى بارمينيون.

سأل القائد العام: "ما الأمر يا مولاي؟".

"يتعيّن علينا تخصيص كلمة سر لتبادل الرسائل الشفهية، ألا تعتقد ذلك؟".

أخفـــض بارمينيون رأسه: "لم يكن لدي أي خيار عندما أرسلتُ سيسين إليك، كما أنني لم أتوقع حدوث وضعٍ كهذا قبل أن نفترق".

"هذا صحيح، لكننا نحتاج الآن إلى كلمة سرٍّ لرسائلنا. يُحتمل أن يظهر وضع كهذا في المستقبل".

ابتسم بارمينيون.

"لماذا تبتسم؟".

"أبتسم لأنك ذكّرتني بأغنية كنت تغنّيها على الدوام عندما كنتَ طفـــلاً. علمـــتك إياها آرتميس العجوز، والتي كانت مرضعة والدتك. أتذكرها؟".

توجه الجندي العجوز الطائش إلى الحرب
وقع على الأرض، وقع على الأرض!

"وكنتَ تسقط على الأرض بعد ذلك".

قـــال الإسكندر: "ولِمَ لا. إنها ليست كلمة السر التي يُمكن لأي شخصٍ أن يحزرها".

"ولسنا مضطرين إلى حفظها. سأتركك الآن".

أوقفه الإسكندر مرة أخرى: "أيها القائد".

"مولاي؟".

"ماذا يفعل إمينتاس؟".

"إنه يقوم بواجبه".

"جـــيد. أريـــد أن تُبقـــي على مراقبتك إياه، ولكن من دون أن يـــدري. حاول أن تعرف ما إذا كان ممنون ميتاً بالفعل، وكيف حدث ذلك".

"سأفعل ما في وسعي يا مولاي، وما زال مبعوث إيمولبوس من سولوي في المعسكر. سأعطيه أوامر بتقصي حقيقة الأمر".

في اليوم التالي، غادر المبعوث، وتجهّز الجيش لإزالة المخيّم عند الفجر. كان كل شيء محضراً مسبقاً، فالحيوانات محمّلة، والعربات مليئة بالمؤن والأسلحة، بينما نظّم ضباط الزحف المراحل المتعددة من أجل الوصول بالجيش بعد مسيرة سبعة أيام إلى بوابات كيليكيا، وهي معبر في جبال طوروس يتميز بالضيق الشديد بحيث يتحتم على الحيوانات المحملة أن تسير صفاً واحداً.

دخل أحد الجنود الجدد الذين جاءوا مع التعزيزات إلى خيمة كاليستين، وذلك كي يسلمه رزمة. كان المؤرخ مشغولاً بالكتابة، لكنه توقف عن ذلك كي يعطي الجندي مبلغاً من المال. وما إن أصبح وحده حتى فتح الرزمة فلاحظ أنها تحتوي على نصٍّ عادي، أو مقالة عن تربية النحل، وتذكر أنه لم يطلب هذه المقالة، وأدرك أنها يجب أن تُقرأ حسب الرموز. وجاء في النص بعد فكّ رموزه:

أرسلتُ الدواء إلى ثيوفراستوس، وطلبت إليه أن يسلّمه إلى الطبيب في ليسبوس، لكن الطقس سيئ، لذلك لست متأكداً من إمكانية إبحار أي سفينة في الأيام القليلة التالية. لم أعد متأكداً من أي شيء في ظل هذه الظروف.

لاحظ كاليستين وجود رسالة أخرى غير مرمزة:

من أرسطو إلى ابن شقيقته كاليستين. تحياتي.

التقيت شخصاً كان يعرف بوزانياس، وهو الرجل الذي قتل الملك فيليب. يبدو لي الآن أنه يصعب تصديق الرواية التي أخبرونا إياها عن علاقته مع الملك، لأن عناصرها تبدو غير صحيحة. تعرفت إلى أحد الأشخاص المتواطئين في المؤامرة في أحد فنادق بيرويا. كان خجلاً جداً، لكنه استمر في إنكار كل شيء بينما حاولت أن

أطمئنه بكل الطرائق الممكنة. لم أفلح في هذا المسعى، لكن الشيء الوحـــيد الذي تمكنت من اكتشافه كان هويته الحقيقية، وتمكنت من ذلك فقط عن طريق رشوة إحدى الجاريات، وهي محظيته في الـــوقت ذاته. أعرف الآن أن لديه ابنة شابة يحبها كثيراً، ويبقيها بعيداً عن الأنظار مع باقي العذراوات في هيكل مخصصٍ لآرتميس، والذي يقع على الحدود مع تراقيا.

يتعـــيّن عليّ الآن أن أتوجه إلى أثينا، لكنني أعتزم متابعة تحرياتي وسأبقيك على علمٍ بالتطورات. انتبه إلى نفسك وإلى صحتك.

وضـــع كاليستين هاتين الوثيقتين في صندوقٍ صغير، ثم توجّه إلى سريره كي ينال قسطاً من الراحة قبل مغادرته عند الفجر.

كان الظلام لايزال مخيماً عندما أيقظه إيومينيس وبطليموس.

سأل إيومينيس: "هل سمعتَ الأخبار".

ردّ كاليستين وهو يفرك عينيه: "عن أي أخبارٍ تتحدث؟".

"يبدو أن ممنون قد مات بسبب مرضٍ مفاجئ".

أضاف بطليموس: "كان مرضاً مفاجئاً غير قابلٍ للشفاء".

جلـــس كاليستين على حافة سريره، وسكب كميةً من الزيت في مصباح خافت الضوء.

"مات؟ لكن متى؟".

"حمل أحد الضباط الذين كانوا يقودون التعزيزات هذه الأخبار. وإذا حسبنا الوقت الذي استغرقته التعزيزات للوصول إلينا، فيمكنني أن أخمّـــن أن ذلك قد حدث قبل خمسة عشر يوماً، أو قبل شهرٍ. يبدو أن الأمور قد سارت كما خطّطنا لها".

تذكّـــر كاليـــستين تـــاريخ رسالة أرسطو، وما لبث أن أجرى حساباته الذهنية بدوره، لكنه استنتج أنه من غير المؤكد أنّ هذه الحادثة قد حصلت نتيجة الأمور التي خططوا لها، لكنه لم يستطع استبعاد هذا

الاحـــتمال. اكتفى كاليستين بالقول: "جيّد... هذا جيّد". واستدعى إحدى الجاريات بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه وقال لها: "قدّمي شيئاً ساخناً إلى حضرة السيد الأمين العام والقائد بطليموس".

46

قال الطاهي الفارسي *نخاع الخراف* ووضع أمام إيمولبوس من سولوي طبقاً من الفطائر على الطاولة. وما إن تلفظ الرجل بهذه الكلمات حتى كشفت ابتسامة لا تبعث على الاطمئنان، عن أسنانه الاثنتين والثلاثين الشديدة البياض تحت شاربه الأسود الكبير.

استلقى حاكم سوريا، المرزبان آريوبارزانيس، على سريره المخصّص لتناول الطعام، وابتسم ابتسامة تبعث على الإحباط، ثم قال: "أليس هذا هو الطبق المفضّل لديك؟".

"آه، أجل بالطبع. يا لنور الآريين، والقائد الذي لا يُقهر. آمل أن يحمل لك المستقبل شرف وضع التاج الخالد إذا حدث الأسوأ، والذي من المؤكد أن آهورا مازدا لم يتوقعه، وذلك حين يصعد الملك العظيم إلى برج الصمت كي ينضم إلى أسلافه".

أجاب آريوبارزانيس: "يتمتع الملك العظيم بصحة جيدة. لكن تناول الطعام من فضلك. كيف هي نخاع الخراف هذه؟".

راح إيمولبوس يقلب عينيه مظهراً أقصى درجة من المتعة: "ممم...".

سأل آريوبارزانيس من دون أن يتخلّى عن ابتسامته: "إنّ عبارة *نخاع الخراف* هي في الوقت ذاته كلمة السر التي تستخدمها عندما تتبادل الرسائل السرية مع أعدائنا، أليس كذلك؟".

سعل إيمولبوس بتشنج لأن كمية من نخاع الخراف الموجودة في فمه سلكت المسلك غير الصحيح.

"أتـــريد شرب بعض الماء؟". سأله الطاهي باهتمامٍ مبالغٍ فيه بينما كان يسكب الماء من إناءٍ فضي، لكن إيمولبوس الذي تحول لون وجهه إلى القرمزي أومأ كي يقول إنه لا يحتاج إلى الماء.

وما لبث أن استعاد مزاجه الهادئ وابتسامته الرائعة وقال: "أخشى أنني لم أفهم دعابتك الصغيرة هذه".

ردّ المـــرزبان بكـــل لطف: "لكنها ليست دعابة على الإطلاق". وراح ينـــــزع جانح الطائر المشوي، ويجرده من اللحم بأسنانه. "إنها الحقيقة بكل بساطة".

تمكّـــن إيمولـــبوس من السيطرة على الاضطراب الذي شعر به في أمعائـــه، فتناول فطيرة ثانية، ونجح في إظهار مدى استمتاعه بكل لقمة قبل أن يقول بوداعة ظاهرة على وجهه: "مهلاً يا مضيفي المميز، إنك لا تـــستطيع أن تكون جاداً في تصديقك شائعات لا بد من أنها سخيفة جـــداً. ولكـــن لا يجدر بنا أن نسمح لها بأن تشهّر بسمعة رجلٍ كان دائماً...".

أوقفـــه آريوبارزانيس بإيماءة مهذبة، ثم جفّف يديه بمئزر الطاهي، ووضـــع قدمـــيه على الأرض، ووقف ثم سار نحو النافذة، وأشار إلى إيمولبوس كي ينضم إليه.

"من فضلك، يا صديقي العزيز".

لم يجـــد إيمولـــبوس أي خـــيارٍ أمامه إلا أن يتبعه كي ينظر إلى الأســـفل. بـــدا له أن تلك اللقمات القليلة التي تمكن من ابتلاعها قد تحـــولت إلى سمٍّ في بطنه، وما لبث وجهه أن شحب مثل لون الرماد. شـــاهد مـــبعوثه مقـــيّداً إلى عمود، وقد تدلى جسده وهو عارٍ، بينما نـــــزعت عـــنه قطعٌ من جلده في أنحاء مختلفة من جسده، فانكشفت بذلك العضلات الدامية تحتها. نُزع الجلد في بعض الأماكن بعمقٍ كبير

بحـــيث انكـــشفت العظام. لم تبدُ على الرجل أي علامةٍ من علامات الحياة.

شرح آريوبارزانيس بهدوء: "لقد أخبرنا الرجل كلّ شيء".

شـــاهد على مسافة قريبة أحد العبيد من الهيراكانيين وهو يشحذ رأس عودٍ من الأكاسيا بسكّينٍ حادةٍ جداً، وكان يشحذ السكّين على قطعة من حجر الخفان بحيث تبقى الشفرة حادة ولامعة.

نظر آريوبارزانيس إلى العود، وحدّق إلى عينَي إيمولبوس في الوقت الذي أصدر فيه بيديه إيماءة ذات معنى.

ابتلع المسكين ريقه، وهز رأسه بتشنج.

ابتسم المرزبان: "تأكدت أننا سنفهم بعضنا يا صديقي العزيز".

قال المخبر متلعثماً من دون أن يتمكن من تحويل نظرته عن طرف العمود: "كيف... كيف يمكنني أن أساعدك؟". وفي الوقت ذاته، شعر بـــتقلصٍ في مؤخـــرته وذلك في محاولةٍ لاشعورية ومتشنجة منه لمنع ما أدرك أنه محتّم.

عـــاد آريوبارزانيس إلى مكانه إلى الطاولة، واستلقى فوق سريره المخصّص لتناول الطعام، ثم طلب إلى إيمولبوس إلى أن يهدّئ من روعه. فـــتمكّن الرجل من الاسترخاء قليلاً بعد أن أمل أن يكون أسوأ ما في الأمر قد انقضى.

"مـــا هو الجواب الذي كان يتوقعه ذلك اليوناني الصغير؟". سأل المـــرزبان مستخدماً الاسم الذي يحمل إهانة لذلك الغازي الذي احتل كل أنحاء الأناضول.

"الملـــك الإسكندر...". لكنه أسرع إلى تصحيح العبارة: "أعني ذلـــك الـــيوناني الصغير، أراد أن يعرف أين سينتظره الملك العظيم مع جيشه".

"ممـــتاز! أعتقد في هذه الحالة أننا يجب أن نرسل أحد مبعوثيك، لـــيس هذا طبعاً لأنه لم يعد صالحاً للعمل، كي يُخبر اليوناني الصغير أن الملـــك العظيم سينتظره مع نصف جيشه عند بوابات كيليكيا، سيبقى النصف الآخر في ثابساكوس كي يحميها. إن هذا الأمر سيشجعه على الهجوم".

أومـــأ المخـــبر بـــسرعة: "آه، أجل طبعاً. إن ذلك الولد الأحمق والمغرور الذي لطالما كرهته، صدّقني، سيُخفض قرنيه، وسينطلق بأقصى ســـرعة وهو واثق من النصر، لكنه لن يلبث أن يعلق في معبرٍ ضيقٍ بين جبل آمانوس والبحر، بينما أنتم...".

قاطعـــه آريوبارزانيس: "نحن... لا تُشغل نفسك بنا لأنك ستنفذ ما أمرتك به اليوم بالذات. أريد أن تستدعي رجلك إلى الغرفة المجاورة حيث أستطيع رؤيتك وسماعك، وسترسله على الفور إلى ذلك اليوناني الـــصغير. سنقرر ما سنفعله بشأنك بعد أن ننتصر. أؤكد لك أننا إذا وجـــدنا أنـــك ساهمت في النصر بشكلٍ حاسم، فسنوجّه ذلك العمود الـــذي رأيتَه في الباحة إلى استخدامات أخرى. لكن، إذا أخطأت بأي شيء... فالويل لك عندها!". حافظ الرجل على ابتسامته وهو يُدخل سبابة يده اليمنى من خلال الحلقة التي شكلتها سبابة يده اليسرى.

تحـــضّر إيمولبوس كي ينفّذ ما أُمر به، بينما تحضرت عيون وآذان كـــثيرة لمـــشاهدته وسماعه من خلال سلسلة من ثقوب المراقبة المخفية بإحكام والمنتشرة حول الغرفة التي زُيّنت جدرانها بالجصّ.

شـــرح إيمولـــبوس كل شيء للمبعوث الجديد: "ستقول لهم إن زمـــيلك مريض، ولهذا السبب قمت بإرسالك. أما عندما يطلبون منك كلمة السر فستقول لهم..."، وسعل عندما وصل إلى هذا الحد ثم تابع كلامه: "... نخاع الخراف".

سأل المبعوث بدهشة: "هل قلت نخاع الخراف يا سيدي؟".

"أجل، نخاع الخراف. لماذا؟ هل هناك خطأ ما؟".

"كلا، كلا على الإطلاق، كل شيء على ما يرام. سأنطلق على الفور".

"حسناً، هذا رائع. إذاً، انطلِق".

وبعــد ذلــك، غادر إيمولبوس من سولوي من خلال بابٍ صغير يؤدي إلى الغرفة الأخرى حيث كان آريوبارزانيس في انتظاره.

سأله قلقاً: "هل أستطيع أن أنصرف الآن؟".

أجاب المرزبان: "يمكنك أن تنصرف في الوقت الحاضر".

عــبر الإسكندر فريجيا الكبرى من غورديوم حتى وصل إلى مدينة آنــسيرا الــواقعة في أحضان مجموعة من التلال، وهناك ثبّت المرزبان الفارسي المقيم في مركزه، وأضاف بعض الضباط المقدونيين إلى حامية المدينة.

وانطلــق مجــدداً في زحفه شرقاً حتى وصل إلى نهر هاليس، وهو النهر العظيم الذي يجري حتى البحر الأسود، والذي شكّل لقرون عدة الحــدود بين العالمين الإيجي والأناضولي وبين آسيا الداخلية، كما كان الحد الأقصى الذي لا يجرؤ الإغريق على تجاوزه. زحف الجيش بمحاذاة النهر حتى منعطفه الجنوبــي، ثم تقدموا بعد ذلك حتى ضفاف بحيرتَي الملح الكبيرتين التي تحيط بها مساحات واسعة من اللون الأبيض.

قــبل الإســكندر قَــسَماً بالولاء من المرزبان الفارسي المقيم في كبادوكيا، وثبّته في مركزه، ثم توجه جنوباً وبكل تصميم ومن دون أن يواجه أي مقاومة، وانطلق عبر تلك الهضبة مترامية الأطراف والتي يحيط بها جبل أرغايوس، وهو بركان خامد ومكلّل بالثلج على الدوام، ويبدو

كل صباح وسط الضباب كالشبح. كان الصقيع يغطي تلك الأراضي في ساعات الصباح الأولى، لكن الشمس التي تتصاعد من فوق الأفق لا تلبث أن تعيد إلى الأرض لونها البني المائل إلى الأحمر.

كانت حقول كثيرة محروثة ومزروعة بالبذور، بينما لم تُحرث أراضٍ كثيرة متناثرة هنا وهناك، فنبتت فيها حشائش صفراء تشكل مادة صالحة للرعي بالنسبة إلى قطعان الخراف والماعز. وبعد مسيرة يومين، ظهرت أمام الجيش الحواف المهيبة لسلسلة جبال طوروس، والتمعت قممها البيضاء تحت أشعة الشمس، لكنها ما لبثت أن تحوّلت إلى اللون الأحمر عند مغيب الشمس.

بدا أنه من المستحيل أن تنفتح أمامهم كل هذه المساحات الشاسعة بصورة تلقائية تقريباً، وأن تستسلم قبائل كثيرة، وقرى ومدن عديدة، من دون إبداء أي قدرٍ من المقاومة.

في هذا الوقت، كانت شهرة ذلك القائد الشاب قد شاعت في كل الأنحاء، كما شاعت أنباء موت القائد ممنون، وهو الرجل الوحيد، باستثناء الملك العظيم ذاته، الذي يقدر على إيقاف زحف الإسكندر.

وبعد خمسة أيام من الزحف، بدأت الطريق فوق الهضبة الجبلية تصعد بانحدار شديد نحو المعبر الذي يؤدي إلى سهل كيليكيا الساحلي. وعندما يتوقف الجيش عند المساء، كان الإسكندر يجلس وحيداً، أو مع هيفاستيون وأصدقائه الآخرين، في خيمته وذلك من أجل قراءة *أناباسيس*، وهي يوميات كتبها زينوفون عن الحملة التي كان عدد جنودها نحو عشرة آلاف رجل، والتي سارت قبل سبعين عاماً فوق هذه البقعة بالذات. وصف ذلك المؤرخ الأثيني المعبر بأنه ضيّق جداً ويصعب عبوره إذا كان محمياً.

تقـــدّم الإســـكندر صف الجنود، ورآه الحراس الموجودون عند مـــدخل المعبر فعرفوه على الفور وسط أشعة الشمس الساطعة، وذلك بفـــضل العلـــم الأحمر ذي النجمة الأرغادية الذهبية، وجواده الأسود الـــضخم الـــذي كان يمتطيه، وكذلك بفضل درعه الفضي الذي كان يعكس الضوء مع كل حركة من حركاته.

رأى الحراس كذلك صفّاً أفعوانياً طويلاً من الجياد والرجال الذين كانـــوا يتـــسلّقون الهـــضبة بـــبطء وعناد، فقرروا على الفور أنهم لا يـــستطيعون التغلب على الغزاة. وهكذا تُرك المعبر خالياً، وسمح بمرور الجيش من دون أي صعوبة.

ميّز سلوقس على صفحة الصخور الموجودة يساراً بعض الكتابات المنقوشـــة، والتي يُحتمل أن يكون بعض رجال زينوفون البالغ عددهم نحو عشرة آلاف قد كتبوها، ولفت انتباه الإسكندر إليها، فأظهر هذا الأخـــير اهتماماً كبيراً بهذا الاكتشاف. ثم انطلق الموكب مجدداً، فنظر الجنود إلى وادي سيندوس، وإلى سهل كيليكيا الأخضر الكبير.

قـــال إيومينـــيس: "نحن الآن في سوريا، الآن أصبحت الأناضول خلفنا".

صـــاح هيفاستيون وهو يحدّق بعيداً إلى الخط الأزرق الذي يحيط بالسهل: "إنه عالم آخر! كما أن البحر يبدو واضحاً!".

سأل بيرديكاس: "أين نيرخوس وأسطولنا الآن؟".

أجاب ليوناتوس: "إنه هناك في مكانٍ ما. يُحتمل أنه ينظر الآن إلى هـــذه الجـــبال ويسأل نفسه *أين يتواجد الجيش؟ ولماذا لم يتصلوا بـــي؟*".

أجـــاب الإســـكندر: "إن الأمر في غاية السهولة. ولهذا السبب بالـــذات تصبح فكرة إسراعنا في احتلال الموانئ الساحلية فكرةً جيدة.

فبهذه الطريقة، سيتمكن نيرخوس من الرسو بسهولة في أي مكان ومن دون أن يخشى الكمائن".

ونخس الإسكندر جواده بوسيفالاس، وبدأ بالسير نــــزولاً.

قـــال لايسيماخوس لليوناتوس الذي كان إلى جانبه على صهوة جـــواده: "إذا عزّزوا حاميتهم فوق تلك القمم العالية، فلن تتمكن حتى الذبابة من عبور الممر".

أجابه صديقه: "إنهم خائفون، وها هم يهربون كالأرانب، لذلك لن يتمكن أحد من إيقافنا الآن".

هزّ لايسيماخوس رأسه: "هذا ما تعتقده. إن هذا الأمر لا يعجبني بــتاتاً. أعتقد أننا نسير بأنفسنا نحو فكّي الأسد. كما أن ذلك الوحش ينتظرنا وفمه مفتوح".

قال ليوناتوس مدمدماً: "سأسحب لسانه". وتراجع بعد ذلك كي يتأكد من حراسة الجزء الخلفي من الصف.

مـــا إن اجتازوا مسافة قصيرة نسبياً، حتى تغيّر الطقس كلياً. فبعد أن كان جافاً ومنعشاً في المرتفعات، أصبح دافئاً ورطباً، وهكذا تعرّقوا بغزارة داخل دروعهم.

توقفـــوا مرة واحدة قبل أن يصلوا إلى طرسوس التي لا تبعد كثيراً عـــن البحـــر. فتح البحر ذراعيه أمامهم بعد أن هرب مرزبان كيليكيا مفـــضلاً أن ينـــضم إلى جيش الملك العظيم. نصب جيش الإسكندر خيمهم في ذلك السهل، أما هو وفرقة النخبة وكبار الضباط فقد فضّلوا الإقامة في أفضل منازل المدينة. وكان في أحد تلك المنازل عندما أُعلن عن وصول أحد الزوار.

قال أحد حرّاس المدخل: "هناك مبعوثٌ يصرّ على التحدث إليك شخصياً يا مولاي".

"ومن الذي أرسله؟".

"يدعي أنه أُرسل من قِبل شخصٍ يُدعى إيمولبوس من سولوي".

"في هذه الحالة يجب أن يقول لك كلمة سر".

غادر الحارس وما لبث الإسكندر أن سمعه يضحك، فعرف أنه لا بد من أن يكون مبعوث إيمولبوس.

بـــدأ الحارس بالكلام، لكنه بالكاد تمكّن من إخفاء ضحكته: "إن كلمة السر هي...".

قال الملك مقاطعاً: "لا أجد الأمر مدعاةً للضحك".

"إن كلمة السر هي *نخاع الخراف*".

"إنها كذلك، ولا بد من أنه هو بالذات... دعه يدخل".

تحرّك الحارس الذي عاوده الضحك مجدداً، ثم أدخل المبعوث.

"مولاي. أرسلني إيمولبوس من سولوي".

"أعرف... فهو من يقول كلمة سرٍّ سخيفة كهذه. لكن، لماذا لم يُرسل المبعوث الآخر؟ لم يسبق لي أن رأيتك من قبل".

"وقع حادث للمبعوث الآخر، فقد وقع عن جواده".

"وما هي الأخبار التي تحملها إليّ؟".

"إنـــي أحمـــل أخباراً مهمة يا سيدي. لم يعد الملك العظيم بعيداً عـــنك، كما أن إيمولبوس نجح في رشوة مساعد داريوس الميداني نفسه كي يعرف المكان الذي ستقع فيه المعركة، وهي المعركة التي يرغب في أن يبيدكم فيها".

"أين؟".

نظر المبعوث حوله فرأى الخريطة التي يحملها الإسكندر معه على الدوام، والتي نشرها فوق طاولة خشبية. ودلّ بإصبعه إلى نقطة تقع ما بين جبل كارمل وجبل آمانوس، ثم قال: "هنا، عند بوابات كيليكيا".

47

انتــــشرت الأخبار في أنحاء المخيّم شفهياً بسرعة البرق، فنشرت الهلع في كل مكان: "مات الملك! مات الملك!".

"وكيف حدث ذلك؟".

"لقد غرقَ".

"كلا... لقد تعرض للتسمّم".

"كان ذلك الرجل جاسوساً فارسياً".

"وأين هو الآن؟".

"لا أحد يعرف إلى أين ذهب، لقد اختفى".

"دعونا نبحث عنه. أي اتجاه سلك؟".

"انتظر لحظة، هيفاستيون وبطليموس هنا!".

"وفيليب، طبيب الملك معهما كذلك".

"يعني ذلك أنه لم يمت!".

"وكيف لي أن أعرف؟ إن كل ما سمعته هو أن الملك قد مات".

تجمـــع الجـــنود بسرعة حول الرجال الثلاثة الذين سعوا إلى شق طريقهم نحو مدخل المعسكر.

شـــكّلت مجمـــوعة مـــن حاملي الدروع صفاً للسماح للرجال بالتحرك بصورة أسرع بين خيمة فيليب والمدخل.

سأل الطبيب: "كيف حدث ذلك؟".

بدأ هيفاستيون بالكلام: "كنا قد أنهينا تناول الطعام".

قال بطليموس متابعاً: "كانت الحرارة لا تطاق".

سأل فيليب: "ولا بد من أنكم كنتم تشربون. أليس كذلك؟".

"كان الملك في مزاجٍ حسن، لذلك تناول شراب كوب هرقل".

قال فيليب متذمراً: "أي أنه تناول نصف إناء من الشراب".

ردّ بطلـيموس: "أجـل. قال لنا بعد ذلك إنه لا يستطيع تحمل الحرارة، وعندما نظر من خلال النافذة، ورأى مياه نهر سيندوس المتدفقة صاح: *إنني خارج للسباحة!*

صـاح فيليب، وقد تفجر غضبه في هذه اللحظة: "سبح ومعدته مليئة، وفي يومٍ حار كهذا؟".

في هـذا الوقت، وصلت الجياد، فامتطى الرجال الثلاثة صهوات جـيادهم، وانطلقـوا بأقـصى سرعة نحو النهر الذي كان على بعد ستاديات قليلة منهم.

كـان الملك مستلقياً على الأرض في ظل شجرة تين، وهو مغطى بعـباءة. وكانت ملامحه شاحبة شحوب الموت، بينما أحاطت دائرتان سوداوان بعينيه، أما أظفاره فكانت زرقاء اللون.

صـاح فيليب، وهو يقفز إلى الأرض: "اللعنة! لماذا لم توقفوه؟ إنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ابتعدوا عن طريقي! ابتعدوا!".

قـال هيفاستيون متلعثماً: "لكننا...". ولم يستطع إكمال جملته، فأدار وجهه نحو جذع شجرة كي يُخفي دموعه.

نـزع الطبيب ثياب الإسكندر، ووضع أذنه على صدره، فتمكن مـن سمـاع ضـربات قلب الملك الخافتة، لكنها كانت ضعيفةً جداً ومـتقطعة. وعلـى الفور، غطّاه الطبيب مجدداً، وصاح بأحد حاملي الدروع: "بسرعة! أريدك أن تركض نحو جناح الملك. دع ليبتين تحضّر حمامـاً ساخناً، وقل لها أن تضع المزيد من المياه الساخنة جانباً، وقل لها أن تغلي بعض الأعشاب التي سأعطيك إياها، وبالنسب الصحيحة التي

سأحددها لك"، ثم تناول ريشة ولوح كتابة من حقيبته، وأسرع بكتابة الوصفة، "اذهب الآن! أريدك أن تركض بسرعة الرياح!".

تحرّك هيفاستيون إلى الأمام: "أيمكننا أن نفعل شيئاً للمساعدة؟".

"حضّروا نقّالة من القصب واربطوها بلجامي حصانين للحمولة. يتعيّن علينا أن نعود به إلى جناحه".

نـــــزع الجـــنود سيوفهم من أغمادها، وبدأوا بقطع حزمة من القصب النابت على ضفة النهر، ونفذوا ما أُمروا به. ثم رفعوا الملك بعد ذلك بكل عناية، ووضعوه فوق النقّالة، وغطوه بعباءة.

تحـــرّك الموكب الصغير يتقدمه هيفاستيون الذي أمسك بلجامي الحصانين كي ينظم خطواهما.

التقـــتهم ليبـــتين عند الباب، وقد اتّسعت عيناها نتيجة القلق والاضـــطراب، وكان خوفها كبيراً جداً بحيث إنها لم تسأل أياً كان عمـــا حـــدث، وذلك لأن نظرةً واحدة إلى الملك كانت تكفيها كي تـــدرك مـــدى خطـــورة الوضع. هرولت بسرعة نحو غرفة الحمام متبوعة بحاملي النقالة، لكنها راحت تعضّ شفتها السفلى كي توقف دموعها.

في تلك الأثناء، توقف الملك عن إعطاء إشارات تدل على الحياة؛ إلا القلـــيل مـــنها. كانت شفتاه زرقاوين، أما أظفاره فكادت تكون سوداء اللون.

جثا هيفاستيون أمامه ورفعه، وما لبث رأسه وذراعاه أن سقطت إلى الخلف، أي كما لو كان جثة هامدة.

اقترب منه فيليب: "ضعوه في الحوض ببطء. أنـــزلوه تدريجياً".

تمتم هيفاستيون شيئاً بهدوء، ولعلها كانت تعويذة تقي الإسكندر من سوء الحظ، أو لعلها لعنة ما.

همس ليوناتوس في أذن بيرديكاس: "طلبت إليه ألا يقفز في الماء وهو على هذه الدرجة من الحرارة العالية، وبمعدة مليئة بالطعام، لكنه لم يشأ أن يصغي إليّ. قال لي إنه فعل ذلك ألف مرة و لم يحدث له شيء أبداً".

نظـــر إليهم فيليب من وراء كتفه: "توجد مرة أولى على الدوام. إنكم مجموعة من البلهاء المتهورين. ألا تفهمون أنكم كبرتم الآن؟ إنكم تحملون على أكتافكم مسؤولية أمةٍ بأكملها. لماذا لم توقفوه؟ لماذا؟".

ســـعى لايـــسيماخوس إلى تبريـــر موقفهم: "لكننا حاولنا ذلك فعلاً...".

بـــدأ فيليب بتدليك جسد الإسكندر، وراح يلعن ويقول: "أشك في أنكم قد حاولتم منعه! فلتحلّ عليكم اللعنة. عرفتم ما الذي حدث، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ كلا، ربما لم تعرفوا بالفعل". وقف الشبان هـــناك، وقد أحنوا رؤوسهم وكأنهم يقفون أمام معلمٍ غاضب. "تتدفق مـــياه هذا النهر بسرعة، وتصبح غزيرة نتيجة ذوبان الثلوج التي تكلّل سلـــسلة جـــبال طوروس خلال الصيف، لكن مسار النهر قصير جداً، كمـــا أن حوضه شديد الانحدار بحيث لا يتسنى للمياه أن تسخن ولو قلـــيلاً، لذلك، فإنها تحتفظ بحرارتها التي تقترب من درجة حرارة الجليد حتى تصل إلى البحر. يبدو الأمر وكأنه دفن نفسه في الثلج عارياً".

في هذا الوقت، جثت ليبتين بجانب الحوض، وانتظرت أن تسمع ما سيقوله لها الطبيب.

"جـــيّد، حـــسناً فعلت. يمكنكِ أن تساعديني أنت أيضاً. مسّدي جـــسده هكذا، أي بدءاً من معدته وصعوداً برفق. دعينا نحرّك ما هو موجود في جهازه الهضمي".

اقتـــرب هيفاســـتيون بطريقة عدائية، وأشار بإصبعه نحو فيليب. "اسمعـــني جيداً. إن الإسكندر هو ملكنا، وهو يفعل ما يشاء، ولا يحقّ

لأي رجـــلٍ منا بالتدخل. أنت طبيب، لذلك، فإن مهمتك تقضي بأن تجعلـــه في حالةٍ أفضل. أتفهم؟ يتعيّن عليك أن تجعله بحالةٍ أفضل، هل فهمت؟".

نظـــر فيليب إلى عينيه مباشرة: "لا تتكلم معي بهذه اللهجة، لأنني لــست خادمــك. ســأفعل كل ما أعتبره مناسباً وصحيحاً، هل هذا واضــح؟ والآن ابتعدوا عن طريقي... تحركوا!"، وأضاف بعد أن بدأ الجميع بالخروج من الغرفة: "ولكنني أحتاج إلى واحد منكم. أحتاج إلى شخص يساعدني".

التفت هيفاستيون نحوه وقال: "أتسمح لي بالبقاء؟".

ردّ فيلـــيب متمتماً: "أجل. لكن، اجلس على ذلك الكرسي ولا تزعجني".

اســتعاد الملك لونه بعض الشيء، لكنه بقي فاقداً الوعي ومغمض العينين.

قـــال فيلـــيب: "يتعيّن علينا أن نُفرغ معدته بسرعة، وإلا فإنه لن ينجو. هل حضّرتِ الشراب المغلي يا ليبتين؟".

"أجل".

"إذاً، اذهبـــي وأحضريه. أما أنا، فسأتابع التدليك".

وبعـــد قليل، أحضرت ليبتين قارورة مليئة بسائلٍ ذي لونٍ أخضر داكن.

قـــال فيلـــيب آمراً: "حسناً، أريدك أن تساعديني الآن. أما أنت يـــا هيفاستيون، فأريدك أن تُبقي فمه مفتوحاً لأنه يجب أن يشرب هذا السائل".

نفّـــذ هيفاســـتيون مـــا أُمـــر به، فسكب الطبيب السائل في فم الإسكندر.

لم يبدِ الملك أيّ ردّ فعل بعد تناوله الشّراب. ولكن، بعد لحظات، أصيب الملك بتشنج وتقيّأ كلّ ما في جوفه.

سألت ليبتين بعد أن ازدادت درجة رعبها: "ما هو هذا المزيج؟".

"إنــه الشراب. لقد بدأ بإعطاء مفعوله في هذا الوقت كما ترين. ولقد أضفت إليه دواء من شأنه أن يُجبر جسمه على التفاعل معه".

اســتمر الإســكندر في التقيؤ لوقت طويل. لكن ليبتين أمسكت جبهته، فيما بدأ الخدم بتنظيف الأرض حول حوض الاستحمام. وبعد ذلك، حصلت سلسلة من التشنجات القوية التي أنهكت جسده، والتي ترافقت مع أصوات صادرة عن حنجرته خلال محاولته التنفس.

كــان دواء فيليب قوياً، وكان تأثيره قويًّا أيضاً بحيث أوهن الملك كــثيراً. بدا أن الملك قد استطاع الصمود، وأن فترة نقاهته ستتخلّلها انتكاســات عدة، وهي الانتكاسات التي ستترافق مع فترات حمى قوية وطويلة، والتي أنهكته لأيّام.

مــرّت أشــهر عدة قبل أن يبدأ الملك بالتحسّن. لكن معنويات الجــيش كانت قد تأثرت كثيراً في هذه الفترة. إذ انتشرت بين الجنود الــشائعات عن موت الملك. كما ترافقت هذه الشائعات مع شائعات أخــرى بــدت مؤكدة، وتفيد بأن لا أحد في القيادة العليا يجرؤ على إعــلان الخبر بشكل رسمي. أخيراً، بعد أن انقضى فصل الصيف وبدأ فــصل الخريف، تمكّن الإسكندر من النهوض من فراشه، ومن الوقوف أمــام جنوده كي يقوي من معنوياهم. ولكن، تعيّن عليه بعد ذلك أن يعود فوراً إلى سريره.

كــان يمكــث في غرفته ساعات وساعات، وهو يذرعها ذهاباً وإيابــاً. وكانــت ليبتين تتبعه حاملة كوباً من الحساء وتتوسله قائلة: "اشرب يا سيدي. اشرب هذا، فتشعر بالتحسن".

كـــان فيليب يزوره مساء كل يوم فقط، إذ كان يمضي وقته في المعسكر، لأن عدداً كبيراً من الجنود وقع فريسة المرض نتيجة التغيّر في الطقـــس وتغـــيير الطعام. واشتكى عدد كبير منهم من الإسهال، بينما اشتكى آخرون من الحمى والغثيان والتقيؤ.

ذات مـــساء، جلـــس الإسكندر إلى طاولته، واهتمّ بالبريد الذي وصـــله من مقدونيا، ومن المقاطعات التي احتلها. وبينما كان منشغلاً بقـــراءة الرســـائل، دخل أحد السعاة، وسلّمه رسالة مختومة من القائد بارمينيون. وفيما كان الملك يفتح الرسالة وصل فيليب.

بدأ فيليب على الفور بتحضير الدواء الذي ينوي إعطاءه للملك، وسأله: "كيف حالك الآن يا مولاي؟".

نظر الإسكندر بسرعة إلى رسالة القائد، وقرأ:

من بارمينيون إلى الملك الإسكندر. تحياتي.
وصـــلتني للتو معلومة مهمّة. وهي أنّ الفرس قد أفسدوا طبيبك فيليب، وهو يقوم بتسميمك.
كن حذراً.

ردّ الملك على فيليب: "أنا في حالة حسنة تماماً". ومدّ إحدى يديه لـــيأخذ كـــوب الـــدواء، فيما سلّم طبيبه الرسالة باليد الأخرى. بدأ الإسكندر بشرب الكوب، بينما كان فيليب يقرأ الرسالة.

لم يُظهر فيليب أي رد فعلٍ مهما كان. وعندما أنهى الملك شرب الـــدواء، سكب فيليب ما تبقى من المزيج الذي حضّره في إناء وقال: "خـــذ جـــرعة أخـــرى هذه الليلة قبل أن تنام. ستبدأ يوم غد بتناول المأكـــولات الصلبة، وسأخبر ليبتين بتعليماتي بشأن وجباتك الغذائية، وهي التعليمات التي يجب عليك أن تتقيد بها كلياً".

قال له الملك مؤكداً: "سأفعل".

"إذاً، ســـأعود إلى المعسكر. إن عدداً كبيراً من جنودنا ليس بخير. أتعرف ذلك؟".

ردّ الإسكندر: "أعرف. وأعرف أن هذا يمثّل مشكلةً بالنسبة إلينا. إن داريـــوس يقترب، وأنا أشعر بذلك. يجب أن أتعافى". وحين أوشك فيليب على المغادرة، سأله الإسكندر: "ما رأيك في هذه الرسالة؟".

هزّ فيليب رأسه قائلاً: "ليست لديّ أي فكرة. ولكن، هناك عدد كـــبير من الجراحين الشبان الطموحين والمقتدرين، والذين يستطيعون تـــدبير خطة تمكنهم من الوصول إلى مركز الجرّاح الملكي. إذا أصبتُ بسوء، فإن أحداً منهم سيأخذ مكاني".

"دعني أعرف من هم وأنا...".

"لا أظن ذلك يا مولاي. إذ إنّنا سنكون بحاجة إلى كل الجراحين عما قريب، ولكنني غير متأكد إن كان عددهم كافياً. على كل حال، شكراً على ثقتك بـــي". قال ذلك، وأغلق الباب وراءه.

48

رست سفن أسطول نيرخوس في طرسوس في منتصف فصل الخريف. فنزل القائد كي يلقي التحية على الإسكندر ويعانقه. وكان الإسكندر قد تعافى كلياً في هذا الوقت.

قال الملك: "أسمعتَ أن داريوس ينوي أن يمنعنا من عبور المنطقة الشمالية؟".

"أخبرني بيرديكاس بذلك. لكن مرضك، للأسف، منحهم الوقت الكافي لتعزيز مواقعهم".

"أجل. لكن، أريدك أن تصغي إلى خطتي. سنتحرك نزولاً نحو المعابر، وسنرسل بعد ذلك بعض الكشافين كي يحدّدوا موقع داريوس بدقة. وعندها، سنطرد حاميتهم بهجومٍ مباغت، ثم ننزل مع الجيش بأكمله كي نهاجم قواته فوق السهل. فهم يفوقوننا عدداً بنسبة عشرة رجال مقابل رجل واحد".

"عشرة مقابل واحد؟".

"هذا ما سمعناه. سأترك جنودنا المرضى في إيسوس. وبعد ذلك، سنبدأ الزحف نحو المعبر. سننطلق غداً. أما أنت فستتبعنا بأسطولك، وسنكون قريبين من بعضنا منذ الآن فصاعداً، بحيث نتمكن من تبادل الإشارات في ما بيننا".

عاد نيرخوس إلى سفينته، لكنه أبحر بها في اليوم التالي متجهاً إلى الجنوب، بينما تابع الجيش تقدمه بمحاذاة الساحل في الاتجاه ذاته.

وصـــل الجيش إلى إيسوس، وهي المدينة التي ترقد في أحضان الجبال، وتـــبدو مـــثل مدرجات مسرح. عندها، أمر الإسكندر جميع الرجال غير المؤهلين للقتال بالبقاء فيها. ثم انطلق بجيشه مجدداً زاحفاً نحو مقصده.

في مساء اليوم التالي، أرسل الإسكندر فرقةً من الكشافين لتحديد موقـــع داريـــوس، بيـــنما أرسلت سفن نيرخوس إشاراتها التي أفادات بارتفاع أمواج البحر، وبأن عاصفة توشك على الهبوب.

قـــال بيرديكـــاس متذمراً: "هذا كل ما نحتاج إليه!". بينما سعى رجالـــه إلى نـــصب خيَم المعسكر في وجه الرياح العنيفة. بدأت الخيم ترفرف مثل أشرعة السفن عندما تكون وسط العاصفة.

وعـــند حلـــول المساء، كان المخيّم جاهزاً. لكن العاصفة بدأت حيـــنها جـــدياً، ورافقها هطول الأمطار الغزيرة، والبرق الذي يعمي العيون، والرعد الذي ترددت أصداؤه في سفوح الجبال.

رســـت ســـفينة نيرخوس في الوقت المناسب. لكن أفراد طاقمه اضـــطروا إلى استخدام المطارق الثقيلة من أجل ربط المراسي التي تثبت حبال الجزء الخلفي من السفينة والتي رمتها إليهم السفن الأخرى.

في النهاية، بدا أن الوضع قد أصبح تحت السيطرة. والتقى أركان الجيش كافة في خيمة الإسكندر، وذلك من أجل تناول عشاءٍ خفيف، وكـــذلك من أجل مناقشة الخطط لليوم التالي. وفي الوقت الذي استعد فـــيه الجمـــيع للانـــصراف، وصل مبعوث من إيسوس. كان المبعوث يتـــصبب عـــرقاً، وكادت أنفاسه تنقطع، كما أن الوحل كان يغطي جسمه. سُمح للمبعوث بالمثول أمام الملك على الفور.

سأل الإسكندر: "ماذا حدث؟".

جاهد الرجل ليلتقط أنفاسه، لكنه تمكّن من الكلام: "مولاي! إنّ جيش داريوس خلفنا مباشرة، أي في إيسوس".

صاح الملك: "ماذا قلت؟ أكنتَ تشرب؟".

"كـــلا، مع الأسف. أنا صاحٍ تماماً يا مولاي. وصلوا فجأة قرابة مغيب الشمس، وفاجأوا الحراس الموجودين خارج المدينة، ثم أسروا كل الجنود المرضى الذين تركتهم معنا".

ضرب الإسكندر بقبضته على الطاولة: "اللعنة! سيتعيّن عليّ الآن أن أتفاوض مع داريوس لإطلاق سراحهم".

قال بارمينيون: "لا خيار لنا في هذا".

سأل بيرديكاس: "لكن، كيف أصبحوا خلفنا فجأة؟".

قـــال سلوقس بلهجة فيها شيء من عدم الاكتراث، وكأنه يحاول أن يهـــدئ الجميع: "من غير المحتمل أبداً أنهم سلكوا هذه الطريق، لأننا موجـــودون هنا. ولا يُحتمل كذلك أنهم سلكوا الطريق البحرية، وإلا تمكن نيرخوس من رؤيتهم".

تحـــرّك بطليموس نحو المبعوث، وقال: "وماذا لو كان الأمر مجرد خدعة تهدف إلى إبعادنا عن المعبر، وإعطاء الملك العظيم الوقت الكافي للتحرك صعوداً، ومهاجمتنا من مناطق عالية؟ أنا لا أعرف هذا الرجل. أتعرفونه أنتم؟".

اقترب جميع الحاضرين من المبعوث وأخذوا يتفحصونه، وما لبث الرجل أن تراجع نحو الباب بسبب الخوف.

قال بارمينيون: "لم يسبق لي أن رأيته من قبل".

وقال كراتيروس بعد أن نظر إليه بتشكك: "ولا أنا".

قال المبعوث متوسلاً: "لكن، مولاي...".

سأله الإسكندر: "ألديك كلمة سر...".

"لكـــن، أنا... لم يكن لدي وقت. طلب مني القائد المسؤول عني أن أحضر بسرعة، لذلك امتطيت جوادي بأسرع وقت".

"ومن هو قائدك؟".

"إمينتاس من لينسيستس".

أمسك الإسكندر عن الكلام، وتبادل نظرةً قصيرة وذات معنى مع بارمينيون. في تلك اللحظة بالذات، لمع برق بقوة، فاخترق النور الخيمة، وأضاء وجوه كل الحاضرين بتوهجٍ جعلها تظهر مثل وجوه الأشباح. وسرعان ما دوّى قصف الرعد الذي يصمّ الآذان.

قال نيرخوس ما إن هدأ صوت الرعد: "توجد طريقة واحدة كي نعرف ما يجري".

سأل الملك: "وما هي؟".

"أعتزم العودة كي أعرف ما يجري. سأعود بسفينتي".

صاح بطليموس: "لكن، هل جننت! ستغرق مثلما يغرق حجرٌ في عاصفة كهذه".

"ليس بالضرورة، لأن اتجاه الريح يتحول شمالاً، وإذا أسعفني الحظ، فسأتمكن من الإبحار. ولكن، لا تتحركوا حتى أعود، أو حتى أرسل شخصاً ما. أما كلمة السر فهي بوسيدون".

ولفّ رأسه بعباءته، وركض تحت المطر.

تبعه الإسكندر ورفاقه حاملين المصابيح. أسرع نيرخوس نحو سفينة قيادته، وأمر بحّارته بتحرير مراسي السفن، ووضع المجاذيف في الماء. لم تتأخر السفينة عن التحرك، واستدارت نحو الشمال، وما لبث شراعها أن فُتِح ما إن ابتعدت عن الشاطئ.

حاول بطليموس حماية عينيه من المطر المتساقط بقوة وقال: "إنه رجلٌ مجنون. حتى إنه رفع شراعه".

أجاب إيومينيس: "إنه ليس مجنوناً، لكنه أفضل بحارٍ جاب البحر من هنا وحتى أعمدة هرقل، وهو يعرف هذه الحقيقة".

وشيئاً فشيئاً، اختفى الشّراع الأبيض وسط الظلمة، وعاد الجميع إلى خيمة الملك كي يجلسوا قرب المدفأة قليلاً قبل استسلامهم للنوم. كان الإسكندر متوتراً إلى درجة منعته من الخلود إلى الراحة. ولذلك بقي في الخارج قرب المدخل، وراح يتأمل العاصفة الغاضبة. وبين الحين والآخر، أخذ يلقي نظرةً على بيريتاس الذي كان يئن عند سماعه صوت الرعد. رأى الإسكندر صاعقة مفاجئة تضرب شجرة سنديان في قمة تلة وتشطرها إلى نصفين. اشتعل جذع السنديانة الضخم، وشبت فيه ألسنة النيران. وعلى ضوء ألسنة النيران، رأى الإسكندر عباءة أريستاندر البيضاء. كان الرجل يقف ساكناً وسط الرياح والأمطار، وقد رفع يديه نحو السماء. شعر الإسكندر بقشعريرة تخترق ظهره، وظنّ أنه سمع صرخات عدد كبير من الرجال الذين كانوا يقضون نحبهم، كما سمع النواح المحزن للجنود الذين ينضمون قبل أوانهم إلى صفوف الموتى. وشعر بعد ذلك بأن عقله يغرق في لجة تشبه لجة النسيان.

هاجت العاصفة، وماجت مياه البحر طوال الليل. ولم تنقشع الغيوم إلا عندما اقترب الصباح من الانبلاج، فظهرت في السماء الزرقاء مساحات خالية من الغيوم. وعندما ارتفعت الشمس في النهاية إلى كبد السماء فوق قمم سلسلة جبال طوروس، سطعت أشعتها على الشاطئ الذي كانت الأمواج تتكسّر عليه بإيقاع منتظم وتملأه بالزبد الأبيض.

عاد الكشافة الذين أُرسلوا جنوباً قبل منتصف النهار، ومثلوا أمام الملك كي يقدموا تقريرهم: "مولاي، لم نجد أحداً هناك. وكذلك لم نجد أحداً في ذلك السهل الفسيح".

قال الملك: "لا أفهم ما يجري. ولا أستطيع أن أفهم، إذ لا بد من أنّ الرّجال البالغ عددهم عشرة آلاف قد مرّوا من هنا. لا توجد طريق أخرى...".

وعــند حلول المساء، وصل الجواب مع وصول سفينة نيرخوس. وكاد رجاله يكسرون ظهورهم في أثناء تجذيفهم في مياه ضحلة بعكس اتجاه الرياح، وذلك من أجل إخبار الإسكندر بالمعلومات التي ينتظرها. ومــا إن لمح الإسكندر سفينة القيادة حتى هرع إلى الشاطئ كي يلتقي القائد الذي كان قادماً على متن قارب.

ســأل الملــك نيرخــوس ما إن نــزل هذا الأخير إلى الشاطئ: "حسناً، والآن؟".

"للأسف، أبلغك المبعوث الحقيقة. إنهم خلفنا وعددهم يصل إلى مــئات الآلاف. وهم مجهّزون بالجياد، والعربات الحربية، بالإضافة إلى رماة الأقواس، ورماة المقذوفات...".

"ولكن، كيف؟".

"يوجد معبر آخر يدعى بوابات آمانوس، وهو يبعد خمسين ستاديا إلى الشمال".

قال الإسكندر وهو يُقسم: "لقد خاننا إمولبوس. فلقد أرسلنا إلى هــذه المصيدة الواقعة بين الجبال والبحر. وها هو داريوس يطبق علينا، ويقطع علينا الطريق إلى مقدونيا".

قــال بارمينيون: "يُحتمل أنه لم يفعل ذلك عمداً. ويُحتمل أنهم اكتــشفوا خططــه، وأجبروه على هذا. أو ربما كان داريوس يأمل أن يفاجئك في طرسوس وأنت لا تزال مريضاً".

قال بطليموس معلقاً: "إن كل هذه الأمور لا تغيّر شيئاً من وضعنا الراهن".

علّق بطليموس موافقاً: "تماماً. فلقد وقعنا في ورطة".

ســأل ليوناتوس بينما كان يرفع وجهه المنمّش الذي أبقاه منحنياً حتى تلك اللحظة: "وماذا سنفعل؟".

وقـــف الإســـكندر صامتاً وكأنه يفكّر في سرّه، ثم قال: "يعرف داريوس الآن مكاننا بالضبط. وإذا بقينا هنا فسيأتي ويقضي علينا".

49

وقبل شروق الشمس، دعا الإسكندر مجلس الحرب إلى اجتماع يُعقد في خيمته. لم ينل قسطاً كبيراً من النوم، ولكنه بدا على قدرٍ كبير من اليقظة الذهنية، وفي حالة جسدية مرضية تماماً.

لخّص الإسكندر خطّته أمام المجلس قائلاً: "أيها الأصدقاء، يتفوق علينا الجيش الفارسي من ناحية الأعداد. ولذلك، يتوجب علينا أن ننتقل من هذا المكان لأننا مكشوفون فيه كثيراً. يوجد خلفنا سهل فسيح، أما أمامنا فهناك الجبال. إذا بقينا هنا فسيحيط بنا داريوس ويبيدنا تماماً. لذا، يجب علينا - لهذا السبب بالتحديد - أن نعود كي نواجهه في مكان ضيّق، أي حيث لن يستطيع الاستفادة من تفوقه العددي.

لن يتوقع داريوس أننا سنستدير ونعود، ولذلك سنفاجئه. أتذكرون المكان الذي يلتقي فيه نهر بيناروس بالبحر؟ حسناً، أعتقد أنّ هذا هو المكان المناسب للمواجهة. ولقد أبلغني الضبّاط المسؤولون عن الزحف أن المساحة الموجودة بين التلال والبحر تبلغ عشرة أو اثني عشر ستاديا على الأكثر. لكن الأرض التي تخلو من العوائق لا تبلغ أكثر من ثلاثة ستاديات، أي أنها تناسب أهدافنا. ستكون تشكيلاتنا متراصة إلى أبعد الحدود ستتجمع كتائب الفالانج و*البيزيتاروي* مع حلفائنا من اليونانيين في الوسط. أما في جهة اليمين، حيث التلال، فسأتمركز مع فرقة الطليعة على رأس فرسان *الهيتايروي*. وفي الجناح الأيسر، سيغطينا القائد بارمينيون من جهة البحر مع ما تبقى من المشاة المسلحين تسليحاً

ثقيلاً، بالإضافة إلى الفرسان التيساليين. أما التراقيون والأغريانيون فسيصطفّون خلفي كي يكونوا قوات احتياط.

ستهاجم فرق الفالانج مواجهة، أما الفرسان فسيهاجمون من الجانب، أي كما فعلوا في شايرونايا في غرانيكوس.

ليس لديّ ما أضيفه الآن. اذهبوا إلى وحداتكم، وليصطف جنودكم في تشكيلات القتال بحيث أتمكن من استعراضهم".

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما راح الإسكندر يستعرض جنوده وهو على صهوة جواده بوسيفالاس. كان قد ارتدى دروع القتال، وكذلك درع صدره الحديدي المزيّن بأشرطة فضية، وبنقوش برونزية بارزة للمرأة الأسطورية التي يتألف شعرها من الأفاعي. وقف إلى يساره حراسه الشخصيون ورفاقه: هيفاستيون، ولايسيماخوس، وسلوقس، وليوناتوس، وبيرديكاس، وبطليموس، وكراتيروس. وكانوا كلهم محصنين بالحديد والبرونز من الرأس وحتى القدمين. وكانت خوذاتهم مزينة بتيجان كانت تتمايل بسبب الرياح الباردة في ذلك الصباح الخريفي.

صاح الإسكندر: "أيها الرجال، للمرة الأولى منذ أن وطئت أقدامنا آسيا، سيتعيّن علينا أن نواجه الجيش الفارسي الذي يقوده *الملك العظيم* شخصياً، وهو الذي جاءنا من الخلف. كما أن جيشه قطع علينا طريق النجاة. إنني متأكد من أنه يخطط للتقدم على طول الساحل، وأنه يريد الإيقاع بنا على سفوح هذه الجبال، وهو الذي وضع كل ثقته بتفوقه العددي علينا. لكننا لن نكتفي بالجلوس بانتظار مجيئه. وبدلاً من ذلك سنتوجه إلى حيث يتواجد، وسنفاجئه في مكان ضيّق وسنهزمه. إننا لا نملك خياراً بديلاً. أيها الرجال، يجب أن نفوز، وإلا، فسيُقضى علينا. تذكروا هذا. إنّ جيش الملك العظيم موجود في وسط خط

المواجهة. وإذا نجحنا في قتله أو أسره، فسنكون قد ربحنا الحرب وقهرنا إمبراطوريته في اللحظة ذاتها. والآن، دعوني أسمع أصواتكم. أيها الرجال، دعوني أسمع قرقعة أسلحتكم!".

استجاب الجيش بصرخات تصم الآذان، وما لبث كل الضباط والجنود أن سحبوا سيوفهم من أغمادها، وبدأوا بضربها على دروعهم بطريقة إيقاعية، وهكذا امتلأت أجواء السهل بضجيجٍ يصم الآذان. رفع الإسكندر رمحه، ونخس بوسيفالاس إلى الأمام بحيث تقدم الجواد بخطواته المهيبة، وأحاط به الفرسان الآخرون المغلفون بدروعهم. وبعد وقتٍ قصير، سُمع خلفهم وقع خطوات الفالانج الثقيلة والمنتظمة المتناغمٍ مع ضجيج آلاف الحوافر.

تقدم الجنود شمالاً لبضع ساعات من دون أن يحدث شيء ذو أهمية. ولكن، بعد انقضاء ساعات الصباح الأولى رجع الكشافة مسرعين، وهم الذين كانوا قد سبقوا الجيش.

صاح قائدهم، وقد بدت أمارات الرعب على وجهه: "مولاي! أعاد إلينا البرابرة الرجال الذين تركناهم في إيسوس".

نظر إليه الإسكندر وهو عاجز عن فهم ما يجري.

"شوّهوهم جميعاً يا مولاي، وقطعوا أيديهم. ولذلك مات عدد كبير منهم نتيجة فقدانهم الدماء، بينما جرّ آخرون أنفسهم عبر الطريق وهم يئنون ويبكون من شدّة الألم. إنه منظر فظيع".

انطلق الملك على جواده بسرعة كي يرى رجاله. وما إن رأوه حتى مدوا نحوه أذرعهم المخضّبة بالدماء، بينما رُبطت أطرافها بخرقِ قماشٍ متسخة، وذلك بقدر ما تسمح به الظروف.

تجهّم وجه الملك ما إن رآهم، وقفز عن ظهر جواده بوسيفالاس وصرخ كالمجنون وهو يعانق جنوده الواحد تلو الآخر.

جــرّ أحد قدامى المحاربين نفسه حتى وصل إلى قدمَي الإسكندر، وكأنــه يريد أن يقول له شيئاً. ولكنه كان قد استنفد كل قواه، فانهار ومات هناك في الوحل.

بدأ الإسكندر بالصراخ: "نادوا فيليب، استدعوا الأطباء، بسرعة! بــسرعة! يجــب أن يساعدوا هؤلاء الرجال". ثم التفت بعد ذلك إلى جــنوده وقال: "انظروا إلى ما فعلوا برفاقنا! تعرفون الآن ماذا ينتظركم إذا خــسرتم هــذه المعركة. لا يجدر بأيّ منا أن يرتاح حتى نثأر منهم بسبب هذه الجريمة".

رتّــب فيلــيب أمر المساعدة الطبية للجرحى، وأمر بوضعهم في عــربات لتنقلهم إلى المعسكر قبل أن يلتحقوا بالجيش مجدّداً. وأدرك أن الجيش سيحتاج إلى مهاراته مجدداً قبل غياب الشمس.

وعــند منتصف النهار تقريباً، ظهر جيش داريوس، وقد اصطفّ علــى الــضفة الشمالية لنهر بيناروس. كان المنظر مدهشاً. إذ إنّ مئتي ألــف جــنديّ علــى الأقل اصطفوا في تشكيلاتٍ قتالية موزعة على صــفوف عــدة، وتقدّمتهم العربات الحربية المجهزةً بآلاتٍ قاطعة تبرز بــشكلٍ مــرعب من محاور العجلات. واصطف عند جناحَي الجيش الفرسان الميديون، والكاسيون، والساكا، والهيراكانيون. أما في الوسط، ووراء العــربات، فلقد وقف مشاة فرقة الخالدين، وهم حراس داريوس الــذين يحملــون أســهمهم الفضية، ورماحهم ذات الرؤوس المذهّبة، والأقــواس الطــويلة والمذهبة فوق أكتافهم. صاح لايسيماخوس: "يا للهول! إن عددهم كثير جداً".

لم يقــل الإسكندر شيئاً، بل تابع التحديق إلى مركز خط العدو، وراح يبحث عن عربة الملك العظيم.

قطع بطليموس تأمله بالقول: "انظر! يناور الفرس للاتجاه نحو اليمين!".

نظـــر الملك إلى التلال فرأى سرية من الفرسان تنطلق نحو أرضٍ مرتفعة، وذلك في خطوة يُقصد منها محاصرة جيشه.

"لا يمكننا مشاغلتهم من هذه المسافة. أرسِل التراقيين والأغريانيين لإيقـــافهم. يجب ألاّ نسمح لهم بالمرور مهما كان الثمن. أعطِ الإشارة لأننا على وشك البدء بالهجوم!".

أســـرع بطليموس نحو كتائب التراقيين والأغريانيين وأرسلهم إلى التلال، بينما أعطى هيفاستيون الإشارة إلى حاملي الأبواق، فبدأوا بنفخ آلاتهـــم. وســـرعان مـــا استجاب الجيش في الجهة اليسرى، فسُمِعَت أصـــوات الأبـــواق، وانطلق الجنود جميعاً مع المشاة والفرسان بمسيرة بطيئة.

قـــال هيفاســـتيون: "وانظـــر إلى هـــناك! إنهم المشاة اليونانيون المسلحون تسليحاً ثقيلاً. لقد جعلوهم يصطفون في الوسط".

قـــال بيرديكـــاس: "وانظر إلى الأسفل. هناك حيث ثبتوا عصياً مسنونة في الأرض".

أضاف لايسيماخوس: "لقد فاض النهر كثيراً بسبب الأمطار التي هطلت في الليلة الماضية".

وقف الإسكندر بصمتٍ وهو يراقب الأغريانيين والتراقيين الذين شاغلوا الفرس وتمكنوا من ردهم على أعقابهم. في هذا الوقت، اقترب هؤلاء من ضفتي نهر بيناروس. لم يكن النهر عميقاً بحدّ ذاته، لكن مياهه بنـــية اللون كانت تتدفق بسرعة بين ضفتيه الموحلتين. رفع الملك يده مجدداً، وما لبثت الأبواق أن صدحت بإشارة الهجوم.

أخفـــض الفـــالانج رمـــاحهم وهاجمـــوا، فيما انطلق الفرسان التيـــساليون الموجودون في الجهة اليسرى بسرعةٍ كبيرة. أما الإسكندر فقـــد نخـــس جواده بوسيفالاس كي يقود فرقة *الهيتايروي* الخاصة به.

انحرف الملك إلى جهة اليمين قدر استطاعته، ودفع جواده إلى النهر عند أضيق نقطة فيه، وسرعان ما تبعته السرية بأكملها، وذلك قبل أن يتمكن الفرس من إيقافه، ثم استدار، وانطلق حاملاً رمحه بيده كي يهاجم ميمنة عدوه.

في الوقت ذاته، نزل الفالانج إلى نهر بيناروس وعبروه، ثم بدأوا بتسلّق الضفة اليسرى للنهر. وما إن وصلوا حتى وجدوا المرتزقة الإغريقيين في مواجهتهم بعد أن وقفوا في تشكيلات متراصة. كانت الأرض وعرة وزلقة. كما كان النهر مليئاً بالحجارة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ضفته. الأمر الذي أجبر صفوف المقدونيين على التشتت. استفاد اليونانيون كثيراً من هذه الثغرات، وشاغلوا البيزيتاروي في مواجهة شرسة وجهاً لوجه.

كان كراتيروس يحارب راجلاً في ميمنة الفالانج، وسرعان ما أدرك خطورة الموقف، فأمر بنفخ الأبواق من أجل دعوة حاملي الدروع لمساندته. اضطر عدد كبير من البيزيتاروي إلى التخلي عن رماحهم كي يجردوا سيوفهم من أغمادها من أجل الدفاع عن أنفسهم في الهجوم الشرس الذي شنّه المرتزقة اليونانيون، ولكنهم اكتشفوا أنهم أصبحوا في مأزق حرج.

في هذه الأثناء، أرسل بارمينيون الذي كان في ميسرة الجيش الفرسان التيساليين كي يهاجموا ميمنة الجيش الفارسي على شكل موجات بشرية، أي سرية تلو الأخرى. كانت كل سرية من هذه السريات تطلق سحابة من السهام ثم تتراجع لتتقدّم إلى الأمام السرية الثانية فالثالثة؛ ولكن بتقطع. أما الهيراكانيون والساكا، فقد قاموا بدورهم بهجومات مضادة مستفيدين من تغطية كثيفة من السهام التي كان الرماة الكايسانيون يطلقونها. وتمكنوا كذلك من استخدام بعض

العـــربات في هذه المنطقة. لكن الأرض الوعرة لم تسهّل عليهم الأمور. وســـرعان ما انقلب عدد كبير من العربات، وفرّت الجياد هاربة وهي تجر وراءها فرسانها الذين كانوا مربوطين بأعنة الأحصنة في معاصمهم، فتمزّقوا إرباً إرباً فوق الصخور.

طالـــت المعركة، واستمر الفرس في دفع أعدادٍ جديدة من الجنود إلى مـــيدان المعركة مستفيدين من العدد الهائل لجنود الاحتياط لديهم. وفي إحـــدى المـــراحل، تمكن لواء كاملٍ من حاملي الدروع - وكان بقيادة كراتيروس - من اختراق صفوف العدو الخلفية التي تضم جنود المـــشاة من المرتزقة اليونانيين، كما تمكّن من عزلهم عن سائر صفوف الجنود الفرس، فكسر تشكيلاتهم.

كـــان المرتـــزقة متعبين ومنهكين بسبب أوزان دروعهم الثقيلة. وسرعان ما اكتشفوا أنهم عالقون بين جنود العدو الذين أحاطوا بهم من الجانـــبين، فـــبدأوا بالتـــشتت وبخسارة مواقعهم. عندها، اتخذ حاملو الدروع مواقع لهم في الجهتين، بينما تمكّن جنود البيزيتاروي من التجمع مجدّداً. وسرعان ما أخفضوا رماحهم، وتقدموا نحو تلك الجبهة الكبيرة التي يمثلها جنود داريوس من فرقة الخالدين، الذين تقدموا بكل قوة إلى الأمـــام درعاً إلى جانب درع، ورماحهم منخفضة وجاهزة. دوّت في الأجـــواء أصوات بوقٍ حادة انطلقت بشكلٍ مفاجئ من الجهة الخلفية، وما لبث صوت الرعد أن دوّى وطغى على أصوات الصراخ، وصهيل الأحـــصنة، وأصوات قرقعة الأسلحة الملتحمة مع بعضها. لكنّ صوت الرعد هذا لم يكن إلا صوت رعد شايرونايا!

كـــان ذلـــك الطبل الضخم قد نُقل إلى ساحة المعركة مفككاً. ولكن، أُعيد تركيبه في هذا الوقت، وراحت ثمانية أحصنة تجرّه. وصل الطبل إلى خط الجبهة الأمامية كي يساند الجنود بصوته القوي.

فصاح البيزيتاروي: *آلالاي*، ثم اندفعوا إلى الأمام متجاهلين التعب الذي شعروا به، الألم الناتج عن جروحهم. كان الوحل والدم يغطيانهم بالكامل، فبدوا وكأنهم غضب قادم من الجحيم مباشرة. لكن جنود فرقة الخالدين التابعين للملك العظيم لم يخافوهم، بل شنوا عليهم هجوماً مستفيدين من طاقاتهم التي لم تُستنفد بعد. تغيّر تشكيل الصفين المشتبكين عند أول صدامٍ لهما، إذ تقدّم الخط الأمامي أكثر من مرة ليتراجع بعد ذلك إلى الخلف نتيجة الهجومات الشرسة.

حافظ الإسكندر الذي كان يقود ميمنة الجيش على موقعه، وكان يتقدمه حامل اللواء الأساس للجيش، وهو العلم الأحمر بنجمته الأرغادية ذات الزوايا الست عشرة. وراح الإسكندر يشن الهجوم تلو الآخر. لكن السرايا العربية والآشورية كانت تقوم بهجومٍ مضاد في كل مرة، بشجاعة لا تعرف الاستسلام، ومدعومة بوابل كثيفٍ من السهام التي يطلقها الرماة الميديون والأرمن.

وحين بدأت الشمس تحبو نحو البحر، تمكن التراقيون والأغريانيون في نهاية الأمر من إلحاق الهزيمة بالفرسان الفرس الذين كانوا قد أُرسلوا لمشاغلتهم. كما تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، ومن التوجه نحو وحدات المشاة حيث اشتبكوا معها في معركة وجهاً لوجه. أعطى وصول التراقيين والأغريانيين جنودَ البيزيتاروي زخماً جديداً وأملاً جديداً وسط تلك المعركة الشرسة. كما جدّد الإسكندر الهجمات التي يقوم بها جنود فرقة الطليعة وهو ينخس جواده بوسيفالاس مرة أخرى. وشعر ذلك الحيوان بتصميم فارسه فوقف على قائمتيه الخلفيتين وصهل بصوتٍ عالٍ مثيراً الرعب في قلوب جنود الأعداء المحتشدين. وهكذا، استطاع أن يشق طريقه وسط حشود الأعداء.

رأى القائد المقدوني، وهو في قمة نشاطه أنّه أصبح وجهاً لوجه مع خصمه اللدود. فتلاقت نظرات الملكين للحظات. وفي تلك الأثناء، شعر الملك بألمٍ حاد في فخذه. نظر إلى الأسفل، فرأى سهماً قد اخترق فخذه فوق ركبته مباشرة. صرّ الإسكندر على أسنانه وانتزعه محاولاً السيطرة على نفسه، لكنه عندما رفع رأسه مجدداً كان داريوس قد اختفى، وكان سائق عربته قد غيّر اتجاه الجياد، وراح يجلدها بشراسة كي يحثّها على السير نحو التلال عبر الطريق التي تؤدي إلى بوابات آمانوس.

أحاط بيرديكاس وبطليموس وليوناتوس بالملك الجريح، وتمكّنوا من إخلاء بقعة من الأرض حوله، بينما راح الإسكندر يصيح: "داريوس يلوذ بالفرار! اتبعوه! اتبعوه!".

شعر الفرس في هذا الوقت بالضغط التام الذي تسبّبه الهجمات الآتية من سرايا العدو، فبدأوا بالترنح، وما لبثوا أن تشتتوا. أما *الخالدون* فقد حافظوا على مواقعهم، واستمروا في تشكيل مربعٍ دفاعي، وفي صدّ الهجمات المقدونية الواحدة تلو الأخرى.

مزّق الإسكندر قطعةً من قماش عباءته، وربطها بإحكامٍ حول فخذه، وعاد إلى المطاردة مجدداً. ظهر أمامه أحد الجنود التابعين للحرس الملكي شاهراً سيفه بيده، لكن الملك ما لبث أن تناول فأسه المزدوج من حاملته، وأطلقه باتجاه الرجل فقطع سيفه إلى نصفين. وبعد ذلك، أسرع الملك ليتناول فأسه مرة أخرى كي يُجهز على الحارس، لكن حزمة غريبة من الضوء الذي أرسلته الشمس الغاربة ساعدته على تمييز خصمه.

عرف صاحب ذلك الوجه الأسمر واللحية السوداء. وهو ذلك الرامي العملاق الذي تمكّن قبل سنواتٍ قليلة من إصابة اللبوة التي

كانـــت على وشك أن تلقيه أرضاً. حصل ذلك في الماضي البعيد. أي في يوم الصيد والاحتفال في سهل يوريديا المليء بالأزهار.

عرف الرجل الفارسي الإسكندر بدوره، وراح يحدّق إليه عاجزاً عن النطق. وبدا وكأن صاعقةً قد ضربته.

صـــاح الإسكندر قبل أن ينطلق بجواده خلف رفاقه: "لا أريد أن يلحق الأذى بذلك الرجل".

اســتمرت ملاحقـــة داريـــوس حتى حلول الظلام. وكان الملك الهـــارب يبدو من بعيد تحت ضوء الشمس الغاربة، ليعود ويختفي مجدداً فـــوق الطرقات الجديدة المخبأة تحت الأشجار الكثيفة التي تغطي قمم التلال. وحين وصل الإسكندر وأصدقاؤه إلى منعطف، ظهرت أمامهم فجأة عربة داريوس المهجورة. كانت العباءة الملكية معلقةً فيها، وكان إلى جانبها رمحه، وقوسه وحاملة سهامه الذهبية.

قال بطليموس: "لا جدوى من متابعة المطاردة. فالظلام قد حلّ، ولا بـــد من أن داريوس يمتطي الآن جواداً مرتاحاً، بالإضافة إلى أنك جريح. لذا، لن نلحق به الآن". ثم نظر إلى فخذ الإسكندر التي كانت تنـــزف وأضاف: "دعونا نعود، كان حظنا جيداً اليوم".

50

عــاد الإســكندر إلى المعسكر عند منتصف الليل، وكان مغطى بالــدماء والــوحل بعد أن عبر السهل. وهناك، كانت النيران لا تزال مشتعلة، وجثث الجنود منتشرة في كل مكان. وكان بوسيفالاس مغطى أيضاً بطبقة رقيقة من الدماء والوحل ممّا جعله يبدو كشبح مرعب.

ســار رفاقــه حوله، وتمسّكوا بأعنة جيادهم بينما جرّوا خلفهم عربة *الملك العظيم* الحربية.

أقدم الجنود المقدونيون على نهب المعسكر الفارسي بأكمله، لكن الأجنحة الملكية تُركت كما هي لأنها حقٌ مكتسب للإسكندر وحده.

كانــت خيمة داريوس خيمةً عملاقة، مصنوعة بكاملها من الجلد المزخــرف، وقد عُلّقت فيها ستائر أرجوانيّة اللّون وذهبية. أما الأعمدة الداعمــة للخــيمة فكانت مصنوعةً من خشب الأرز المحفور، ومزينةً بالذهب الخالص. كانت أرضية الخيمة مغطاة بأثمن أنواع السجاد التي يُمكــن للمرء أن يتخيّلها. أما داخل الخيمة، فكانت هناك ستائر ثقيلة مصنوعة من الخيوط الحريرية المتينة ذات ألوانٍ بيضاء، وحمراء، وزرقاء، وتفــصل هذه الستائر بين غرف الخيمة العديدة. وكانت الخيمة تبدو وكأنهــا مقر قيادة حقيقي. إذ احتوت على غرفة العرش، وغرفة طعام، وغــرفة نــوم مــزودة بــستارة فوق السرير، هذا بالإضافة إلى غرفة للاستحمام.

نظــر الإسكندر حوله، ولكن من دون أن يفكر في أن كل هذه الثــروات قــد أصــبحت الآن ملك يديه. كان حوض الاستحمام،

والدوارق، وأواني غسل الأيدي، مصنوعةً جميعها من الذهب الخالص. حضّرت خادمات داريوس وخصيانه من الشبان - وهم يتمتعون جميعاً بجمالٍ مذهل - حماماً ساخناً لهذا السيّد الجديد، وكانوا جميعاً يرتعشون من الخوف، وعلى أتم الاستعداد لتنفيذ أوامره.

تأمّل الإسكندر مندهشاً كل زاوية من الزوايا الفخمة، وتمتم وكأنه يناجي نفسه: "إذاً، هذا ما يعنيه أن يكون المرء ملكاً". بدت هذه الخيمة غريبة بالنسبة إلى شخصٍ تعوّد على البساطة والتقشف اللذين يميّزان قصره في بيلا.

تحرّك نحو حوض الاستحمام وهو يعرج من شدة الألم نتيجة جرحه، فأسرعت النساء نحوه ونزعن عنه ثيابه كي يستحم. في هذا الوقت، وصل فيليب كي يفحص ملكه ويعالجه. راح فيليب يعلّم الخادمات كيفية غسل الإسكندر من دون أن يتسببن بحدوث نزيف جديد. أمر فيليب الملك أن يستلقي على طاولة، وبدأ بالعمل مع بعض مساعديه، وراح ينظّف الجرح ويصرّفه. ثم انصرف إلى إغلاقه بعناية بالغة قبل أن يلفّه بالضمادات. لم يتمتم الإسكندر بشيء ولم يتذمر ولو مرة واحدة، لكن المجهود الكبير الذي بذله ليحقق إنجازاته التي تجاوزت مقدرة البشر، قد أنهكه كثيراً. لذلك ما إن انتهى فيليب من عمله حتى غطّ في نومٍ عميق.

أبعدت ليبتين كل الخدم، وسهرت على راحته، ثم استلقت إلى جانبه كي تدفئه في تلك الليلة الخريفية الباردة.

في اليوم التالي، أيقظه صوت بكاءٍ يائس انطلق من خيمة مجاورة. وضع رجله على الأرض بصورةٍ عفوية، لكن ما لبث أن تغضّن جبينه على الفور في تكشيرة تنمّ عن الألم. كانت ساقه تؤلمه، لكن التصريف الذي أجراه فيليب أسهم في تقليص الورم. شعر الإسكندر بالضعف،

ولكن كان بإمكانه أن يتحرك. لذا، تجاهل أوامر طبيبه الذي نصحه بعدم الحركة مدة أسبوع.

ارتدى ثيابه بسرعة، وخرج من الخيمة من دون أن يأكل شيئاً. ثم سار وهو يعرج كي يكتشف مصدر البكاء. تقدم نحوه هيفاستيون الذي كان نائماً قرب المدخل مع بيريتاس، ومدّ ذراعه كي يساعده فرفض الإسكندر، وسأله: "ماذا حدث؟ وما سبب كل هذا البكاء؟".

"توجد في تلك الخيمة الملكة الأم، وزوجة داريوس، وقسم من محظياته البالغ عددهن ثلاثمئة وخمساً وستين. أما محظياته الأخريات فموجودات في دمشق. رأت النسوة عربة داريوس الحربية، وعباءته الملكية، وحاملة سهامه، ولذلك اعتقدن أنه مات".

"إذاً، يتعيّن علينا أن نطمئنهن قليلاً".

كلّف أحد الخصيان بالإعلان عن حضوره كي لا يسبّب لهن الحرَج. ثم دخلا معاً. ارتعبت الملكة الأم كثيراً، وهي التي كان وجهها مبللاً بالدموع ومتسخاً نتيجة امتزاج دموعها مع مستحضرات التجميل، وما لبثت أن ارتمت عند قدمي هيفاستيون ظناً منها أنه الملك، لأنه الأطول بين الرجلين، والأكثر مهابة. فهم الخَصِيّ الوضع فشحب لونه، وهمس في أذن الملكة الأم باللغة الفارسية بأن الملك هو الرجل الآخر.

هزّت الملكة رأسها نتيجة الاضطراب الذي أصيبت به، وراحت تولول بصوت أعلى، وتتوسله أن يسامحها. فما كان من الملك إلا أن انحنى ليساعدها كي تقف على قدميها. ثم قال لها، بينما راح الخَصِيّ يترجم كلامه إلى لغتها: "لا تهتمي يا سيدتي، فهو إسكندر أيضاً". وأضاف بعد أن شعر بأنها أصبحت أقل غماً: "أرجوكِ لا تبكي ولا تيأسي لأن داريوس حي. ولقد ترك عربته وعباءته الملكية ليهرب على

صهوة جواد، وكي يخفّف الوزن بحيث يصبح بإمكانه أن يزيد سرعته. إنه بأمان بالتأكيد الآن".

انحنت الملكة الأم مجدداً كي تمسك يده وتلثمها، فبدت وكأنها لا تريد أن تكف عن تقبيلها. أما زوجة *الملك العظيم* فتقدمت كي تُظهر الاحترام ذاته، فذُهل الإسكندر من جمالها المدهش، لكنه نظر حوله فلاحظ أن كل النساء الأخريات يتمتعن بجمالٍ أخّاذ إلى حدّ أنه همس في أذن هيفاستيون: "إن هؤلاء النسوة، بحق زيوس، جميعهن بلسم للعيون المقروحة!". لكن، كان من الواضح أنه يبحث عن امرأةٍ محدّدة.

سأل: "ألا توجد نساء أخريات في المعسكر؟".

أجاب هيفاستيون: "كلا".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد جداً". واعتقد هيفاستيون أنه لمح شيئاً من خيبة الأمل لدى صديقه فأضاف: "لكن حاشية الملك الكاملة في دمشق. يُحتمل أنك ستجد هناك من تبحث عنها".

أجاب الإسكندر بحدة: "إنني لا أبحث عن أي شخص". ثم التفت بعد ذلك إلى الخَصِيّ وقال له: "قل للملكة الأم، ولزوجة داريوس، وكل الأخريات بأنهن سيعامَلن بكل احترام، وأنه لا داعي للخوف من أي شيء. يمكنهن أن يطلبن مني أي شيء، ونحن سنلبي طلباتهن إذا كان ذلك في استطاعتنا".

راح الخَصِيّ يترجم: "إن الملكة، والملكة الأم، تشكرانك يا مولاي على رأفتك، وعلى طيبة قلبك، وسيطلبن من *آهورا مازدا* إنزال بركاته عليك".

أومأ الإسكندر وغادر الخيمة، فتبعه هيفاستيون. وخارج الخيمة أمر الإسكندر بأن يُجمع الذين قتلوا في المعركة، وبترتيب طقوس الجنازة لهم.

في ذلك المساء، كتب كاليستين في سجّله أن ثلاثمئة وتسعة أفراد من المقدونيين فقط قد قُتلوا، بينما كان العدد الحقيقي أكثر من ذلك بكثير. راح الملك يستعرض - بالرغم من عرجه - الجنود المشوهين، والجثث مبتورة الأطراف، فأدرك أن عددهم يصل في واقع الأمر إلى الآلاف. أما العدد الأكبر من الخسائر فقد كان في منطقة الوسط، أي عند النقطة التي التحم فيها المقدونيون وجهاً لوجه مع المرتزقة اليونانيين.

قُطعت أشجار كثيرة من التلال المجاورة، وما لبثت محرقة كبيرة أن أعدّت. أُحرقت الجثث أمام الجيش المتجمّع حول المحرقة. واستعرض الإسكندر جنوده بعد أن انتهت مراسم الجنازة الجماعية، وكان يتقدمه حامل العلم الأحمر. وكانت الضمادة التي تلفّ فخذه ظاهرة بوضوح، وملطخة بالدماء. وجّه الإسكندر كلمات الثناء والتشجيع إلى كلّ وحداته، وكذلك إلى كل الرجال الذين حاربوا إلى جانبه بشجاعة، كما أعطى هدايا شخصية إلى عددٍ كبير منهم، وهي أغراضٌ يمكنهم الاحتفاظ بها كتذكارات.

صرخ في النهاية: "إنني فخور بكم جداً أيها الرجال! لقد هزمتم أقوى جيش على وجه الأرض. لم يسبق لأي يوناني أو مقدوني أن استولى على مثل هذه المساحة الواسعة! أنتم الأفضل، وكنتم لا تقهرون. لا وجود لقوةٍ في هذا العالم يمكنها أن تقف أمام قوتكم!".

استجاب الجنود كجوقةٍ واحدة بصرخات مرعبة، بينما بدّدت الرياح رماد رفاقهم الذين سقطوا في المعركة، حاملةً معها شرارات لا تُعدّ ولا تحصى نحو السماء الخريفية رمادية اللون.

وعندما حلّ المساء، أمر الإسكندر أحد الأشخاص بأن يقوده إلى الأسير الفارسي الذي تم العفو عنه في ميدان القتال. وما إن رآه

الإســـكندر جالـــساً على الأرض مقيّد اليدين والرجلين حتى جثا إلى جانبه، وبدأ بفك الحبال. سأله مستخدماً الإشارات: "أتتذكرني؟".

فهم الرجل وأومأ.

"لقد أنقذتَ حياتي".

ابتسم الجندي، وقال إنه يتذكر وجود شابٍّ آخر رافق الإسكندر في رحلة صيد الأسود.

قال الإسكندر: "إنه هيفاستيون، وهو في مكانٍ ما هنا، ولا يزال حياً".

ابتسم الرجل مجدداً.

قال الإسكندر مرفقاً كلامه بإيماءة ذات دلالة: "أنت حر. يمكنك أن تعود إلى شعبك وملكك".

بدا أن الجندي لم يفهم، ولذلك أمر الإسكندر بإحضار جواد، وجعلـــه يمـــسك عنانه بيديه. سأله الإسكندر: "يمكنك أن تذهب، ولا بـــد مـــن أن شخـــصاً ما ينتظرك في وطنك، أو لعل أولادك ينتظـــرونك". ثم أشار براحة يده إلى الأسفل، إلى حيث يصل طول الأولاد غالباً.

رفع الرجل يده إلى ما يساوي طول رجلٍ بالغ، فابتسم الإسكندر قائلاً: "أجل، بالطبع، فالوقت يمر".

حـــدّق الفارســـي إلى عينَي الإسكندر بنظرة رزينة وعميقة، وما لبـــثت عيناه السوداوان أن التمعتا بالعاطفة عندما قرّب يده نحو منطقة قلبه، ثم لمس صدر الإسكندر.

قال الملك: "اذهب الآن قبل أن يحلّ الظلام".

تمـــتم الجـــندي شيئاً بلغته الخاصة، ثم ما لبث أن قفز إلى صهوة جواد، واختفى بعيداً.

في تلك الليلة ذاتها، وُجد الرجل المصري الذي يُدعى سيسين في المعسكر. وهو الرجل الذي تسبّب قبل سنةٍ من الزمن في اعتقال الأمير إمينتاس من لينسيستس، وجعل الجميع يظنون أن داريوس قد أقدم على رشوته كي يقتل الإسكندر، ويأخذ مكانه على العرش. نظّم بطليموس محاكمةً قصيرة للرجل، وتعرّف إليه على أنه جاسوسٌ فارسي من دون أن يكون هناك أي شك في ذلك. لكنه استدعى كاليستين قبل أن يُعدم الرجل، وذلك لأنه كان متأكداً من أن المؤرخ يودّ أن يستجوبه.

مـــا إن رآه الرجل المصري حتى ارتمى بين قدميه، وقال له: "أرجوك ارحمـــني! أخذني الفرس وسجنوني كي يرغموني على إعطائهم معلوماتٍ تتعلق بجيشكم، لكنني لم أخبرهم أي شيء، إنني لا أمتلك أيّ...".

أوقفـــه كاليـــستين بإيماءة سريعة: "لا بد من أن الفرس يعاملون أســـراهم معاملـــة طيـــبة، وذلك لأنهم وضعوك في خيمة فخمة جداً، وجعلوا في خدمتك عبدين وثلاث خادمات. أين هي علامات التعذيب الـــذي أنـــزلوه بك؟ إنك تبدو بصحةٍ جيدة بالنسبة إليّ، لكنك تبدو شاحباً قليلاً".

"لكنني...".

قـــال المؤرخ مهدداً: "إن فرصتك الوحيدة لتنقذ حياتك هي أن تتكلم. أريد أن أعرف كل شيء، وعلى الأخص كل ما يتعلق بالأمير إمينتاس، وبرسالة داريوس، وبالمال الذي وعده به كي يقتل الإسكندر، وإلى ما هنالك".

عـــاد شيء من اللون إلى وجه سيسين، وبدأ بالقول: "يا صديقي الأشهر. ليست لديّ أي رغبة في كشف أكثر أوجه عملي دقة وسرية. ولكـــن، بسبب كون حياتي على المحك، فإنني مجبرٌ، وبكل تردد..."، وأشـــار كاليـــستين إلى الرجل إشارة تدل على أنه لا وقت لديه كي

يــضيّعه، "وعلى كل حال، كنت أقول، إنني أستطيع أن أبرهن أنني لم أفعل أي شيءٍ يزيد أو ينقص عن خدمة العرش المقدوني بكل إخلاص. إن هذه القصة بأكملها قد خططت لها الملكة أوليمبيا؛ الملكة الأم".

فكّــر كاليــستين على الفور في طعم الحبر الذي خطت به تلك الرسالة، وهو طعمٌ مألوف جداً لديه، فقال له: "تابع".

"حــسناً، كانت أوليمبيا تخشى أن يشكّل إمينتاس تهديداً لابنها الإســكندر عاجلاً أم آجلاً. إذ إن ابنها، في النهاية، بعيد جداً عنها في بلاد أجنبية، وهو معرضٌ لكل أنواع المخاطر. ماذا سيحدث إذا تعرّض للهزيمة؟ عندها، يُمكن للجنود أن يبايعوا إمينتاس ملكاً، فيحقّق بالمقابل نهايةً للحملة، ويوفر عودة فورية إلى الوطن مع آمالٍ بحياة أسهل بكثير. ولأن الملكــة أرادت أن تتوصـــل إلى صـــيغة مقــنعة من الدبلوماسية الفارسية، لذلك، فقد أمرت عبداً فارسياً لديها بتقليد الأختام الفارسية لتـــبدو مطابقـــة للأصل، مستفيدة من النماذج الموجودة في أرشيفات القصر، وشرّفتني الملكة بهذه المهمة...".

قاطعه كاليستين بالقول: "فهمت. لكن ماذا بشأن ذلك المبعوث الفارسي؟".

تنحنح سيسين: "أوصلني دوري الدقيق إلى الدوائر الفارسية حيث يوجد لديّ أصدقاء نافذون. لم يكن من الصعب جداً بالنسبة إليّ إقناع حاكم نيسيبيس بإعارتي جندياً فارسياً، وتكليفه أن يسلم الوثيقة".

"وكـــذلك لم يكـــن مـــن الصعب عليك التخلص من المبعوث بتسميمه عندما خفت أن يتكلم".

أجـــاب المصري من دون اكتراث: "من الأفضل دائماً أن نكون مـــتأكدين من كل شيء، بالرغم من أن المسكين لم يكن يخفي الكثير ليقوله".

راح كاليستين يفكّر في سرّه: *وبهذه الطريقة تمتلك الحقيقة وحدك؟* لكنه قال على الفور: "يفسّر هذا أشياء كثيرة، لكنه لا يفسّر سبب وجودك هنا محاطاً بكل هذا البذخ، وبكل هذه الكماليات من كل الأنواع. ولكن، في الواقع، لا شيء يمنعنا من الاقتناع بأن هذه الرسالة أصلية".

"أوافقك على أن هذه فرضية محتملة تستحق التقييم".

صمت المؤرخ مجدداً، وراح يفكر في احتمال أن يكون الملك العظيم قد سعى إلى رشوة إمينتاس. ولكن، ليس هناك برهان يُثبت أن الأمير قد قبل، فيما عدا اتهامات سيسين. وقرّر في تلك اللحظة أن الوقت قد حان بالنسبة إليه كي يتحمّل المسؤولية في اتخاذ قرار يتعلق بهذه المسألة. فرفع عينيه ونظر مباشرة إلى وجه سيسين. "إن أفضل شيء بالنسبة إلى كل المعنيين هو أن تخبرني الحقيقة. إنك مخبرٌ مقدوني وُجد في معسكر فارسي وسط وضعٍ مشبوه. ليس لدى بطليموس أي شكوك في كونك جاسوساً".

أجاب المصري: "يا سيدي النبيل. من حسن حظي أنهم أرسلوا إليّ شخصاً ذكياً ومنطقياً يمكنني أن أناقش معه كل الأمور بطريقةٍ واقعية. إنني أملك رصيداً مهماً من المال كنت قد أودعته في صيدون، وإذا استطعنا الوصول إلى اتفاقٍ ما، فإنني سأزودك بالحقائق التي تمكّنك من إقناع القائد بطليموس".

كرّر كاليستين قوله من دون أن يقع في الفخ: "إن أفضل شيء بالنسبة إلى أي شخص هو أن يخبرني الحقيقة".

"دعنا نكتفي بالقول إنني قررت أن أعمل لحسابي. وبالنظر إلى اتصالاتي، فإن الملك العظيم سيعتقد أنني أستطيع أن أعود إلى الأناضول من أجل إقناع حكّام عددٍ من المدن كي يعيدوا فتح مرافئهم أمام الأسطول الفارسي و...".

"وقطع طريق مقدونيا علينا".

"هل تكفي خمسة عشر تالنتاً لإقناعك ببراءتي؟".

حدّق المؤرخ إليه بنظرةٍ غامضة.

"وسأمنح القائد بطليموس عشرين تالنتاً أخرى".

تردّد كاليستين قليلاً قبل أن يجيب: "أعتقد أن هذا كافٍ". وغادر الخيمة بعد ذلك، وتوجّه نحو بطليموس مباشرة.

قال كاليستين: "كلما أسرعت في تنفيذ حكم الإعدام بحقه كلما كـــان ذلك أفضل بالنسبة إلى جميع المعنيين. فعدا عن كونه جاسوساً، فهو يحمل عدداً محدداً من الأسرار المحرجة التي تتعلق بالملكة الأم و...".

قال بطليموس: "هذا يكفي، لا تضِف كلمة واحدة. يُضاف إلى ذلك أنني لم أحب المصريين قطّ".

ردّ كاليستين: "يُحتمل أن تضطر إلى إعادة التفكير في تلك النقطة بالذات، لأنك ستلتقي الكثيرين منهم بعد وقتٍ قصير. سرت إشاعات مفادها أن الإسكندر يريد احتلال مصر".

51

بعث بارمينيون من دمشق - التي أُمر أن يسير إليها بأسرع وقتٍ ممكـن - رسـالةً تفـيد أنه احتل المقرات الملكية، وأنه استولى على الاحتياطات المالية *للملك العظيم*، واعتقل حاشيته.

بلـغ مجمـوع الأموال المصادرة ألفين وستمئة تالنت من النقود الفـضية، وخمسمئة *ميناي* من السبائك. فيما تم اعتقال أكثر من ثلاثمئة وخمسين محظية، وثلاثمئة وتسعة وعشرين عازف ناي وقيثارة، وثلاثمئة طـاه، وسـبعين خبيراً بالشراب، وثلاثة عشر صانع حلوى، وأربعين رجلاً من صانعي العطور.

صـاح الإسكندر عندما انتهى من القراءة: "بحق *زيوس*! هذا ما يعنيه أن يعيش المرء هذه الحياة!".

أضـاف المـبعوث بعد أن انتهى الملك من لفّ الرسالة: "لديّ كذلك رسالة شخصية أريد نقلها إليك شفهياً".

"تكلّم. ما هي هذه الرسالة؟".

"يـريد القائد بارمينيون أن تعرف أنه توجد امرأة نبيلة في دمشق ترغب في أن تعود معه بصحبة ولديها. ويقول إن اسمها بارسين".

هزّ الإسكندر رأسه، وكأنه عجز عن تصديق ما سمعه للتو، وراح يتمتم: "غير معقول".

ردّ المبعوث: "آه، أجل. أخبرني القائد أن جندياً مخضرماً سيأتيك بكلمة السر إذا لم تكن...".

قاطعه الإسكندر بالقول: "تذكرت. تذكرت الآن. يمكنك أن تذهب".

مرّت ثمانية أيامٍ قبل أن يراها. مرّت بطيئةً جدًّا. أحسّ بدوار وهو يشاهدها فوق صهوة حصان، ووسط جمعٍ من الجنود ضمّ كذلك موكب الحاشية الملكية الذي أحاط به صفّان من جنود *الهيتايروي* التابعين لحراس القائد بارمينيون. كانت ترتدي سروالاً جلدياً من صنع سكاثيا، وسترةً مصنوعة من شعر رمادي اللون، بينما رفعت شعرها وجمعته خلف عنقها، وثبّتته بدبوسين. بدت أكثر جمالاً من المرة الأولى التي التقيا فيها، وذلك بالرغم من أن ذلك بدا مستحيلاً بعض الشيء.

اكتسب وجهها بعض الشحوب. لكن ملامحها أصبحت أكثر حدة في هذا الوقت. وهكذا، ازداد بروز عينيها الواسعتين والداكنتين اللتين التمعتا بنورٍ أكثر عمقاً فبدتا مثل النجوم، وبدتا أكثر حيوية.

لم يقصد خيمتها إلا بعد مرور فترة من الوقت. أي عندما غرق المعسكر بالصمت خلال فترة الحراسة الأُولى. ارتدى الإسكندر سترةً عسكرية قصيرة، ووضع على كتفيه عباءة من الصوف رمادية اللون. أوعز إلى إحدى الخادمات أن تُعلن عن وصوله.

كانت قد فرغت من الاستحمام لتوها، وغيّرت ملابسها فارتدت رداءً فارسياً طويلاً وصل إلى قدميها، والتصق بجسمها بلطف، وكانت رائحة الخزامى تفوح من خيمتها.

راحت تتمتم بعد أن طأطأت رأسها: "سيدي".

"بارسين...".

تقدّم الإسكندر نحوها بخطوات قليلة وقال: "لطالما انتظرت هذه اللحظة منذ آخر مرة رأيتك فيها".

"إن الألم يملأ روحي".

"أعرف، لقد فقدت زوجك".

"كان أفضل الرجال، وأكثر الآباء حنواً، وكان ألطف الأزواج".

"كـــان العـــدو الوحيد الذي احترمته، ولعله الوحيد الذي كنت أخافه".

نظرت بارسين إلى الأسفل، لأنها كانت تعرف جيداً أنها أصبحت فريـــسة الإسكندر في هذا الوقت. وكانت تعرف أن زوجة العدو هي أثمـــن مكافـــأة بالنسبة إلى المنتصر الذي قاتل وتعرّض للألم والجروح، والإجهاد، ولرؤية الدماء، وسماع الصرخات، وشاهد الكثير من المجازر. لكـــنها سمعـــت أن هـــذا الشاب أظهر رأفة واحتراماً تجاه الملكة الأم العجوز، وتجاه زوجة داريوس وأولاده.

مـــدّ الإسكندر يده، ولمس ذقنها بلطف رافعاً رأسها إلى الأعلى بحـــيث تمكن من التحديق إلى عينيها وشاهد لونهما المتغير. رأى فيهما اللـــون الأزرق الداكن للسماء الصافية، وهو اللون الأزرق ذاته الذي لاحظـــه في عينَـــي ممنون. ورأى فيهما كذلك اللون الداكن للموت والليل، فشعر أنه منجذبٌ نحوها وكأنه واقع في دوامةٍ تثير الدوخة، أو كأنه كان ينظر إلى مخلوق من مخلوقات الخيال.

قال الإسكندر مردداً اسمها: "بارسين...". وعبّرت رنة صوته عن أعمق الأشواق، وعن الرغبة المتوقدة.

"يمكنك أن تفعل بـــي ما تشاء لأنك المنتصر. لكن صورة ممنون ستظل ماثلةً أمام عينيّ".

ردّ الملك: "دعي الأموات في حالهم. إنني الآن أمام عينيك، وهذه المـــرة لـــن أدعك تذهبين لأنني رأيت في عينيك أنك تريدين أن تنسي الموت. إنني أمثّل الحياة بالنسبة إليكِ هذه المرة. انظري إليّ. انظري إليّ يا بارسين وقولي لي إنني مخطئ".

لم تجـــب بارســـين، لكنها نظرت إلى عينيه مباشرة، وقد حملت عيـــناها اليأس والاضطراب في الوقت ذاته. تلألأت دمعتان كبيرتان في عينيها مثل مياه النبع الصافية، وما لبثتا أن نـــزلتا فوق خدّيها، ورطّبتا شـــفتيها. اقتـــرب مـــنها الإسكندر أكثر، إلى أن تمكن من الإحساس بأنفاسها على وجهه، وحتى شعر بصدرها يضغط على صدره.

همس في أذنها: "ستكونين لي". ثم استدار على نحوٍ مفاجئ وغادر الخيمة. وبعد لحظاتٍ قليلة، سُمعت أصوات صهيل بوسيفالاس، ووقع حوافره، ثم انطلاقة الجواد المتهورة التي شقّت أجواء الصمت المخيّم.

وفي الـــيوم التالي، تلقى كاليستين رسالة مشفّرة أخرى من خاله. وصلت الرسالة مع المبعوث الذي أحضر البريد الذي أرسله أنتيباتر في مقدونيا.

> تمكّنت من معرفة مكان وجود ابنة الرجل الذي يُطلق على نفسه اســـم نـــيكاندر، وهو الرجل الذي تواطأ مع بوزانياس في عملية اغتيال فيليب. تعيش هذه الابنة تحت حماية كهان هيكل آرتميس الذي يقع في منطقة الحدود مع تراقيا. إن ذلك الكاهن من أصلٍ فارســـي، ويمـــتّ بصلة قرابة إلى مرزبان بيثينيا، وقد سبق له أنْ أرســـل هـــدايا قيّمة إلى ذلك الهيكل. يجعلني هذا الأمر أشك في وجـــود علاقة ما بين داريوس ذاته، وبين مقتل فيليب. تمكنت - خفـــية عـــن الجميع - من قراءة رسالة محفوظة في الهيكل، وهي رسالة يبدو أنها توحي بأن هذه الفرضية ممكنة.

توجه كاليستين على الفور لرؤية الإسكندر.

"إن التحقـــيقات المـــتعلقة بمقتل والدك مستمرة، كما استجدت تفاصـــيل جديـــدة ومهمة. يبدو أن الفرس متورطين مباشرةً، وأنهم لا يزالون حتى الآن يقومون بحماية شخصٍ لعب دوراً في هذه المؤامرة".

قال الملك: "إن هذا الأمر كفيلٌ بإيضاح أمورٍ كثيرة. فمن يفكّر في أن داريوس يجرؤ على إرسال رسالة إليّ من هذا النوع!".

ثم سلّم الإسكندر كاليستين رسالةً بعثها *الملك العظيم* مع موفدٍ كان قد وصل لتوه.

من داريوس، ملك الملوك، وسيد زوايا الأرض الأربع، ونور الآريين، إلى الإسكندر ملك مقدونيا، تحياتي.

كان والدك فيليب هو من بادر إلى إيذاء الفرس في زمن حكم آرسيس، وذلك بالرغم من أنه لم يتعرض إلى أي إهانة على أيدينا. لم ترسل إليّ أي وفد عندما أصبحت ملكاً لتؤكّد على صداقتنا القديمة وعلى تحالفنا، وقمتَ بمهاجمة آسيا بعد ذلك، وأنزلتَ فيها دماراً كبيراً. ولهذا السبب، اضطررت إلى مواجهتك في ميدان القتال، للدفاع عن أرضي، ولاستعادة الأراضي التي كنا نسيطر عليها، ولاستعادة سيادتنا. قرّر *الأسياد* نتائج المعارك، لكنني أكتب إليك الآن من ملكٍ إلى نظيره كي أطلب منك إطلاق سراح أولادي، ووالدتي، وزوجتي. إنني على أتمٍ الاستعداد لتوقيع معاهدة صداقة وتحالف. أرجو أن ترسل موفداً مع مبعوثي، وذلك من أجل وضع شروط المعاهدة.

طوى كاليستين الرسالة: "إنه يضع كل اللوم عليك، ويبرّر حقه في الدفاع عن نفسه ويعترف بهزيمته في الوقت نفسه. كما يصرّح بأنه مستعد الآن ليصبح صديقك وحليفك إذا أطلقتَ سراح عائلته. ماذا ستفعل؟".

في تلك اللحظة، دخل إيومينيس حاملاً معه نسخة من الجواب الذي حضّره للملك. فطلب منه الإسكندر أن يقرأ الجواب. تنحنح الأمين المساعد وبدأ بالقراءة:

من الإسكندر، ملك مقدونيا، إلى داريوس، ملك فارس. تحياتي.

أقدم أسلافك على اجتياح مقدونيا وسائر بلاد اليونان، وهو الأمر الـــذي أنـــزل بنا قدراً كبيراً من الأذى، وذلك من دون وجود ســـبب ظاهر. انتُخبت قائداً أعلى للإغريق، وأقدمتُ على غزو آســـيا كـــي أنتقم من عدوانكم. أضف إلى ذلك أنكم ساعدتم، بيرينـــثوس ضـــد والدي، وقمتم باجتياح تراقيا وهي أراضٍ نحن أصحابها".

أوقفـــه الإسكندر عند هذه النقطة قائلاً: "أريدك أن تضيف الآن المقطع التالي:

تم اغتيال الملك فيليب نتيجة مؤامرة لقيت دعمكم. والبرهان على ذلك موجود في رسائل كتبتموها.

نظر إيومينيس إلى الإسكندر وكاليستين معاً بدهشةٍ كبيرة، فقال له المؤرخ: "سأشرح لك الأمر لاحقاً".

تابع إيومينيس قراءة الرد:

يُضاف إلى ذلك أنك استوليت على العرش باللجوء إلى الخداع، وقمـــتَ برشوة الإغريق كي يشنّوا علينا الحرب، وقمتَ بكل ما يلزم من أجل تخريب السلام الذي جهدتُ كثيراً لإرسائه. هزمتُ قادتـــك في مـــيدان المعركة الفسيح، ولهذا فأنا مسؤولٌ الآن عن جنودك الذين انحازوا إليّ، وعن أولئك الأشخاص الذين لا يزالون معـــي. إن كل هذا يجعلك مضطراً إلى مخاطبتي لأنني سيد *آسيا*. يمكـــنك أن تطلـــب كل ما تعتبره حقّاً لك، إما شخصياً أو عن طـــريق مـــوفدين. ويمكنك أن تطلب استعادة زوجتك وأولادك ووالدتك. وسيعودون إليك جميعاً إذا أقنعتني بأنني يجب أن أعيدهم إليك. أما في المستقبل، فأريدك أن تخاطبني وتراسلني بصفتي ملكاً لآســـيا، وليس كنظيرٍ لك، هذا إذا أردتَ أن تخاطبني. وسيتعين عليك أن تطلب كل ما تريده من الشخص الذي يمتلك الآن كل شـــيء كـــان ملكـــك في الماضي. أما إذا تمنعت عن تلبية هذه

الـــشروط، فـــإنني سأتّخذ إجراءات في حقك، وهي الإجراءات المـــوجهة ضـــد شـــخصٍ خرق قواعد الأمم وقوانينها. أما إذا اســـتمررت في ادعـــاء حقك في تولي العرش، فسيتعين عليك أن تقاتـــل وأن تحارب من أجل الدفاع عن عرشك، أي يجب عليك ألاّ تهرب لأنني سأتبعك إلى أي مكان.

قال كاليستين: "لم تترك له مجالاً واسعاً للاختيار".

ردّ الإســـكندر: "كـــلا. لم أترك له أي خيار. فإذا كان رجلاً وملكاً، فسيتعيّن عليه أن يقوم بشيء ما بهذا الشأن".

52

تحـــرّك الجـــيش في بدايـــة فصل الشتاء جنوباً، أي نحو الساحل الفينيقـــي. ففي واقع الأمر، سبق للإسكندر أن قرّر أن يُكمل إخضاعه كلّ الموانئ المفتوحة أمام الفرس لسلطته، وذلك كي يمنع أي إجراءٍ قد يقوم به العدو في إيجة، وكذلك في بلاد اليونان.

رحّـــب بـــه ســـكان آرادوس (أرواد)، وقدّموا إليه كل مظاهر التكريم. كما وعدت صيدون (صيدا) أن تسحب سفنها الخمسين من الأسطول الإمبراطوري، وأن تجعل هذه السفن في خدمته. بلغت الإثارة في المعـــسكر المقدوني أوجها، فبدا الأمر وكأن القدر يمهد الطريق أمام القائـــد الـــشاب، وهكـــذا بدت الحملة رحلةً من المغامرات من أجل اكتشاف عوالم جديدة، وشعوبٍ جديدة، وأماكن رائعة.

وصـــل باقـــي أفراد حاشية الملك التي ألقى بارمينيون القبض علـــيها في دمـــشق إلى صيدون. وكانت الحاشية تتألف من تجمعٍ مـــذهلٍ مـــن العبيد، والموسيقيين، والطهاة، ومتذوقي المأكولات، والخصيان، والراقصين، وعازفي الناي، والضالعين، والمشعوذين. بدا جمـــيع هؤلاء غريبين جداً بالنسبة إلى جنود الإسكندر وضباطه. أما الملـــك، فقد خصّهم جميعاً بترحيب حارٍّ مليء بالتفهم، واهتم بهم، وسأل عن أحوالهم الشخصية، وتأكّد من أنهم سيلقون معاملة تتسم بالاحترام.

كما وصلت مجموعة أخرى برفقة الأغريانيين. وذلك بعد أن ظن الجميع أن أفراد البلاط جميعهم قد مروا أمام الملك ورفاقه.

شــرح الضابط المسؤول: "وجدنا هذه المجموعة في مقر مرزبان سوريا".

قــال ســلوقس الذي أشار بيده إلى شخصٍ ذي بنية قوية وشعرٍ أشيب يحيط برأسه الأصلع: "لكنني أعرف هذا الرجل".

صاح بطليموس: "إنه إيمولبوس من سولوي! يا للمفاجأة".

حيّاهم المخبر وهو يركع أمامهم: "سادتي! مولاي!".

قــال بيرديكاس ساخراً: "حسناً، حسناً، حسناً... إنه أمر غريب بالفعل. لكنني أدركت الآن شيئاً ما".

أضــاف ســلوقس: "وأنــا أيضاً. إذاً، هكذا تمكن داريوس من مفاجأتــنا في إيسوس. أخبِرنا يا إيمولبوس، كم دفع لك لقاء خيانتك لنا؟".

شــحُب لون الرجل، فبدا مثل لون صفحة بيضاء، وبذل جهداً كــبيراً كــي يرسم على شفتيه ابتسامة صغيرة: "لكن، يا مولاي، ويا سادتي، لا يمكنكم أن تعتقدوا فعلاً أنه يمكنني...".

قــال الضابط موجهاً كلامه إلى الإسكندر: "آه... بكل تأكيد. أخــبرني مــرزبان سوريا - وهو الآن في طريقه إلينا كي يعلن ولاءه لك - كل شيء عن هذا الموضوع".

قــال الملك ما إن دخل خيمته: "أحضِروه إلى هنا. سنحكم عليه في الحال".

جلــس الإسكندر محاطاً برفاقه، وسأل المخبر: "أيوجد أي شيء تود أن تبلغنا إياه قبل أن تموت؟".

أخفض إيمولبوس عينيه ولم يقل شيئاً. لكن صمته هذا أعطاه نوعاً مــن الاحترام غير المتوقع، كما جعله شخصاً مختلفاً عن ذلك الشخص المرِح، والمستعد دائماً لإلقاء دعاباته؛ أي كما عرفوه جميعاً على الدوام.

كرّر إيومينيس القول: "ألا تريد أن تقول شيئاً؟ كيف أمكنك أن تفعل ذلك؟ سنحت لهم الفرصة لتقطيعنا إرباً إرباً بسبب تلك الرسالة التي أرسلتها مع مبعوثك؛ وهي الرسالة التي أوقعتنا في مصيدةٍ جهنمية".

قال ليوناتوس: "إنك حيوان. ولو كان الأمر يعود إليّ، فلن تموت بسرعة، إذ سأسحب أظفارك أولاً، ثم...".

نظر إيمولبوس بعينيه المبللتين بالدموع إلى وجوه الأشخاص الذين سيحكمون عليه.

سأله الإسكندر للمرة الأخيرة: "حسناً؟".

بدأ المخبر بالكلام: "مولاي... كنت جاسوساً على الدوام. وكسبت معيشتي عندما كنت صبياً بالتجسس على الزوجات الخائنات لصالح الأزواج المخدوعين. ليست لديّ مهنة أخرى، ولطالما سعيت إلى كسب المال، وبعت خدماتي لمن يدفع لي الثمن الأعلى، ومع ذلك...".

حثّه إيومينيس على الكلام بعد أن أعطى نفسه صفة المحقق الرئيس: "ومع ذلك...".

"ومع ذلك، فإنني منذ اليوم الذي بدأت أخدم فيه الملك فيليب، أي والدك، فقد تجسست لصالحه فقط. أقسم على ذلك. أتعرف لماذا يا مولاي؟ لأنه كان شخصاً استثنائياً. كان يدفع لي أجراً محترماً بالطبع، لكن المسألة لا تتعلق بالمال فقط. كان يدعوني إلى الجلوس معه مثل صديق عزيز عندما كنت ألتقيه كي أعطيه تقاريري، وكان يسكب لي شيئاً كي أشربه، وكان يسألني عن صحتي وكل هذه الأمور... هل تفهم ما أقوله؟".

"ولماذا؟ ألم أتصرف معك كما كان والدي يفعل؟ ألم أعاملك دوماً كصديقٍ عزيز بدلاً من جاسوسٍ مأجور؟".

ردّ إيمولبوس: "هذا صحيح. ولهذا السبب بالذات كنت مخلصاً لك. لكنني على أيّ حال، كنت على استعداد لأكون مخلصاً لك لأنك ابن أبيك".

"إذاً، لماذا خنتَني؟ لا بد من وجود سبب كي يخون الصديق صديقه!".

"إنه الخوف يا سيدي. إن المرزبان المتوجّه إليك الآن كي يعلن ولاءه لك، خان الولاء الذي كان يبديه تجاه *الملك العظيم*. وهو الذي أخافني حتى الموت عندما نظر إلى عينيّ وهو يسلخ دجاً مسفّداً بأسنانه وكأنه يريد أن يقول لي: *هذا ما ينتظرك، وستمزّق إرباً مثل هذا الدج*. ثم أخذني بعد ذلك إلى النافذة التي تطلّ على الباحة.

وهناك، رأيت مبعوثي في الأسفل. وهو ذلك الشاب الوسيم الذي اعتدت أن أرسله إليك. سلخوه حياً، وقاموا بتشويهه، وربطوا أحشاءه حول رقبته". ارتعش صوت إيمولبوس عند هذا الحد، فغمرت الدموع الحقيقية عينَي ذلك الرجل العجوز. "سلخوا جلده... وليس هذا كل شيء. رأيت بربرياً وهو يشحذ عوداً من خشب الآكاسيا، ويصقله بحجر خفّان. كان يحضّر هذا العود لي، هذا في حال رفضت أن أنفذ ما طُلب مني. هل سبق لك أن شاهدتهم وهم يضعون رجلاً على الخازوق يا مولاي؟ أنا رأيتهم وهم يفعلون ذلك. إنهم يُدخلون عوداً في جسمه، ولكن من دون أن يقتلوه، ثم يتركون الرجل يتعذب إلى أقصى حدّ يمكن لمخلوق أن يتحمله، أي لساعات أو أيام أحياناً. خنتك لأنني كنت خائفاً، ولأنه لم يسبق لي أن طُلب منّي إبداء شجاعة بهذا المقدار.

والآن، اقتلني إذا أردتَ... لأنني أستحق الموت. لكنني أرجوك أن تجعل موتي سريعاً. أعرف أنك خسرتَ عدداً كبيراً من الرجال، وأنك

اضطررتَ إلى خوض قتالٍ مرير، لكنني كنت أعرف أنك ستنتصر. لقد عرفتُ ذلك. ولكن ما هي البهجة التي ستحصل عليها إذا عذّبتَ رجلاً عجوزاً مثلي؟ وهو الرجل الذي لا يُمكن أن يُنزل بك أي أذى لو كان الأمر عائداً إليه، وهو الذي تعذّب كثيراً عندما خانك، وتعذّب أكثر بكثير مما تتصوّر يا بنيّ".

لم يُضف شيئاً آخر، لكنه أخذ نفساً عميقاً بصوت مسموع.

نظر الإسكندر إلى وجوه رفاقه، الذين نظروا إلى بعضهم بعضاً، وأدركوا أن أياً منهم لا يمتلك شجاعة للحكم على إيمولبوس بأنه مذنب.

قال الملك: "كان يجب عليّ أن أحكم بإعدامك. لكنك محقّ، فما الجدوى من قتلك؟ يُضاف إلى ذلك..."، وهنا، رفع إيمولبوس رأسه، "... يُضاف إلى ذلك أنني أعرف أن الشجاعة ميزةٌ تمنح لعددٍ قليلٍ من الأشخاص. لم تتمتع أنت بهذه النعمة، لكنك تتمتع بنِعَمٍ أخرى، مثل الذكاء والفهم، وربما الولاء".

سأل إيمولبوس: "أيعني ذلك بأنني لن أموت؟".

"لا".

كرّر المخبر بتشكك: "لا؟".

كرّر الإسكندر وهو يرسم على محيّاه نصف ابتسامة: "لا".

"وهل سأتمكن من العمل معك مجدداً؟".

سأل الملك رفاقه: "ما رأيكم؟".

قال بطليموس مقترحاً: "أظنّ أنني سأمنحه فرصة".

قال سلوقس موافقاً: "ولَمَ لا؟ فإذا فكّرنا في الأمر ملياً، فسنجد أنّه لطالما كان جاسوساً ممتازاً. يُضاف إلى ذلك أننا المنتصرون الآن".

قال الملك مقرراً: "إذاً، اتفقنا جميعاً. ولكن، عليك أن تغيّر كلمة سرك اللعينة، وذلك لأن العدو بات يعرفها".

قال إيمولبوس وقد بان عليه الارتياح: "آه، أجل بالطبع".

سأل سلوقس: "وماذا كانت كلمة السر بالضبط؟".

أجاب الإسكندر من دون اكتراث: *"نخاع الخراف"* .

قـــال سلوقس: "كنت سأغيّر هذه الكلمة على كل حال. أعتقد أنها أغرب كلمة سرّ سمعتها طيلة حياتي".

قـــال الإسكندر: "حقاً، إنها كذلك". ثم أشار إلى إيمولبوس كي يقترب منه: "والآن، أخبرني ما هي كلمة السر الجديدة".

همس المخبر في أذنه: "الدجّ المسفّد".

انحـــنى بعد ذلك، وحيّا كل الموجودين بكل احترام: "أشكركم يا سادتي، ويا مليكي على رأفتكم بـــي". ثم غادر المكان برجلين غير ثابتتين بسبب الخوف الذي مرّ به.

ســـأل سلوقس لدى مغادرة إيمولبوس: "كيف تبدو كلمة السر الجديدة".

هزّ الإسكندر رأسه وأجاب: "جنون".

53

أظهر سكان صيدون - الذين عانوا قبل سنوات قليلة الأمرّين على يد الحامية الفارسية - حماستهم عند وصول الإسكندر. وعلى الأخص، عندما وعدهم بإعادة مؤسساتهم. ولكن، بقيت مشكلة عدم وجود أي شخص من السلالة الحاكمة، ولذلك كان لا بد من اختيار ملك جديد.

سأل الإسكندر هيفاستيون: "لماذا لا تهتم بهذه المسألة؟".

"أنا؟ لكنني لا أعرف أحداً، حتى إنني لا أعرف من أين أبدأ البحث، يضاف إلى ذلك...".

قاطعه الملك بالقول: "إذاً، اتفقنا. ستهتم بهذه المسألة. يتعيّن عليّ أن أتفاوض مع المدن الإغريقية الأخرى الموجودة على طول الشاطئ".

بحث هيفاستيون عن مخبر، وبدأ بالتجول في أنحاء صيدون متخفياً. بحث في الأسواق، وقصد كل المطاعم، وحرص على أن يُدعى إلى كل العشاءات الرسمية التي تُقام في أفخم المنازل، لكنه لم يوفّق في إيجاد أي شخص يستحق هذا المنصب.

وكان الإسكندر يسأله عندما يلتقيان في اجتماعات مجالس الحرب: "ألم تنجح بعد؟". فكان هيفاستيون يهز رأسه نافياً.

ذات يوم، مرّ هيفاستيون - وكان لا يزال برفقة مترجمه - قرب جدار حجري صغير يمتد صعوداً باتجاه التلال البعيدة التي ظهرت على قممها رؤوس أشجار من كل الأنواع. وظهرت أشجار أرز لبنان المهيبة، والبرسيم، وبساتين من أشجار الفستق وأشجار التين المعمرة التي تمدّ فروعها الرمادية الملتفة. نظر من خلال البوابة فدُهش لدى

رؤيته العجائب التي امتدت أمام عينيه. كانت أشجار فاكهة من كل الأنواع التي يستطيع المرء أن يتخيّلها مشذّبةً بأشكالٍ جميلة. ورأى ينابيع مياه وجداول، وصخوراً تنبت من خلالها نباتات شائكة الأوراق لم يسبق له أن رأى مثيلاً لها في حياته.

قال المترجم شارحاً: "أحضرت هذه الأشجار من مدينة ليبية تدعى ليكسوس".

في تلك اللحظة بالذات، ظهر رجل، وهو يقود حماراً صغيراً يجرّ خلفه عربةً مليئة بالسماد. بدأ الرجل بتوزيع هذا السماد المخصّب على الأشجار واحدة تلو الأخرى، وكان يقوم بعمله بكل اجتهادٍ وغبطة.

قال المترجم: "عندما حدث التمرد ضد الحاكم الفارسي قرّر الثوار إحراق هذه الحديقة. لكن ذلك الرجل وقف أمام البوابة، وقال إن أي شخص يريد اقتراف جريمةٍ كهذه، فسيتعيّن عليه أن يلطّخ يديه بدمائه أولاً".

قال هيفاستيون: "إنه الملك".

سأل المترجم بدهشة كبيرة: "أتعني ذلك البستاني؟".

"أجل. أظهر هذا الرجل استعداده للموت كي يحمي أشجار حديقة ليست ملكه. إذاً، ماذا عساه يفعل كي يحمي شعبه، ويتأكد من نمو مدينته وازدهارها؟".

وهذا ما كان. وما لبث ذلك البستاني المتواضع أن رأى ذات يوم موكباً من الوجهاء يتقدم نحوه مصحوباً بحرّاس الإسكندر. قاده الموكب بكل تبجيل إلى القصر الملكي من أجل تنصيبه ملكاً على البلاد. اعتلت وجه الرجل ابتسامة رزينة، وما لبثت يداه الخشنتان أن أعادتا إلى الملك ذكرى ليسيبوس. كان ذلك الرجل يحمل اسم عبد الونيموس، وكان أفضل ملك في تاريخ المدينة المعاصر.

تابع الجيش زحفه من صيدون جنوباً، أي باتجاه صور حيث يوجد معبد كبير لملكارت، وهو مثل هرقل عند الفينيقيين. كانت المدينة مقسمة إلى قسمين: المدينة القديمة المشيدة فوق اليابسة، والمدينة الجديدة المشيدة على جزيرة تبعد ستاديا واحداً عن الساحل. شُيِّدت هذه المدينة حديثاً، وكانت مهيبة جداً نظراً إلى حجمها ومبانيها. وكان في المدينة ميناءان محصنان، وسور يبلغ ارتفاعه مئة وخمسين قدماً؛ وهو الجدار الأعلى الذي شيدته أيد بشرية.

قال سلوقس: "آمل أنّ يرحبوا بنا مثلما فعل سكان جبيل، وآرادوس (أرواد)، وصيدون. إن هذه القلعة حصينة جداً".

سأله هيفاستيون وهو ينظر إلى خيالات السور المهيب المنعكسة فوق مياه الخليج الزرقاء: "ماذا تنوي أن تفعل؟".

ردّ الإسكندر: "نصحني أريستاندر بتقديم أضحية في معبد سلفي *هرقل*، وهو الذي يطلق عليه سكان صور اسم *ملكارت*. وها هو وفدنا ينطلق الآن". قال ذلك وأشار إلى قارب كان يتقدم ببطء من خلال *القنال* الضيّق الذي يفصل المدينة عن البر.

جاء الجواب في ذلك المساء، لكنه كان رداً أثار غضب الملك.

"قالوا إنك إذا أردتَ تقديم أضحية، فيمكنك أن تقدمها إلى هرقل. فهيكله موجود في القسم القديم من المدينة".

قال هيفاستيون: "عرفت ذلك. يظن الرجال المتحصّنون في ذلك الوكر الحجري الموجود في تلك الجزيرة الصغيرة أنهم يستطيعون السخرية من أي شخص كان".

قال الإسكندر: "ولكنهم لن يستطيعوا أن يسخروا مني. أريدك أن تجهّز وفداً آخر. سأكون أكثر صراحةً هذه المرة".

في الـــيوم التالي، انطلق أفراد الوفد الجديد، وحملوا معهم رسالةً مفادهـــا: "يمكـــنكم إذا أردتم أن تدخلوا في معاهدة سلامٍ وتحالف مع الإســـكندر. أما إن لم ترغبوا في ذلك، فسيقاتلكم الملك لأنكم حلفاء الفرس".

وللأسف، جاء الردّ بصراحةٍ مماثلة. إذ أُلقي أفراد الوفد من أعلى الأســوار، فماتـــوا بطـــريقة رهيبة، وتناثرت دماؤهم فوق الصخور الموجـــودة في الأسفل. وكان من بين الذين قُتلوا أصدقاء الملك ورفاق صـــباه. لـــذلك، أغضب هذا الحدث المؤلم الملك، وأصابه باضطراب شـــديد ما لبث أن تحوّل تدريجيًّا إلى أشد أنواع الغضب. مكث الملك يـــومين في جناحه من دون أن يستقبل أحداً، باستثناء هيفاستيون الذي تجـــرأ علـــى دخول مقره في مساء اليوم التالي، ووجده غاضباً بشكلٍ غريب.

كان الإسكندر جالساً إلى جانب مصباح وهو يقرأ.

سأل هيفاستيون: "أتقرأ زينوفون كالعادة؟".

"لم يعـــد بإمكان زينوفون أن يعلّمنا شيئاً منذ أن وصلنا إلى هذه المناطق البعيدة عن ديارنا. إنني أقرأ نصاً كتبه فيليستوس".

"أليس هو ذاك الكاتب من صقلية؟".

"إنه مؤرخ ديونيسيوس من سيراكيوز الذي قهر منذ سبعين عاماً مدينة فينيقية تقع على جزيرة. أي أنها مثل صور تماماً، لكنها تحمل اسم موتيا".

"وكيف كان ذلك؟".

"اجلس وانظر". تناول الإسكندر قصبةً صغيرة وبعض الحبر، وبدأ يخطـــط رسمـــاً علـــى ورقـــة. "هذه هي الجزيرة، وهذا هو البرّ. بنى ديونيـــسيوس طريقاً إلى الجزيرة، ونقل عبرها آلات الحصار، ثم ما لبث

أن صــفّ علـيها منجنيقات الحراب الجديدة، فاستطاع بذلك إغراق سـفنٍ كـثيرة عن طريق ثقب هياكلها، ثم أحرق السفن الأخرى عن طريق قذفها بكرات النار".

"أتريد أن تبني طريقاً إلى صور؟ لكن، لديك مسافة تبلغ *ستاديين* على الأقل".

"إنّ هـذه المدينة مثل موتيا. وإذا استطاع ديونيسيوس أن يتدبر الأمر، فأنا أستطيع ذلك. سنبدأ غداً في هدم المدينة القديمة، وسنستخدم ركامها لبناء الطريق. يجب عليهم أن يعرفوا أنني لا أمزح".

ابتلع هيفاستيون ريقه ثم قال: "أنهدم المدينة القديمة؟".

"هذا بالضبط. سنهدم المدينة القديمة، ثم نرمي ركامها في البحر".

"كما تريد".

غـادر هيفاستيون في الحال كي يوزّع الأوامر على رفاقه، بينما عاد الملك إلى قراءاته.

وفي الـيوم الـتالي، استدعى الملك كل المهندسين والميكانيكيين المـتواجدين في الحملـة. فجاءوا حاملين أدواتهم وموادّ تصلح للرسم وتدوين الملاحظات. ترأس دياديس جمهور المهندسين من لاريسا، وهو تلمـيذ فايلوس الذي كان رئيس المهندسين لدى فيليب، والرجل الذي بنى أبراج الهجوم التي دمرت أسوار بيرينثوس.

قـال الملك: "يا مهندسينا الكبار. لا يمكننا أن نربح هذه المعركة مـن دونكـم. سنلحق الهزيمة بالعدو بفضل رسوماتكم، وليس بفضل قتالـنا الـشجاع فقط. في الحقيقة، لن يكون هناك ميدان للمعركة في صور".

تمكـن الجميع من مشاهدة انعكاسات القلاع العالية فوق صفحة المياه، وفهموا ما يعنيه الملك.

تابع الإسكندر كلامه: "حسناً، ها هي خطتي. سنبني نحن طريقاً إلى الجزيـــرة، بيـــنما تـــنهمكون أنتم بتصميم أبراجٍ تكون أعلى من الأسوار، وبنائها".

قـــال ديادس معلقاً: "مولاي، يعني ذلك أننا سنبني أبراجاً يزيد ارتفاعها عن مئة وخمسين قدماً".

ردّ الملـــك برباطة جأش: "أتصوّر أنّ هذا صحيح. أريد أن تكون هـــذه الآلات منيعة، وأن تكون مزودة بالمكابس الضاربة، وبمنجنيقات جديـــدة تماماً. أحتاج إلى آلاتٍ قادرة على قذف أحجارٍ تزن الواحدة منها مئتي رطل ولمسافةٍ تصل إلى نحو ثمانمئة قدم".

نظـــر المهندسون الماهرون إلى وجوه بعضهم، وبدت عليهم جميعاً ملامح اليأس. بقي ديادس صامتاً وراح يرسم خطوطاً لا معنى لها على ورقـــة البردى، بينما راح الإسكندر يحدّق إليه. شعر كل مهندس بأن نظـــرة الملـــك أثقل من الأحجار التي يُفترض بآلاتهم أن تقذفها. رفع المهندس الخبير رأسه أخيراً وقال: "يمكننا أن نبنيها".

"جيّد. إذاً، يمكنك أن تبدأ العمل على بناء هذه الآلات على الفور".

في هـــذه الأثناء، ترددت أصوات صرخات السكان الذين طُردوا مـــن بيوتهم، وأصوات بكائهم في أنحاء المدينة القديمة، وتداخلت هذه الأصـــوات مع أصوات السقوف والجدران المنهارة التي كانت تسقط أرضـــاً. ولهـــدم البـــيوت استعمل هيفاستيون مكابس ضاربة صغيرة ومعلقة. واستمرت فرق الحطّابين على مدى الأيام التالية في الصعود إلى الجـــبال بمـــرافقة الجنود الأغريانيين، وذلك من أجل قطع أشجار لبنان وتحويل جذوعها إلى ألواح تصلح في عملية بناء الآلات.

اســـتمر العمل في الطريق ليلاً ونهاراً، وذلك بحسب نظام الفرق المتـــناوبة. واستُخدمت العربات التي تجرها الثيران والبغال لنقل الرّمال

والحجارة التي رميت في البحر. وشاهد سكان صور المجتمعون في أعلى الأسوار عمل المقدونيين، وسخروا منهم ومن جهودهم. إلا أنهم توقفوا عن الضحك عند نهاية الشهر الرابع.

فذات صباح، دُهش الحراس الواقفون في أعلى الأسوار، عند الفجر، لدى رؤيتهم آلتين عملاقتين يبلغ ارتفاع الواحدة منهما ما يزيد عن مئة وخمسين قدماً. كانت الآلتان تتقدّمان عبر الطريق الجديدة نحوهم، وهما تصدران صريراً قويًّا. كانتا أضخم آلتَي حصار تم تشييدهما، وسرعان ما وصلتا إلى نهاية الطريق، وبدأتا العمل. أصدرت الأحجار الكبيرة وكرات النار الملتهبة حسيساً وهي تشق طريقها عبر الهواء قبل أن ترتطم بالمناطق العليا من الأسوار. وسرعان ما نشرت الخراب والرعب في أنحاء المدينة.

ردّ سكان صور على الفور تقريباً. فسارعوا إلى وضع منجنيقات فوق الأسوار، وصوّبوها باتجاه المقدونيين الذين كانوا لا يزالون يعملون على بناء الطريق وآلات الحصار.

عندها، أمر الإسكندر أن توضع الملاجئ الخشبية ذات السقوف المتحركة قيد العمل، وكانت كلّها محميةً بجلود الحيوانات التي لم تُدبغ، ولذلك، فهي غير قابلة للاحتراق. واستمر العمل في الطريق من دون انقطاع. فدفعت الآلات لمسافة أبعد، وهكذا أصبحت أكثر خطورة، وأهدافها أكثر دقةً. كانت الأسوار ستتعرض لخطر كبير وخلال وقتٍ قصير، إذا استمرت الأمور على هذه الوتيرة.

وحين وصل أسطولا صيدون وبيبلوس (جبيل) من قبرص ورودس وُضعا على الفور تحت إمرة نيرخوس. لكن أسطول صور رابطَ في موانئ محمية لا يُمكن الوصول إليها، ورفض المشاركة في القتال. وفي واقع الأمر، كان الأسطول يحضّر لهجوم مضادٍّ ومفاجئ.

وفي إحــدى الليالي التي غاب عنها ضوء القمر، ظهرت في الميناء ســفينتان حربيتان مزودة كل منهما بثلاثة أزواج من المجاذيف وذلك بعــد يوم من الهجوم المستمر. وكانت السفينتان تجران خلفهما سفينة نــار، وهي عبارة عن سفينة ضخمة ومجوفة بالكامل، لكنها مليئة بمادة حارقــة. بــرز من مقدمة السفينة لوحان خشبيان، وقد عُلّق على كلٍ مــنهما وعــاءٌ مليء بالقار. اقتربت السفينتان من الطريق، وزادتا من إيقــاع تجــذيفهما إلى أقصى حدٍّ ممكن قبل أن تطلقا سفينة النار بعد إشعالها مع لوحي الخشب الأماميين.

تحــركت ســفينة النار بعد أن أصبحت مركزاً للنار المستعرة إلى الأمــام بتأثير زخمها، بينما ابتعدت السفينتان الحربيتان كلٌ إلى جهتها. تدحــرجت كرة النار فوق طرف الطريق غير بعيدة عن أبراج الهجوم. في هــذا الــوقت، احتــرق اللــوحان الخشبيان الموجودان في المقدمة بالكامل، فسقطا مطلقَين الوعاءين اللذين يحتويان على القار. وسرعان ما انفجر هذان الوعاءان ناشرَين النيران في كل مكان، حتى إنها وصلت إلى قواعد البرجين.

ســارعت فــرق الهجمات المضادة المقدونية الموجودة في مراكز الحراســة إلى إطفــاء النيران، لكن جنوداً مهاجمين ما لبثوا أن أتوا من السفينتين الحربيتين حاملين أسلحتهم كي يشاغلوا الفرق بالقتال. كان الكفاح وسط النيران الحمراء الملتهبة، والدخان والشرر المتطاير في الهواء الذي لم يعد صالحاً للتنفس بسبب أدخنة القار شرساً ومرعباً. تفكّكت ســفينة الــنار، ثم تحــوّلت إلى كتلة لهب، وما لبثت ألسنة النيران أن أحاطت بالبرجين كلياً.

زاد ارتفــاع البــناءين من حدة النيران، بحيث إن ألسنة اللهب والــشرارات ارتفعت أكثر من مئة قدمٍ فوق الأسيجة الضخمة. ملأت

الأنـــوار الخلـــيج بأكملـــه، فـــبدا وكأنه في وضح النهار، وما لبثت الانعكاســـات التي كانت بلون الدماء أن ارتسمت على أسوار المدينة وحصونها.

تـــصاعدت أصوات الابتهاج التي أطلقها سكان صور من أعلى الأســـوار. لكـــن المذبحة التي لحقت بالجنود الذين نـــزلوا إلى الطريق الموصـــلة إلى الجزيـــرة، وهـــم الذين قطعوا إرباً إرباً في هجومٍ مضاد، وكـــذلك دمـــار الـــسفينتين الحربيتين، لم يُبهجا المقدونيين. إذ أيقن المقدونـــيون أن نتـــيجة أشـــهرٍ وأشهرٍ من العمل الذي قام به أفضل مهندسي العالم العباقرة قد ذهبت أدراج الرياح في وقتٍ قصيرٍ جداً.

وصـــل الإســـكندر على صهوة جواده بوسيفالاس بسرعة عبر الطـــريق الموصـــلة إلى الجزيرة، وشقّ طريقه عبر النيران، ووقف على مـــسافة قـــصيرة مـــن البرجين، في اللحظة ذاتها التي انهارا فيها محدثَين ضجيجاً كبيراً. فازدادت ألسنة اللهب والدخان والشرر.

لحق به رفاقه بسرعة، وتبعهم المهندسون والتقنيون الذين بنوا هذه الآلات العجيـــبة. أما دياديس من لاريس، وهو كبير المهندسين، فقد نظر إلى البرجين المنهارين بوجه جامد وعينين مليئتين بالغضب واليأس، لكنّ ملامح وجهه لم تُظهر أبداً أي إشارةٍ تدل على الانفعال.

ترجّل الإسكندر عن صهوة جواده، ونظر مليًّا إلى أسوار المدينة، ثمّ حوّل نظره إلى الآلات المدمرة، قبل أن ينظر أخيراً إلى مهندسيه الذين بـــدوا مـــشلولين أمام هذا المنظر، وخاطبهم آمراً: "أعيدوا بناءهما من جديد".

54

بعـــد مـــرور عدة أيام سعى خلالها مهندسو الإسكندر إلى إيجاد طـــريقة لإعـــادة بناء الآلات، هبّت عاصفةٌ هوجاء تسببت بتخريب الطريق التي بذلوا جهوداً كبيرة في بنائها تخريباً شديداً. بدا الأمر وكأن القـــدر قـــد أدار ظهـــره فجأة للإسكندر، وهكذا هبطت معنويات المقدونيين كثيراً نتيجة لهذه الانتكاسات.

ازداد الملـــك عناداً، وازداد ميله إلى العزلة. وكثيراً ما كان يسير بجـــواده وحيداً على الشاطئ، وهو ينظر إلى تلك الجزيرة المسورة التي تجـــرأ سكانها على إذلاله. وفي بعض الأحيان، كان يجلس على صخرةٍ ليتأمل الأمواج المتكسرة فوق الشاطئ.

وبـــدورها، اعتادت بارسين على امتطاء حصانها صباح كل يوم والتنـــــزه على الشاطئ، وذلك قبل أن تعزل نفسها داخل خيمتها مع خادماتهـــا. ففي أحد الأيام، التقته وهو يسير أمام جواده بوسيفالاس. كانت فخذه لا تزال تحمل علامات الجرح الذي أصيب به في إيسوس، وكانت الرياح تتلاعب بشعره الطويل حتى كاد يغطي وجهه. شعرت بارسين أن جسمها يرتعش مرةً أخرى، أي مثل ما حدث عندما التقته آخر مرة. أحسّت بأن هذا الرجل الواقف أمامها كائن غير حقيقي.

نظـــر إليها لكنه لم يقل شيئاً. ترجلت بارسين عن صهوة حصانها كي لا تكون أعلى منه. أحنت رأسها، وراحت تتمتم: "مولاي".

اقتـــرب الإسكندر منها، ولمس خدّها بلطف براحة يده، وحدّق إلى عينـــيها، ثم أدار وجهها قليلاً نحو كتفه اليمنى، أي كما كان يفعل

دائمـــاً عـــندما تجتاحه المشاعر العميقة والقوية. فيما أغمضت بارسين عينيها لأنها لم تحتمل قوة نظراته.

فاجأهـــا الملك بقبلة مباغتة وحارة، ثم ما لبث أن امتطى جواده بوســـيفالاس، وأســـرع بـــه فوق رمال الشاطئ، وفوق زبد الأمواج المتكـــسرة. التفتت بارسين كي تنظر إليه، لكنه كان قد اختفى بعيداً، ولم يعد يظهر بوضوح بسبب الرذاذ المتطاير متعدد الألوان الذي أثارته حوافر جواده.

عندها، عادت إلى خيمتها، واستسلمت لعواطفها كلياً، وارتمت فوق سريرها باكية.

هـــدأ غضب الإسكندر، وعاد ليمسك بزمام الأمور مجدداً، وما لـــبث أن دعـــا إلى عقـــد مجلـــس حـــربٍ موسع مؤلف من القادة، والمصمّمين، والمهندسين، بالإضافة إلى نيرخوس وربابنة الأسطول.

"إن المصائب التي حلت بنا ليست بسبب القدر بل بسبب غبائنا. ولكننا سنعالج الموقف. ولن تجد صور مفراً لها من عقابنا. أولاً، بالنسبة إلى الطـــريق، سيقوم ربابنة أسطولنا بدراسة الرياح والتيارات الموجودة في هـــذا *القـــنال*، وسيعطون المصمّمين التعليمات بحسب النتائج التي يحـــصلون عليها. وهكذا سيتمكن المصمّمون من تصميم مخطط جديد يستفيد من قوة عناصر الطبيعة واتجاهاتها بدلاً من مواجهتها.

ثم الـــتفت إلى ديـــاديس وسائر المهندسين، وتابع حديثه: "ثانياً، بالنسبة إلى آلات الحصار، إذا انتظرنا إتمام العمل على الطريق فسنضيّع وقتاً كبيراً. يتعيّن علينا أن نتأكد من أن سكان صور يشعرون أنهم تحت تهديـــد مـــستمر، كما يجب عليهم أن يدركوا أنهم لن ينعموا بالسلام والأمـــان، لا في اللـــيل ولا في النهار. ستكون لدينا فرقتان تعملان في

الوقت ذاته: فرقة لتصميم آلات الحصار وبنائها، حيث ستتقدم الآلات عبر الطريق فور جهوزها، بينما تتقدم الفرقة الأخرى لتصميم آلات الهجوم العائمة.

اتسعت عينا ديادیس وهو يسأل: "هل قلتَ عائمة يا مولاي".

"بالضبط. لا أعرف كيف، لكنني متأكد من أنك ستتدبر الأمر وبسرعة. أخذ رفاقي مهمة إخضاع القبائل التي تسكن جبال لبنان بحيث يتمكن حطّابونا من العمل من دون إزعاج. سنتمكن من إخضاع صور عند قدوم فصل الربيع. إنني متأكد من هذا، وسأشرح لك السبب: حلمت في الليلة الماضية أن هرقل قد ظهر أمامي على أسوار المدينة ودعاني إلى الانضمام إليه بإشارةٍ منه.

سردت هذا الحلم أمام أريستاندر ففسّره لي على الفور. قال لي إنني سأدخل صور كي أقدم أضحية إلى البطل داخل جدران هيكله. أريد أن تنتشر هذه الأخبار بين رجالنا كي يثقوا بانتصارنا".

راح إيومينيس يفكّر في أن هذا الحلم مناسب للوضع، وقال: "سأفعل في الحال".

بُدئ العمل مجدداً وعلى الفور، وأُعيد بناء الطريق بحسب تعليمات بحارة قبرص ورودس الذين يمتلكون خبرة كبيرة بأحوال المياه. بينما أخذ ديادیس على عاتقه أصعب المهمات، فقد صمّم أبراج هجوم جديدة ومختلفة. بحيث يركّب الواحد منها على منصة ثابتة على متن سفينتين حربيتين بعد ربطهما ببعضهما جنباً إلى جنب. وتم تركيب اثنتين من منصات أبراج الهجوم هذه في غضون شهرين، وما إن حلّ يوم خالٍ من الأنواء حتى بدأ البحارة بالتجذيف من أجل سحبهما إلى موقعٍ تحت أسوار صور. وما إن رست السفينتان بعد اقترابهما من الموقع حتى بدأت المكابس الضاربة عملها بشكل مستمر في دك أحجار الأسوار.

ردّ سكان صور على الفور، فأرسلوا غواصين في أثناء الليل من أجل قطع حبال رسو السفينتين، وهو الأمر الذي تسبب في ابتعادهما نحو الصخور. دق نيرخوس - الذي كان مسؤولاً عن الحراسة الليلية علـــى مـــتن السفينة الملكية - ناقوس الخطر على الفور، وانطلق مع عشرة رجال أو نحو ذلك باتجاه المنصتين الطافيتين اللتين كانتا تناوران ضد الرياح. اقترب نيرخوس من السفينتين، ورمى الحبال والخطافات فـــوق سياجيهما، ثم جرّهما عائداً بهما إلى موقعهما. ولكن، بعد أن كاد أفراد الطاقم يفقدون كل قواهم في هذه العملية. استُبدلت حبال الرســـو بسلاسل حديدية، وما لبثت المكابس أن عاودت عملها من جديـــد. في هـــذا الوقت، أقدم سكان صور على وضع أكياسٍ مليئة بالأعشاب البحرية على جوانب الأسوار الخارجية من أجل التخفيف من قوة المكابس الضاربة. وبدا أن المقاومة العنيدة التي تبديها صور لا حدّ لها.

وذات يـــوم، كان الإسكندر منشغلاً في الجبال في عملياتٍ ضد القـــبائل التي ازدادت عدوانية، عندما رست سفينة قادمة من مقدونيا قـــرب الطـــريق التي بنيت. أحضرت السفينة معها مؤناً ورسائل، كما حملـــت علـــى متنها زائراً مميزاً، والذي أُعلن عن حضوره أمام القائد بارمينـــيون. كان ذلك الزائر ليونيداس، أستاذ الملك في الماضي، والذي أصبح الآن في العقد الثامن من عمره. وكان ليونيداس قد سمع عن حملة تلمـــيذه الكبيرة، لذلك قرّر أن يُبحر كي يلتقيه ويهنئه قبل أن يموت. ذهـــب كـــل تلاميذه لرؤيته عندما سمعوا الخبر: سلوقس، وليوناتوس، وكـــراتيروس، وبيرديكـــاس، وفـــيلوتاس، وبطليموس، وهيفاستيون، ولايـــسيماخوس. وصـــلوا جميعاً وهم يصرخون كالأطفال، وراحوا ينشدون معاً أغنية قديمة كانت تثير الغضب في نفس الأستاذ:

ها قد أتى الغراب العجوز
ها قد أتى الغراب العجوز

بدأ الجميع بالتصفيق بأيديهم بشكلٍ إيقاعي، وراحوا يصرخون: "معلّمنا! معلّمنا! معلّمنا!".

تأثر ليونيداس العجوز كثيراً عندما سمع تلاميذه يحيونه كما كانوا يفعلون كل صباح عندما يجلسون على مقاعدهم في غرفة الدرس قبل أن يضعوا ألواحهم فوق رُكَبهم. نجح الأستاذ في إخفاء مشاعره، وشرع بتهدئتهم.

قال العجوز بفمٍ خالٍ من الأسنان: "اصمتوا! ما زلتم جماعةً غير منضبطة! أراهن على أنكم لم تقرأوا كتاباً واحداً منذ أن غادرتم الوطن".

صاح ليوناتوس: "مرحباً يا أستاذ! لا يمكنك أن تبدأ بإعطاء الدروس الآن، ألا ترى أننا مشغولون كثيراً هنا؟".

قال بطليموس: "ما كان عليك أن تقوم بهذه الرحلة، لأن الطقس سيئ جداً، ونحن الآن في فصل الشتاء. لماذا أتيت؟".

"سمعت عن إنجازات تلميذي، لذلك أردت أن أراه قبل أن أُسلم الروح".

سأل هيفاستيون: "وماذا بشأننا نحن. أتعرف، إننا لسنا سيئين أيضاً".

قال بيرديكاس: "أما بالنسبة إلى موتك أيها الأستاذ، فالصحة تبدو على محياك، ويبدو أن بينك وبين الموت هوة كبيرة يجب أن يقطعها قبل أن يصل إليك. كان يمكنك أن تنتظر أن يكون الطقس أفضل، على سبيل المثال".

ردّ ليونيداس: "آه، أنا أعرف ما أفعله، ولا حاجة لي إلى نصائحكم أيها الأولاد. أين الإسكندر؟".

قال هيفاستيون شارحاً: "الملك في الجبال، وهو يُخضع القبائل التي لا تزال تدين بالولاء لداريوس".

"إذاً، خذوني إلى الجبال".

قال بطليموس: "لكن، في الواقع...".

ابتسم ليوناتوس ابتسامةً عريضة وقال: "هناك ثلجٌ في الجبال أيها المعلم، ستمرض".

كان ليونيداس مصمماً على تنفيذ قراره، فقال: "ستُبحر هذه السفينة في غضون خمسة أيام، وإذا لم أرَ الإسكندر فستضيع رحلتي هباءً. أريد أن أراه مجدداً، وهذا أمر".

هزّ ليوناتوس رأسه ذا الشعر الأشعث، ثم هزّ كتفيه: "إنه لا يزال معلمنا العجوز، وهو لم يتغيّر أبداً".

قال العجوز متذمراً: "هل ستصمت أيها الأبله! أتعرف أنني أتذكّر تلك الضفادع في حسائي".

سأل ليوناتوس: "حسناً، من سيصعد معه إلى الجبال؟".

تقدّم لايسيماخوس إلى الأمام، وقال: "أنا سآخذه. وهكذا سأسلم الإسكندر الرسائل أيضاً".

في اليوم التالي، انطلقا بمرافقة بعض جنود *الهيتايروي*، فوصلوا إلى مكان وجود الإسكندر عند المساء. ذُهل الملك وتأثر كثيراً بهذه الزيارة غير المتوقعة أبداً، واهتم بالعجوز شخصياً، وصرف لايسيماخوس الذي عاد إلى المعسكر قرب الشاطئ.

"كنتَ متهوراً جداً يا معلمي في مجيئك إلى هنا. إن المنطقة محفوفة بالمخاطر، ويتعيّن علينا أن نصعد مسافة إضافية إذا أردنا

الوصـــول إلى جنود الاحتياط عندنا، أي الأغريانيين الذين يحرسون الطريق".

"لـــست خائفاً من شيء. والليلة سنتحدث قليلاً، لأنه لا بد من وجود شيء ما ترغب في إخباري إياه".

انطلـــق الرجلان، لكن بغل ليونيداس لم يتمكن من مجاراة جياد الجنود، وهكذا سمح لهم الإسكندر بأن يسبقوهما، بينما تخلف هو كي يبقـــى مع معلمه القديم. حلّ الظلام، وما لبثا أن وجدا نفسيهما أمام طـــريقٍ متفرعة، وكانت الطريقان في كلا الاتجاهين تحملان علامات حوافر الجياد. لذلك اختار الإسكندر إحداهما بصورةٍ عشوائية، لكنه مـــا لـــبث أن شعر بأنه معزول ووحيد في أرضٍ لم يسبق له أن رآها قبلاً.

اشتدت الظلمة، واشتدت معها الرياح الشمالية. أحس ليونيداس بأنـــه يكـــاد يتجمد من شدة البرد. ولذلك، أحاط كتفيه بعباءته قدر المستطاع. نظر الإسكندر إليه، ولاحظ شدة شعوره بالبرد، بينما كانت عيـــناه توحيان بمدى التعب الذي كان يعانيه. شعر الإسكندر بتعاطفٍ شديد تجاه هذا الرجل العجوز الذي عبر البحر كي يكون معه، والذي لن يستطيع الصمود وسط هذه الرياح الباردة حتى تنقضي هذه الليلة. كـــان من الواضح أن الإسكندر قد سلك الطريق غير الصحيحة. لكن الـــوقت كـــان قـــد فات الآن للعودة والانضمام إلى الجنود الآخرين. يُضاف إلى ذلك أن الرؤية أصبحت معدومة تماماً في هذا الوقت. شعر الإســـكندر أنـــه مضطر إلى إيقاد النار بطريقة ما. لكن كيف، وبأي طـــريقة؟ لم يكن لديه جمر، وهو لا يعرف من أين يمكنه الحصول على خـــشب جافّ لأن كل الأغصان كانت مبلّلة ومغطاة بالثلج، كما أن الطقس أخذ يزداد سوءاً أكثر فأكثر وبسرعة.

وفجـــأة، رأى ناراً تتقد وسط الظلام في مكان لا يبعد كثيراً عن مكانـــه. ومـــا لـــبث أن رأى ناراً أخرى. قال للعجوز: "لا تتحرك يـــا معلمـــي من هذا المكان. سأعود على الفور، وسأترك بوسيفالاس معك".

عبّر الجواد عن اعتراضه بشخرة، لكن الإسكندر طمأنه فبقي مع ليونيداس، بينما تسلل الإسكندر وسط الظلام نحو مكان النيران. كانت تلك نيران جنود الأعداء الذين يستعدون لتمضية الليل، فأوقدوا النيران كي يدفئوا أنفسهم ويعدوا طعامهم.

اقتـــرب الإسكندر من أحد الطهاة الذي كان منشغلاً في إدخال بعض قطع اللحم في سيخٍ حديدي. ابتعد الرجل قليلاً كي يقوم بعملٍ آخـــر، فأسرع الإسكندر نحو النار زاحفاً، وأمسك عوداً ثخيناً يتقد في نهايـــته، وغطاه بعباءته ثم قفل عائداً نحو ليونيداس. أحدث الإسكندر ضـــجة دلّـــت عليه ما إن داس على أحد الأغصان الذي انكسر تحت قدميه. فسمع صوتاً يقول: "من هناك؟". وما لبث صاحب الصوت أن اقتـــرب في الظـــلام شاهراً سيفه. اختبأ الإسكندر خلف شجرة بينما دمعت عيناه بتأثير الدخان، لكنه حبس أنفاسه كي يمتنع عن السعال أو العطـــس. أسعف الحظ الإسكندر على الفور لأن جندياً آخر عاد إلى معسكره في تلك اللحظة، بعد أن ابتعد في الغابة لقضاء حاجته.

قال الجندي الذي كان شاهراً سيفه على بعد خطواتٍ قليلة فقط من الإسكندر: "آه، هذا أنت. تعالَ، فالعشاء يكاد يجهز".

تـــسلّل الملك مجدداً، وحرص على ألاّ يُحدث أي صوت مجدداً، وأبقـــى دخان الجمرة مخبأً. بدأ الثلج بالتساقط، وازدادت الريحُ برودة. فكّـــر الإسكندر في أن العجوز لا بدّ من أن يكون قد وصل إلى آخر حدود احتماله.

وصل الإسكندر إلى ليونيداس بعد وقت قصير، وقال له بعد أن أظهر له العود المشتعل: "أنا هنا يا معلمي. أحضرت لك هدية". بعد ذلك، عثر الإسكندر على مكان جافٍّ تحت صخرةٍ مخبأة، وبدأ ينفخ الجمرة حتى اتقدت نارها. ثم أضاف بعض الأغصان الصغيرة إلى الجمرة حتى ازدادت ألسنة النيران، وانتشر الدفء في المكان.

استعاد ليونيداس لونه وحيويته بعض الشيء، فتوجّه الإسكندر نحو السلة التي يحملها بوسيفالاس، وتناول منها بعض الخبز، وفتّت قسماً منه لمعلّمه الذي يخلو فمه من الأسنان، ثم جلس إلى جانبه قرب النار.

بدأ ليونيداس بمضغ الخبز: "حسناً إذاً، يا بني، هل صحيح ما قيل عن أخذك أسلحة آخيل ودرعه، وهي التي وصفها هوميروس في أشعاره؟ وماذا عن هاليكارناسوس؟ يقولون إن المدافن هناك تصل إلى ارتفاع البارثينون مضافاً إليه هيكل هيرا في أرغوس بعد وضعهما فوق بعضهما. هل هذا الأمر حقيقي؟ وماذا بشأن هاليس؟ لقد رأيتها يا بني، أليس كذلك؟ أما أنا، فيصعب عليّ أن أصدّق أن عرضها يمكن أن يكون ثلاثة أمثال الهاليا كمون عندنا. لكنك رأيتها، لذلك لا بد من أنك تعرف الحقيقة. أخبرني كذلك عن *الآمازون*. هل صحيح أن مدفن الأمازون بينثيسيليا يقع قرب هاليس؟ كما كنت أتساءل إذا كانت بوابات كيليكيا ضيّقة كما يقولون...".

أوقفه الإسكندر عند هذا الحد: "معلمي. إنك تريد معرفة أشياء كثيرة. لكن من الأفضل أن أجيب عن أسئلتك الواحد تلو الآخر. أما بالنسبة إلى أسلحة آخيل، فإن الأمور لا تزيد ولا تنقص عن...".

تحدّث الإسكندر مع معلمه على هذا النحو طوال الليل، كما شاركه عباءته، وذلك بعد أن خاطر بحياته كي يحميه من برد الجبل.

وفي اليوم التالي، انضمّا إلى سائر الجنود بأمانٍ وبحالٍ جيدة. طلب الإسكندر من معلمه أن يلازم صور، وذلك لأنه لَمْ يرغبْ في أن يخاطر ذلك المعلّم بتمضية يوم آخر في الجبال. ولكنه عزم على الانطلاق مجدداً عندما يتحسّن الطقس.

55

انتهــى العمــل بالطريق الجديدة في نهاية فصل الشتاء. كما تمّت تسوية سطحها الخارجي بواسطة المحادل، وذلك من أجل تسهيل مرور أبراج الهجوم الجديدة، وهي الأبراج التي شيّدها ديادیس بسرعةٍ مذهلة. أمــا في الطوابــق المقابلــة لأعلى الأسوار، فقد وضع مجموعاتٍ من المنجنيقات المزودة بنوابض ملتوية، وهي المنجنيقات التي تستطيع إطلاق ســهامٍ حديديــة ثقــيلة أفقياً. وفي أعلى البرج وضعت القاذفات التي تشرف على كل شيء. لم تكن هذه الآلات قادرة على قذف الأحجار بمــسارٍ منحنٍ فقط، بل كانت قادرة على إطلاق كرات النار كذلك، وهي أجهزة حارقة محشوة بالقار والزيت.

جــاء رد فعل سكان صور شرساً جداً. وسرعان ما ملأ الجنود المناطق العليا من الأسوار، فبدا المكان مثل قمة تلة نملٍ بعد أن عبث بها أحــد الأطفــال بقــضيب. قام الصّوريون بدورهم بتركيب عشرات المنجنــيقات علــى حواف الأسوار. وعندما رأوا الغزاة وهم يحاولون إحراق بوابات المدينة، أسرعوا إلى رمي الرمال الحارة التي سبق لهم أن سخنوها داخل دروع برونــزية فوق نارٍ ملتهبة.

اخترقت الرمال الحارة ثياب المقدونيين، ودخلت تحت دروعهم. كــان ألمهــم شــديداً بحيث اضطروا إلى رمي أنفسهم في البحر كي يتخلصوا منه. وأقدم آخرون على نــزع دروع صدورهم، وهو الأمر الذي جعلهم على الفور أهدافاً سهلة أمام الرماة، فاخترقت صدورهم الحراب والخطافات التي رماها الصوريون من الأعلى مستخدمين آلاتٍ

جديدة وغريبة. كانت هذه الآلات تسحبهم إلى الأعلى وتتركهم معلّقين وصارخين حتى توافيهم المنيّة التي تخلّصهم من عذابهم. تعذّب الملك كثيراً عندما كانت صرخات هؤلاء المساكين تصل إلى مسامعه. ولم يجد الراحة في النهار أو في الليل. تحوّل الإسكندر في كل الأوقات مثل أسد جائع يقف أمام حظيرة خراف. وشعر جنود الإسكندر بالرهبة عندما رأوا هذه المناظر الفظيعة.

لذلك، تردّد الإسكندر في شن الهجوم النهائي الذي لا بد من أن ينتهي بمجزرة، وحاول أن يفكّر في حلول أقل تهوراً قد تُنقذ شرفه، وتترك طريق الانسحاب مفتوحة أمام الصّوريين الذين أُعجب كثيراً بشجاعتهم وإصرارهم الاستثنائيين.

عمل الملك بنصيحة نيرخوس، وهو الوحيد من بين رجاله الذي يفهم تفكير شعب يتكون معظمه من البحّارة.

قال له القائد: "اسمعني. مضى علينا سبعة أشهرٍ هنا تقريباً، وتكبدنا خسائر كثيرة. أعتقد أنه من الأفضل أن تسير بالجيش، وتتركني هنا كي أُكمل الحصار. أمتلك الآن مئة سفينة حربية، وستصل سفن أخرى من مقدونيا، ولن يدخل أحد إلى صور أو يخرج منها حتى تُعلن استسلامها. سأعرض عليهم بعد ذلك سلاماً مشرفاً.

إنّ صور مدينة رائعة من كل النواحي، كما أن بحّارتها أبحروا إلى أعمدة هرقل وما خلفها. ويُقال إنهم زاروا بلداناً لم يرها بشريٌ من قبل، حتى إنهم يعرفون الطرقات البحرية التي تؤدي إلى الجزر التي تقع بعيداً وراء المحيط. فكّر في الأمور بعناية أيها الإسكندر. فعندما تودّ أن تكون هذه المدينة جزءاً من مملكتك، أليس من الأفضل عندها أن تحافظ عليها، بدلاً من أن تدمّرها كلياً؟".

فكّــر الملك في هذه الكلمات مطوّلاً، ولكنه تذكّر بعض الأخبار التي وصلته مؤخراً. "أبلغني إيمولبوس من سولوي أن القرطاجيين عرضوا مـــساعدتهم على صور، وأن وصول أسطولهم أصبح وشيكاً. دعنا لا ننـــسى كـــذلك أن الفـــرس لا يزالون يبحرون في بحر إيجة، وأنهم قد يطـــبقون علينا هنا على حين غرة إذا غادرت المكان. كلا، يتعيّن على الصوريين أن يستسلموا، لكنني سأترك لهم طريق التراجع مفتوحة".

قـــرّر الملـــك أن يرسل بعثةً أخرى إلى المدينة، واختار لهذه البعثة مستـــشاريه الأكـــبر ســـناً والأكثر حكمة. وحين سمع ليونيداس بهذه المبادرة طلب مقابلة الملك.

"يـــا بني، دعني أشارك في هذه البعثة. أوكل إليّ فيليب - بالرغم مـــن أنك لن تتذكر هذا - مسؤولية بعثات سرية عدّة، والتي تتضمن أمـــوراً دقـــيقة، ونجحت فيها كلها، وبأفضل طريقة، إذا جاز لي قول هذا".

هزّ الإسكندر رأسه: "يستحيل أن أسمح بذلك يا معلمي. إن هذه المهمـــة خطـــرة جـــداً، ولا رغـــبة لي في تعريضك للخطر من دون طائل...".

وضع ليونيداس يده على شفتيه، وسأله: "من دون طائل؟ أنت لا تعـــرف عما تتحدث يا بني. لا تمتلك هذه البعثة أي فرصة للنجاح من دون ليونيداس العجوز. إنني أكثر الرجال خبرة، وأكثر قدرة من أولئك الموجودين لديك. ودعني أضيف أنك كنتَ ولداً صغيراً عندما ترأست أول وفـــد بحـــسب أوامر والدك، دام ذكره إلى الأبد. وتطلّبت المهمة آنذاك مواجهة التريباليين الشرسين والبرابرة. ونجحت عندها في تحويل ســـلوكهم إلى أهـــدأ ســـلوك ممكن، ومن دون استخدام العنف على الإطلاق. ألا زلتَ تقرأ الإلياذة؟".

ردّ الملك: "بالطبع لا أزال أقرأها يا معلّمي. إنني أقرأها كل مساء".

"حسناً إذاً؟ من هو الشخص الذي أرسله آخيل كموفدٍ له إلى زعيم الآخيين؟ ألم يكن فونيكس، معلّمه العجوز؟ وبما أنك آخيل الجديد، يصبح من المؤكد أنني فونيكس الجديد. دعني أذهب، لأنني أؤكد لك وأضمن لك، أنني سأنجح في جعل هؤلاء الأشخاص العنيدين يفكرون بمنطق".

كان ليونيداس مصمماً، بحيث شعر الإسكندر أنه عاجز عن حرمانه من لحظة المجد هذه، ولذلك أوكله بالمهمة. أرسل الإسكندر موفديه على متن سفينة تحمل رايات الهدنة، وكانت مهمتهم هي التفاوض على استسلام المدينة. شعر الإسكندر بقلقٍ شديد مُبرَّر، فتوجه إلى خيمته المنصوبة في نهاية الطريق كي ينتظر نتائج البعثة. مرّ الوقت من دون أن يحصل أي شيء.

وعند الظهيرة، دخل بطليموس. كان وجهه داكناً ورزيناً.

سأل الإسكندر: "حسناً؟ ماذا كان ردّهم؟".

أشار بطليموس إليه كي يتبعه إلى خارج الخيمة. وهناك، أشار نحو أعلى أبراج مدينة صور، حيث نُصبت خمسة صلبان، وعلى كل واحد منها سُمّر جسدٌ مغطى بالدماء. عرف الإسكندر ليونيداس بسهولة بسبب رأسه الأصلع وأطرافه النحيلة.

قال بطليموس: "لقد عذّبوهم وصلبوهم".

صُعق الإسكندر، وشعر أن المنظر الذي يراه أمامه قد أصابه بالشلل. وسرعان ما تجهّم وجهه وبدا كالسماء الملبدة بالغيوم السوداء، الأمر الذي جعل عينه اليسرى داكنة اللون أكثر من ذي قبل.

وفجأةً، أطلق عويلاً هائلاً، بدا أنه انطلق من أعماق أعماقه. وتفجّر داخله غضب فيليب، وكل ما في أوليمبيا من شراسة في اللحظة ذاتها، وانطلق من داخله غضب أعمى ومدمر. لكن الملك استعاد رباطة

جأشه بسرعة، وسيطر عليه هدوء رزين مشوبٌ بالقلق من مكان ما، وهو أشبه ما يكون بالهدوء الذي يسبق العاصفة.

نادى هيفاستيون وبطليموس ليقفا إلى جانبه، وقال آمراً: "سلاحي!". أومأ بطليموس إلى مساعديه الميدانيين الذين ردوا بالقول: "في خدمتك يا مولاي!". وانطلق المساعدون بعد ذلك كي يجلبوا السلاح ويساعدوه على ارتداء أكثر دروعه لمعاناً، بينما أحضر مساعدٌ آخر العلم الملكي ذا النجمة الأرغادية.

قال الإسكندر آمراً مرةً أخرى: "الأبواق!".

صدحت الأبواق، وما لبثت بعد قليل أن ترددت في أرجاء الخليج أصوات المكابس الضاربة التي راحت تدك الأسوار، وسُمع كذلك صفير المقذوفات التي أطلقتها المنجنيقات والقاذفات. التفت الملك إلى القائد وقال: "نيرخوس!".

"في خدمتك يا مولاي!".

أشار الإسكندر إلى أحد برجَي الهجوم، وهو الأقرب إلى الأسوار. "خذني إلى أعلى هذه المنصة. لكنني أريدك في هذا الوقت أن تُخرج سفن الأسطول كي تنطلق إلى الميناء وتُغرق كل السفن التي تصادفها في طريقك".

نظر نيرخوس إلى السماء المتجهمة، لكنه أطاع الأمر، وانتقل مع الملك ورفاقه إلى سفينة القيادة التي تمتلك خمسة أزواج من المجاذيف. أصدر نيرخوس أوامره على الفور من أجل إنزال الأشرعة وكل السواري، ثم رفع راية القتال ورفع المراسي. تصاعدت من كل السفن البالغ عددها مئة سفينة أصوات الطبول التي كانت تقرع بإيقاعٍ واحد من أجل تشجيع المجذفين. وسرعان ما انتشر الزبد فوق سطح البحر نتيجة الرياح وحركة آلاف المجاذيف.

وصـــلت سفينة القيادة إلى المنصة تحت وابل من المقذوفات التي تـــساقطت مـــن أعلـــى الأسوار. فقفز الإسكندر من حافة السفينة، وســـرعان مـــا تبعه رفاقه. دخل الجميع البرج، وصعدوا الدرج الذي يفصل بين طابق وطابق وسط سحابة من الغبار، ووسط الصراخ الذي تـــرافق مع أصوات المكابس الضاربة التي تصدم الأسوار وتصمّ الآذان. كان الرجال يصرخون صرخات قوية وإيقاعيّة، وذلك من أجل الحفاظ على زخم ضربات المكابس الخشبية.

فجأةً، ظهرت الوجوه الشاحبة لأفراد البعثة المصلوبين الذين بدوا كالأشباح فوق أعلى قسم من الأسوار، وذلك بفعل البرق الذي أضاء السماء السوداء للحظات، كما أضاء درع الإسكندر الذهبـــي، وعلمه ذا الألوان القرمزية.

أُنـــــزل جسرٌ على الأسوار، وبدأ الملك الهجوم متبوعاً برفاقه. وقـــف إلى جانبه ليوناتوس الذي تسلّح بفأسه، وهيفاستيون الذي شهر ســـيفه، وبيرديكـــاس الـــذي حمـــل رمحاً طويلاً، وكذلك بطليموس وكـــراتيروس اللذان كانا متألقَين بدروعهما المعدنية اللامعة. كان من الـــسهل تمييز الملك على الفور بسبب درعه المهيب، وبسبب التيجان البيـــضاء التي كانت تعلو خوذته، بالإضافة إلى العلم الأحمر والذهبـــي الـــذي كان يحمله. ولذلك، حاول رماة السهام والمدافعون عن المدينة الآخـــرون أن يـــصيبوه. وأقـــدم أحـــد أفراد فرقة الهجوم، وهو من لينـــزستوس ويُدعى آدميتوس، على إقحام نفسه في المعركة، وهو يريد أن يُظهر شجاعته أمام الملك. ولكنه قُطع إلى نصفين، فأخذ الإسكندر مكانـــه علـــى الفور ملوّحاً بسيفه يمنةً ويسرةً، وسحق جنود الأعداء بـــضربات درعـــه، هذا فيما كان ليوناتوس يمهد له الطريق من الجهة اليمنى بضربات ساطوره الساحقة.

تقـــدم الملك عبر أعلى الأسوار، وما لبث أن ألقى أحد الصوريين إلى البحر، بينما قطع بسيفه جندياً آخر من ذقنه وحتى أربيته، ثم تقدم كي يُلقي جندياً ثالثاً من الجهة الأخرى، حيث استقر فوق أحد البيوت الموجـــودة في الأســـفل. أدخل بيرديكاس رمحه في جسد جندي رابع، ورفعـــه وكأنـــه يرفع سمكةً علقت في صنارته، وما لبث أن ألقاه على مجموعة من رفاقه الجنود الذين كانوا يتقدمون نحوه. في هذا الوقت، بدأ الإســـكندر يصيح بصوتٍ أعلى، وتمكن من جرّ طوفان جنوده وراءه بينما وصل غضبه إلى ذروته، وكأن هذه الصيحات كانت تشتد بفعل قـــصف الرعد الذي هزّ السماء والأرض بدءاً من الارتفاعات الشاهقة وحـــتى الأودية السحيقة. تقدم الإسكندر من خلال الأسوار، ولم تعد هناك قوة تستطيع منعه من التقدم، وما لبث أن بدأ بالركض متجاهلاً وابـــل السهام الحديدية القصيرة التي كانت تقذفها المنجنيقات. ركض الإسكندر إلى المكان الذي صلب فيه ليونيداس الذي لم يكن يبعد عن مكان هجومه مسافة كبيرة. تجمّع المدافعون كي يصدّوه، لكنه هزمهم وأزاحهـــم مـــن طريقه الواحد تلو الآخر، وكأنهم كانوا مجموعةً من الدمـــى. أمـــا ليوناتوس فكان يهوي بفأسه بشكلٍ أعمى على دروع الـــصوريين وخوذاتهم، فيتطاير الشرر منها، وتتحول السيوف والرماح إلى شظايا.

وفي آخر الأمر، وصل الإسكندر إلى المنصة التي تحمل منجنيقاً مع طاقمها، فصاح بجنوده: "سيطروا على هذه المنجنيق واستخدموها ضد الآخـــرين! أنـــزِلوا ذلـــك الرجل عن الصليب! أنـــزلوه!". سيطر الإســـكندر ورفاقه على تلك المنطقة الصغيرة، وما لبث الملك أن رأى صندوق عدّة إلى جانب المنجنيق، فأسرع إلى تناول كماشة منه، وترك درعه يسقط إلى الأرض.

وفي تلــك اللحظة بالذات، صوّب أحد رماة الأعداء سهمه نحوه من مــسافة تــبلغ عشرين قدماً، وشدّ وتر قوسه. ولكن، في اللحظة نفسها، دوّى صَــوتٌ في أذن الملــك. كان صوت والدته التي استولى القلق عليها يناديه: "إسكندر!". فأحسّ الملك بالخطر وكأن أعجوبةً حدثت. وما كان مــنه إلا أن ســحب خنجره من حزامه بسرعة البرق ورماه نحو الرامي، فاستقر في عنق الرجل في التجويف الفاصل بين عظمتَي ترقوته.

شــكّلت دروع رفاق الإسكندر جداراً حوله، وراحوا ينــزعون المسامير الواحد تلو الآخر من أطراف معلّمهم المعذّب. في تلك اللحظة بالــذات، رأى الإسكندر أمامه الأطراف العارية لعجوزٍ آخر في ذاك المــساء البهي في كورنث. رأى ديوجينيس، الرجل الحكيم ذا العينين الهادئتين، وما لبثت روحه أن ذابت في قلبه. تمتم الملك: "معلمي...". سمــع ليونــيداس، بطــريقةٍ ما، تلك الكلمة وما لبث أن عادت إليه، للحظــة، قواه الحيوية التي كان قد فقدها. فاستعاد قواه بما يكفي كي يتحرك قليلاً ويفتح عينيه.

"يــا ولــدي، أخشى أنني لم أتمكّن...". وانهار المعلم بين يدَي الإسكندر بعد أن مات فعلاً.

ألقــت الغــيوم بما تحمله على المدينة وبحرها، وما لبثت أصوات الصراخ أن تعالت في أنحاء الجزيرة الصغيرة، وامتلأت شوارعها بالدماء، وغــرقت بمــياه الأمطار، ودوّت فيها العواصف الهوجاء، كما تساقط البَرَد. لم تُفِد عناصر الطبيعة في التخفيف من غضب المحاربين إلا قليلاً. أما خارج المدينة، ووسط الأمواج المزبدة والغاضبة، فقد كان الأسطول الــصوري منــشغلاً في معركةٍ يائسة مع سفن نيرخوس الحربية. بينما تــراجع المدافعــون داخل المدينة من منــزلٍ إلى آخر، ومن طريقٍ إلى أخرى. وهكذا، قاتلوا في منازلهم إلى النهاية المأساوية.

شـــقّت الـــشمس بأنوارها طريقاً لها من خلال الغيوم، وأضاءت المـــياه الداكنة، والجدران المنهارة، وهياكل السفن الطافية فوق سطح المـــياه، وجثث الغرقى. ولكن تمّ إسكات آخر جيوب المقاومة في وقتٍ قصير.

لجـــأ عدد كبير من الناجين إلى الهياكل، فأمر الملك بعدم التعرّض إلى هـــؤلاء الأشخاص، إلا أنه كان من المستحيل ضبط عطش الجنود للانتقام من الصوريين الذين ألقوا القبض عليهم في الشوارع.

صُـــلب ألفا شخصٍ من هؤلاء على طول الطريق التي تصل بين الجزيرة والمدينة القديمة. أما جثة ليونيداس فقد أُحرقت، وأُرسل رمادها إلى مقدونـــيا حـــيث دُفنت تحت شجرة صنوبر. دُفن هذا المعلم تحت شـــجرة الـــصنوبر ذاتها التي اعتاد أن يعلم تلاميذه تحت ظلالها عندما يسمح الطقس بذلك.

56

أمـــر الإســـكندر الأسطول بالتحرك جنوباً، ونقل آلات الحصار المفكّكة إلى غزة، وهي آخر معقل أمامه قبل الوصول إلى الصحراء التي تفصل فلسطين عن مصر.

أُرســـلت عشر سفن إلى مقدونيا من أجل تجنيد رجالٍ جدد كي يحلّوا محلّ أولئك الذين سقطوا في المعارك لدى احتلال صور. وفي هذا الوقت بالذات، تلقى الملك الرسالة الثانية من الملك داريوس:

> من داريوس، ملك بلاد فارس، ملك الملوك، ونور الآريين، وسيّد جهات الأرض الأربع، إلى الإسكندر، ملك مقدونيا. تحياتي.
>
> أريدك أن تعلم أنني أقدّر شجاعتك كثيراً، وأقدّر حظك الطيب.
>
> لذا، فأنا أعرض عليك مجدداً أن نكون حليفين، وقريبين.
>
> إنـــني أعـــرض عليك يد ابنتي ستاتييرا. وإذا وافقتَ، سأمنحك الـــسيطرة على الأراضي الممتدة من إفيسوس إلى ميليتوس، والمدن اليونانـــية الممتدة حتى نهر هاليس، كما سأمنحك ألفي تالنتٍ من الفضة.
>
> أنـــصحك ألاّ تتحدى الأقدار لأنها رفيقٌ متقلبٌ يمكن أن ينقلب علـــيك في أيّ لحظة. لا تنسَ أنك إذا اخترت أن تتابع حملتك، فستصبح رجلاً عجوزاً قبل أن تعبر آخر حدود مملكتي، وحتى لو لم تنشغل بأي معركة. تذكّر كذلك أن أراضي مملكتي تحميها أنهر دجلة والفرات وآراكسيس وهايداسبيس العظيمة.
>
> فكّر جيداً في الموضوع كي تتمكن من اتخاذ القرار الحكيم.

أمر الإسكندر بقراءة الرسالة أمام مجلس الحرب، وسأل المجتمعين في النهاية: "ما رأيكم؟ بماذا أجيب؟".

لم يجرؤ أحد من الحاضرين على اقتراح ما يجب عليه القيام به. لذلك، لم يتحدث أحد باستثناء بارمينيون الذي شعر أنه بسبب سنّه ومركزه يستطيع أن يعبّر عن وجهة نظره. لكنّ كل ما قاله كان: "كنت سأقبل لو كنت الإسكندر".

أحنى الملك رأسه، وكأنه كان يفكّر في تلك الجملة، ثم أجاب ببرود: "هذا ما كنت سأفعله لو كنت بارمينيون".

حدّق إليه القائد العجوز بدهشة وهو يشعر بالألم. كان من الواضح أنه شعر بإهانة كبيرة. لذا، وقف وابتعد بصمت. نظر رفاق الإسكندر إلى وجوه بعضهم وسط شعورهم بالصدمة، غير أن الملك تابع حديثه بكل بساطة، لكن نبرة صوته كانت أكثر هدوءاً ورزانة.

"إن وجهة نظر القائد بارمينيون مفهومة بالتأكيد، لكنني أتصوّر أنكم تدركون جميعاً أن داريوس لم يعرض عليّ شيئاً لم أستولِ عليه بعد، غير ابنته. إنه يطلب مني بصراحة، بدلاً من ذلك، أن أتخلى عن كل المقاطعات، وكل المدن، الواقعة شرق هاليس، وهي المناطق التي كبّدتنا خسائر كبيرة قبل احتلالها. لكننا سنحتل غزة ومصر بعد ذلك، وهما من أقدم البلدان وأغناها في العالم كله".

كتب الإسكندر الردّ، وضمّنه رفضاً مختصراً، ثم انطلق بالزحف بمحاذاة الشاطئ، بينما تقدّم الأسطول الذي كان تحت قيادة نيرخوس وهيفاستيون بشكل قافلة.

كانت غزة قلعة محصنةً، لكنّ أسوارها كانت من الطابوق، ومبنية على تلة طينية، وتقع بعيدة عن البحر مسافة خمسة عشر ستاديا. كان قائد القلعة خَصِيًّا أسود يُدعى باتيس، وكان رجلاً شجاعاً يدين بالولاء للملك داريوس، ولذلك رفض الاستسلام.

لهذا السبب، قرّر الإسكندر، أن يبدأ بالهجوم، وسار بجواده على طول الأسوار كي يفكّر في الأمكنة المناسبة للبدء بالحفر، بحيث تشكّل أفضل المواقع من أجل مهاجمة الحصون. ولكن، زادت الأرض الرملية التي تحيط بالتلة من جميع الجهات تعقيد المسألة.

وبينما كان الإسكندر منشغلاً بالتفكير، حلق غراب فوقه، وما لبث أن ألقى على رأسه حزمة صغيرة من الأعشاب التي كان يحملها بمخالبه. تابع الطائر تحليقه نحو غزة وحطّ فيها، وما لبث أن علق بالقار الذي استُخدم لتغطية الجدران، والذي كان في حالة ذوبان بسبب حرارة الشمس.

صُعق الإسكندر من هذا المنظر، فسأل أريستاندر الذي كان يتبعه كظلّه من مكانٍ إلى آخر: "ماذا يعني كل هذا؟ هل هذه إشارة؟".

رفع الضالع نظره نحو قرص الشمس الملتهب، ونظر بعينيه الحادتين إلى الغراب العالق بالقار، والذي بدا وكأنه عالقٌ بكمية من الغراء. بذل الغراب محاولة أخرى، فتمكّن أخيراً من تحرير نفسه، وانتُزعت منه ريشات عدة بقيت عالقة على الجدران.

"ستتمكن من احتلال غزة. لكن، إذا فعلتَ ذلك اليوم فستصاب بجروح".

لكنّ الإسكندر قرّر أن يقاتل، ذلك كي لا يعتقد جنوده أنه خائف من إشارة تفيد بأنه سيتألم. بدأت فرق عمال المناجم بحفر أنفاقٍ تحت الجدران من أجل هدمها، بينما قاد الإسكندر هجوم الطليعة عبر المنحدر الذي يرتفع نحو المدينة.

اعتمد باتيس على موقعه الحصين، فخرج برفقة جيشه كي يشنّ هجوماً مضاداً، وعمد إلى صفّ الجنود الفرس في مكانٍ واحد، لكنه أضاف إليهم عشرة آلافٍ من المرتزقة العرب، والأثيوبيين الذين كانوا

ذوي بشرة سوداء، والذين لم يسبق لرجال الإسكندر أن رأوهم من قبل.

كـــان الجرح القديم الذي أصيب به في إيسوس لا يزال يؤلمه، إلا أنه اتخذ موقعه في الصف الأمامي مع جنوده من المشاة، وسعى للالتحام المباشـــر مـــع باتيس. وكان باتيس عملاقاً أسود. وكان يتصبب عرقاً خلال قيادته الأثيوبيين بشجاعة.

صاح بيرديكاس: "يتحلى ذلك الرجل بشجاعةٍ كبيرة، حتى ولو كان خَصِيًّا!".

اســـتخدم الإســـكندر سيفه كي يحصد رؤوس أعدائه من الجنود الـــذي تجـــرأوا على تحديه. لكن بعض الجنود الذين كانوا يستعملون المنجنـــيق تمكـــنوا من رؤية علمه الأحمر، والتيجان التي تزيّن خوذته، ودرعه اللامع، فصوّبوا عليه.

في ذلـــك الـــوقت، شعرت الملكة أوليمبيا الموجودة في برجٍ آخر بعيد جداً، وفي قصر بيلا، بالخطر المميت فصرخت بيأس: "*ولـــدي!*". لكنّ الصوت لم يتمكن من الوصول عبر الأثير لأنه احتُجز بسبب نذير الـــشؤم، وهكـــذا انطلق السهم الحديدي من المنجنيق. أصدر السهم صـــوت هسهـــسة ثم أصاب هدفه، واخترق درع الإسكندر، ودرع صدره منغرزاً في كتفه. سقط الملك على الأرض، وما لبثت مجموعة من جنود الأعداء أن هرعت إليه بهدف القضاء عليه وتجريده من أسلحته. لكن بيرديكاس وكراتيروس وليوناتوس تمكنوا من صدّ الجنود بدروعهم واخترقوا أجساد عددٍ منهم برماحهم.

تلوى الملك من الألم فصرخ: "استدعوا فيليب!".

جـــاء الطبـــيب علـــى الفـــور: "بسرعة! أخلوا الطريق! أخلوا الطـــريق!". وسارع رجلان إلى حمل الملك على نقالة، وأبعداه بسرعة عن ميدان المعركة.

رآه كثيرون شاحباً شحوب الأموات، بينما برز السهم الحديدي من كتفه. وهكذا، انتشرت الإشاعة بأن الملك قد مات، وبدأ جنوده بالتراجع أمام هجمات العدو.

أدرك الإسكندر ما يحدث من الصرخات والصيحات التي وصلت إلى مسامعه، فأمسك يد طبيبه فيليب الذي كان يجري إلى جانبه، وقال: "يتعيّن عليّ أن أعود إلى خط المواجهة، لذلك أريدك أن تسحب هذا السهم الحديدي، وأن تكوي الجرح".

صاح الطبيب: "لكن ذلك لن يكون كافياً يا مولاي! إذا عدتَ إلى هناك، فستلقى مصرعك".

"كلا. جُرحت في المعركة، وهكذا تحقّق القسم الأول من الإشارة، ويبقى أن يتحقق القسم الآخر. سأدخل غزة قبل المغيب".

في هذا الوقت، دخل الجميع الخيمة الملكية، وما لبث الإسكندر أن كرّر طلبه: "اسحب السهم الآن. إنني آمرك بسحبه".

أطاع فيليب الأمر. وبينما أخذ الإسكندر يعضّ حزامه الجلدي، راح الطبيب يشق كتفه بآلةٍ جراحية، ثم أخرج رأس السهم. نزف الدم من الجرح بغزارة، لكن فيليب أسرع إلى تناول شفرة أصبحت كالجمر ودفعها في الشق. امتلأت الخيمة برائحة اللحم المحترق، وما لبث الملك أن أطلق أنيناً طويلاً نتيجة الألم.

قال الإسكندر من خلال فكيه المطبقين: "والآن قم بخياطته".

أسرع الطبيب إلى خياطة الجرح، وأوقف نزف الدماء، ثم وضع ضمادة حول الجرح، ولفّها بشدة.

"والآن أعيدوا تثبيت درعي".

حاول فيليب أن يعيده إلى التفكير بشكلٍ منطقي: "مولاي، أتوسّل إليك...".

"أعيدوا تثبيت درعي!".

أطاع الرجال. وهكذا، عاد الإسكندر إلى ميدان المعركة، فلاحظ أن جيشه الذي انخفضت معنوياته بدأ يتراجع أمام هجوم العدو. حدث هذا بالرغم من واقع أن بارمينيون قد استدعى كتيبتي دعم من الفالانج.

صاح ليوناتوس بصوت عالٍ: "الملك حي! الملك حيّ! آلالالاي!".

ردّ الجنود بحماسة متجددة: آلالالاي!".

عاد الإسكندر مجدداً إلى موقعه في الصف الأمامي، وذلك بالرغم مـــن ألمـــه الشديد. وما لبث الجيش بأكمله أن تبعه بعد أن ذُهل من ظهـــوره المفاجـــئ، وكأن الذي يقودهم ليس بشراً مثلهم بل شخصاً يتمتع بقوةٍ لا تقهر.

تـــراجع جنود الأعداء نحو بوابات المدينة بفعل زخم هذا الهجوم. وجُرِح الكثير من الجنود، وما لبثوا أن ماتوا بعد أن فشلوا في الوصول إلى برّ الأمان.

لكن، ما إن أُغلقت البوابات، وبدأ المقدونيون في ترديد صيحات النـــصر في الأجـــواء حتى رمى أحد الجنود - الذي كان يتظاهر بأنه مـــيت - درعه الذي كان يغطيه بشكلٍ مفاجئ نحو الإسكندر، وغرز سيفه بعمق في فخذه اليسرى.

عـــندها، غرز الملك رمحه في جسد الرجل، لكنه انهار على الفور بعد مجهوده الأخير، وشعر بألم شديد بسبب الجروح التي أصيب بها.

عـــانى الإسكندر من الحمى الشديدة مدة ثلاثة أيام وليالٍ، بينما تابع رجاله الحفر بصورةٍ مستمرة في عمق الربوة الكبيرة التي تقبع مدينة غزة فوقها.

في اليوم الرابع، زارته بارسين ووقفت هناك فترةً طويلة وهي تنظر إلـــيه. تأثرت كثيراً بالجرأة المتهورة التي دفعت ذلك الشاب إلى تحمّل

هذا القدر من الألم. رأت ليبتين تبكي في إحدى زوايا الخيمة، فتقدّمت نحـــوها، وقبّلتها بلطفٍ على جبهتها قبل أن تغادر المكان بصمت، أي تماماً كما دخلت.

في ذلك المساء، استعاد الإسكندر شيئاً من وعيه، لكن الألم كان لا يُطـــاق. نظر إلى فيليب الذي كان يجلس على حافة السرير، ورأى عينيه اللتين علاهما الاحمرار بسبب تمضيته ليالٍ عدة لم يذق خلالها طعم النوم، وقال: "أعطِني شيئاً يخفّف الألم... أنا لا أستطيع تحمّله. أظنّ أنني سأجن".

تـــردّد الطبيب قليلاً، لكنه لاحظ التقلص الذي ظهر على وجه الملك، وعلامات الألم الشديد التي ظهرت عليه، فأدرك مقدار معاناته. فقال له: "إن الدواء الذي سأوشك على إعطائك إياه دواء فعّالٌ جداً، لكـــنني لا أعلم بعد كل تأثيراته الجانبية، إلاّ أنك غير قادر على تحمّل الألم مدة طويلة من دون أن تفقد رشدك، لذلك ينبغي لنا أن نخاطر".

في تلـــك اللحظة، سمعا أصوات ضجيجٍ صادرة من بعيد. كانت الأصوات ناتجة عن انهيار أسوار غزة، وذلك بفضل الأنفاق التي حُفرت تحـــتها. ولم تتأخـــر صيحات الجنود الذين انهمكوا في قتالٍ شرس. بدأ الملـــك بالتمتمة وكأنه فقد صوابه بالكامل: "يجب أن أذهب إليهم... يجب أن أذهب... أعطِني شيئاً لتهدئة الألم".

اختفـــى فيليب للحظة، وعاد بعد وقت قصير مع قارورة صغيرة سبق له أن استخرج محتواها داكن اللون، ذا الرائحة الحادة. تجرّع قدراً صـــغيراً منها، ثم ناولها إلى الملك. أدرك فيليب صعوبة الموقف، لكنه لم يُظهر ذلك إلا من خلال نظرة عينيه، وقال: "اشرب الدواء".

ابـــتلع الإسكندر تلك المادة التي أخذها من طبيبه، ثم انتظر قليلاً آمـــلاً أن يتوقف الألم. وسبّب ضجيج القتال الذي تناهت أصواته إليه

من الأسوار بشعور متزايد من الإثارة وما لبثت مخيلة الإسكندر أن استعادت أشباح المحاربين العظماء الذين تزخر بهم ملاحم هوميروس، وهي الملاحم التي يدأب على قراءتها كل مساء منذ بلوغه سن المراهقة. فجأة، وقف الإسكندر بالرغم من استمرار الألم الذي يشعر به، والذي تغيّر الآن ليصبح أمراً غامضاً ومختلفاً. كان هذا الألم قوةً قاسية ودافعة ملأت صدره بغضبٍ لا يعرف الرحمة. كان ذلك هو الغضب ذاته الذي ميّز آخيل.

خرج من الخيمة وكأنه في حلم. وسمع الإسكندر بأذنيه كلمات التوسل التي قالها له طبيبه: "لا تذهب يا مولاي، فأنت لست بخير. ابقَ هنا من فضلك". لكنّ هذه الكلمات لم تعنِ له شيئاً. تحوّل الملك إلى آخيل في هذه اللحظات، ولم يتذكر إلا واجبه الذي يدعوه إلى أن يهرع نحو ميدان القتال حيث يحتاج رفاقه إلى مساعدته بشكلٍ يائس.

قال آمراً: "أعدّوا مركبتي". شُدِه مساعدوه لدى سماعهم هذا الطلب، لكنهم أطاعوه. كان الشرود يعلو نظرته، التي بدت وكأنها صادرة عن عينين زجاجيتين. أما صوته فكان حازماً إلى أقصى الحدود. صعد إلى المركبة فأسرع السائق إلى ضرب الجياد بالسياط موجهاً إياها نحو أسوار غزة.

عاش الإسكندر اللحظات التالية وكأنه يعيش كابوساً، وكان كل ما يعيه هو واقع أنه آخيل الذي أغار على أسوار طروادة ثلاث مرات، وانتصر بعد أن خلّف وراءه جسد هيكتور معفراً بالتراب.

استعاد رشده، فرأى سائقه يشدّ أعنة الجياد، ويوقف المركبة أمام جنود الجيش المصطفين بانتظام. رأى خلفه جسداً مربوطاً بحزامين وقد تحوّل إلى كتلة دامية. شرح له أحد الجنود أن ما يراه هو جثة باتيس، ذلك المدافعِ البطوليّ عن غزة، والذي جُلب إلى الإسكندر أسيراً.

غيّر الإسكندر المستوى الذي كان ينظر إليه، وترك المكان بأسرع ما يمكنه متوجهاً نحو البحر. وهناك، عاوده الألم، ولكنه كان أكثر حدةً من أي وقتٍ مضى فأجهد كل أطرافه المتعبة. عاد إلى خيمته في هزيع الليل وقد غمره شعور بالخجل وتأنيب الضمير. وفي ذلك الوقت، لم تكن الآلام الحادة في كتفه وصدره وساقيه قد بارحته.

سمعته بارسين يئن من فرط الألم الذي أحس به. كان أنيناً عميقاً ويائساً بحيث اضطرت إلى التوجه إلى خيمته. وعندما دخلت بارسين خيمته، أشار فيليب إلى ليبتين أن تغادر المكان كي تتركهما وحدهما.

جلست بارسين فوق سريره، وجففت جبهته التي كانت تلمع بسبب العرق، ثم رطّبت شفتيه المتشققتين بالماء البارد. عانقها الملك وسط هذيانه، لكنها لم تجرؤ على إبعاده.

57

غسل فيليب يديه، وبدأ بتغيير ضمادات الإسكندر وأربطته. مرت خمسة أيام على المذبحة التي أودت بحياة باتيس، لكن الملك كان لا يزال يعاني الأَمَرين من جراء أفعاله التي بلغت حدّ التهور.

"أعـــتقد أنك كنتَ تحت تأثير الدواء الذي أعطيتك إياه. يُحتمل أن الـــدواء قـــد خفّف آلامك، لكنه ربما يكون قد أطلق قوى أخرى كانت كامنة في أعماقك ولا طاقة لديك للسيطرة عليها. لم أستطِع أن أعرف... ولم يكن بمقدور أحد أن يتوقع حدوثها".

"هاجمـــتُ رجلاً كان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه وعذّبته، وهو الرجل الذي يستحق الاحترام بسبب شجاعته وولائه. سأُحاسَب على هذا".

كـــان إيومينـــيس جالساً إلى جانب بطليموس على مقعد قرب السّرير، لكنه وقف واقترب من الإسكندر قائلاً: "لا يُمكن أن تُحاسَب بالطريقة ذاتها التي يُحاسب بها الرجال الآخرون. تجاوزتَ كل الحدود وأصـــبت بجـــروحٍ رهيبة، وتحمّلت آلاماً يعجز عن تحملها الآخرون، لكنك انتصرت في معركة لا يجرؤ أي شخصٍ آخر على خوضها".

قـــال بطليموس متابعاً: "لستَ كالرجال الآخرين. إنك من طراز رجالٍ مثل هرقل وآخيل، ولذلك فقد تجاوزتَ كل الأحكام والقوانين الـــتي تخضع لها حياة البشر العاديين. لا تعذّب نفسك أيها الإسكندر، لأنّ باتـــيس لو نال منك أسرك لكان نفّذ بحقك أعمالاً وحشية تفوق تلك التي قمت بها تجاهه".

في هـــذا الوقت، أنهى فيليب تنظيف الجروح وتغيير الضمادات، ومـــا لـــبث أن أعطـــى مريضه شراباً لتهدئته وتخفيف آلامه. استسلم الإسكندر للنوم، فجلس بطليموس إلى جانبه، بينما تبع إيومينيس فيليب إلى خـــارج الخـــيمة. فهم الطبيب على الفور أن الأمين العام يريد أن يقول له شيئاً خاصاً به.

سأله: "ما الأمر؟".

أجـــاب إيومينيس: "لقد تلقينا أخباراً سيئة. قُتل الإسكندر ملك إيبيروس في كمينٍ تعرّض له في إيطاليا، والملكة كليوبترا وحدها غارقة في أحزانها، ولا أدري إذا كان يجدر بـــي أن أسلّم رسالتها إلى الملك".

"هل قرأتَها؟".

"لا أسمح لنفسي بفتح رسالةٍ موجهة إلى الإسكندر، لكن المبعوث أخبرني كل شيء".

فكّر فيليب لبعض الوقت قبل أن يجيب: "أرى أنه من الأفضل ألاّ نـــسلّمه الرسالة. إنه في حالةٍ حرجة، سواء أكانت من الناحية الجسدية أم الذهنية. إن هذه الأخبار ستساهم في خفض معنوياته. أعتقد أنه من الأفضل لنا أن ننتظر بعض الوقت".

"إلى متى؟".

"سأدعك تعرف، هذا في حال كنتَ تثق بـــي".

"إنني أثق بك. ما هو وضعه الآن هل هناك تحسن؟".

"يعاني آلاماً شديدة ومستمرة، لكنه سيتغلب عليها. يُحتمل أنك على حق، ولعله ليس رجلاً عادياً مثلنا جميعاً".

في هـــذه الفتـــرة، عانت بارسين كثيراً، ووقعت في قبضة تأنيب الـــضمير لأنها خانت ذكرى زوجها. لم تقدر وببساطة، أن تسامح نفـــسها لأنها استسلمت للإسكندر، لكنها كانت تعي في الوقت ذاته

مـــدى معاناتـــه، فـــرغبت في أن تكون إلى جانبه. كانت بارسين قد اصـــطحبت معهـــا مرضعتها القديمة، وهي امرأة عجوز تُدعى آرتيما، وهـــي التي تعرفها جيداً بالطبع. لاحظت آرتيما كيف أن بارسين قد تغيّرت في الآونة الأخيرة، وكيف أنها بدت شاردةً.

وذات مساء، قصدت المرضعة سيدتها وسألتها: "ما الذي يعذّبك يا فتاتي؟".

أحنت بارسين رأسها بصمت، وراحت تبكي بسكون.

في الواقـــع، شـــعرت بارسين أنها بحاجةٍ إلى أن تفشي سرّها إلى صـــديقة، لكن آرتيما قالت: "إن كنتِ لا تريدين أن تخبريني، فإنني لا أستطيع إجبارك".

"لقـــد استسلمت للإسكندر يا آرتيما. سمعته يبكي ويئن بعد أن عـــاد مـــن المعركة. كان معذباً نتيجة معاناته الشديدة، ولم أتمكن من الممانعـــة. كـــان طيباً معي ومع ولديّ، فشعرت أنه من واجبـــي أن أساعده في تلك اللحظة... ذهبت إليه، ومسحت عرقه الذي سال على جبهته... ورحت أداعبه. كان بالنسبة إليّ مجرد شابٍ يعاني من الحمى، وتنـــتابه الكوابـــيس، وتسيطر عليه خيالات الدماءً والرعب". تابعت آرتيما الاستماع إليها، وكانت مصممة ومتأملة. راحت بارسين تتمتم بـــصوت مـــرتعش: "شدّني نحوه بسرعة، وعانقني بقوة لا تقاوم، ولم أعـــرفً طريقة تجعلني أرفضه. لا أدري كيف حدث ذلك... خيّل إليّ أن جسده المتألم يُفرز عطراً غامضاً، وأن نظرته المحمومة تمتلك شدةً لا تُحتمل". وانهمرت الدموع من عينَي بارسين.

راحـــت آرتيما تخفّف عنها قائلة: "لا تبكي يا طفلتي. لم تقومي بـــأي شـــيء غير صحيح. إنك شابة، ولذلك فمن حقك أن تتمتّعي بحقوقك كاملة. يُضاف إلى ذلك أنك أمٌ تعيش في أوقات الحرب، كما

أنكِ وقعتِ مع ولديك في قبضة أعداء أجانب. لذلك، تقودك الغريزة إلى السعي للاتحاد مع رجلٍ يمتلك قوةً تفوق قوة أي شخصٍ آخر، ويستطيع حماية ولديك من كل الأخطار.

هذا هو قدر كل امرأة جميلة ومرغوبة تعرف أنها تقع فريسة المطامع، وهي تعرف أنها عن طريق تقديمها الحب، أو استسلامها لدوافع الرجل، يمكنها أن تأمل في إنقاذ نفسها أو حماية أبنائها". استمرت بارسين في البكاء، وغطّت وجهها بيديها. "لكن الإسكندر بالفعل شابٌ وسيمٌ جداً. ولقد أظهر تجاهك دوماً روحاً تتسم بطيبة عظيمة، وقد برهن أنه يستحق حبك. إنك تتعذبين الآن بسبب شعورك بعاطفتين عميقتين في الوقت ذاته: حبك لرجلٍ لم يعد موجوداً؛ وهو الحب الذي فقد سبب استمراريته ومع ذلك يرفض أن يموت. وحبك اللاواعي لرجلٍ ترفضينه لأنه عدو تسبّب - بطريقةٍ ما - بموت الزوج الذي أحببته. ولهذا، فأنتِ لم تفعلي أي شيء غير صحيح. أقول لك إنه إذا نما شعور ما داخلك، فلا تكبحيه، لأنه ما من شيء يولد داخل قلوب البشر ولا يكون آتياً من إرادة القدر. لكن تذكّري أن الإسكندر ليس كباقي الرجال. إنه يشبه الريح التي تمرّ وتختفي، ولا يقدر أحد أن يحبس الريح. وإذا كنتِ تعرفين أنك لا تحتملين الفراق، فنصيحتي لك ألاّ تستسلمي للحب".

جفّفت بارسين دموعها، وخرجت إلى العراء. كانت ليلة مقمرة، وما لبثت أشعة القرص الأبيض أن رسمت أثراً فضياً طويلاً فوق المياه الراكدة. ومن مسافة قريبة، ظهرت خيمة الملك، أبرزت أنوار المصابيح ظلّه المتعب. سارت بارسين نحو البحر إلى أن غمرت المياه ركبتيها، وظنّت فجأة أنها شمّت عطره، وأنها سمعت صوته وهو يهمس: "بارسين".

كـــان الأمر مستحيلاً، ومع ذلك كان هناك قريباً منها بما يكفي كي تحسّ بأنفاسه.

قـــال لهـــا بهـــدوء: "حلمتُ، لكنني لا أتذكر متى. حلمت أنك منحـــتِني حـــبك، وأنني أحببتك بلطف. لكن عندما استيقظت لم أجد ســـوى هذا في سريري". وللحظة، أمسك منديلها المصنوع من الحرير الأزرق قبل أن يرميه فوق الأمواج التي ابتلعته. "أهو لكِ؟".

أجابت بارسين من دون أن تلتفت: "لم يكن ذلك حلماً. أتيت إلـــيك لأنني سمعتك تبكي من شدة معاناتك، فجلست إلى جانبك في السرير. عانقتني بقوة شديدة إلى درجة أنني لم أعرف كيف أرفضك".

وضـــع الإســـكندر يديـــه علـــى ردفيها وأدراها كي تواجهه. غمـــر ضـــوء القمـــر وجهها الشاحب، حتى إنه شعّ في عمق نظرتها الداكنة.

"يمكنك أن تفعلي ذلك الآن يا بارسين. يمكنك أن ترفضيني الآن، حـــتى وأنـــا أطلـــب منك أن تأخذيني بذراعيك. عانيت كثيراً خلال الأشـــهر القليلة الماضية، وتعرضت لكل أنواع الجروح، وتناسيت كل الأفكـــار الـــتي رافقتني خلال فترة شبابـــي، ونـــزلت إلى عمق كل هاويـــة، ونسيت أنني كنت طفلاً في يومٍ من الأيام، وأنه كان لي أبٌ وأم. أحرقت نار الحرب قلبـــي وأنا أعيش كل لحظة، وأشاهد الموت وهـــو يرافقني جنباً إلى جنب. لكن سيف الموت لم يتمكن من إصابتي. إنـــني أدرك في هذه اللحظات ما يعنيه أن يكون المرء خالداً، وهو الأمر الذي ملأني دهشة وخوفاً. لا ترفضيني الآن يا بارسين ويداي طليقتان لتداعبا وجهك. لا تحرميني من حبك، ومن عناقك".

كـــان جسده مليئاً بالندوب مثل ميدان المعركة، ولم يكن هناك مكان في جسمه خالياً من الخدوش، والندوب، أو الجروح. كان وجهه

هو المكان الوحيد السليم تماماً في جسمه. وانسدل شعره بنعومة حول كتفيه مشكّلاً إطاراً مهيباً ومحزناً.

جذبها نحو صدره، وقال: "أحبيني يا بارسين".

اختفـــى القمر وراء الغيوم خلال تقدمهما من جهة الغرب وقبّلها الإسكندر بشوق. استجابت بارسين لتلك القبلة وكأن ألسنة لهبٍ قد لـــسعتها فجأةً، ولكنها شعرت في أعماق قلبها بيأسٍ قاتلٍ يقبض بشدة على قلبها.

انطلـــق الجيش مجدداً في زحفه نحو الصحراء، ما إن سمحت صحة الملك بذلك. وبعد مسيرة سبعة أيام وصل الجيش إلى مدينة بيلوسيوم، وهي بوابة مصر، وتقع عند الجهة الشرقية لدلتا النيل. استسلم الحاكم الفارســـي بعد أن أدرك أنه معزول بالكامل، وسلّم المدينة مع خزنتها الملكية.

نظـــر بيرديكـــاس من فوق أبراج القلعة نحو أراضٍ لا نهاية لها، وشاهد تيار المياه البطيئة، والأطراف المتماوجة لأوراق البردى بمحاذاة ضفاف الأقنية، ورأى أشجار النخيل التي تماثل أشجار الجوز طولاً، ثم صاح: "إنها مصر".

قـــال لـــيوناتوس: "لم أكن أظن أن هذه البلاد موجودة بالفعل. اعـــتقدت دائمـــاً أنها مجرد حكاية من الحكايات التي اعتاد ليونيداس العجوز أن يخبرنا إياها".

قدّمت إحدى الفتيات شراب البلح وقطع الحلوى إلى الغزاة الشبان. وكانـــت قـــد وضعت شعراً مستعاراً فوق رأسها، وكحّلت عينيها، ولفّت جسدها بعباءة ضيّقة من الكتان بحيث بدت وكأنها عارية.

ســـأل الإسكندر بطليموس الذي لم يستطِع تحويل نظره عن تلك الخادمة الشابة والجميلة: "أمتأكد أنت من أنك لا تطيق المصريين؟".

أجاب بطليموس: "في الحقيقة لم أعد متأكداً من شيء".

صاح ليوناتوس فجأة، وهو يشير إلى نقطة في المياه مليئة بظهورٍ سوداء ذات حراشف لمعت تحت ضوء الشمس للحظاتٍ قليلة قبل أن تختفي تحت المياه: "انظروا! انظروا هناك إلى وسط النهر. ما هذه الوحوش؟".

قال المترجم، وهو رجلٌ يوناني من ناوكراتيس ويُدعى أريستوزينوس، شارحاً الأمر: "إنها تماسيح. إنها تنتشر في كل مكانٍ هنا. لا تنسوا هذا الأمر، لأن السباحة في هذه المياه يُمكن أن تكون خطرةً جداً، لذلك كونوا حذرين جداً لأنه...".

صاح ليوناتوس مجدداً: "وما هي تلك الأشياء هناك؟ انظروا إليها! تبدو مثل حيوانات كبيرة مُقرفة".

قال المترجم شارحاً: إنها هيبوبو*تاموي*. هذا هو الاسم الذي يطلقه الإغريق عليها".

قال الإسكندر: "إنها أفراس النهر. أظن، بحق زيوس، أنّ بوسيفالاس سيشعر بالإهانة إذا عرف أننا نطلق على هذه الوحوش اسم أفراس".

ردّ المترجم: "إن اسمها هو مجرد استعارة. إنها ليست خطرة أبداً لأنها تتغذى بالأعشاب والحشائش، لكنها تستطيع أن تقلب القوارب بأجسامها الضخمة، كما أن كل ما يسقط في تلك المياه يصبح فريسة محتملةً لها".

قال سلوقس الذي ظل حتى هذه اللحظة متأملاً المشهد بصمت: "إنها بلاد خطرة". التفت بعد ذلك نحو الإسكندر، وسأله: "برأيك، ماذا سيحدث الآن؟".

"لا أعرف، لكنني أعتقد أنهم سيرحّبون بنا كأصدقاء. هذا إذا نجحنا في فهم هذا الشعب. إنهم يوحون إليّ بأنهم طيبون وحكماء، لكنهم فخورون بأنفسهم كثيراً".

قال إيومينيس مؤكداً: "هذا صحيح. لم تحتمل مصر في تاريخها هيمنةً خارجية، لكن الفرس لم يفهموا هذه الحقيقة، بل قاموا بتعيين حاكمٍ مع جنودٍ من المرتزقة في بيلوسيوم. أما نتيجة ذلك، فكانت قيام ثورة إثر ثورة، لكن هذه الثورات كانت تُسحق بعنف دائماً".

سأل سلوقس: "ولماذا يجب أن تكون الأمور مختلفة بالنسبة إلينا؟".

"كان يُمكن أن تكون الأمور مختلفة بالنسبة إلى الفرس كذلك لو أنهم احترموا ديانة المصريين، ولو سمح *الملك العظيم* بتنصيبه فرعوناً على مصر بأكملها. إنها قضيةٌ شكلية بمعنى من المعاني".

قال بطليموس مكرراً: "أتقول إنها قضية... شكلية؟".

ردّ إيومينيس: "إنها كذلك تماماً، وهي قضية شكلية. إن ذلك الشعب الذي يحيا من أجل الحياة بعد الموت، والشعب الذي يُنفق أموالاً طائلة كي يستورد البخور الذي يُحرق في هياكله، لا بد من أنه يُعطي قيمة كبيرة للأمور الشكلية".

قال الإسكندر: "أعتقد أنك محق. على كل حال، سنكتشف وبسرعة إذا كنتَ محقًّا. سيصل أسطولنا في الغد، وسنُبحر بعد ذلك في نهر النيل حتى العاصمة ممفيس".

وبعد مرور يومين، رست سفن نيرخوس وهيفاستيون في مصب الفرع الشرقي للدلتا. وأبحر الملك ورفاقه في نهر النيل حتى هليوبوليس، ثم تابعوا المسير حتى ممفيس، بينما تبعهم الجيش براً.

وبينما كانوا يبحرون في ذلك النهر العظيم، مرّوا أمام الأهرام التي كانت تلمع تحت شمس الظهيرة وكأنها ماسات، ثم ما لبثوا أن مروا أمام أبي الهول، ذلك التمثال العملاق الجاثم منذ ألف سنة كي يحرس قبور الفراعنة الكبار.

قال أرستوزينوس: "كتب هيرودتس أن بناء الأهرام استغرق جهود ثلاثين ألف عامل وذلك خلال ثلاثين عاماً من العمل المتواصل".

سأل الإسكندر: "أتعتقد أن هذا صحيح؟".

"أعتقد هذا. حتى ولو كان سكان هذه البلاد يروون قصصاً أكثر من أي مكانٍ آخر في هذا العالم، وذلك يعود إلى تجميعهم عدداً كبيراً من هذه القصص عبر السنين".

سأل الإسكندر مجدداً: "أصحيحٌ أنه توجد أفاعٍ مجنحة في الصحراء الشرقية؟".

أجاب المترجم: "لا أعرف، لأنني لم أذهب إلى هناك. لكن هذه الصحراء من أخطر الأماكن في العالم. انظروا، إننا نقترب من المكان الذي سنرسو فيه. إن هؤلاء الرجال الذين ترونهم حليقي الرأس هم كهنة هيكل زيوس آمون. عامِلوهم باحترام، لأنّه بإمكانهم أن يجنبوكم الكثير من التعب والدماء".

أومأ الإسكندر، واستعد للنزول. أما أول شيء فعله بعد أن وضع قدميه على اليابسة، فكان اقترابه من الكهنة بكل احترام، والطلب إليهم أن يأخذوه إلى الهيكل حيث يستطيع تقديم أضاحيه.

نظر الكهنة إلى وجوه بعضهم ، ثم تبادلوا كلماتٍ قليلة وهادئة فيما بينهم قبل أن يجيبوه مع انحناءة احترام، ثم انطلقوا في موكبٍ واحد نحو الهيكل الكبير. أنشد الكهنة ترنيمةً ترافقت مع أصواتٍ ناياتهم وقيثاراتهم. وما إن وصلوا إلى الباحة المركزية ذات الأعمدة حتى انتشروا بشكل مروحة، وكأنهم يدعون الإسكندر إلى الدخول. دخل الإسكندر بالفعل، وبمفرده.

اخترقت أشعة الشمس الباحة من خلال فتحة في السقف، وشقّت طريقها من خلال سحابة البخور الكثيفة المتصاعدة من محرقة

البخور الذهبية، والتي وُضعت وسط الباحة تماماً. لم تكن المساحة المتبقية من الهيكل مرئية بوضوح وسط العتمة. نظر الإسكندر حوله، فبدا له أن الهيكل مهجور تماماً، كما أن الأصوات الآتية من الخارج وسط صمت الظهيرة المخيم قد امتصتها تلك الغابة من الأعمدة التي تسند السقف المصنوع من خشب الأرز.

فجأة، بدا أن التمثال الكبير يتحرك، ولمعت عيناه اللتان تشبهان الياقوت، وكأنهما تتحركان بنورٍ داخلي ما. وتردّد في أجواء القاعة ذات الأعمدة المهيبة صوت عميقٌ ومتذبذب.

"اضطر آخر حاكم شرعي في هذه البلاد إلى الفرار داخل الصحراء منذ عشرين سنة مضت، ولم يرجع أبداً. هل أنت ابنه الذي ولد بعيداً عن النيل؛ والابن الذي كنا ننتظره منذ سنوات؟".

فهم الإسكندر في هذه اللحظة كل شيء سمعه عن مصر، وعن روح شعبها، فأجاب: "نعم".

تابع الصوت كلامه: "إذا كنتَ هو، فسيتعيّن عليك أن تبرهن كلامك".

سأل الملك: "وكيف؟".

"يُمكن لآمون فقط أن يتعرّف إليك كابنٍ له، لكنه لا يتكلم إلا عن طريق الضالع في هيكل سيوة الذي يقع في قلب الصحراء، وهو المكان الذي يجب أن تتوجّه إليه".

راح الإسكندر يفكّر في سيوة. وتذكّر في تلك اللحظة القصة التي كانت والدته ترويها له، وهي قصة حمامتين أطلقهما زيوس. حطت واحدة منهما على شجرة سنديانٍ في دودونا، أما الأخرى فقد حطّت على شجرة نخيل في سيوة، ومن هذين المكانين يتم الإعلان عن التوقعات. وأخبرته كذلك أن أول مرة شعرت فيها بحركته في بطنها

كانـــت عندما قصدت الضالع في دودونا، وأن ميلاده الثاني سيحدث عندما يزور الضالع الآخر في سيوة.

تلاشـــى الـــصوت، فخرج الإسكندر من القاعة الكبيرة المظلمة، وعـــاد ليظهـــر وسط ضوء الشمس ووسط أجواء الغبطة والفرح التي أثارها أنغام الموسيقى وإنشاد الترنيمة.

أُحـــضر العجل آبيس إلى المكان وما لبث الملك أن قدّم إليه آيات الاحتـــرام، ووضـــع إكليلاً من الزهور حول جبهته، ثم قدّم شخصياً أضحيةً إلى آمون وهي عبارة عن ظبـــي.

تأثر الكهنة كثيراً بهذا التقدير الذي أظهره الإسكندر فتقدموا منه، وقدموا إليه مفاتيح المدينة. ردّ الإسكندر فوراً على هذه المبادرة بأن أمر ببدء عمليات ترميم للهيكل لأن بعض أجزائه قد انهارت.

58

بدأت الرحلة إلى واحة سيوة البعيدة بعد أيامٍ قليلة، وذلك عندما تبيّن أن جروح الإسكندر قد شفيت بالكامل. سار قسمٌ من الجيش شمالاً، بينما تبع القسم الآخر الأسطول. أما النقطة المحددة للقاء فكانت عند بحيرةٍ لا تبعد كثيراً عن الجزء الأبعد من غرب دلتا النيل.

دُهش الإسكندر كثيراً لدى رؤيته ذلك الخليج الواسع، والجزيرة المغطاة بأشجار النخيل التي تحميها من الرياح الشمالية، والأرض المنبسطة والواسعة التي تمتد وراء الشاطئ.

قرّر الملك إقامة المخيّم، ونظّم الاحتفالات مع رفاقه والجنود، والتي قصد منها الاحتفال بنجاح حملتهم في مصر، وبالطريقة التي استُقبلوا بها بسلامٍ في مصر. أراد الإسكندر من رفاقه، وقبل أن تتحول مأدبة الطعام إلى عربدة، أن يصغوا إلى بعض المقطوعات الموسيقية التي يؤديها الفنانون المصريون واليونانيون معاً، بالإضافة إلى مشاهدة عرضٍ متقن للمسرحية التراجيدية التي يقدمها تيسالوس - ممثله المفضّل - الذي قدّم شرحاً رائعاً لمناجاة أوديب، والتي أخذها من مسرحية *أوديب في كولونيوس*.

لم تكن عاصفة التصفيق قد هدأت بعد عندما أُعلن عن وصول زائرٍ يريد مقابلة الملك.

سأل الإسكندر: "من هو؟".

قال إيومينيس الذي بدا مضطرباً بعض الشيء: "يبدو أنه رجل غريب، لكنه يدّعي أنه يعرفك جيداً".

ردّ الإسكندر الذي كان بمزاجٍ جيد: "آه، هكذا إذاً. حسناً، أحضِره إليّ. لكن ما هو وجه الغرابة فيه؟".

أجاب إيومينيس الذي تحرّك كي يجلب الزائر: "سترى بنفسك بعد قليل".

ما إن دخل الزائر حتى ساد الضجيج المسرح بأكمله، وترافق ذلك مع بضع ضحكات. كان الرجل في الأربعين من عمره تقريباً، وكان شبه عارٍ. إذ لم تكن تستره سوى قطعة من جلد أسد لفّها حول خصره؛ أي مثلما كان يُحكى عن لباس هرقل، كما حمل عصاً في يده اليمنى.

بالكاد تمكّن الإسكندر من كبح ضحكته عندما رأى هذا الرجل الذي ذكّره بسلفه. بذل الملك جهداً كبيراً للحفاظ على هدوئه وسأل الرّجل: "من أنت أيها الضيف الغريب، الذي يشبه سلفي، البطل هرقل؟".

"أنا دينوقراط، المصمّم المعماري اليوناني".

قال إيومينيس: "يبدو لباسك غريباً جداً بالنسبة إلى مصمّم".

قال الرجل: "وما الفرق؟ إن ما يهم ليس ما يرتديه المرء، بل التصاميم التي يقترحها، والتي ينفذها في النهاية".

سأل الملك: "وما هي التصاميم التي تريد عرضها عليّ؟".

صفّق دينوقراط بيديه، فظهر شابان. تقدّم الشابان من الإسكندر ونشرا أمام قدميه صفحة كبيرة من ورق البردى.

صاح الملك: "ما هذا!؟".

بدا الرضا على وجه دينوقراط لأنه تمكّن من الاستحواذ على انتباه الملك فبدأ بالشرح: "إنه مشروعٌ طموحٌ بالفعل، وهو بالتأكيد يليق بعظمتك ومجدك. إن ما أنوي القيام به هو نحت جبل آثوس

بشكل وجه عملاق يحمل ملامحك، وهذا ما تراه هنا في هذا الرسم. يُمسك هذا العملاق بمدينة تؤسّسها بنفسك. أليس هذا أمراً استثنائياً؟".

قال إيومينيس: "آه. أجل، إنه أمرٌ رائع بالتأكيد، لكنني أتساءل إذا كان من الممكن أن يتحقق".

تفحّص الإسكندر ذلك الرسم الضخم الذي يمثّله وهو يحمل بيده مدينة بأكملها، والذي كان بطول جبل ثم قال: "أخشى أن هذا المشروع يتجاوز قدراتي قليلاً... يُضاف إلى ذلك أنني إذا أردت أن أكلّف شخصاً ما بنحت هذا التمثال الضخم، فإنني أفضّل أن أتصل بنحات شابٌ وقدير جداً سبق لي أن التقيته عندما درستُ في ميزا على يد أرسطو. يُدعى ذلك النحّات شاريس، وهو تلميذ ليسيبوس. سمعت أنه يحلم ببناء تمثالٍ عملاق من البرونز يبلغ ارتفاعه ثمانين كيوبيتاً. هل تعرفه؟".

"كلا".

"لا أهمية للأمر. لكن، لديّ مشروع أريد أن أقترحه عليك".

سأل المصمم المعماري بشيء من خيبة الأمل: "إذاً، ألم تعجبك هذه الفكرة يا مولاي؟".

"ليس الأمر أنها لم تعجبني، بل إنها تبدو، وببساطة... مكلفة. أما مشروعي، فهو قابل للبدء به في الغد، هذا إذا قبلتَ به".

"يشرفني أن أقبل بالتأكيد يا مولاي. إن كل ما عليك عمله هو أن تصدر الأمر".

"إذاً، اتبعني". دعاه الملك للخروج إلى العراء، وسارا نحو الشاطئ. كان مساءً صيفياً رائعاً انعكس فيه القمر الذي كان هلالاً على مياه الخليج الراكدة.

خلع الإسكندر عباءته، وبسطها على الأرض: "هناك... أريد تصميماً لمدينة تكون على شكل عباءة مقدونية مثل هذه، وأن تكون منتشرة حول هذا الخليج الممتد أمامنا".

سأل دينوقراط: "وهل هذا كل شيء؟".

ردّ الملك: "هذا كل شيء. أريد أن تبدأ العمل في الغد مع خيوط الفجر الأولى. أريد أن أغادر هذا المكان، لكنني أودّ أن أرى عند عودتي المنازل وقد انتهى تشييدها، وأريد أن تكون الطرقات معبّدة في هذا الوقت، وأن تكون أرصفة الموانئ منتهية".

"سأبذل ما في وسعي يا مولاي. ولكن، من سيعطيني الأموال اللازمة؟".

قال الإسكندر: "سيهتم إيومينيس، الأمين العام، بهذا الأمر. ثم استدار كي يعود إلى خيمته تاركاً ذلك المهندس الغريب وحيداً وسط ذلك السهل الصحراوي حاملاً عصاه. صاح به: "احرص على أن تقوم بعملٍ متقن!".

صاح دينوقراط بدوره قبل أن يعود الملك إلى أصدقائه: "هناك أمرٌ أخير يا مولاي! ماذا سيكون اسم هذه المدينة؟".

"الإسكندرية. سيكون اسمها الإسكندرية، وستكون أجمل مدن العالم".

بعد وقت قصير، بدأ العمل. وما لبث دينوقراط، الذي خلع جلد الأسد، وارتدى بعض الملابس المحتشمة، أن برهن عن أنه على مستوى المهمة الملقاة على عاتقه، بالرغم من أن بعض المهندسين الذين كانوا ضمن الحملة منذ بعض الوقت شعروا بالغيرة منه لأن الملك قد أعطاه المشروع الضخم. لكن الإسكندر، الذي كان غالباً ما يتصرّف بعفوية لم يكن يخطئ إلا نادراً.

وذات يـــوم، حدث أمرٌ ألقى بعض ظلال الشك على تأسيس مدينة الإســـكندرية وبـــنائها. رسم دينوقراط مخطط المدينة، ثم ركّز أدواته كي يُظهـــر التـــصميم على الأرض. استُخدمت الطباشير من أجل الإشارة إلى محيط المدينة، والطرقات الرئيسة، والطرقات الفرعية، وكذلك المساحة التي ســتكون الباحة الرئيسة للمدينة، والسوق والهياكل. وفي إحدى المراحل، نفد الطبشور، ولم يعد دينوقراط قادراً على إتمام العمل. ولذلك، طلب من مفـــوض الجيش أن يقدم له أكياساً من الطحين من أجل إكمال التصميم. وطلـــب من الملك بعد ذلك أن يحضر كي يرى كيف ستبدو فكرة تشييد مديـــنة الإســـكندرية. سار الملك برفقة *ضالعه* أريستاندر، لكن سرباً من الطيور بدأ بالتقاط الطحين، وهو الأمر الذي محا قسماً من التصميم.

لاحظ الضالع على الفور أن الإسكندر قد انـــزعج من الحادثة، كمـــا لو أنها نذير شؤم بالنسبة إليه، لكنه سارع إلى تهدئة الملك قائلاً: "لا تقلـــق يا مولاي. في الواقع، إنها إشارة ممتازة، وهي تعني أن المدينة ستكون ثرية ومزدهرة، وأن الناس سيأتون إليها من كل مكان بحثاً عن العمل والرزق". شعر دينوقراط بالرضا بدوره وانطلق في عمله بحماسةٍ متجددة، وزاد وصول كمية جديدة من الطبشور حماسته.

في تلك الليلة، حلم الملك حلماً جميلاً. حلم أن المدينة قد كبُرت، وأن المـــنازل والقـــصور والحدائق الجميلة قد انتشرت في كل مكان. وحلم كذلك أن ذلك الخليج الذي تحميه الجزيرة الطويلة، يعجّ بالسفن الراسية التي تُفرغ فيه كل أنواع البضائع من كل أنحاء العالم المعروف. ورأى كـــذلك طريقاً تصل إلى الجزيرة حيث يرتفع برجٌ عالٍ، وهو في الواقع برجٌ عملاق ينشر الضوء وسط ظلمة الليل، ليساعد السفن التي تقترب من الإسكندرية على الرؤية بوضوح. وظن أنه سمع صوته وهو يسأل: "هل سأرى كل هذا عند عودتي إلى مدينتي؟".

وفي اليوم التالي، أخبر الإسكندر أريستاندر عن حلمه، وسأله السؤال ذاته: "متى سأعود إلى مدينتي؟".

في تلك اللحظة بالذات، أدار أريستاندر ظهره إلى الإسكندر لأنه أحس بأن ثقلاً يضغط على قلبه أشبه ما يكون بالهاجس الذي يثير الحزن، لكنه استدار بسرعة كي يواجه ملكه بملامح هادئة ظهرت على وجهه، وقال: "ستعود يا مولاي. أعدك. لا أعرف متى، لكنك ستعود...".

59

انطلق الجنود غرباً، وكان البحر إلى يمينهم، والصحراء اللامتناهية إلى يسارهم. وصلوا إلى بارياتونيوم بعد أن استراحوا خمس مرات. كان هذا المكان بمثابة نقطة التقاء بالنسبة إلى الأشخاص الذين كانوا من أصول مصرية ويونانية مشتركة، والذين يتحدّرون من مدينة كيرينيا والقبائل البدوية التي تسكن المناطق الداخلية من البلاد، وهم الناسامون والجرمانت.

قسّمت هذه القبائل الساحل إلى أقسامٍ عدة. وعندما كانت إحدى السفن تغرق، كانت القبيلة التي تغرق هذه السفينة في قطاعها تسارع إلى نهبها. وكان الناجون من هذه السفن يُباعون عبيداً في أسواق بارياتونيوم. قيل كذلك إنه منذ نحو مئتَي عام عبر الناسامون البحر الغامض واللامتناهي من الرمال، وأنهم وصلوا إلى الجهة المقابلة، إلى حيث توجد بحيرة واسعة تعج بالتماسيح وأفراس البحر، كما شاهدوا أشجاراً من كل نوع وهي التي تحمل ثماراً في كل الفصول. وقيل كذلك إن هذه المنطقة تضم كهف بروتيوس، الذي يتخذ أشكالاً عديدة، ويعيش بين حيوانات الفقمة، والقادر على توقع المستقبل.

أبقى الإسكندر قسماً من الجيش في بارياتونيوم تحت قيادة بارمينيون، كما ائتمنه كذلك على بارسين. وفي مساء اليوم الذي سبق مغادرته، ذهب الإسكندر ليودّعها، وحمل إليها هديةً كانت عبارة عن عقدٍ من الذهب المصقول، والذي كان ذات مرة ملكاً لملكة النيل.

قال لها وهو يضع العقد حول عنقها: "لا توجد جواهر تليق بجمالك، وليست هناك عظمة يمكنها أن تنافس الضياء الذي يشع من عينيك، ولا يوجد بريق يماثل روعة ابتسامتك. إنني مستعد لإنفاق أي مقدار من المال كي أتمكّن فقط من الجلوس أمامك ومن مشاهدتك تبتسمين. يعطيني هذا الأمر بهجةً أكبر بكثير من تقبيل شفتيك، وأكثر من مداعبتك".

أجابت بارسين: "أتتحدث عن البسمة. إنها نعمة أخذها القدر مني منذ بعض الوقت أيها الإسكندر. لكن الآن، وأنت تستعد للانطلاق في رحلةٍ طويلة وخطرة أنا أعرف أنني سأقلق باستمرار، لكنني أعرف أيضاً أنني سأبتسم مجدداً عندما أراك مجدداً". قبّلته بلطفٍ، ثم قالت: "عُد إليّ أيها الإسكندر".

تحـرّك الجيش ولكن ليس بكامله. وانطلق الإسكندر مع مرافقيه نحو الصحراء سالكين اتجاه هيكل زيوس آمون، وذلك بعد أن تزودوا بالماء والمؤن بكمياتٍ كافية، وهي التي حملتها الجمال البالغ عددها مئة أو أكثر.

نصح كثيرون الإسكندر بعدم القيام بهذه الرحلة في منتصف فصل الصيف بسبب الحرارة التي لا تطاق، لكنه كان مقتنعاً بأنه قادر على مواجهة كل العقبات، وعلى التعافي من أيّ جروح، وعلى تحدي أي خطر، كما أراد أن يعرف كل رجاله هذا الاعتقاد الراسخ. قطع الرجال أول مرحلتين من الرحلة، لكن الرحلة أصبحت لا تطاق بالفعل، كما استهلك الرجال والحيوانات كميات كبيرة من المياه إلى حدّ أنهم قلقوا من احتمال عدم وصولهم إلى واحة سيوة بسلام.

وفي اليوم الثالث، زاد هبوب عاصفة رملية متاعبهم، وشعر الرجال وكذلك الحيوانات بالإنهاك الشديد. محت العاصفة معالم الطريق بالكامل،

لكن سحابة الرمال تلاشت بعد مرور ساعات وساعات من العذاب الذي لا يُطاق، واستعاد الرجال قدرهم على رؤية الصحراء مترامية الأطراف حولهم. اختفت الأحجار التي كانت تحدّد معالم الطريق، ولم تكن هناك وسيلة أخرى تدلهم على الاتجاه الذي يتعيّن عليهم أن يسلكوه. غرقت أقدام الرجال السائرين في الرمال الحارة إلى درجة أن القسم المكشوف من أقدامهم وسيقاهم بدأ يعاني الحروق. فاضطرّ هؤلاء إلى قطع أجزاء من ستراهم وعباءاهم كي يغطوا أقدامهم وسيقاهم بحيث تصل الأغطية إلى مستوى الركبة، وذلك كي يتمكنوا من معاودة السير.

بدأ عدد كبير من الرجال يشعر باليأس عند حلول اليوم الرابع. ولم تكن هناك قوة تحثهم على متابعة المسير غير النموذج الذي يمثّله الملك. كان الإسكندر في مقدمة الصف، وكان يسير مثل سائر الجنود العاديين. كان دائماً آخر من يشرب، وكان يشعر بالسّرور عندما يتناول حباتٍ قليلة من البلح وذلك بعد أن يتأكد من أن كل جندي يمتلك ما يحتاج إليه للنجاة. وبهذه الطريقة، أعطى جميع رجاله ما يكفيهم من الطاقة والتصميم للاستمرار.

وفي اليوم الخامس، نفدت كميات المياه، وبقي الأفق من دون معالم كالعادة، ولم يشاهدوا أي علاماتٍ من علامات الحياة، ولا حتى وريقة عشبٍ واحدة، أو أيّ ظل لإنسان.

قال الدليل، وهو رجل يوناني من سيرين كان أسود اللون كالفحم، وكانت أمه ليبية أو أثيوبية على وجه التأكيد: "إذا كنا سنموت هنا، فإن الأفق سيغمرنا، وسيبدو الرجال مثل النمل، وسرعان ما ستُترك جثثنا منهوبة من كل شيء كي تجفّ تحت شمس الصحراء".

قال سلوقس الذي كان وراءهم، وبالكاد تمكّن من اللحاق برفاقه وهو يحاول تثبيت قبعته المقدونية: "في الحقيقة، إنه أمر وارد".

لاحظ هيفاستيون شيئاً ما فنادى رفاقه: "انظروا هناك!".

قال بيرديكاس معلقاً: "إنها طيور".

قال الدليل شارحاً: "إنها غربان".

علّق سلوقس متذمراً: "يا للمفاجأة السارة".

ردّ الدليل: "لكنها علامة حسنة".

قال سلوقس: "أتعني أنها علامة حسنة لأن جئتنا لن تتبدد هباء".

"لكـــن، كلا... إنها علامة حسنة بالفعل. يعني ذلك أننا أصبحنا قرب منطقة مأهولة".

"إنهـــا قـــريبة بالنـــسبة إلى كائنات ذات أجنحة، ولكن ليس بالنـــسبة إليـــنا نحن السائرين مشياً على أقدامنا، ومن دون طعام أو مياه...".

توقف أريستاندر الذي كان يسير بالقرب منهم على نحوٍ مفاجئ، وقال آمراً: "توقفوا!".

ســـأل بيرديكاس: "ما الأمر؟". توقف الإسكندر بدوره، والتفت نحـــو *الـــضالع* الذي كان يرافقه، والذي جلس على الأرض، ثم غطى رأسه بعباءته. هبّت نسمة رياحٍ فوق كثبان الرمال فبدت الرمال لامعة، وكأنها مساحة من البرونـــز المنصهر.

قال أريستاندر: "إن الطقس يتغير".

علّـــق ســـلوقس بـــيأس: "أرجو ألاّ تكون عاصفة رملية جديدة قادمـــة". لكن الرياح اشتدت، وبدأت بتحريك الهواء الخانق وجلبت معها رائحة البحر المنعشة.

قال أريستاندر: "غيوم، إن الغيوم في طريقها إلينا".

تبادل سلوقس النظرات مع بيرديكاس، وكأنه يريد أن يقول: *إنه يهـــذي*. لكـــن *الـــضالع* تمكّن من الشعور باقتراب الغيوم. لم تتأخر

السُحُب الرمادية عن الظهور من جهة الشمال، وهو الأمر الذي جعل الأفق يبدو داكناً.

قال الدليل: "من الأفضل ألاّ نبالغ في التفاؤل. إنها لا تمطر في هذه الأماكن حسب معرفتي. لكن، دعونا نتابع السير الآن".

انطلق الموكب مجدداً نحو الضوء الساطع، أي نحو الجنوب، لكن الرجال استمروا في الاستدارة كي ينظروا إلى الغيوم المتقدمة من الشمال، والتي أصبحت داكنة أكثر فأكثر، وما لبثت أن ظهرت بين الحين والآخر ومضات برق متفرقة.

قال سلوقس: "يُحتملُ أنها لا تمطر هنا، ولكن، هناك رعدٌ كثير".

أجاب بيرديكاس: "يبدو أنك تتمتع بسمعٍ حاد. لا أستطيع سماع أي شيء".

قال الدليل موافقاً: "هذا صحيح. هناك رعد. إنها لن تمطر، لكن الغيوم ستوفر لنا على الأقل غطاءً يقينا من أشعة الشمس، وهكذا ستصبح الحرارة محتملةً بالنسبة إلينا".

بعد مرور ساعةٍ من الزمن، هطلت أولى قطرات المطر على الرمال، وسرعان ما امتلأ الجو برائحة غبار الرمال الرطبة الحادة والحلوة. أما الرجال الذين كانوا قد وصلوا إلى أقصى حدود احتمالهم وقواهم، واحترقت بشراهم، وتشققت شفاههم، فقد تصرفوا وكأنهم فقدوا صوابهم. إذ راحوا يصيحون، ويرمون قبعاتهم في الهواء، ويفتحون أفواههم الجافة كي يلتقطوا ولو قطرات قليلة من المطر قبل أن تبتلعها الرمال الحارقة.

هزّ الدليل رأسه: "أفضّل أن تتمهلوا قليلاً. تتبخر مياه الأمطار تحت تأثير أشعة الشمس حتى قبل وصولها إلى الأرض. وما تلبث أن تعود إلى السماء على شكل ضباب خفيف. هذا كل ما سنحصل

عليه". لكن قبل أن يُنهي الدليل كلامه تحوّلت تلك القطرات القليلة إلى مطــرٍ خفيف، وذلك قبل أن تتحول إلى مطرٍ كثيف وسط لمعان البرق وقصف الرعد المدوي.

غرز الرجال رماحهم في الرمال، ثم علّقوا عباءاتهم عليها، وذلك كــي يجمعوا فيها أكبر قدرٍ ممكن من المياه، وقلبوا خوذاتهم ودروعهم، ثم وضعوها على الأرض وما لبثوا أن تمكّنوا من الشرب. انتهى هطول الأمطار، لكن الغيوم تابعت مرورها عبر السماء. ومع أنها أصبحت أقل كــثافةً في هـــذا الوقت وأقل امتداداً، إلاّ أنها ظلت كافية لتوفير غطاء للرجال في أثناء تقدمهم.

امتنع الإسكندر عن قول أي شيء حتى هذه اللحظة، وظلّ صامتاً وغارقـــاً في أفكاره، وكأن صوتاً غامضاً يلاحقه. استدار الجميع كي ينظـــروا إلـــيه بعـــد أن تأكدوا من أن رجلاً خارقاً للطبيعة هو الذي يقـــودهم، وهو الذي يستطيع أن ينجو بجروحه، وينجو من كل المحن التي تمر به والتي كانت كفيلة بقتل أي شخصٍ آخر، وهو الكائن الذي يـــتمكن من جعل المطر يتساقط في الصحراء، وحتى إنه يستطيع – إذا أراد – أن يجعل الأزهار تنمو في هذا المكان.

وبعـــد مـــرور يومين، عند الفجر، ظهرت واحة سيوة في الأفق، رأى الـــرجال وسط بريق الرمال الساطع الذي يُعمي الأبصار شريطاً نباتياً ذا لون أخضر داكن ورائع. راح الرجال يصرخون بحماسة لدى رؤيـــتهم هـــذا المنظر، بينما أجهش آخرون بالبكاء بسبب شعورهم بالفـــرح. وشكر آخرون القدر الذي أنقذهم من موت رهيب ومحقق، لكـــن الإســـكندر تابـــع زحفه الصامت، وكأنه لم يشكّ أبداً في أنهم سيصلون إلى هدفهم.

كانـــت الواحة رائعة ومغطاة بأشجار النخيل المثقلة بثمار البلح. وكانت الأشجار تروى من نبع مدهش يسمع خرير مياهه. كانت المياه صـــافيةً مثل البلور. ولذلك عكست لون أشجار النخيل ذات الخضرة الداكـــنة، وتماثيل سيوة الموغلة في القدم. ألقى الرجال أنفسهم في المياه على الفور، لكن الطبيب فيليب صرخ فيهم قائلاً: "توقفوا! توقفوا! إن المـــياه بـــاردة جـــداً جداً. اشربوا على مهل، أي رشفة رشفة". كان الإسكندر أول من أطاع، وهكذا كان قدوةً لرجاله.

صـــعُب علـــى الجمـــيع تصديق واقع أنه كان هناك من يتوقع وصـــولهم. إذ اصطفّ الكهنة على درج الهيكل، وتقدمهم رؤساؤهم الذين لوّحوا بالمباخر التي تصاعد منها دخان البخور. أقنعتهم الأحداث التي مرّت بهم في رحلتهم هذه بأن أي شيء قد يحدث في هذه البلاد.

عمـــل دليلهم كمترجمٍ، ولذلك ترجم لهم كلمات الكاهن الذي رحبّ بهم بكوبٍ من المياه الصافية وبوعاء مليء بثمار التمر الناضجة. "مـــاذا تريد منا أيها الضيف القادم من الصحراء؟ إذا كنت تطلب الماء والطعـــام فـــستجدهما، لأن قـــواعد الضيافة لا تعلوها قاعدة في هذه البلاد".

أجـــاب الإســـكندر: "أطلب أن أعرف الحقيقة". سأل الكاهن مجدداً: "وممن ستطلب معرفة كلمات الحقيقة هذه؟".

"أريـــد أن أعـــرفها من زيوس آمون الذي يعيش في هذا الهيكل المهيب".

"إذاً، عُد إلى الهيكل هذه الليلة، وستعرف كل ما تريد معرفته".

انحـــنى الإسكندر، ثم تحرّك نحو رفاقه الذين كانوا ينصبون الخَيم قرب النبع. شاهد الإسكندر كاليستين وهو يضع يديه في المياه، ويرشّ قسماً منها على جبهته.

"هـل صحيح ما يقولونه؟ أي أن المياه تسخن عند المساء، وتفتر عند منتصف الليل؟".

"لدي نظرية أخرى. أعتقد أن المياه في الربيع تحافظ على الحرارة ذاتها، لكن درجة حرارة الهواء هي التي تتفاوت كثيراً، أي أنه خلال النهار وعندما يكون الهواء ساخناً جداً، فإن المياه تبدو وكأنها باردة جداً، بينما في الليل، أي عندما يبرد الهواء قليلاً فإن المياه تبدو أكثر دفئاً وحتى إنها قد تبدو ساخنة في منتصف الليل. إنها مسألة نسبية كما كان سيقول العم أرسطو".

قال الإسكندر: "هذا صحيح. لكن هل جاءتك أخبار أخرى بخصوص التحقيقات التي يجريها؟".

"كلا. لم أستلم أخباراً غير تلك التي أبلغتك إياها سابقاً. لكنني متأكدٌ من أنه ستصلنا أخبار أخرى عندما تعود السفن محملة بالمتطوعين الجدد. يبدو لي أنه عثر في هذا الوقت على أثر للتدخل الفارسي، لكنني أعلم ما كان سيقوله لو كان هنا".

"وأنا أيضاً، فقد كان سيقول إن الفرس لديهم مصلحة في اغتيال والدي. ولكن، حتى وإن لم يقدموا على هذا العمل فهم سيشيعون بأنهم هم الذين فعلوا ذلك، وذلك كي يفكّر ملوك مقدونيا في المستقبل مرتين قبل شنّ أي عملٍ عدائي ضدهم". وافق كاليستين على ما قاله بينما وضع يديه مجدداً في مياه النبع: "في الحقيقة، إن ذلك محتمل جداً".

في هذه اللحظة بالذات، وصل فيليب الطبيب وقال وهو يمسك بأفعى كبيرة ذات رأس مجعد ومثلث الشكل: "انظروا ماذا وجد الرجال. إن عضةً واحدة منها كفيلة بأن تجلب الموت المحقق".

نظر إليها الإسكندر وقال له: "قل للجنود أن يكونوا حذرين. أريد منك بعد ذلك أن تحنّطها، وأن ترسِلها إلى أرسطو كي يضمّها إلى

مجموعـــته. أرســـل إليه كذلك أيّ نباتات تعتبرها مهمة، أو أي شيء غريب. سأعطيك رسالةً تستخدمها لتسهيل كل هذه الأمور".

أومأ فيليب وتحرّك مع أفعاه، بينما جلس الإسكندر بجانب النبع، وانتظر حلول المساء. رأى انعكاس صورة أريستاندر فوق المياه أمامه.

ســـأله الملـــك: "هل لا يزال ذلك الكابوس يلازمك؟ أعني ذلك الحلم حول ذلك الرجل العاري الذي حُرِق حياً؟".

سأل أريستاندر: "وأنت؟ أي كوابيس تقلق بالك؟".

ردّ الملـــك: "إنها كوابيس كثيرة... ولعلّها كثيرة جداً، ومن بينها موت والدي، وموت باتيس، ذلك الجندي الشجاع الذي سحبته وراء مركبتي حول أسوار غزة، وشبح ممنون الذي يفرض وجوده بيني وبين بارســـين في كل مرة أمسكها فيها بين ذراعيّ، وتلك العقدة الغوردية التي قطعتها بسيفي بدلاً من أن أفكّها و...".

توقّف قليلاً، وتردّد قبل أن يتابع حديثه.

حدّق أريستاندر إلى عينيه قبل أن يسأله: "وماذا أيضاً؟".

"تلك الأغنية؟".

"أغنية؟ أيّ أغنية؟".

راح الملك يغنيها بهدوء:

انطلق الجندي العجوز السخيف إلى الحرب
ووقع على الأرض، وقع على الأرض!

ثم أدار الملـــك ظهـــره، واستمر في التحديق إلى صورة انعكاس أريستاندر.

"أتمثل لك هذه الأغنية أهمية خاصة؟".

"كـــلا، إنها أغنية تعودت أن أغنيها عندما كنت صغيراً، وعلّمتني إياها آرتميس، مرضعة والدتي".

قال أريستاندر: "إذاً، لا تهتم. أما بالنسبة إلى الكوابيس، فهناك طريقة واحدة للتخلص منها".

"وما عساها أن تكون؟".

أجاب *الضالع*: "أن تصبح أحد *الأسياد المبجلة*". تلاشى انعكاس صورته فوق صفحة المياه بسبب الحركات اليائسة لحشرةٍ صغيرة طافية على سطح المياه. كانت الحشرة تتحرك يائسة كي تهرب من الموت الذي ينتظرها بين فكّي إحدى الحشرات المفترسة.

عبر الإسكندر عتبة الهيكل الكبير عند حلول المساء، وكان صفٌّ مزدوج من المصابيح المعلقة في السقف ينير القسم الداخلي منه، بينما وُضع مصباحٌ كبيرٌ على الأرض. ونشر المصباح وهجاً على الأطراف العملاقة لآمون.

نظر الإسكندر إلى الأعلى نحو العينين الوحشيتين لذلك العملاق، ونحو قرنيه الكبيرين المفتولين اللذين ظهرا مثل قرني كبش، وشاهد صدره الممتلئ، وذراعيه القويتين المتدليتين على جانبيه، وقبضتيه المطبقتين. فكّر مجدداً في الكلمات التي قالتها له والدته قبل مغادرته: "أشار التوقع الذي تلقيته في دودونا إلى مولدك، وسيشير التوقع التالي الذي ستتلقاه في وسط الصحراء الحارقة إلى ولادتك الثانية".

تردّد صوت مدوٌّ على نحوٍ مفاجئ من غابة الأعمدة الحجرية التي تسند سقف الهيكل: "وماذا تطلب من *آمون*؟". تطلّع الإسكندر حوله، لكنه لم يرَ أحداً. حوّل نظره نحو رأس الكبش الضخم ذي العينين الكبيرتين الصفراوين اللتين يقطعهما شقان سوداوان. هل هذه حقاً علامة تدل على تبجيل؟

بدأ الإسكندر بالقول: "هل هناك أي شخص...". تردد الصدى: "أي شخص...".

"هل بقي أحد من الذين قتلوا والدي لم أعاقبه بعد؟".

تلاشـــت كلماته، وانكسرت، ثم تشوّهت بسبب آلاف الأسطح المتـــشققة في الهـــيكل. وساد بعد ذلك الصمت للحظة وجيزة. وبعد ذلك، تردّد ذلك الصوت العميق والمتذبذب مجدداً من صدر العملاق: "انتـــبه، ولتكن كلماتك موزونة، لأن والدك ليس رجلاً عادياً، والدك هو زيوس آمون!".

تلك الليلة، خرج الملك من داخل الهيكل بعد أن استمع إلى إجابات عـــن كـــل أسئلته، لكنه لم يرغب في العودة إلى خيمته بين كل جنوده في المعـــسكر. سارَ وحده بين حدائق النخيل حتى وصل إلى طرف الصحراء الرابـــضة تحـــت السماء مترامية الأطراف والمليئة بالنجوم. وسمع بعد ذلك شخصاً يقترب منه، فالتفت كي يرى من هو. فرأى إيومينيس واقفاً أمامه.

قـــال الإســـكندر: "أفـــضّل ألاّ أتكلّم في هذا الوقت". استمر إيومينـــيس واقفاً بسكون. بينما تابع الإسكندر: "لكن، إذا كان لديك شيء هام تريد أن تبلغني إياه، فسأستمع إليك".

"لديّ للأسف، أخبار سيئة احتفظتُ بها منذ بعض الوقت منتظراً اللحظة المناسبة...".

"أتعتقد أن هذه هي اللحظة المناسبة؟".

"يُحـــتمل ذلـــك. وعلـــى كل حال، لا أستطيع الاحتفاظ بهذه الأخبار سرًّا لوقت أطول. قُتل الإسكندر ملك إيبيروس في المعركة، بعد أن وقع ضحية كمينٍ نصبته عصابةٌ من البرابرة".

أومـــأ الإسكندر بحزن، بينما غادر إيومينيس المكان. فنظر الإسكندر مُجدّداً إلى السماء اللامتناهية، وإلى الصحراء، ثم بكى بصمت.

«– من أجرى الدماء فوق

نجمة الأركاديين؟

ومن قتل أبي؟

– أباك؟

آه أيها الشاب ذو المجد، والذي لا يُقهر،

أنا والدك!»



هذا الكتاب متابعة لملحمة الإسكندر البطولية وفيه وصفٌ رائع لحملاته في آسيا وقهره للمناطق الشاسعة التي كانت تحت حكم ملك الفُرس العظيم.

يغزو الإسكندر ورجاله الموانئ والقلاع الفارسية في مغامرة تبدو مستحيلة، لكنهم يتمكنون من إبطال هيمنة الملك داريوس على البر والبحر. حتى أن الجيش المقدوني تمكن من قهر حتى هاليكارناسوس الأسطورية.

لكن صور، تلك الجزيرة المدينة، وحصون غزة، برهنتا على أنهما عقبتان رهيبتان في وجه الإسكندر. تابعت آلات حرب الإسكندر عملها من دون إحباط وتمكنت من اجتياح البر والبحر حتى وصلت إلى أرض مصر الغامضة.

وسط الرمال يقع هناك هيكل آمون وضالعه الذي ينتظر كشف الحقيقة المذهلة للإسكندر، وهي الحقيقة التي غيّرت حياته التي لا تخلو من الإدهاش.

ISBN 978-614-01-0126-5

9 786140 101265

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف